السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

أحداث ودلالات

قالت الظَّعينةُ: لا تَلاوَموا، فإنِي رأيتُ وجْهَ رجُلٍ لم يكُنْ لِيُخفِرَكم [يَخدَعُكم]، ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ بالقمَرِ ليلةَ البدرِ مِن وجهِه

مُحمَّد السَّيِّد حسَن

الجزء الأول

السِّيرة النَّبويـــّة

أحداث ودلالات

الشيخ

محمد السيد حسن محمد

بطاقة الكتاب

اســـم الكتـــاب:	السيرة النبوية (أحداث ودلالات – الجزء الأول)
تـــــــــأليف:	الشيخ محمد السيد حسن محمد
غـــــــلاف:	عبد الله أحمد
تـــدقيق لغــوي:	الشيخ محمد السيد حسن محمد
تنســــــــيق:	منى الغريب
الطبعـــــــــة:	الثانية
المقــــــــاس:	١٧*٢٤
رقـــم الإيـــداع:	٢٧٩٦٢ /٢٠٢٤
التـرقيم الـدولي:	٩٧٨-٩٧٧-٦٩٣٧-٩٦-٢

السيرةالنبويـــة

أحـــداث ودلالات

(الجـــزء الأول)

الشيخ محمد السيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد وتقديم

إن السيرة النبوية ليست كتابا مفتوحا للتسلي وقضاء وقت فراغ. وبقدر ما إنها سجل هدى، وموسوعة فقه، وبيان، وعلم، وهدي، ونبراس تقوى، وفلاح، وبرهان سداد، ورشاد، وسفر صلاح، يبين لنا منه شخصية تاريخية علت، وفرد رباني سما، وإنما كان يعمل هذا النبي العربي الأمي القرشي محمد ﷺ نفسه، بنور وحي أوتيه، وبهدي السماء أبلغه، وقد كان يتنزل عليه المرة إثر المرة؛ ولبيان منهج يكون صالحا لهذه الأمم، ومن يومه، وإلى أن تقوم الساعة، وما ذلك أيضا، وإلا أنه خاتم النبيين، وإمام المرسلين وخاتمهم أيضا؛ ولذلك فقد كان معتبرا أن يأتي بمنهج يصلح للبشرية، وفي كل أطوارها، وإلى يوم اللقاء المحتوم، لقاء الله تعالى الملك الحق المبين.

ومن هذا الاعتبار كان لزاما أن يتميز هذا النبي محمد ﷺ نفسه، وكما كان معتبرا أن يتميز منهجه، وقد جاء به أيضا. وقولنا هذا ليس يعد، وإلا تأكيدا من كونه كان من أولي العزم من الرسل.

وإنما كان كونه كذلكم، وقد أتى على الأمم، ومن شرودها، واستدبارها، وتنكرها، وشركها، برسالة هي خاتم الرسالات، وقد هل على البشرية، ويوم ضياعها، وبنبوة هي خاتمة النبوات أيضا.

ومنه كان منهجه عجبا رشدا، وحين أتى على كل ما كانت، وتكون، وما سوف يؤول من أحوال الناس، وأقضيتهم، وحاجاتهم.

وهذه مسألة ألمعية! تميزت بها سيرة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولو كانت أحداثها قد وقعت في هذا الماضي، الذي يسمونه

سحيقا، عميقا، وبكأنه ماثل من بين أيدينا، ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، هدى للناس، وبينات من الهدى، والفرقان!

وإنما كان كونه كذلكم، ومما شارك فيه إخوانه من النبيين، أولي العزم من الرسل-عليهم الصلوات والتسليمات والبركات- أيضا، ولما مثلت كل فترة من فترات أدائهم استثناء من هذا السجل التاريخي الكريم، والذي يمكن تصوره.

وكم قد عانى هذا نبي الله تعالى نوح عليه السلام طيلة تسعمائة وخمسين عاما كاملة! وحين يتنزل في شأنه قرآن مبين، وأنه ما آمن معه إلا قليل! وفي برهان آخر، أن المسألة ليست من كثرة الأتباع، وإنما هي مما عليه أولاء الأتباع!

وهذا نبي الله تعالى وخليله إبراهيم عليه السلام، وكم جاهد في الله تعالى حق جهاده، وحين أخذ على عاتقه تكسير أصنام قومه، وإذ كان من مقدمة من يعبدونها هذا والده! وفي لفتة شجية من لفتات هذا الدين، وحين يكون ولاؤه وبراؤه على أساس من الدين صحيح، وحين تعلو وشيجة التوحيد والعقيدة على أية وشيجة أخرى! وكما قد خلد هذه العقيدة هذا القرآن الحكيم، ومن قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

ولكن هذا الذي حدث أيضا، وحين كان قد واجه مجتمعا مُجْمِعًا على عبادة الأصنام، وها هو أبوه الذي هو من نسله كان أولهم! وهاهم يقذفونه في النار! ولهذا كان من عداد أولي العزم من الرسل أيضا؛ ولما مثلته فترته من مواجهة مجتمع الشر بأسره!

وكذا هذا نبي الله تعالى موسى عليه السلام، وقد واجه مجتمعا هشا؛ من شركه! طاغيا؛ من كفره! مستكبرا؛ من غيه! وحين تنادى كبيرهم يوما؛ ومن صلفه! من قوله الله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦و٣٧].

وكذا نبي الله تعالى عيسى عليه السلام، وحين كان الإعجاز الذي قد جاء به.

هذا، وقد كان مجيئه إلى دنيا الناس، وعلى غير ما سنن من أبوين اثنين، وإنما من أم ودون أب! وبل أمه عليها السلام، ولما قد كان من أمره تعالى، ومن قوله تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]. وهو ذلكم كلامه في المهد صبيا أيضا، وحين قال تعالى عن لسانه عليه السلام آية خالدة وإعجازا فريدا! ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

وقد كان يجب أن يتوجه بهذا إلى كونه إعجازا ربانيا صرفا، ونقف به عند هذا الحد، ومن ثم يكون ذلكم داعيا إلى صرف الهمم نحو هذا الرب الكريم المتعال؛ ليعبد واحدا أحدا فردا صمدا لم يلد لم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وليس أن يشرك معه هذا نبيه عيسى عليه السلام أو ما سواه، وقد كان الله تعالى هو المنان بعطيته عليه- عليه السلام-،

وعلى أمه الصديقة -عليها السلام-، وعلى مجتمع كان قد بعثه فيه الله تبارك وتعالى.

وأقول: إن هذا النبي محمد ﷺ؛ ومما أنف، وغيرٌ مما أنف، وإنما كانت تعد فترة نبوته ممزوجة بهذا الذي أطبق عليه التاريخ منصفا، والتاريخ المجرد عادة منصف! ولما قام به هذا النبي محمد ﷺ.

ونحن الآن من بين يدي تاريخ منصف مجرد، سقناه، واستلهمنا منه، معينا، وزادا، ورشدا، ومن خلال الوقوف على ما يمكن أن نعده زادا على الطريق لأصحاب الدعوات، وكل منا صاحب دعوة، ولا شك، في نفسه، ومحيطه الذي يعيش فيه، ومستلهما في ذلكم هذا الهدي النبوي الكريم، ولا سيما أن التاريخ كثيرا، وإلا أنه يعيد نفس الأحداث، ومع اختلاف في شخوصها وتداعياتها، ولكن يجمعها هذا الإرث البشري الضارب في العداء للحق، وهذا الصبر الذي تحلى به أصحاب الدعوات في مواجهتها، أخذا بأيدي الناس- كل الناس- إلى الهدى والصراط المستقيم، وهم إذ يفعلون هذا، وإنما يجدون من ذلك، وفيه تعبدا لله تعالى! وعملا له سبحانه!

وهذه الدراسة التاريخية التحليلية لحياة هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن خلال الفترة، ومن مولده ﷺ، وإلى السنة الحادية عشرة لهجرته ﷺ، وهي السنة التي كان بها كمال رحلته، وتمام سيرته، وحين كان قد لبى النداء، وأجاب الملك، وإلى الرفيق الأعلى، وإلى جبريل ننعاه، وإلى رب كريم سوف يلقاه!

وهذا الذي عناه هذا البحث في هذه السيرة النبوية المباركة، كيما يكون سفرا خالدا، يقدم كاتبه بين يدي ربه، وهذا عمل رجاه متقبلا، وإذ ليس للنفس فيه من نصيب، أو هكذا كان مؤملا، وأن ينزع الله تعالى

حظا كان للنفس فيه، ولو شيئا، وهو سبحانه المرجو، وإنه تعالى هو المدعو، وأن يلهم كاتبه الشهادة عند الممات، وأن يثبته عند الصراط، وكل قارئ كريم.

ولكن هذه السيرة النبوية المباركة، ليست مختلفة عما سواها من سير، وإلا، وكما اختلاف هذا النبي ﷺ، وقومه شخوصا وأغيارا، وإن من حيث المواجهة العنيدة للحق، وإن من حيث إصراره، والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم، والذين كان من وصفهم، وكما قد حكى القرآن العظيم.

ولكنه يظل هذا الفارق قائما، وحين كانت منطقة جزيرة العرب هذه عاجة بألوان الأصنام، وأشكالها، وأصنافها، وجاثم على كثبانها هذا الركام الهائل! من العادات، والتقاليد، والموروثات، والتي واجهها هذا الدين، ومن حسم، وإذ ليس يصلح في الحق من مداهنة، أو مخادعة، وإذ ليس يليق، ومن كونها حقا مماراة أو مصانعة!

ولكنه وفرق بين المراءاة، والملاينة، والمخادعة، وهذا شين لاريب فيه، وبين مجاراة، أو مداراة، وقد كان منهما الحكمة، وإن الحكمة لضالة المؤمن، وحيثما وجدها فكان أحق بها.

وهو الذي نستلهم منه ذلكم العطاء الخالد، ولأداء ما أمره به ربه تعالى، بل وعلى ما ائتمنه عليه مولاه تعالى الحق المبين.

وهذان أمران حاسمان في حياة العبد المسلم، وحين يجد من ذات نفسه ذلكم التكليف الرباني الكريم، وعلى القيام به شرعة ومنهاجا، من ذات نفسه التي بين جنبيه، ومن ذات ذلكم السوق الداخلي، والذي يأطره على الانقياد، ويخضعه للاستسلام! وأن هذا الدين- وهذه طبيعته- عمل خلاب، وعمل جذاب معا، من ثم كان القيام على أداء

هذه الرسالة ممهورا بما سوف يجده قارئ كريم، حاملا بين صفحاته الهدى، والنور، والسرور، والحبور، والمتعة، والموعظة البليغة، والحكمة المؤثرة البليغة، والطرفة، والنكتة، وحين يرافق نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وكما قد رافقناه طيلة هذه البحث لحظة بلحظة، وكم تمنينا أن نرافقه أبدا! وهذا الذي يحدونا من حسن ظن بالله تعالى ربنا الرحمن، وأن يلحقنا به في دار كرامته، وكل قارئ، أو مسلم غير قارئ لكتابنا هذا، والمدبج بأطراف من الحكمة، والمقشب بشذور من البيان.

وهذا السفر من هذه السيرة النبوية المباركة، وقد أسميناه "السيرة النبوية أحداث ودلالات"، ومنه فذكر الحدث المجرد، وهذا الذي ذكره التاريخ، ولكن دلالاته وظلاله تظل معينا غدقا، ولكل جيل، ولن يحرم عبد هذه الدلالات، ومثلها، ومثلها أيضا، ولكن هذا الذي رأيت أن أفيضه، ومشاركة للتاريخ في إبراز ما كان عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، من صبر، ومثابرة، ورشد، وعزم كريم، وعلى الوصول إلى الهدف المنشود، وأيا ما كانت الصعوبات والأشواك في طريق ذلك، وإنك لتراه قد عُبِّدَ، ويكأنك لتجدنه قد ذلل، ومن حيث توفيق مولاك، وأخذه بيدك، وهداك، ورعاك، وإلى سبيل الخير، والهدى، والصلاح، ويوم أن قد علم الله تعالى في الناس خيرا، وحيث راحوا يتلمسون رضا ربهم؛ وابتغاء أجره ورضاه. وإنْ أجرُ عاملٍ في ذلك إلا على الله تعالى، وكما قال تعالى ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]

بذور الفكرة

ومنذ ما يربو على حوالي أربعين سنة! والنفس تتوق إلى أن تشارك مشاركتها، وعملا رجوته متقبلا؛ وإنما كان لإبراز هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويكأنك تراه، وتعيش معه الحدث لحظة بلحظة. وكذا وقد أخذت بتلابيبك، وإلى ما وراء الحدث؛ لتسبر معي بعضا من غور الحكمة! ومن أدب البيان، ومن شجي البرهان، ومن وقفات عريضة، ومن أمام أحداث الزمان!

وكذلك من خلال العمل الدعوي، والذي ولا شك له قيمته في ربط الأحداث، ومعايشتها، ومدى تطابقها مع واقع عاشه هذا النبي محمد ﷺ، ومن ثم معالجته مما جد من أحداث، وليست تخرج عن مألوف ما عايشه النبيون عليهم الصلوات والتسليمات والبركات، من قبل؛ ولأنه وكما قلنا فإن التاريخ يعيد نفسه، وعلى قدر من التباين؛ ولاختلاف الزمن والعصر ومكان الحدث، ومن ثم حسن تأويله وليتطابق مع كل حدث.

رحلتي مع السيرة النبوية المباركة

وعلى أن هذا السيرة النبوية المباركة، وحين كانت بوادر وبواكير رحلتها الندية الزكية البهية، ويوم أن كنت طالبا في السنة الأولى من كلية الحقوق، وقد أعلنت وزارة الثقافة والإعلام عن مسابقة في كتابة بحث عن سيرة نبينا محمد ﷺ، وإذ تجشمت يومها خوض الغمار، وشق العباب، ومخر الأمواج، وأخذت على عاتقي المشاركة، وإن كنت يومها لست من الحمل قدرا زهيدا!

وإلا أنها الرغبة والمحبة، ولما كانت المفاجاة، أنهم أعلنوا نتيجة المسابقة، وأنني كنت الحائز على المركز الثاني على محافظة الدقهلية يومها!

وإلا أن الطريف الجميل، أنها الجائزة كانت مصحفا شريفا، فأضاف فألا حسنا إلى فأل حسن آخر، وليكتنفني هذا الشعور، والذي ما زال مظللا على أركاني، ومن ظلاله الوارفة، الهادئة، الساكنة، الهادرة، ومن يومها كان العزم على الانتباه، وإلى كنوز هذه السيرة.

ومن ثم كانت رحلة ابتداء القراءة، والاطلاع، والمدارسة، والبحث، والدرس، في سيرة نبينا محمد ﷺ، ومن كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل، ثم تبعه كتاب فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي، وكتاب فقه السيرة للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، وكتاب كتاب فقه السيرة النبوية للشيخ محمد منير الغضبان، وكتاب الرحيق المختوم للشيخ المباركفوري، وكتاب سيرة ابن هشام، وكتاب الفصول في سيرة الرسول للحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، وكتاب مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكتاب السيرة النبوية للشيخ الصلابي، وكتاب فقه السيرة للشيخ عبد الكريم الزيد، وكتاب البداية والنهاية

للإمام العماد الحافظ ابن كثير- رحمهم الله تعالى جميعا- ونفع بعلمهم، ومن حيث كنت تلميذا على موائدهم، ونهلت من علمهم.

وعلى أن الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى، والذي كان قد بعث العزيمة، والفأل الحسن، في روعي، وحين ذكر أنه ليس يحسن بقارئ سيرتنا أنها هذه هي السيرة!!!

وقد أخذت عبارته هذه محمل جد، وحين خرجت بهذا الشكل المنيف، الرقراق، الشفاف، ولموضوعها وحسبها ذلك. وبحيث وجدتني مضطرا إلى إظهار عمل موسوعي، يشمل هذه السيرة، وما صاحبها، ورافقها، من مواقف رجال حول مائدة هذا النبي محمد ﷺ، ولتخرج بهكذا ثوبها المجندل بجنادل الزكاء والفضل لأولاء صحب كرام بررة، وحين صاحبوا، ورافقوا، وساندوا، وساعدوا، وعاونوا هذا النبي محمدا ﷺ، وحتى استطاع؛ من حسن صحبتهم تلك، أن ينشر دين ربه تعالى مشارق الأرض ومغاربها.

فعليهم جميعا الرضوان، وحين أذكرهم وغيرهم بذاكرة المحبة والعرفان.

وعلى أنني وحين وقفت على مقدمة فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى في تفسيره لكتاب الله تعالى القرآن المجيد، وحين ذكر أن عطاء القرآن الكريم مدد، ليس ينتهي، عند آحاد الناس، وإذ كانت هذه شعلة لي على الطريق، وأن أستنبط، وأن أدرس، وأن أتعلم، وأن أفقه، وأن أستغرق بحثا ودراسة في هذه السيرة النبوية المباركة، تنقيحا، وفحصا، وتنميقا، وكان من نفسي وعقدي وضميري أن الله تعالى لن يخيبني، بل وجدته تعالى نعم المولى ونعم النصير، وحين ألبسني كساء الصبر، والبحث، والدراسة، والنسخ، والكتابة،

والمراجعة، والتحقيق، والتدقيق، والتخريج، وعلى ما سيرى قارئ كريم، خلال رحلته الجميلة مع هذا السفر الكريم.

وعلى أنني أعترف أنني، ولئن كنت ضيفا على موائد علماء، عظماء، فقهاء، نبلاء، وإلا أنني أستبيحهم عذرا عن تقصير، وإذ هو عادة بني آدم؛ ومن جبلتهم، ومن فطرتهم، وإلا أنني أشكرهم، وحين كنت ضيفا على موائدهم أيضا، وحن لم أحرم لهم علما، ولما قد اكتسيت من فقههم فقها، واللذان كانا لهما الفضل، ومن بعد رب الأرباب سبحانه وتعالى، أن خرج هذا السفر، ومن صورته الزكية الندية هذه!

وإنما تنبع زكاته، وأول ما تنبع، وإلا من بركة موضوعه، وهي بركة صاحب السيرة النبوية المباركة العطرة نبينا محمد ﷺ.

الوقت المستغرق

ومنه كان بروز هذا السفر الكريم، ومن خلال البحث، والدراسة، والتحقيق، والتتبع لصحيح السيرة النبوية، وحين كان استغراق أداء هذا العمل، ولما يربو عن الخمسة السنوات، ولمعدل ما يزيد أو يقل أحيانا عن العشر ساعات يوميا. ولجيد الموضوع، ولحسن السيرة، وإنما كان عملنا هذا؛ وليبدو سفرنا هذا، وكما قد أريد له أن يظهر، وكما قد كان مبتغانا به أن يبرز إلى آفاق الوجود، حلة بهية، وكساء قشيبا، وعملا أديبا، وقولا أريبا، ونورا وضياء وبهاء دررا، فينهل منه عالم، ويستقي منه متعلم، وبعبارة صالحة لعالم، وإذ فيها العلم، والدرس، والتحقيق، والتخريج، وملاحة البيان، وصفاء الفكرة، وجيد العبارة، وجدة الإشارة، وإذ ليس يحرم متعلم من سبر غور ما أراد، وحين يلج باب سفرنا هذا، وإلا قد خرج منه برزق علم موفور، وحسبنا أن حاولنا أن نقدم سيرة نبينا محمد ﷺ، وإذ وكأنك تراه!

الأسوة الحسنة

ولو لم يكن من دراساتنا لهذا إلا المعايشة والقدوة الحسنة، وإبرازها هكذا للناس لكفانا ذلك، وقد قدمنا للناس هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، ويكأنهم معه اللحظة اللحظة التي تليها، معينا غدقا، وعملا حسنا متقبلا من هذا النبي محمد ﷺ، وها هو إذ يجود بكله؛ وفي سبيل ربه، ويكأنه تعالى قد عصمه، وإنما ولعدوه كان قد قصمه! وفي برهان آخر ضاف، أن عصمته تعالى لعبيد قائمة، وأن ابتلاءه للعاملين سنة ماضية! وحين قال الله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

التحقيق والتخريج

هذا، وقدمنا في هذه السيرة تحقيقا، وتخريجا للأحاديث الواردة، في كل مسألة تم علاجها، وبحيث ليس يجد القارئ الكريم نفسه مضطرا للبحث عن صحة حديث وردا! وفي مصدر آخرا! أو حتى حديث آخر ضعيف، أو منكر، أو مرسل، أو موضوع، أو ما خلاه، وإلا قد جاء منه علما، وإلا قد أبنت عنه كشفا، وهذا أيضا مما ينضاف إلى اكتساء عملنا هذا بالجدة والموضوعية، ولأن كثيرا من مصادر السيرة قد ذكر فيه الصحيح وغيره، ولربما وفي جل منها لم يشر إلى ذلك. وبحيث يكون القارئ الكريم تواقة نفسه إلى الاطمئنان عما يقرأ، ويذاكر، ويدرس. وها هو الآن بين يدي عمل تأمن له الجانب تماما، والحمد لله تعالى.

وإذ ليس ينكر عمل كهذا، أو أشد طلاوة منه! قد سبقنا إليه غيره! وهذا حق، ولا مرية فيه؛ ولأن الناس، وكما قد أحببنا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وإنهم لمن مصاف المحبين له أيضا!

ويكأني أحسبني قدمت ما رأيته ثوبا قشيبا، وعملا فريدا، وأدبا منيفا، وسيحكي قصته ما يراه كل قارئ كريم أديب، وسيرى وضاءته كل نحرير أريب.

ربط موضوعات السيرة بالواقع المعاش

ويكأن دراسة السيرة معين غدق، ومصدر ليس ينضب، ومن تناولها على وجه الاستنباط من الحدث، ومن ثم محاولة ربطه بمألوفات الناس، ودراساتهم الحديثة، وهو ما جعل هذا البحث- وبحق- فريدا من نوعه، وحين ربط أحداث السيرة النبوية المباركة بعلوم الناس يومهم هذا، وبأحداثها أيضا، وبحيث ليس يكون هناك ذلكم الاختلاف، بل الانسجام في تناول الحدث، ومن ثم ربطه بالواقع؛ ليكون أكثر دلالة وقبولا.

ويكأننا وقفنا على ما سوف يقف عليه قارئ كريم، ولسوف تظل هذه السيرة ميدانا للبحث والتأمل، وكلما جد من حدث، ولتجد له علاجا منها، وله، وعلى مدار الزمان والمكان أيضا.

وقد قاربنا بين مصادر السيرة المختلفة، وليس من باب تعارض فيها، وحاشاها ذلكم، وإنما من باب التحقيق للحدث، ومدى هذه المطابقة، لنخرج بإجماع على صحة ما ذكر عن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومن كثرة هذه المصادر، وعلى اختلاف أمصارها وعصورها وشخوصها.

الاعتماد على صحيح السيرة والسنة

وقد كان العمدة في ذلك، هو الحرص على بيان الصحيح منها، والمعتمد، وإبراز ذلك من مظانه؛ وكيما يقرأ الناس، وعن طمأنينة لما يقرأون. ومن ثم يكون استلهام المعاني وبيانها أوفق، وأوعى، وأيقن، وحين كانت من مبتنى عمل مدبج صحيح!

ولكن إيراد بعض من استدلالات ضعيفة، وإذ كان عملا منا؛ وإلا لبيان ضعفها، وسقمها؛ وكيما يعرف الناس أيضا، ومن ثم فلا يتعورهم نقص من بيان، ولا بتر من برهان!

ويكأن بعضا مما أنف ضعيفا، وإنما جنبا إلى جنب الصحيح منه، وليأتلفا أيضا، ومنه تكون صحته، ومن صحة غيره معه! وعلى أقل حال، يكون الصحيح له مقويا ومعضدا ومعينا.

ويكأن ضعيفا إلى مصاف ضعيف آخر، وحينما يختلف طريق كل منهما، وإنما عدوه من مرتبة الصحيح أيضا؛ ومن ذلك كان منطلقنا، ولعدة من هذا السبيل وردت.

العلم العسكري: ولكن هذه السيرة النبوية المباركة قد منحتنا علوما عسكرية جمة، وإذ رأينا ذلك واضحا، ومن خلال العرض المنيف الشائق لأحداث ذلك، ومن مظانه، ومن غزوات، أو سرايا، كان قد بعثها هذا النبي محمد ﷺ. وهذا أمر جدير بالوقوف عنده، وأمامه؛ وكيما نعرف معيننا العميق في العطاء العسكري، والفضل الميداني الجهادي.

الجوانب الفقهية: ويكأن فقها غزيرا كان ومن وراء كل حدث، مررنا به، وبيناه، ومما قد منَّ به الرحمن، أو قد كان نافعا رأيناه، ولو من غيرنا، فاستلهمناه، ولم نبخل، ومن نسبته إليه حقا، ولم نأل جهدا في

استكناه ما ورائه أيضا؛ ولأن الأفكار تتلاقح، وإنما يخرج من بين لابتيها عسل مصفى، فيه شفاء للناس!

فنون القيادة: ولكن هذه السيرة، وقد صاحبنا فيها نبينا محمدا ﷺ، وها هو قد ضرب المثل الأعلى في القيادة الماهرة، والإدارة الباهرة، وهذا الذي استلهمناه، وسلطنا عليه الضوء اللامع، والبيان الساطع؛ وكيما نبرز للناس عملا آخر ضافيا؛ ولأن أصول القيادة الحسنة كانت عند هذا النبي محمد ﷺ، متوافرة الأركان، ومتناغمة متآلفة البنيان.

وعلى أن أصول الإدارة والحكم، وما صاحبهما، ومما يعوز الناس علمه، وفقهه، وفحصه، ودرسه، وقد كان من إبراز هكذا عمل إداري عبقري لهذا النبي محمد ﷺ، وكذا صحبه الكرام البررة، ما كان داعيا لبيانه، وللوقوف على هديه ومراميه وأطرافه.

ولكن القضاء: وما أدراك ما القضاء! وقد شغل حيزا، ومما يليق به، ومما قد رأينا منه جوانب عديدة، في خلال هذا البحث، ومن وقوف على قضايا وأحكام، كان قد تركها لنا هذا النبي محمد ﷺ، وكذا صحبه الكرام البررة، مائدة غدقا، منها نستلهم التوفيق، والهدى، والرشاد من قضائنا.

ويكأن هذا الجانب القضائي وحده، وإنما يبدو، وأن الرسل الكرام- عليهم الصلوات والتسليمات والبركات- كانوا، ومن جملة ما جاؤوا به، وإنما هو هذا؛ ولأن به انتظام سلك العلاقات، وإنما كان منه إقامة حسن وجيد المعاملات.

ونحسب هذا الاستنباط وافيا، وعندما نقف معا على سلم قواعد القرآن الكريم، وفي هذا الشأن، وحين قال الله تعالى لنبيه داود عليه السلام ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ

وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وعندما خاطب ربنا تعالى نبيه محمدا ﷺ، وحين قال تعالى أيضا ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. وحينما قال، ومن صريح قول لا تلميح فيه ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

المرأة المسلمة: وقد أفردت جوانب عظيمة، في استكناه حقيقة ما علت وسمت به المرأة المسلمة، في هذا الدين، من قامة، ومما أعده لها إسلامها من قيمة. وهذا؛ ولأنه عمل الناس، وقولهم، وفعلهم، وبلاؤهم، وفتنتهم، وكان لزاما إبراز هذا الجانب، ومن حيث قد أتى، وبلا رتوش، تزينه خلابا! ولأنه من نفسه كان جذابا! ويكأنه وعلى ما جاء وأنزل!

الإعجاز الفريد: ولست قد عدمت مواطن الإعجاز، ومن سرد لمواقف، ومن بيان لآية، كانت محلا للاستشهاد، أو حديثا كان معينا للاستئناس والاستدلال، وهو ما كسا هذه السيرة حلتها البهية، وأخرجها هكذا في مائدتها الشذية الشجية.

التفسير البياني: ولم أهمل تفسيرا لآية، كانت محلا للاستشهاد، أو مناطا لسبب نزول، ولموقف، أو حدث، وإنما كان كذلك؛ ولأن السيرة النبوية، والقرآن الحكيم عليهما مدار الإسلام، ومن حيث كانتا هما الثقلين، وحين قال نبينا محمد ﷺ: إني قد خلفت فيكم شيئين لن تضلوا

بعدهما أبدا ما أخذتم بهما، أو عملتم بهما: كتاب الله، وسنتي، [ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض.[1].

علم التاريخ: وإنما حاولنا رصد الحدث، ومن أكثر من مصدر، وكيما يكون شاهدا على صحته، وإذ ليس يمكن اجتماع أمة نبينا محمد ﷺ، وإلا على هدى وفرقان مبين، ولا سيما وحين يتكلمون عن سيرة خاتم النبيين وإمام المرسلين وسيد ولد آدم أجمعين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

علم الأصول: وسيجد قارئ كريم كثيرا من القواعدالكلية الأصولية، والتي هي معين الأحكام الفقهية، وأصلها، وحين أمكن الاستنباط منها، ولما كان أو ما يجد من أحداث.

علم التطبب والدواء: وإنما شرعت فيه، وعلى قدره، ومن طرف خفي؛ ولبيان شمولية هذا الدين، ولا سيما أننا نتكلم عن سيرة نبي، لا شخص عادي، بل هو نبينا محمد ﷺ، وإنما كان هو أبا الطب، والعلاج، والدواء، والأمصال، وأسباب الوقاية، وحين كان من مبادئ الناس أن هذه الوقاية خير من العلاج. وإنما كانت الوقاية، ومن قرآننا حرزا، وشفاءً قبلُ، ومن بعد كل شيء آخرا!

علم الإدارة: وحين قد بلغ بها هذا النبي محمد ﷺ، وصحبه الكرام البررة الغر الميامين، قاعا عميقا، سحيقا، وحين كان منهم هذا القرار الميداني، أو ذاك، ومما يند وصفا، ومما يندر نعتا، ولما سوف يقف عليه قارئ كريم، ومن خلال اطلاعه، ودرسه، وفحصه لسفرنا هذا، إن شاء الله تعالى.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم: ٢/٢٥١. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

البلاغة النبوية! وحين كان هذا النبي العربي الأمي القرشي، ورغم أميته، وإلا أنه كان متضلعا، وأيما تضلع، ومن بلاغته، وإذ هو نفسه هذا النبي محمد ﷺ، وإنما كان قد نشأ في أمة عربية قح! وإذ لا يعتمد ذلك على مدى كتابتهم، أو قراءتهم، وحسب، وإنما على قدر ما كان سجية لهم، وسنحة فيهم! وإنما كان هذا النبي محمد ﷺ، ومنضافا إلى كونه نبيا، ومن كونه عربيا، ومن كونه قد نشأ في بادية بني سعد، وحين ترعرع على البلاغة، والفصاحة، ومن لسان هذا المرأة وزوجها وباديتها! ولما كان طفلا رضيعا، وإنما كان قد رضع العربية! ومثلما كان قد رضع مادة الحياة، وإكسيرها أيضا! وحين أسهبت عنه بيانا، وبلاغة، ومما كان له منهمه أوفر الحظ والنصيب.

ولذا؛ كان من نظرنا حسن بيان ذلك، والتنويه به أيضا.

عمل التخريـج

وإذ ليس يخفى ما يعوزه عمل التخريـج من بذل، وما يكتنفه من جهد، كان؛ ومن أجل أن يخرج سفرنا هذا، وبحيث ليس يحتاج، ومن بعده إلى نظر في حديث، ومن كونه حديثا صحيحا، وإلا بيناه، أو كان ضعيفا، أو موضوعا، أو سواه، وإلا أوضحناه، والحق أن هذا من جملة ما يزين بحثنا هذا، ويجعله من مصاف الدراسات المعتمد عليها، ومن حيث تأصيل البحث، وسبر غوره، ومن حيث العمل على أن يظهر للناس، وإذ ليس يعوزهم، ومن ورائه بحث آخر- وبحق- عن صحة حديث ورد، أو ضعفه أيضا.

العرب بين خيرهم وشرهم!

على أنه كان حسنا، أن نبرز جانب الخير في أولاء العرب، حين كانت فيهم بقية من حنيفية! ولما كانت لديهم بقايا من خلق حسن،

ومن حمى الذمار، ومن وفاء بالعهد، ومن كرم، ومن بذل، ومن إغاثة، ومن قيم وآداب، عرفت عنهم وسطرها التاريخ عنهم!

وإلا أن أولاء العرب، وقد كانوا ومع ذلك يرتكبون شركهم آناء الليل وأطراف النهار، وهم سدنة بيته تعالى الحرام يومهم ذاك!

ودل هذا على أنه ومهمات تكن عند امرئ من خليقة، وإلا أن يعوزها جنبا إلى جنب دين سليم من الشرك وخال من عبودية، وفي آن واحد! وإلا لله تعالى الحق المبين، وإلا كان ما فيه من خلق حسن كريم، وإن حسب! وإلا أنه يجازى به من دنياه، وأما الآخرة، فإن الحساب فيها على شرك العبد أو توحيده أولا!

وإذ كان لزاما إفراد لذلكم باب، ويكأنه كان مقدمة المقدمات، وتمهيد البحوث والاستدلالات، وإنه وإذ كان مبلغ الشر، ونهاية الشرك، وها هو كان قد لابس حياة العربان، وبادية البدوان، ومن حاضرتهم، ومن بواديهم، ومنه كان شروق شمس الإسلام عليهم سببا شميلا فضيلا، ومنه كان لبزوغ نور قمره عليهم ظلا ظليلا!

الانعتاق من التحرر والانفلات من الانغلاق!

هذا وقد كان من منهجنا في هذه السيرة النبوية المباركة، هو ذاك الذي أشرنا إليه قبل، ممهورا بالتحرر! ومن موروثات أليمة! كانت سببا في النظرة لا اللائقة بهذا النبي محمد ﷺ! ولا بالذي جاء به، هدى للعالمين، ونورا ومنارة للسالكين! وبل وإخضاع سيرته ولموروثات الناس! ومما لا دليل عليه! وإن هي إلا تخرصات قوم رأوا من إفكهم أنها تسعى!

وفي ذات الوقت رأينا أنه لا يصح انغلاق على موروث آخر، ولربما أوقعنا في قيد عدم النظر، والمراجعة، والدرس، والتمحيص، والاجتهاد، والربط بين العلائق، والاستنباط.

ولطالما كنا في دائرة الدليل، وما يحتمله، ومن حيث كنا في مساحة الاستنباط، وما يقتضيه، فنحن إذًا في أمان، ومن جهة البحث العلمي المتألق، ومن حلته، وهو ذاك البادي، ومن تاجه، ووسامه، وبهائه، وجماله!

وإن قيل: وما سندكم في هكذا مسعى؟!

وقلت: وأيا ما كان قولنا، رحنا يمنة، أو جئنا يسرة، وإنما نحن حبيسوا الدليل، ومقيدوا البرهان، ولسنا عنه نخرج شيئا!

وإنما هذه سيرة هذا النبي محمد ﷺ، وها هو بين أصحابه يوم بدر، وحين يعالجون مسألة المنزل، وحين يقف الحباب بن المنذر جاهرا برأي سديد، ومن بين يدي هذا النبي محمد ﷺ، وليأخذ بقوله، وليربت على قلبه، ويربط على صدره، ويهدي إلى مشورته.

وها نحن بين أيدينا مسألة خرص النخيل، وما جرى من قوله ﷺ، ومن ثم يقول بقول أصحابه في هذا الشأن، ولأنه قال يومها قولا، رصيدا، تاريخيا، عبقريا: أنتم أعلم بأمور دنياكم.

عمل الحواريين

وهذا الذي تنبغي إليه الإشارة، وحين كان إبراز هكذا عمل الصحب الكرام، سندا لنبيهم، وتبعا لهدي ربهم، وسبيل بارئهم- سبحانه- ولئن كانوا ليسوا يخرجون عنه شيئا ولئن خالجت صدورهم امور ومن قول الجباب بن المنذر رضي الله تعالى عنه يوم بدر: أرأيت

هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

وهذا الذي سار على هديه أولاء الصحب الكرام، عقيدة، ثابتة، راسخة، كان زيها الانقياد، وكان كساؤها الإسلاس! ولهذا جاءنا هذا الدين عنهم سالما من تحريف، ولهكذا وصلنا هذا السبيل القويم نابيا عن انحراف أو تصريف!

ولهذا كان هذا الجيل موسوما عنه بالرضا من ربه، وكفاه له فضلا، وحين سار على الطريق، فلم يعدل، ولم يبدل، ولم يخرج عن قضبانه شيئا!

مكونات سفر السيرة النبوية

وهذا السفر من هذا السيرة النبوية المباركة، وإذ يعد متمثلا ومدبجا من خمسة أجزاء:

وإنما جعلت لكل جزء أبوابا مستقلة، ومن ثم قسمت الباب إلى فصول. ومباحث، وحسب مقتضيات البحث العلمي في هذا الشأن.

ثم دبجت الكتاب بخاتمة، وفيها أهم المراجع، والفهارس، والله تعالى هو المبتغى، وإليه المرجع والمآب.

وإنما كان هذا العمل، والمخرج بصورته هذه، ومن حصيلة مطالعة، وفحص، ودرس، وتحقيق. وكما أنف، لمصادر كثيرة في هذا السيرة النبوية المباركة، ومن مصادر السيرة العديدة، وكتب السنة الكثيرة، وكتب تاريخ الناس، وكذا كتب تفسير كتاب الله تعالى القرآن العظيم، ومن أسفار الأحاديث، ومن شروحات الحهابذة العلماء، ومن تعليقات الفطاحل الفقهاء، وما كان من معنى ذلكم كله، والتي بلغت حدا معقولا، سيجد القارئ الكريم صداه، وكذا، ومن ممنونات البارئ، ومن

عطاءات الخالق، ومن أفضال المتعال! ومن خلال عرضنا لهكذا سيرة، وهدي حسن، لهذا النبي محمد ﷺ، وصحبه الكرام، والذين كانوا معه، دربا واحدا، وسبيلا واحدا، وطريقا واحدا أيضا.

والله الهادي، والمستعان، وبه الثقة، وعليه التكلان، ومنه الرشاد، والسداد، وإليه المرجع والمصير، وهو السميع البصير.

هذا، ولست أنسى، بل أذكر، كل صاحب فضل به، كان ذا منة عليَّ، وإذ أدين له به، وبمثله معه، واعترافا، وإزكاء، ودينا.

ولست بمغادر مكاني هذا، وإلا إطراء لأهلي وأسرتي أيضا؛ ولما صبروا به عليَّ، وحين كنت أتلمس من هاهنا كتابا، أو بحثا، أو دراسة، أو كتابة، أو ملتمسا منهم عونا.

وكان هذا منا إعمالا لمبدأ المناصحة، واستئناسا بأصل المشاورة.

ولما كان منه قيامنا باستخارة ربنا تعالى أن يلهمنا التوفيق من لدنه؛ ولأنه ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود: ٨٨].

وأشير إلى ان هذا العمل وقف لله تعالى. ومن أراد طباعته ونشره تبرعا فإن له ذلك، والله تعالى هو المسؤول، وهو سبحانه خير مجيب، أن يجزي كلا خيرا، على فعله، وأن يجزل له العطاء على قوله.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ﷺ.

وكتبه: محمد السيد حسن محمد. في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ألف وأربع مائة وأربعة وأربعين للهجرة النبوية.

البريد الإلكتروني للمؤلف: Haledsayed٣٩٨@gmail.com

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، وحيث ألهم من رجاه، وسدد من اقتفى سناه، وأرشد من هداه، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه، محمد بن عبد الله، ومن والاه، واتبع ما جاء به عن ربه وأولاه.

وبعد:

هذه هي الطبعة الثانية من كتابنا، المتسم بوسمه، والمرسوم برسمه، والمتوج بتاجه، والموسوم بوسامه، وحين استمد قيمته من موضوعه، نبيا كان رحمة وهدى للعالمين ﷺ.

وليجد فيه قاريء كريم سلواه، وليؤنس به مطلع رشيد خلوته، وليسري به مكلوم جريح مصيبته، وحين قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس ! أيما أحد من المؤمنين أصيب بمصيبة، فليتعز بمصيبته بي، عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحدا من أمتي، لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي.([١]).

المؤلف: محمد السيد حسن محمد.

اليوم الثاني من شهر شعبان ١٤٤٥هـ.

---

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٧٨٧٩

الباب الأول

وفيه فصلان:

الفصل الأول

من بيان حال العرب قبل الإسلام إلى مولد النبي محمد ﷺ

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أحداث موطئة وتمهيد في فترة ما قبل الإسلام

أعلام نبوة ضافية

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال" لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان، يسوق الناس بعصاه. "[(١)] .

وعن ذي مخمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " كان هذا الأمر في حمير، فنزعه الله عز وجل منهم فجعله في قريش، وسيعود إليهم "[(٢)] .

وكان لعبد شمس شعر، بشر فيه بمجيء رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، منه:

سيملك بعدنا ملكا عظيما   نبي لا يرخص في
ويملك بعده منهم ملوك   يدينون العباد بغير

(١) صحيح البخاري: ٣٥١٧
(٢) مسند احمد: ١٦٨٧٣. وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده جيد.

ويملك بعدهم منا ملوك   يصير الملك فينا
ويملك بعد قحطان نبي   تقى، مخبت خير
يسمى أحمدا يا ليت أنى   أعمر بعد مبعثه
فأعضده وأحبوه بنصري   بكل مدجج وبكل
متى يظهر فكونوا ناصريه   ومن يلقاه يبلغه

ضراء من بعد سراء

ونبأ عظيم أن مملكة سبأ، كانت في رغد، وحين كانوا على الجادة، من إيمان وتقوى، إلا أنه تعالى بدل عليهم من سعة إلى ضيق، ومن رغد إلى ضنك، ولما استدبروا الهدى، ولما استنكفوا الصلاح، من وراء ظهورهم، وذلك أنه " كانت مملكة بلقيس في غبطة وأرزاق، وعلى السداد وطريق الرشاد، فلما بدلوا نعمة الله كفرا أحلوا قومهم دار البوار"[٢].

ومنه فإن حفظ منته تعالى ليس يكون إلا بحفظ النعمة، وحفظها إنما يكون بإعمال شرع الله تعالى، واقعا محسوسا، وفعلا موجودا، لا مجرد قول عري عن تأييده عملا.

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ١ /٨
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢ / ١٩٣

جزاء الإعراض

ولما عتت مملكة بلقيس، فقيل إنه تعالى أرسل إليهم اثنى عشر ألف نبي[١]. ولأنه كلما بعدت النجعة؛ زادت مسؤولية الدعاة، وواجباتهم نحو نشر الهدى إشاعة، ونحو الصلاح إذاعة، ولأن كثرة الباطل سبب حلول البلاء، وموجب عموم الشقاء، ولكن ذلك كله ليس مبررا ليأس، وإنه ليس سببا لقنوط.

وقال الله تعالى ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]. ومنه فإن جزاء الإعراض أليم، ومنه فإن النجاة إنما تكون في الاستمساك بحبله تعالى.

وحين أعرضت سبأ عن منهج ربها، فأرسل الله على أصل السد فأرا فعمهم السيل[٢]. ولك أن تتصور فأرا يعطل سدا! وبلا إطلاق رصاصة واحدة! وهذا من طلاقة قدرته تعالى بلا حد يحدها، وبلا قيد يقيدها.

ولما كان منهم إعراضهم، فكان قوله تعالى ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]، وذلك أنه لما هلكت أموالهم، وخربت بلادهم، ارتحلوا منها، وتنقلوا عنها، فتفرقوا في البلاد! ولأن الظلم شر مستطير، وليحذره لبيب!

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ٨/١
(٢) تفسير الثعلبي، الثعلبي: ج ٨ / ٨٣

وكانت طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة، فأخبرت بقرب هلاك بلادهم، فرأوا شاهد ذلك في الفأر الذي سلط على سدهم، فتفرقوا في البلاد[1]!

لكن العمل الصالح له أجره الحسن، وكما أن له عقباه الجميلة أيضا، قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]. ومنه فإن عاقبة المتقين خير أبدا.

ولأنه "كانت المرأة تمر بالمكتل على رأسها فيمتلئ من الثمار مما يتساقط فيه، ولم يكن عندهم دواب مؤذية، لصحة هوائهم وطيب فنائهم[2]" وما كان ذلك واقعا بهم إلا حين حفظوا حدود ربهم، فحفظهم به، حفظا كانت من سببه بلادهم طيبة، ولأنه من كان حافظا لربه وقوفا على أمره فعلا، وعند نهيه تركا، فإنما كان الله تعالى حافظه أيضا.

لكن شكرا لله تعالى موجب زيادة فضله على من شكر، كما قال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]. وهذا هو شكر النعمة، وإنما كان شكرها بإسنادها إلى موجدها وهو الله تعالى، ثم تستعمل ولا تستعمل إلا في خير. وحين ذلك حُقَّ موجب ازديادها، وحَلَّ سبب نمائها.

---

(١) المناقب المزيدية في اخبار الملوك الأسدية، أبو البقاء الحلي: ١٦/١ (بتصرف)، تاريخ ابن خلدون: (٢٥٣/٢).
(٢) السيرة النبوية ابن كثير: ج١/١٠.

لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم

قال الله تعالى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

أخرج الطبراني وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: " لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم ". وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: " لا تسبوا أسعد الحميري، وقال: هو أوّل من كسا الكعبة ". وأخرج ابن المنذر وابن عساكر، عن وهب بن منبه قال: نهى رسول الله ﷺ عن سب أسعد وهو تبع. قيل: وما كان أسعد؟ قال: كان على دين إبراهيم وكان إبراهيم يصلي كل يوم صلاة ولم تكن شريعة"[1].

وقوله ﷺ" لا تسبوا أسعد الحميري فإنه أول من كسا الكعبة " فيه اعتراف بالفضل لصاحبه. وليس ذلك وحسب، وإنما اعتراف به لصاحبه، وبقطع النظر عن كونه مشركا أو مسلما.

أراد تبع إهلاك المدينة، فحذره عالمان يهوديان، فسأل عن السر، فأخبراه أنها مُهَاجَرُ نبي قادم من قريش، فلما بعث كانوا أول كافر به!

أوحت هذيل إلى تبع بإهلاك الكعبة لعلمهم أنه هالك إذا فعل! وحذره اليهوديان، وأمراه أن يعظمه، لأنه بيت الله الأوحد في الأرض، وحين جاءهم النبي محمد ﷺ بالإسلام كانوا أول كافر به!

منعت قريش هذيلا من الكعبة، لأن أهله حالوا بينهم وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله، وبالدماء التي يهريقون عنده، وهم نجس أهل شرك!

---

(١) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج ٦ / ٣١

عظم تبع الحرم، وكساه بعد أن تبع ملة إبراهيم، ولما عاد الى اليمن منعوه؛ لأنه غير دينه، ونسوا أنه زعيمهم، وهكذا الكفر يعمي البصائر والأبصار.

قال تبع حين أخبره الحبران عن رسول الله ﷺ شعرا:

شهدت على أحمد أنه رسول من الله بارى النسم.

كانت العرب ترجم قبر أبي رغال من ثقيف!

وقفت ثقيف موقفا مخجلا، عندما أعلنوا طاعتهم لأبرهة، وكأن البيت ليس

بيتهم! وهذا هو موقف المرجفين أبدا!

وحيث كان من شنيع صنيعهم أنهم أرسلوا أبا رغال دليلاً لأبرهة إلى الكعبة لهدمها!

ولما مات جعلت العرب ترجم قبره! ومنه فإن السيرة الحسنة لطف من الله تعالى.

"وأبو رغال كان رجلا منهم، وكان يمتنع بالحرم، فلما خرج منه أصابه حجر فقتله، وأن رسول الله ﷺ قال لأصحابه " وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب " فحفروا فوجدوهما قال وهو أبو ثقيف"[1]. وفيه علم آخر من أعلام نبوة نبينا محمد ﷺ.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير : ج / ٢١٣.

هذا مشرك يتحدى أبرهة المشرك!

علم الكناني نية أبرهة هدم الكعبة، وكان مشركا، فذهب وقعد في كنيسته التي بناها باليمن تحديا لأبرهة. "فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي غضب رجل من النسأة من كنانة" [1]. ومنه فإن الحق الذي تؤمن به يرخص دونه كل شيء.

اغتاظ أبرهة من كيد الكناني، فجهز جيشا لهدم الكعبة، فأعظمت قريش أمرها لترده. ولقد كانت لديهم بقية من دين إبراهيم عليه السلام، وكان منه تعظيم حرمه تعالى، وإن كانوا قد اضمحلت لديهم أصول الحنيفية من التوحيد والعقيدة في الله تعالى، ولكن تعظيمهم شعائر الله على هكذا نحو، ولئن ظل باقيا فيهم، إلا أنه لم يشفع لهم؛ وذلك لشركهم، والله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا. وذلك كما قال تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الأنعام: ١٣٦].

و يستفاد من إعظام قريش أمرها أن العبرة ليست بالقوة المادية؛ ولأن الليث يهرب أمام الهرا! وإنما القوة فيما يملك الإنسان من إيمان، يدفعه إلى الاستبسال.

ودلالة على أن أمر التوحيد كان قائما له سوقه، وإن بنفر قليل؛ ولأن" قبرا حفر بصنعاء فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضة مكتوب

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢ / ٢١٢

بالذهب، وفيه هذا قبر لميس وحبى ابنتي تبع ماتتا وهما تشهدان ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما "[١]!

التعليل والتأويل في خبر عبد المطلب يوم طير أبابيل

كان ظن أبرهة الحبشي يوم عزمه على هدم الكعبة البيت الحرام، في عبد المطلب جد نبينا محمد ﷺ مثار أخذ ورد، وحين اتهم عبد المطلب بخوار عقد، ولما أن كان منه هكذا رده على أبرهة!

ونظرة أولية تبين عتوا من أبرهة! وتبصرة ابتدائية موازية أن ثقة بوعده تعالى من عبد المطلب! ولو كان مشركا؛ ولأنه الله تعالى قال ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وبه فليس يعني شرك أنه صاحبه خوار من يقين! أو أن الله تعالى تارك بيته، ولو من هزال الناس أجمعين!

وأعالجه في عشر مسائل:

المسألة الأولى: موقف عبد المطلب من عزم أبرهة هدم الكعبة.

المسألة الثانية: علم نبوة ضاف!

المسألة الثالثة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

المسألة الرابعة: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب.

المسألة الخامسة: لا طبقية في ديننا!

المسألة السادسة: الكثرة ليست دليل نصرة.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٢/٢٠٤

المسألة السابعة: نظرة القرآن الكريم إلى الكثرة.

المسألة الثامنة: التوحيد أولا!

المسألة التاسعة: القلة سنة ماضية.

المسألة العاشرة: أمتنا أمة قائدة رائدة.

المسألة الأولى: موقف عبد المطلب من عزم أبرهة هدم الكعبة

حين أرسل أبرهة رسوله حناطة الحميري؛ لمقابلة سيد قريش، واستطلاع أمره في خصوص عزمه بغزو الكعبة وهدمها، فقال عبد المطلب "والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، أو كما قال، فان يمنعه، فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه، فو الله ما عندنا من دفع عنه" [(١)].

ولئن كان هذا هو قول عبد المطلب، وإذ وازن بين موازين القوى البشرية، وهذا عمل صالح، وألا يورط الناس أنفسهم في مجابهة خاسرة، وحين ليسوا مدججين بأسباب القوة المادية، وإذ كانت منه تعالى أمرا مبينا، ومن قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولئن كان هذا هو قول عبد المطلب، وقد علم أن الله مانع بيته. وهو قول، وإن بدا منه- ظاهره- تقاعس عن الدفاع دون بيته تعالى

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ١ / ٥٥٣

المحرم، ولاعتبارات تاريخ قريش في ذلك، وأنه إنما كانت ترى في ذلك شرفها، إلا أنه يمكن القول بأنه، وأمام هذا الزحف الجارف لجيش أبرهة الحبشي، والتي ربما رآها البعض دليلا على تقاعسه، وانهزامه، وانخذاله، وإلا أنها تنبئ عن عقيدة له في الله تعالى قوية، وأنه تعالى مانع بيته. ورغم شرك عبد المطلب ذاك! ومنضافا إليه هكذا- وكما أنف- عامل موازين القوى المادية بامتياز!

وهذا هو الذي بدا من رد عبد المطلب على أبرهة، وحين اندهش من رده عليه، وحين أصاب أبرهة مائتي بعير لعبد المطلب، وفي اختبار ماكر لمدى الفعل ورد الفعل! عمل عسكري أيضا، وبه يختبر مدى رد الفعل المعاكس! وهذا فقه عسكري معهود أبدا أيضا. وذلك أنه قال" قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير، قد أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه، قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه" (١).

وهذا قول فيه بقية فطرة كانت عليها قريش في ربها سبحانه، وليس يستغرب؛ لأنها بقية من ملة نبي الله تعالى إبراهيم عليه السلام، الذي كان له صداه، في بلد الله تعالى الأمين، داعيا بالحق، وبه يصدع، ويصدح، آناء الليل، وأطراف النهار.

وهذا ما يؤيده نداؤه لقريش أجمعها؛ أن تخرج؛ انتظارا لما سوف يحل بأبرهة وجيشه، وحين اتخذوا قرار تنفيذ هجومهم على الكعبة! ثقة بوعده تعالى، وأنه لن يخلي بيته! وذلك أنه " انصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال والشعاب؛ تخوفا عليهم معرة الجيش، ثم قام عبد

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ١ / ٥٥٣

المطلب، فأخذ بحلقة الباب، باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش، يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده" [(١)].

ولما وجهوا الفيل، وكان يدعى محمودا، إلى مكة، همس أحد أهل مكة، وهو نفيل بن حبيب بأذنه، وقال: ابرك محمود وارجع راشدا من حيث أتيت، فإنك في بلد الله الحرام، فبرك الفيل [(٢)]!

وهذا في حد ذاته إعجاز ضارب! وحين يبرك الفيل محمود! ويرجع القهقري عن هدم بيت الله تعالى الكعبة البيت الحرام! آية أخرى! وقد كان منها عود جيش أبرهة خاسئا، وحين قد رأي أبرهة هذا بعيني رأسه، أو خبرا عن معاينة، أن هذا الذي حدث لفيله الذي أرسله! ويكأنه هذا؛ ومن حماقات الصادين! ويكأنه؛ ومن حمق المعاندين! ويكأنه؛ ومن سفه المستكبرين! وحين يعمي الله تعالى بصائرهم عن الهدى! وليكتمل فصل النكال! ولتكون آية للمؤمنين!

وهذا أمر مشاهد!

وهذا يدلنا على أن قريشا قاطبة كان تحمل نفس شعور الثقة بالله تعالى، وأنه دافع عن بيته المحرم، وعلى كل حال، فإن هذه عقيدة في الله تعالى، تشبه اليقين، بل إنه اليقين نفسه، لولا ما شابها من شرك، ولولا ما خالطها من هوس عبادة الأوثان! وهذا الذي يقف عنده البصير خائفا راجفا وجلا! وإن ملابسة الشرك لا تغني عن صاحبها شيئا، وكما كان حال قريش يومها ذلك! ولأنه الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ١ / ٥٥٤
( ) البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٢ / ٢١٦
(٢) المرجع السابق: ج ٢ / ٢١٦

بل جاء الخطاب حاسما، ولذات هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين بعث، ولم يبعث؛ وإلا لإزاحة الشرك والمشركين، وإلا لتمكين التوحيد والموحدين، وإقامة ركيزة العقيدة، وإلا لتأسيس جماعة العاملين عليها والقائمين. وفي قول بليغ، أدى البلاغة، والإعجاز، وكما أنه أقام النصفة، والعدل، والتأديب، والتوجيه، والتعليم، وحين عُلِّمَ هذا النبي محمد ﷺ أحسن تعليم، ولما أدب غير تأديب، ولما نزل فيه قرآن حكيم، وذكر مبين، وحين قال الله تعالى، مخاطبا إياه، وفي لفتة قرآنية حانية مجيدة ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٣ و ٤]. وحين كان من شأن هذا القرآن العظيم، وفي ذات الوقت والحين، وأنه لم يجامل في هذا التوحيد أحدا من العالمين، وأوله هذا النبي محمد ﷺ الصادق الأمين، والذي جاء أول ما جاء، وإلا به، وله، وحين قال الله تعالى أحكم الحاكمين ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وكان من دلائل القدرة، وآيات الإعجاز، أنهم حين أخذوا يوجهون فيلهم، الى الكعبة فيأبى! وإذا وجهوه إلى غيرها توجه!

وأرسل الله عليهم طيرا أبابيل، كثيرة، شتى، متتابعة، مجتمعة، تأتي من هاهنا، ومن هاهنا!

وإذ كان ومن وصفها، ووسمها، ونعتها أيضا، أنها كانت تأتيهم من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، ولا يصيب منهم أحدا إلا هلك [1]. وهو ما نفيده أنه حين كان الإنسان عبدا لله تعالى، فإنه سبحانه مانعه، وكما قد منع بيته الكعبة البيت

(١) تفسير ابن كثير، ط العلمية، ابن كثير: ج٨/٤٦١

الحرام. ولأنه تعالى قال أيضا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

وهذا هو نبينا محمد ﷺ وقد نصبوا المشركون له الشباك غير مرة! وكيما ينالوا منه، وفي أقصوصة تحمل من معاني الإعجاز والتحدي، ما به يخشع قلب، وينيب فؤاد، ويلين لب، ويستكين جنان، وإلى أن الله تعالى له أقدراه الحاسمة، الجادة، الحازمة، والتي ينكفئ أمامها كل عتو مستكبر جبار!

وانظر قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وكذا قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وعلى أن هذا الذي أنف، وإذ يمثل إعجازا لهذا القرآن المجيد، وحين قد أعلن عن تحدي القوم جهرة! أن يثبتوا هذا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، أو يقتلوه، أو يخرجوه، وإلا أنه تعالى قد كشف عنه ضرهم، ولما رأينا هذا النبي محمدا ﷺ، وهو إذ يخرج، ومن بين أيديهم، وهذا وقفة السماء، وحين جعل الله تعالى من بين أيديهم سدا، ومن خلفهم سدا! وجعل على أبصارهم غشاوة، بل أغشاهم هم أنفسهم، فهم لايبصرون! وعلى حد ما قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]. وها نحن قد رأيناه يهاجر سالما! ويصل إلى يثرب غانما! وها نحن قد رأيناه يموت- بأبي وأمي ونفسي هو نبينا محمد ﷺ، رسول هدى، ونبي رحمة، وداعية إلف، وسلام، ومودة، وعفو، وصلاح، وإصلاح- وعلى فرش موته، آية، وبرهانا، ودليلا على إعجاز أنف ذكره!

فعن عكرمة قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا... إلى قوله فهم لا يبصرون قال: فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو، أين هو؟ لا يبصره [١].

المسألة الثانية: علم نبوة ضاف!

وكذا قول هذا النبي محمد ﷺ، وفي أشد ما كان أمره، ومواجهته، وصبره، وتحمله، وإلا أن اليقين كان له رداء، وكساء، ولباسا، وحين توفيت زوجه خديجة وعمه أبو طالب، وحين تجرأت عليه قريش؛ من صلفها وعدوانها، وعندها: اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابا. فحدثني هشام بن عروة عن أبيه. قال: فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته تغسله وتبكي، ورسول الله ﷺ يقول: لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك! وها قد منعه مولاه، وها قد ارتد معاندوه على أعقابهم، وهو ما نعده علم نبوة ضافيا! ومن أعلام نبوة هذا النبي محمد ﷺ! وإلا فقد كان يمكنهم نيل منه قتلا! وهو الأمر الذي يبقى حجة دامغة، وعلى مدار الزمان والمكان، وعلى نبوة هذا النبي محمد ﷺ؛ ومما أنف من قرآن، ومما سلف مما رواه أهل السير والبيان.

---

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢٢ / ١٨٣

المسألة الثالثة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وإذ كان الشأن من جيش أبرهة ذاك أنهم: خرجوا يتساقطون ويهلكون، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم، يسقط أنملة أنملة، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه [١]. وهذا جزاء عيانا لكل عتو جواظ متكبر جبار!

وكم حكى التاريخ فصولا من ذلك!

إن ما فعله الله تعالى بأصحاب الفيل ليس نصرة لقريش على نصارى الحبشة وحسب، فقد كانوا أقرب دينا من مشركي قريش! ولأنهم أهل كتاب! وإنما هو نصر للبيت الحرام، وتوطئة ببعثته صلى الله عليه وسلم، أو إن شئت قلت: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، ولما كانوا في حرمه تعالى، فأكرموا لكرمه. وهذا أيضا باب نافع في مسألة الولاية، لينظر أقرب فأقرب، وعلى حسبها تنعقد ولاية، ولو من نوع.

وعلى أن هزيمة أولئك الغزاة، ومن أهل الكتاب، وإنما يرغمهم ربهم خذلانا؛ وحين هكذا كانت جرأتهم على محارمه تعالى! ولأنه سبحانه يغار! وأشد ما تكون غيرته! وحين تنتهك حرماته! وإذ كان بيته مقدمها، وبه تذل أعناق الغزاة، العتاة، الجبابرة، ولو كانوا أهل كتاب، أو كان غيرهم يوما!

ولأن فعلهم هذا كان ظلما، وتعديا، وتجبرا، لا ومن كونه كان على بيته تعالى البيت الحرام الكعبة المشرفة وحسب، وإنما كان من حرماته تعالى أيضا، هو أمان الناس في أوطانهم، وأمنهم في بلدانهم، واحترام حقوقهم، وآدميتهم، وإنسانيتهم، وإذ كان فعل أبرهة هذا؛ وهو ذلكم

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢ / ٢١٧

من صلف، ومن كبر، ومن عتو، ومن تجبر، ومن غزوهم بيتا لله تعالى أولا، ومن ثم كان غزوهم لبلاد ليست من بلادهم من شيء، وليسوا به أصحاب حق، ولو من وجه واحدا! وبه كان ذلكم هو جزاء الظلم، والتعدي، وانتهاك الحرمات، آية، وبرهانا، ودليلا على أنه الله تعالى، ولئن أمهل، فإنه سبحانه ليس يهمل يوما! ولأنه تعالى قال ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧].

وإنما يأخذ الله تعالى، وإذا أخذ، فإنما كان أخذه أليما شديدا، وكما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وانظر كيف كانت هلكتهم، أو من سواهم، وعلى عتبات ديارنا، وحين قد أخذهم زبد الباطل، وحين ظنوا أنهم ما لهم من محيص! وإذ تدك حصونهم حصنا حصنا! وأمام زحف الجهاد الأصغر! وحين كان الناس يومهم، وكل أيامهم، وسائر أزمانهم، وحين قد تحلوا بالجهاد الأكبر، جهاد نفوسهم، عن هواها، وتزكيتها بالبر، والتوحيد، والتقوى، والإخبات، والرضا، والسماحة، والقنوت، والخشعان، والخضعان، لهذا الرب، الكريم، الخالق، البارئ، المصور، سبحانه، وسواء كان يومهم هذا، وسائر أيامهم أيضا!

المسألة الرابعة: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب

إنه يفاد من سورة الفيل أن الله تعالى يقتص وينتقم؛ ومن غيرته لدينه، ومحارمه، وشعائره، ومنه شعائره كالكعبة، ومنه ذلكم الظلم، والتعدي، والتجبر، ومنه أولياؤه. فمن عاد وليا لله، بارزه الله! والغلبة لله تعالى أبدا. وهذا هو عقد المسلم، وهو يقينه في ربه الرحمن سبحانه، وحين كانت مبارزته تعالى؛ ومن سفه مبارز، ولما كانت عداوته سبحانه؛ ومن غباء، وفحش، ورعونة، وطيش، وسفل، وحمق معادٍ!

ولأنه جاء في الحديث" إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن؛ يكره الموت، وأنا أكره مساءته (١).

وفيه تحقق ظن قريش بربها، أنه يهلك من تعرض لبيته، فقد أهلك الله جيش أبرهة، وعلى عتبات بيته تعالى المحرم، ويوم أن تنزل من السماء طير أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، وجعلهم؛ ومنه كعصف مأكول! وهكذا في سياق النكرة؛ ومن نكارة فعلهم أيضا! وفي مشهد هكذا خالد إلى يوم الدين، آية، وبرهانا، ودلالة على أنه هكذا يكون انتقام السماء، وحين تنتهك لله تعالى من حرمة! وأن إمهاله تعالى فإنما يعني استدراجه لهكذا من استمرأ التعدي على شعائره تعالى وحرماته، ومن ثم فلا أمان لماكر أو غير ماكر من ذلكم استدراج،

---

(١) صحيح البخاري: ٦٥٠٢

وليأخذه على محمل جد. ولحديث: إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا: " فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون [(١)]"

وقال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١- ٥].

على أن هكذا يقين عبد بربه، وإنه تعالى لا يخذله! ويكأنه ولو كان مشركا! وما بالك ولو كان مسلما لله تعالى حنيفا!

وأفيد هذا، ومن منطوق قوله تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وعلى أنه يبقى الحليم مشدوها أبدا! ويوم كانت هذه غيرة قريش على الكعبة! وهذا شأن محمود! وها هي قد كانت تشرك بربها داخل الكعبة! وشاهده أصنام عددا، كانوا موزعين عليها أقساما! وعصبات، وعصبيات! وحتى في الدينونة! وشاهده أنهم ضربوا مثلا زهيدا، خَرِقًا، متدنيا، تعافه الفطر السوية! وتغض الطرف عنه النسائم الزكية! وحين طافت نساؤهم ببيته تعالى عرايا! وهذا عمل غير صالح! ولا سيما أنهم أولاء كانوا يتغنون بحماية الذمار!

إن قريشا كانت تتغنى بحماية الذمار يومها ذلك! وها هي كانت تطوف نساؤها ببيت ربهم عرايا! وعلى مشهد وإذن منهم! وليس يدري

---

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٤١٣

حليم أية علاقة بين النسك وتعظيمها، وبين هكذا عري كانوا يفعلونه؛ ومن تلبيس وتدليس إبليس تقربا!

وأي ذمار كانوا يتغنون بحمايتها، وها هم أولاء يطوفون ببيت ربهم عرايا؟! وكيف كان فاقد الشيء معطيه يوما؟!

المسألة الخامسة: لا طبقية في ديننا!

وعلى أن هكذا صنيع، ولما كانت قريش وأحلافها منه مستثناة! وبأي طريق، أو سبيل تستثنى قريش وأحلافها، ولما كان منه ذلكم شأن، ومن حيث إنهم جعلوه نسكا؟! وإما على الكل ساريا، وإما عن الجميع ساقطا! وهذا هو مقتضى العدل والنصفة؛ ومن حقوق الإنسان! وحين يتغنى بها قوم آخرون! وقد كان لزعمهم هذا تاريخ نكد! هو هذا الذي بين أيدينا الآن منه طرف!

ولهذا جاء القرآن العظيم فاصلا، حاكما، ضابطا لهكذا شرود عن النصفة، والعدل، والسوية، والجادة، وحين أعلنها عالية، خفاقة، سامية، سامقة، وفي إعلان عام، ومن بيان هام، أن الجميع هكذا مأمور بأخذ الزينة، وعند كل مسجدا! وكذا في إبطال لهكذا عمل شنيع! وحين يزين الشيطان للناس أعمالهم، وها هو يلبس عليهم أن من إمكانهم الخروج من الأمر أو النهي أو كلاهما! ولتخيلاتهم، وأوهامهم، وأساطيرهم- هم-!

وقال الله تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقول بأنه ليس يجوز، ومن زعمهم طواف حول بيته المحرم، وفي لباس، ولربما عصوا الله تعالى فيه! وعلاوة على تساقطه، إلا أن

الاستدلال العقلي يمتهن هكذا تصرفا! وحين لم يجز في الفطر السوية عري، ومقابل زعم كهذا! وإذ ها هم يعرفون ربا، وإذ كان من بقية حنيفية فيهم، بل لزم معرفتهم بها، كونه الغفور الرحمن سبحانه!

وأي جرم ارتكبوه أعظم! وحين كانوا يعبدون حجارة شاهدة على فسادهم، وغيهم، وغياب عقولهم؟!

وهذا، ولو قلنا تماشيا مع فعلهم عريهم! فكان أولى! وحين تعبدهم الشيطان أوثانهم!

لكن تساؤلا: وهل قريش وأحلافها ما كانت تعصي ربها، وحين استثنت نفسها وأحلافها من هكذا عري؟!

وهكذا أيضا ليس يغيب عن سوي فعل سفه! وليس ينطلي على حكيم سفل بله!

المسألة السادسة: الكثرة ليست دليل نصرة

وعلى أن موقفا كهذا الذي سجله التاريخ لعبد المطلب، وإذ كان وحده صاحب قرار جريء، كهذا الذي اتخذ!

وهكذا يشهد التاريخ، وقد سجله له، وأن ذلك متوافق، ومن منطوق قوله تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧و٨]! قاعدة عدل رباني أصيلة، وعمدة نصفة إلهية جليلة، ولما كانت الحكمة ضالة المؤمن، وأينما وجدها، فكان أحق بها.

وهذا من نظر في سير السابقين الغابرين، وهذا من اعتبار من قصص الأولين الماضين.

المسألة السابعة: نظرة القرآن الكريم إلى الكثرة

والكثرة ليست دليلا موجبا للنصرة، ولأن الله تعالى قال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. وكما جاء في خبر إسلام عمرو بن عنبسة: قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر وعبد، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا [١].

والكثرة- الجماهير- كرة في يد الملأ! وهم الذين ينظر إليهم عادة نظرة أخرى! وحين ليسوا سوى أداة تتحرك دمية في يد لا عبي الميدان!

والملأ هم وجوه القوم وأشرافهم ورؤساؤهم. هكذا قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى[٢].

وانظر إلى الملأ من بني إسرائيل، وكيف كان موقف القرآن الحكيم منهم، وحين قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ

---

(١) صحيح مسلم: ٨٣٢
(٢) تفسير الطبري، الطبري: ج٢/٦١٠

مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وعلى أنه يمكن أن يكون الملأ هم القوم أجمعهم؛ ومن كثرتهم، ومنه جاء من معنى الامتلاء. والملأ: الأشراف من الناس، كأنهم ممتلئون شرفا. وقال الزجاج: سموا بذلك لأنهم ممتلئون مما يحتاجون إليه منهم. والملأ في هذه الآية القوم؛ لأن المعنى يقتضيه. والملأ: اسم للجمع كالقوم والرهط. والملأ أيضا: حسن الخلق، ومنه الحديث" أحسنوا الملأ فكلكم سيروى" خرجه مسلم [(١)].

المسألة الثامنة: التوحيد أولا!

إن تعريف الناس بربهم واجب شرعي، وضرورة ابتدائية. فالتفاف الناس على أساس العقيدة ضمان ثبات مواقفهم. وبغيره لا ضمان لبقاء ولاء.

إن القلة الواعية بأمر دينها تعمل مالم تعمله الفئة الكثيرة، وزيادة؛ لأنها عبَّدت نفسها لربها الحق. وكما قال الله تعالى﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ بإذن الله﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وإن الشأن في ميزان ديننا، وإنما يكون على أساس إقامة شرعه، ومنهجه، وسبيله، وطريقته، وأمره، ونهيه، قلت الفئة المناصرة، أو كثرت، فإن هذا شيء آخر.

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٣ / ٢٤٣

إنه عند مواجهة الناس بعقيدة التوحيد، وكما ينبغي، فإنه تظهر معادن قوم تأييدا كأبي بكر. وتتضح خبايا قوم آخرين، نكرانا، وكبرا، وعتوا، وصلفا، كأبي لهب. وانظر إلى قوله " لما نزلت: {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي -لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم؛ أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: {تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب} [1].

إنه كانت نظرة القرآن إلى الكثرة محلا للتأمل، وكما قال الله تعالى ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام: ١١٦].

إن الاغترار بالكثرة كمن خدعه سرابه، فكان كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

كانت النظرة إلى الكثرة برهان خذلان مبين! وحين قد وجدوا خارجين، وعند أول مواجهة ولى القوم أدبارهم مدبرين!

إن تربية على العقيدة لأولاء الجماهير عنوان نصرة، وحين يناديهم المنادي!

---

(١) صحيح البخاري: ٤٧٧٠

إن إضرابا عن تربية أولاء الجماهير على الحق المبين، هو إضراب عن سواعد الجد، ويوم ينادي مناديه! وأول حق مبين وحاديه، هو ذلكم التوحيد، عبادة لله تعالى وحده، ونبذا للشرك، وأيا ما كانت صورته، وهو ذلكم الضامن، وآنئذ، لتوجيه دفتهم إلى أن يكونوا يد الداعية المسلم اليُمْنَى، بل يداه مبسوطتان معا! وحين قد وجب استدعاؤهم يوما! ويوم جاء وقت استنفارهم، فينفرون معه، وبه نفرة واحدة! ويكأن عبد الله بن عمر ماثل أمامنا، يوم أحد، ويكأني به، وهو إذ يرفع من قامته! ليراه النبي ﷺ كبيرا طويلا صالحا! ويكأنه وها هو يوم الخندق حاذ أمامنا، وها هو يجيزه هذا النبي محمد ﷺ؛ آية وبرهانا على كم كان لتعليم الناس عقيدتهم صافية موجبة، أن يسابقوا هم! وأن يسارعوا هم! وليس يعتورهم ولو خورا! ولو كانوا صغارا!

كانت نظرة القرآن إلى الكثرة داعيا إلى عدم الاغترار بها، كما قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وإنه كان من عمل الكثرة غير العاملة أنها سرعان ما تنفض عن داعية الحق، وعند أول اختبار! وهو ما نفيده من قوله تعالى ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

ولهذا السبب؛ ولأنها كانت موجب طاعة، وقبول، وانقياد، وإنما حرص عليها النبي محمد ﷺ، وإذ كانت عنوان ذلك، وبرهانه، وحين أمر،

ومن قوله ﷺ وحين: سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة، فقال: لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا [١].

ومنه كان هذا التحذير السماوي الكريم، ومنه كان هذا النذير القرآن الحكيم، تربية للأمة وصقلا للرعية. وإن الأمر جد! لا هزل فيه! ومن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

ونظرة تأمل أولية، ومن قوله تعالى ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]؛ ليدلك على كم هي القلة التي تمثل قاعدة للانطلاق إلى دعوة الخير والهدى!

وليس يمنع ذلك أن يكون الناس- كل الناس- دعاة خير، يتألفون قلوب القوم. ولأنهم بذلك يتجنبون عداوتهم، ويتأملون نصرتهم، ما أمكنهم ذلك، وهو من حكمة دعوة، وأساس بلاغ. لكن كل ذلك منوط بحذر، ودون مداهنة، وخشية أن يكون على حساب دينه الذي يدين الله تعالى به. وهذا قريب، ومن الذي يسمونه المداراة!

ودل على أهمية القلة لا الكثرة في نجاح حركة الدعوات أن أهل بيعة العقبة الأولى كانوا اثني عشر رجلا، وحين كانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين في بيعة العقبة الثانية. وهذه القاعدة الصلبة المتينة هي التي كانت أساسا تاريخيا لتأسيس مجتمع الخير من الأنصار في يثرب.

بل وحين نستجمع أولاء المهاجرين مع أولاء الأنصار، كلا غرا بررة ميامين، وإذ ولربما استحصلنا على عدد! وإذا قيس بمقاييس العدد لنبهرنا! وكيف كان أولاء هم مؤسسي دولة الإسلام الأولى! وكيف كان

(١) صحيح مسلم: ١٨٦٤

فتحا على أيديهم، كتبه الله تعالى على هذه البشرية، وإذ مازال نورهم يشرق ويسطع، وإذ لا زال ضياؤهم يصدح ويلمع! وإلى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها!

واعتبارٌ بأهمية القلة، لا الكثرة، أن النبي يبعث وحده؛ لمواجهة مجتمع بأسره. ولأنه على يقين من عون ربه وهدايته، كما قال تعالى ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

واعتبار بأهمية القلة، لا الكثرة، قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

إن القلة الواعية بالحق الذي تؤمن به، يمنحها ربها قوة عجيبة في مواجهة الباطل، ولو كان كله في صعيد، وها هي إذ تراها في صعيد واحد أيضا تجابهه، كما قال تعالى ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]. وها هو نبي الله لوط عليه السلام، ولما كان فردا واحدا في مواجهة أمة بأسرها!

إنه حين النظر إلى أية غزوة غزاها نبينا محمد ﷺ، وحين كان الفارق عظيما بين موازين القوى! وماذا نحن قائلون، ومن حساب المسألة، ومن وجهها المادي، ما خرج نبينا ﷺ يوما غازيا، فاتحا، محاربا، مجاهدا!

وهذا أمر ذو رشد! وذلك لأن الباطل بما يحمل من هزال وضعف، ليس يؤهله أن تقوم له قائمة، وفي مواجهة عصبة مؤمنة، أبت إلا اثنتين: إما نصرها المؤزر، وإما شهادتها الحسنى! وهو كما قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن

﴿يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

وليس يقال إنه نبي أو رسول مؤيد؛ وذلك لأن الشأن العام الحاكم ههنا، هو قوله تعالى ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وصدعك بالحق يمنحك به الله تعالى قوى ربانية هائلة، في مواجهة الباطل، لا يعرفها إلا أصحاب الدعوات الصادقة، وهو كما قال تعالى ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

وإيمانك بالحق الذي تحمله، هو زادك لنجاح دعوتك، ولو كنت وحدك، وهو كما قال نبينا محمد ﷺ "ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك على أن تشعلوا لي منها شعلة. يعني الشمس" [(١)].

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني ١ / ١٤٧. وقال الألباني في "السلسلة الصحيحة" ١ / ١٤٧: رواه أبو جعفر البختري في " حديث أبي الفضل أحمد بن ملاعب " (٤٧ / ١ - ٢)و ابن عساكر (١١ / ٣٦٣ / ١، ١٩ / ٤٤ / ٢٠١) من طريق أبي يعلى و غيره كلاهما عن يونس بن بكير أنبأنا طلحة بن يحيى عن موسى بن طلحة حدثني عقيل بن أبي طالب قال : " جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: أرأيت أحمد؟ يؤذينا في نادينا، وفي مسجدنا، فانهه عن أذانا، فقال: يا عقيل، ائتني بمحمد، فذهبت فأتيته به، فقال: يا ابن أخي إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم، وفي مسجدهم، فانته عن ذلك، قال: فلحظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره (وفي رواية: فحلق رسول الله ﷺ ببصره) إلى السماء فقال: فذكره . قال: فقال أبو طالب: ما كذب ابن أخي. فارجعوا " . قلت: وهذا إسناد حسن رجاله كلهم رجال مسلم و في يونس به بكير و طلحة ابن يحيى كلام لا يضر. و أما حديث: " يا عم و الله لو وضعوا الشمس في يميني، و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره أو أهلك فيه ما تركته " . فليس له إسناد ثابت، و لذلك أوردته في " الأحاديث الضعيفة " (٩١٣) .
مسند أحمد، أحمد شاكر: ٢٣٧/٤، وقال المحدث أحمد شاكر: إسناده صحيح.

المسألة التاسعة: القلة سنة ماضية

وانظر كيف نزلت سورة الكهف كاملة، دلالة على أن العبرة ليست بالكثرة، وإنما بالقلة الواعية؛ ولأنه قال تعالى ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. وتتأكد هذه الحقيقة، وحين علمنا أنهم كانوا محصورين بين ثلاثة إلى ثمانية فتيان!

وإنما فعل أهل الكهف فعلاً حسنا، وحين اعتزلوا الشرك والمشركين، وحياة الترف؛ لرضا ربهم سبحانه، وهم قد كانوا قلة تستوحش عيشة الكهوف، وإن عيشة الكهوف لموحشة! لكنه الإيمان! وحين يعمل عمله في قلوب أهله، وهم أولاء المؤمنون حقا؛ ليسوقهم سوقا إلى إرضاء ربهم الحق المبين، ومهما كانت تضحيات في الطريق، وما أعظمها!

فيا لها من قوة إيمان! وحين علمنا أن بيتا واحدا كان يعيش وسط أمة كافرة بأسرها! وانظر إلى قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥،٣٦].

وإذ: يقول تعالى ذكره: فما وجدنا في تلك القرية التي أخرجنا منها من كان فيها من المؤمنين غير بيت من المسلمين، وهو بيت لوط [١].

ودلك عليه أيضا قول نبينا محمد ﷺ من حديث عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما "خير الصحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة" [٢]. وهو دلالة

---

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢٧ / ٤
(٢) مسند أحمد، أحمد شاكر: ٢٣٧/٤، وقال المحدث أحمد شاكر: إسناده صحيح.

على أن البركة في القليل، وإذا تضافرت على شرطها إيمانا وتقوى وسيرا على جادة السبيل، واذا لم يتوافر الكثير على شرطه، والشرط هو نظام أهل الكهف وبلال!

لم يضرب الله تعالى امرأة فرعون مثلا، إلا لعظم شأن فعلها، وحين واجهت مجتمعا بأكمله، وفي القلب منه زوجها الفرعون! وانظر إلى قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]. إن أقل القلة تصنع التاريخ!

إن غثاء السيل زبدا! وحين ليس ينكر منكرا، ولا يعرف معروفا، وحين كان سطرا من أحبارا! ليست تزيد الكلام إلا فسادا! وليست تميط عنه أذاه!

وانظر حديثا لنبينا محمد ﷺ، وحين قال: يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت [(١)].

---

(١) صحيح مسلم: ٣٠٠٥

المسألة العاشرة: أمتنا أمة قائدة رائدة

ويكأننا قولنا هذا ممهمور بقاعدة التأسيس، وإذ كانت صلبة؛ ومن دينها، ولما كانت علية؛ ومن إسلامها، أستاذة به عالية مرفرفة، رائدة به سامية محلقة!

وليس قولنا هذا ممهورا من واقع مرير أليم نستحثه، أو من حال سقيم آخر نرتمي بين جنباته ونستحضه!

ويكأن أمتنا هي القائدة الرائدة، ومهما توعكت يوما، وإن شفاءها ليقين! ومهما مرضت يوما، فإن براءها ليسير! ولأن نبينا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم سوف يباهي بأمته ملائكة ربه، يوم اللقاء الأخروي المحتوم، قدرا مقدورا!

فعن عبدالله بن عباس أن النبي ﷺ قال: لا رقية إلا من عين أو حمة. فذكرته لسعيد بن جبير، فقال: حدثنا ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: عرضت علي الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد، حتى رفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: بل هذا موسى وقومه، قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر هاهنا وهاهنا في آفاق السماء، فإذا سواد قد ملأ الأفق، قيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب. ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم، وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله، فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام؛ فإنا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النبي ﷺ فخرج، فقال: هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون، فقال عكاشة بن

محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: نعم، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال: سبقك بها عكاشة[1].

وعلى أن أمتنا الآن، وإذ يبلغ تعدادها حوالي الربع من هذا العالم! وإذ يعتبر عاليا رفيعا، وإذا قيس بمعدلات الأديان! وإلا أنها إذ تتربع عليه رفعة وعلوا، دون كبر، وسموا، دون عُجْبٍ! ولأنها تقدم للناس منهجا، ساميا، سامقا، عاليا، رفيعا، فيه نهضتهم من كبوة، وفيه عزتهم من ذلة، وفيه شفاؤهم من علة، وفيه تقدمهم من تأخر، وفيه هداهم، ومن ضلالة، وفيه رشدهم، ومن غي، وفيه علاجهم، ومن عي!

وهذا في وقت يقدم فيه غيرها ما منه تعف الألسنة، ويقف الحليم أمامها حيران!

وها هي أمتنا هذه، الحنيفية، السمحة، الفريدة، الطاهرة النقية، وإذ ترفع لواء قرآنها، للناس حاديا، وإذ تقدم سنن نبيها، للعالمين هاديا!

وهكذا يخلق الله تعالى من سننه، وما به ينبهر عاقل، ويحار حليم، بل ويطمئن، ويسكن! ولأنه هذا هو سنن ربه تعالى، وفي كونه هذا الواسع الفسيح الممتد، وحين يهلك هذا على يد هذا، وحين كان ذلكم، ولما تكون نقمته، وجبروته، وسلطانه سبحانه، فيسلط قوما ظالمين على قوم أخرين ظالمين! ولعلها من أية وبرهان؛ لينفسح المقام، ومن ضيق! ومن أمام عصبة مؤمنة ويكأنها تجد لها متنفسا؛ لدعوة الناس أجمعين، إلى دين ربها، ومنهج بارئها سبحانه!

ويكأن هذا هو الحق المبين، وحين قد أشار إلى معناه يوما هذا النبي العربي الكريم، خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وحين كان علما آخر ضافيا، ومن أعلام نبوته ﷺ؛ ولأنه يحمل من بين جنباته الصدق كله،

---

(١) صحيح البخاري: ٥٧٠٥

وحين قال نبينا محمد ﷺ: الناس معادن كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف [(١)].

وسبحان من خلق أمثال هؤلاء، وتعالى وتقدس من برأ، ومن هم على شاكلة أولئك!

نبوءته ﷺ بقتل كسرى!

وإيمانك بالحق الذي تؤمن به يجعلك تنطق بحزم، وتقول بصدق، غير خائف، ولا وجل، ودلك عليه أنهم" قالوا وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي، وهو أحد الستة إلى كسرى، يدعوه إلى الاسلام، وكتب معه كتابا، قال عبد الله: فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرئ عليه، ثم أخذه فمزقه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ، قال: اللهم مزق ملكه، وكتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن، أن ابعث من عندك رجلين جلدين، إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، فليأتياني بخبره، فبعث باذان قهرمانه ورجلا آخر، وكتب معهما كتابا، فقدما المدينة، فدفعا كتاب باذان إلى النبي ﷺ، فتبسم رسول الله ﷺ، ودعاهما إلى الاسلام، وفرائصهما ترعد، وقال ارجعا عني يومكما هذا، حتى تأتياني الغد، فأخبركما بما أريد، فجاءاه من الغد، فقال لهما: أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها! وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع! وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله! فرجعا إلى باذان بذلك

(١) صحيح مسلم: ٢٦٣٨

فأسلم هو والأبناء الذين باليمن" [١]. وهذا وَرَدَنَا عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحده، وفي حق كسرى وشعبه كله!

علم نبوة ضاف

وعلى أن هذا ليس يخرجنا عن كونه علما على نبوة هذا النبي العربي الأمي القرشي العدناني نبينا محمد ﷺ، وحين قد دعا ربه يوما، أن يمزق ملك كسرى هذا؛ وكما قد مزق رسالة نبينا محمد ﷺ!

فعن عبدالله بن عباس: أن رسول الله ﷺ: بعث بكتابه إلى كسرى، مع عبد الله بن حذافة السهمي فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فحسبت أن ابن المسيب، قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق [٢].

إساف ونائلة

قال بعض أهل العلم: إن جرهما لما طغت في الحرم، دخل رجل منهم وامرأة يقال لهما إساف ونائلة البيت، ففجرا فيه، فمسخهما الله تعالى حجرين" [٣].

إنه حين تجرأ إساف ونائلة على حرمة البيت، بفعل الفاحشة فيه، فمسخهما الله تعالى. ولأنه تعالى يغار، إذا انتهكت حرماته، فكما قال نبينا محمد ﷺ «إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله.» [٤].

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ١ / ٢٥٩،٢٦٠
(٢) صحيح البخاري: ٤٤٢٤
(٣) أخبار مكة للأزرقي : ١/١٣٨
(٤) صحيح البخاري: ٥٢٢٣

وهذا فيما لو كان الذي يأتي محارمه تعالى هو المؤمن! والفرض أنه سرعان أن يتذكر، وعائدا إلى دائرة الإيمان والتوبة والأوبة، فما بالك وحين يكون التعدي على حرماته تعالى، من لا يرقب حقا، ولا يرعوي أمام جبروت من يبارزه، وهو الله تعالى سبحانه.

وإن عجبا أنه وحين مسخ الله تعالى إسافا ونائلة؛ لجرمهما، إلا أن قريشا حولتهما إلى إلهين يعبدان من دونه تعالى! ومنه فإن تغيير صورة الباطل لا يغير من الحقيقة شيئا.

وإن فعل إساف ونائلة حراما في الكعبة، وقد مسخهما الله تعالى، وبمرور الزمن عُبِدَا! ومنه فإنه لا ينبغي ترك الباطل فينسى، فيظنه الناس حقا! وعليه كانت ضرورة الدعوة والتذكير دائما، حيلولة دون تبدل منكر إلى معروف.

حفر زمزم وعلاقته بإساف ونائلة!

قالت قريش لعبد المطلب وهو يحفر زمزم: والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما" [١].

وهذا يعني أن الباطل يوغل في باطله دفاعا عنه، فإنهم يقرون أنهما وثنان! ويدافعان عنهما! فأهل الحق أولى بهم أن يدافعوا عن حقهم الذي يؤمنون به.

وهم يقسمون (بالله) على حماية صنم! وهذا برهان أن الفطرة ناطقة بالحق! ولما أقسموا برب يشركون به غيره!

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري : ٢٢٧/٤

فقال عبد المطلب لابنه الحارث: ذد عني حتى أحفرا![1]. وفيه ضرورة النصير للذود عن الحق. ابنا كان ولدا، أو أخا، أو مما سواهما، وكما قال الله تعالى ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]. أو من يوثق في إخلاصه لله تعالى رب العالمين، ثم لهذه الدعوة المباركة، وحقها، وكما كان من أولاء الأصحاب البررة الغر الميامين، وحين كانوا شعاع خير، وبلسم هدى، ونورا للعالمين. وحين نهضوا سواعد يمنى، قياما بواجبهم الذي يؤمنون به.

وفيه عزم عبد المطلب على الحفر، وحتى يصل إلى زمزم، وهو شأن عقدي كان لقريش شرفها فيه، وحين أخذت على عاتقها ذلك.

وقوله: ذد عنى حتى أحفر. فيه سلطان الأب على ولده، وهو أمر فطري، قبل أن يكون عقدا عرفيا، وفيه طاعة الابن لوالده، ولما وقف ذائدا عن والده، وهما أمران كما قلت مركوزان في الضمير والوجدان. برا وعملا حسنا.

كما أن فيه عزيمة والد نصرته للحق؛ ليتعلم ولده قيادة عملية. ودرسا جديدا في التربية، وعلى عين من والده؛ ليوجهه، وليكون ترسم الولد خطوات أبيه على هدي منه، ورعايته أيضا.

وإن الوالد ليتولى الأمر بنفسه، فلم يأمر ولده بالحفر، وهو مثال على القدوة الحسنة في التأسي، وحين كان عمليا لا نظريا.

وفيه إثبات دفاع الولد عن والده، ليدافع عنه أبناؤه من بعد، فأصبح بمثابة دين مستحقا أداء، وإرثا كان مضاء.

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري : ٢٢٧/٤

قال عبد المطلب: فو الله لأمضين لما أمرت به! [1]. فلما عرفوا أنه غير نازع، خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه. وإن عزمك على الحق يضطر خصمك للتنازل، ويرغمه على القبول بأمرك.

لم يحفر عبد المطلب إلا يسيرا حتى بدا له الطي، فكبر وعرف أنه قد صدق. وإنه لتظهر بركات الحق كفلق الصبح، لتزيد المؤمنين إيمانا مع إيمانهم.

وفيه أن أعمال الخير تثمر بركة عند أدائها، ويسرا في قضائها. فاطمئن لحق تؤمن به، وأن الله تعالى معك حافظا ونصيرا، وكل ذلك يشي بانطلاق طاقات فعالة في قلوب أصحاب الحق؛ لتدفعهم دفعا إلى نصرة حقهم، والذود عنه.

وإن القيام على الحق بصدق، لتجده يسيرا، وأيسر من تناول أحدنا شربة ماء عذب.

وقوله: الله أكبر، وما أجمله قولا، ولدى إنجاز أحدنا عملا، لتزيل أثرا للعُجْبِ في النفس، حظا لها، كان التكبير دلالة على أن الله تعالى أكبر، وفي حس أحدنا وعقده أبدا.

وفيه براءة النفس من حولها وقوتها، ولأن الحول والقوة كل لله تعالى الحق المبين.

كانت جرهم حين أحسوا بالخروج من مكة دفنوا غزالين وسبعة أسياف قلعية، وخمسة أذراعٍ سوابغ، فوجدها عبد المطلب! [2]. وحينها طالبت قريش قسمتها، فدعا عبد المطلب الله تعالى، فظفرت الكعبة بالأصفرين، وخرج الأسودان لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش. وفيه

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري : ٢٢٧/٤
(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري : ٢٢٧/٤

أن لجوء المضطر إليه تعالى، وأن الله ربه سوف لا يطرده، ولأنه تعالى يجيب مضطرا إذا دعاه، ولو كان مشركا، وذلك لعموم قوله تعالى﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[النمل: ٦٢].

قال ابن إسحاق: فعفت زمزم على البئار التي كانت قبلها يسقي عليها الحاج، وانصرف الناس إليها لمكانها من المسجد الحرام، ولفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها، وعلى سائر العرب [(١)].

وهذا فضل زمزم، ويكاد يكون معروفا لدى الأولين والآخرين، لكن فضلا آخر حسن التنويه به، وهو كونها بركة عما سواها، وكيف أن عفت على ما عداها، وكيما تبقى هكذا عالقة بالأذهان، جيلا من بعد جيل آخر، بركة ونعمة وفضلا، ونفعا للعباد، وفي سائر الأقطار والبلاد، قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

خبر عمرو بن لحي

كان من خبر عمرو بن لحي أنه أول من بدل دين نبي الله إبراهيم عليه السلام، ولشأن أنه أدخل الأصنام إلى جزيرة العرب، وجعل الناس يعبدونها من دون الله تعالى أو معه سبحانه.

---

(١) الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحِميري، ت: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - طبع على مطابع دار السراج، الطبعة: ٢ - ١٩٨٠ م: ٢٩٣/١

وإنما كان عمرو بن لحي أول من نصب الأوثان؛ لأنه خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فرأى بأرض البلقاء العماليق، ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، ورآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم ما هذه؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا! ونستنصرها فتنصرنا! فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنما، فأسير به إلى أرض العرب؟ فأعطوه صنما يقال له هبل، فقدم به مكة، فنصبه في بطن الكعبة على بئرها، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، فكان الرجل إذا قدم من سفره بدأ به قبل أهله بعد طوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده. [١].

وكان من خبره أنه أول من سيب السوائب، فعن سعيد بن المسيب، قال: البحيرة: التي يمنع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب. والوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي. [٢].

وكان من خبر عمرو بن لحي أنه "ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة، في كل سنة يطعم العرب، ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل، ويلت لهم السويق" [٣]. ولم يشفع ذلك له أمام شركه. ولأن أعمال الخير يوفى بها صاحبها المشرك في الدنيا، وهو كما قال الله تعالى ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾

(١) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ١ / ١٧
(٢) صحيح البخاري: ٢٨٥٦
(٣) البداية والنهاية، ابن كثير: ٢/٢٣٧

[الأحقاف: ٢٠]. وكما قال نبينا محمد ﷺ: إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طُعمة من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله- تعالى- يدخر له حسناته في الآخرة، ويُعقبه رزقًا في الدنيا على طاعته، وفي رواية: إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يُعطَى بها في الدنيا، ويُجزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله -تعالى- في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم يكن له حسنة يُجزى بها [(١)].

وإنما يوفي فاعلو الخير أجورهم في الدنيا؛ رحمة منه تعالى. لكنهم في الآخرة في النار لهم خزي، وعدلا منه تعالى أيضا، وكما قال تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهذا عم نبينا أبو طالب في ضحضاح من نار، عليه شراكان من نار، يغلي منهما دماغه، وهو أخف أهل النار عذابًا، وهو يظن أنه أشد أهل النار عذابًا، وكما قال نبينا محمد ﷺ : إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا [(٢)].

وإنما كان ذلك كذلك أجل حسنة، أو من أجل عمل صالح كان له في الدنيا، من مثل ما آزر به نبينا محمدا ﷺ في الدنيا، وأما بقية الكفار فلا نصيب لهم عند الله في الآخرة، بيد أن عذابهم يتفاوت أيضا.

---

(١) صحيح مسلم : ٢٨٠٨
(٢) صحيح مسلم: ٢١٣

المبحث الثاني من مولده ﷺ إلى بعثته

وإنما فدى الله تعالى عبد الله، والد الرسول محمد ﷺ، من ذبح والده عبد المطلب له، فقد كان في علمه تعالى أن نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم سيخرج من صلب عبد الله بن عبد المطلب هذا، ومنه فإن بركة ولد تعود على والده وقبل ولادته.

وإنما كان شأنه أن نبينا محمدا ﷺ سيكون من صلبه؛ بركة عليه، وفضلا منه تعالى. وهكذا العظام صناع التاريخ، يكون لهم شأنهم، لا سيما إذا كان العظيم من خبر السماء، واصطفاء من الله تعالى رب الأرضين السبع والسماوات السبع سبحانه.

وكذا وحين كانت أمه آمنة بنت وهب، وحين كانت من أعرق بيوتات الشرف والحسب يومها هذا. ومنه فإن نبينا محمدا ﷺ. وإذ كان من أبوين لهما هذا الحسب، وهذا الشرف، وليكون منه اختيار الزوجين، كليهما للآخر، ومن ذوي المروءة والحسب والنسب؛ ولأن هكذا أمرا، يكون له عمله، وفعله، وأثره في تصرفاتهما، بينهما البين، ومن ثم وحين يكرمان بذرية، وكما كان منه نبينا محمد ﷺ.

وإنما كان خبر حمل أمه به أمرا عجبا! يحكيه لنا الإمام البيهقي فيما روى من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق رحمه الله تعالى قال: إن عبد المطلب أخذ بيد ابنه عبد الله، فمر به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ فقال مع أبي. فقالت لك عندي من الإبل مثل الذي نحرت عنك وقع علي الآن! فقال لها: إني مع أبي لا أستطيع خلافه ولا فراقه، ولا أريد أن أعصيه شيئا. فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، ووهب يومئذ سيد بني زهرة نسبا

وشرفا، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف، وهي يومئذ أفضل امرأة من قريش نسبا وموضعا. فذكروا أنه دخل عليها حين أملكها مكانه، فوقع عليها عبد الله، فحملت برسول الله ﷺ، ثم خرج فمر على تلك المرأة التي قالت له ما قالت، فلم تقل شيئا، فقال لها: ما لك لا تعرضين علي اليوم مثل الذي عرضت بالأمس؟ فقالت: فارقك النور الذي معك بالأمس! فليس لي بك اليوم حاجة [1].

وانظر قول عبد الله والد نبينا محمد ﷺ : أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه، ولا فراقه. وقد كان كافرا لم ينزل فيه قرآن يأمر بالبر، لكنها فطرة تعكس نورها على قلوب العباد. وقد كان مركوزا في الفطر أن الوالد والد، وله ما للوالد من حق الإعظام والإجلال والبر.

وهذا بر عجيب ينضاف إلى رصيد بار حين راح مع والده مختارا ليذبحه. وإن البر ليصطحب معه سبب فلاح امرئ ونجاحه وصلاحه، لاسيما حين ندرك أنه دين تتناقله الأجيال جيلا من بعد جيل آخر.

وقول امرأة البادية: فارقك النور الذي كان معك بالأمس! وهكذا كانت بشارات نوره ﷺ قبل ولادته، وقد تنور به والده. فبركات الأبناء الصالحين على الآباء، وهم في أصلابهم،. كان قدرا مقدورا.

إنه حين حملت أمه آمنة بنت وهب به، فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا [2]. ومنه فإن الاستعاذة بالله تعالى أبدا سبب حفظ وإكلاء، ومنه أيضا فقد كان مركوزا في فطر الناس أمر عقدي كهذا. وإنما عمت الاستعاذة من كل شر، وإنما خصت من الحاسد؛ لشين خلقه، ولسوء طويته.

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٦
(٢) عيون الأثر، ابن سيد الناس: ج ١ / ٣٧

ولد رسول الله محمد ﷺ يوم الاثنين، عام الفيل، ولا دليل صحيحا على أنه يوم الثاني عشر من ربيع الأول، وعلى فرضه فلا دليل فيه على احتفال به.

وإن الإنسان ليعجب، وحين تتلمس أقوال، ومن هنا، ومن هنالك؛ لتبرير احتفال بمولد نبينا محمد ﷺ، وكان الأحرى أن يكون التزام بهديه آناء الليل وأطراف النهار، وههنا- وههنا فقط- نكون قد أحسنا الاقتداء، وههنا- وههنا فقط- نكون قد حالفنا الاهتداء، وأعملنا محبتنا له ﷺ، وأن يكون أحدنا حقا مؤمنا، وحين قد وقف مليا عند قوله ﷺ: لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يكونَ هواه تبعًا لما جئتُ به [(١)].

إن أعياد الميلاد وأعياد ما غيرها، وما أكثرها! قد أفقدت الناس حلاوة العيدين، فصارتا كأية مناسبة من مناسبات الناس العديدة؛ ولأنها فقدت زخمها بما زاحمها!

طَلَعَ نَجْمُ أحمدَ الذي يبعث الليلة!

ثبت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب لما سأله هرقل ملك الروم عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: (إن يكن ما تقوله حقاً إنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أني أخلص إليه لأحسنت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه) [(٢)].

وقال ابن إسحاق: حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد حدثنا يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن

---

(١) معارج القبول الحكمي: ٢/٤٢٢. خلاصة حكم المحدث: صحيح.
(٢) رواه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)

أسعد بن زرارة الأنصاري قال حدثني من شئت من رجال قومي عن حسان بن ثابت الأنصاري قال: (والله إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان سنين، أعقل كلما سمعت، إذ سمعت يهودياً يقول على أطم يثرب فصرخ: يا معشر اليهود، فلما اجتمعوا عليه قالوا: مالك وتلك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي يبعث الليلة)[1].

وإنه عندما تكون إطلالة هدى؛ وليسعد بذلك الكون كله، ولأن به صلاحه، ولأن به فوت إغوائه، وحين تترسم خطا هذا النبي الأميِّ ﷺ؛ ولأن الكون يضيء بهديه الذي قدمه للناس ﷺ.

وإنه حين صرخ يهودي بأعلى صوته: يا معشر يهود. طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به. فدل على اسمه الكريم (أحمد)، وهو ما بشر به نبي الله تعالى عيسى عليهم السلام، وكما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وأخرج البيهقي بإسناد صحيح من حديث أنس بن مالك: (أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة، فقال له رسول الله ﷺ: يا يهودي: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي؟ قال: لا. قال الفتى: بلى والله يا رسول الله إنا نجد في التوراة نعتك،

(١) رواه ابن إسحاق في ((سيرة ابن هشام)) (١/١٥٩)

ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال: أقيموا هذا من عند رأسه، ولوا أخاكم) [١].

رضاع النبي ﷺ في بادية بني سعد

قال ابن إسحاق: وحدثني جهم بن أبي جهم مولى الحارث بن حاطب الجمحي عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب أو عمن حدثه عنه قال: كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء قالت: وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئا. قالت: فخرجت على أتان لي قمراء معنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع؛ من صبينا الذي معنا؛ من بكائه؛ من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغديه - قال ابن هشام: ويقال: يغذيه- ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت بالركب، حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا، حتى قدمنا مكة، نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه و سلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي، ولم آخذ رضيعا والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه،

(٥٣) دلائل البيهقي، باب ما جاء في اليهودي الذي اعترف بصفة النبي ﷺ في التوراة وأسلم عنده موته، واليهودي الذي اعترف بصفته حين ناشده: ٦ / ٢٧٢ – ٢٧٣. وقال ابن تيمية في ((الجواب الصحيح)) (١٧٢/٥): إسناده صحيح. وانظر أيضا: إمتاع الأسماع، المقريزي، ج ١٤ / ٩٠

قال: لا عليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني علي أخذه إلا أني لم أجد غيره [1].

وقولها: وما نتام ليلنا من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغديه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج. بالرجاء لفرج يأتيك الله به، ولأن الله تعالى أبدا عند حسن ظن عبد به، يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة [2].

رفضت المرضعات نبينا محمدا ﷺ؛ ليتمه! وقبلته حليمة، ولا تدري ما الله تعالى صانع معها، وقضاؤه تعالى إنما يخبئ لك كثيرا، فافعل خيرا ولا تعجل، وانتظر خيرا ولا تقلق، وتفاءل يسرا ولا تجزع.

إن الضرورة الملجئة قد تكون سببا في انهمار فضله تعالى عليك، فافعل الخير، ولا تشغلن بالك بالتفكير مليا.

قال زوج حليمة: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. ومنه فإن استشرافك الخير من سبب فعلك للخير، وذلك بعد أن كان داعيا له، وهو قمن أن يأتي به فاطمئن.

قالت حليمة: أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب وأخوه حتى رويا، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك. فثمار فِعْلَكَ الخيرَ آتية، لا محالة، فلا تكن في عجلة من أمرك، ولأنك تحت رعاية مولاك وحفظه وإكلائه سبحانه.

---

(١) سيرة ابن هشام، ابن هشام: ٢٩٨/١
(٥٥) صحيح البخاري : ٧٤٠٥

قالت آمنة: كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبني لشأنا. ومنه فإن الإقسام الصادق يمنح قولك جزالة، غير مكثر منه. وهذه إرهاصات الخير بين يدي أمه، وقبل وفاتها. ولتقر عينها أن تركت ولدها، ورزق ربه تحت قدميه، ولأن أما هذه عاطفتها، ولأن والدة هذه شفقتها!

واقعة شق صدره ﷺ

فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائما منتقعا لونه فاعتنقه أبوه وقال: يا بني ما شأنك؟ قال: جاءني رجلان، عليهما ثياب بيض، أضجعاني، وشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه ثم رداه كما كان، فرجعنا به معنا فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب، فانطلقي بنا نرده إلى أهله، قبل أن يظهر به ما نتخوف، قالت حليمة: فاحتملناه فلم ترع أمه إلا به فقدمنا به عليها فقالت: ماردكما به يا ظئر، فقد كنتما عليه حريصين؟ فقالا: لا والله إلا أن الله قد أدى عنا، وقضينا الذي علينا، وقلنا نخشى الإتلاف والأحداث، نرده إلى أهله. فقالت: ما ذاك بكما فاصدقاني شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره. فقالت: أخشيتما عليه الشيطان؟! كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل والله إنه لكائن لابني هذا شأن، ألا أخبركما خبره ؟ قلنا: بلى قالت: حملت به فما حملت حملا قط أخف منه، فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعا

ما يقعه المولود معتمدا على يديه، رافعا رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما[1].

وهذا الحديث قد روى من طرق أخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير و المغازي.

و قال الواقدي: حدثني معاذ بن محمد عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : خرجت حليمة تطلب النبي صلى الله عليه و سلم و قد وجدت البهم تقيل فوجدته مع أخته فقالت : في هذا الحر ؟ فقالت أخته : يا أمه ما وجد أخي حرا رأيت غمامة تظلل عليه إذا وقف وقفت و إذ سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع [2].

وقال ابن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم أنهم قالوا له : أخبرنا عن نفسك قال : نعم أنا دعوة أبي إبراهيم و بشرى عيسى عليهما السلام و رأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام و استرضعت في بني سعد بن بكر فبينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها ثم غسلا قلبي و بطني بذلك الثلج حتى إذا أنقياه رداه كما كان ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم ثم قال : زنه بمائة

---

(١) سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار: ج ١ / ٢٨. قال الذهبي رحمه الله تعالى: هذا حديث جيد الإسناد. و: تاريخ الإسلام، الذهبي: ٤٨/١. و: البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢ / ٣٣٥. وقال ابن كثير: وهذا الحديث قد روي من طرق أخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢ / ٣٣٥

من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم فقال : دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم (١).

فو الله لو وزنته بأمته لوزنها. هذا شأن أهل الخير. وحين كان أحدهم مباركا، فيعدل أمة بأكملها. وأمة الجد لاخوف عليها، وأمة الكسل انفض يديك عنها.

قال رسول الله ﷺ: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، أنا أعرب العرب، ولدتني قريش ونشأت في بني سعد بن بكر، فأنى يأتيني اللحن (٢).

والحديث وإن كان ضعيفا، أو موضوعا، على قول كثير من أئمة الحديث، إلا أن له وجها عظيما، من حيث صحة معناه؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قرشي؛ ولأنه فصيح، بل أفصحهم، ولأن كتاب الله الفرقان قد تنزل عليه؛ ليصطبغ بصبغته، قرآنا عربيا مبينا.

ويؤيده حديث: أكنتم فررتم يا أبا عمارة يوم حنين؟ قال: لا والله، ما ولى رسول الله ﷺ ولكنه خرج شبان أصحابه، وأخفاؤهم حسرا ليس بسلاح، فأتوا قوما رماة، جمع هوازن، وبني نصر، ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقا ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هنالك إلى النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر، ثم قال: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، ثم صف أصحابه (٣).

والنظر إلى كونه عربيا فصيحا، رغم أميته، بان قمرا بدرا منيرا يوم تلألؤه وسط سماء ربها في عليائها .

---

(١) سيرة ابن كثير: ٢٢٨/١. وقال: هذا إسناد جيد قوي.
(٢) البدر المنير، ابن الملقن: ٢٨٢/٨. حكم المحدث: إسناده ظاهر الضعف!
(٣) صحيح البخاري: ٢٩٣٠

ومن عربيته أنه قد أرضع في بني سعد، وكانت أعرب العرب. ولقد كان ذلك أمرا معهودا أيضا. وهو برهان اختيار، واجتباء، واصطفاء لنبينا ﷺ؛ وكيما يصنع على عين ربه سبحانه.

وقوله: (أنا قرشي)، ليس من عيبة الجاهلية؛ لأنه يدلنا على نسبه، ويقف بنا على حسبه، بيان أصل، لا يخرج عن ذلك أنملة أو قيدها.

ولأنه ﷺ هو الذي أعلمنا وعلمنا عن ربه تعالى قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣].

رعيه ﷺ الغنم

ما بعث الله نبيا إلا راعي غنم، قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط قال سويد: يعني كل شاة بقيراط [(١)].

إن رعي نبينا محمد ﷺ للغنم كان برهانا على قناعة بعمل، ولطالما كان سببا لتحصيل لقمة عيش حلال، وليبارك الله تعالى لعبده فيه، ولطالما كان راضيا به، ولأن الرضا في حد ذاته قمن أن يسلك بصاحبه مظان السعادة، ومواطن السرور كله.

وإن رعي الغنم؛ ليكتسب عامله منه الهدوء، وطيب الطبع، ولأن الغنم هكذا!

---

(١) صحيح البخاري: ٢٢٦٢

وليس الأمر ماذا تعمل، وإنما الأمر أن ترضى بما تعمل، وهذا داع لأن تبدع فيه، وأيما إبداع. وكم من آحادهم وحينما رضوا بأعمالهم، فإنما كان لهم قصب سبق فيه! وإبداع، حتى وصلوا به، وفيه، ومعه إلى آفاق المجد بخصوصه!

وأذكر من تجارب أغيار أن أحدهم كانت لديه مساحة أرض، وحاول استصلاحها؛ ليزرعها، ولم تفلح محاولاته، وذات يوم رأى فيها حية! وسرعان ما حول تفكيره، إلى أن جعل الأرض مزرعة، لتوالد الثعابين، وأخذ يبيع منها الجلود والأمصال معا! وهكذا أمكنه تحويل العمل من وجهه السلبي، إلى وجه آخر، كان إيجابيا تماما، ومن كل وجه!

ولئن كان هؤلاء هم الرسل، وقد رعوا الغنم، فما بالنا نعيب هذا أو ذاك على عمل يعمله؟! وأيا ما كان عمله، ومن حيث إنه يبتغي من ورائه كسبا حلالا، وكان خيرا له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه، وكما جاء: أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره؛ خير له من أن يأتي رجلا، فيسأله، أعطاه أو منعه [(١)].

وإن الرضا بالعمل ربما كان سببا في ترقي صاحبه فيه، وإلى أن يصير قائدا فيه، ومبدعا كما أنف، وكما كان من شأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين رضي فأرضاه الله تعالى بأعلى المقامات، وهي نبوته ﷺ.

ولعل اختيار الله تعالى لعمل أنبيائه رعاة غنم كان حكمة منه تعالى؛ وحتى لا يكون هناك سند لإعلاء عمل على آخر، ومن حيث كان

---

(١) صحيح البخاري: ١٤٧٠

المبتغى هو أكل عيش حلال، ومنه إذًا أيضا فلا محل لانتقاص عمل، ومن هذا الباب.

والغنم غنمٌ ومنه "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم، وأيما قوم اتخذوا كلبا ليس بكلب حرث، أو صيد، أو ماشية، فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراط [1].

ومنه أيضا حديث: أن رجلا سأل رسول الله ﷺ أأتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: إن شئت فتوضأ، وإن شئت فلا توضأ قال أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: نعم فتوضأ من لحوم الإبل قال: أصلي في مرابض الغنم؟ قال: نعم قال: أصلي في مبارك الإبل؟ قال: لا [2].

ومن طرفة أنني اشتريت مرة خروفا فأرسل معي البائع خروفين معه يهديانه إلى طريق المسلخ ورجعا!

ومنه كان التواضع، والرضا بالعمل، ومن حيث كان رزقا طيبا حلالا فغن ذلك قمن ان يكون شبب رضا فوق الرضا، وكذا، فإنه يكون موجبا للرفعة والسمو. وهذا هو نبينا محمد ﷺ، قاد أمة فتحت الآفاق، وكان راعيا. ولأن التيجان لا تصنع مجدا وحدها! ومنه أيضا فلا يبطرن أحد على عمل رزقه الله تعالى إياه؛ ليبارك له فيه.

---

(١) صحيح النسائي، الألباني: ٤٢٩١
(٢) صحيح مسلم: ٣٦٠

وفاة والديه ﷺ وكفالة جده

توفي عبد الله، والد الرسول ﷺ، وهو في بطن أمه، وتوفيت أمه، وهو في سن السادسة، ومنه فإن دواعي الانحراف أضحت منعقدة! فما بال قوم ينحرفون! وهم في حجر والديهم؟!

وقد عصمه الله، ولا يقال لأنه سيكون نبيا، لأنها أسباب وضعها الله في كونه.

وإنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك، حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له! وهذا من عز البر!

وإذ توفي جد الرسول ﷺ، وهو في سن الثامنة؛ لتعلم أن الله كافل عبيده، فلا يقلقن عبج، فقط يحسن التوكل، ويحسن الأخذ بالأسباب، وحينها نقرأ قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. تسليا وعقدا جازما، وحين كان صدق التوكل ممهورا بحسن الأخذ بالأسباب. وحينها أيضا فلا خوف على مؤمن كان صادق الإيمان مع ربه، وحين كانت هذه الآية سبيله، وليكفيه ربه معها حيا وميتا أبدا.

أقر الرسول ﷺ ولاية عمه العباس على زمزم والسقاية، مالا يخالف فيه شرع الله تعالى فالأمر فيه واسع. حكمة بالغة.

كفالة عمه أبي طالب

شاء الله تعالى أن يبقي عمه أبا طالب على الحياة؛ ليكفله، سببا للإكلاء، كيما لا يقال أطعمته السماء، فهو إذن والحال كذلك من جنس غير جنسنا، ومن ثم لا نقبل منه، لكنه تعالى أراد قطع دابر كذلك زعم،

و﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٢].

كان أبو لهب يسمع من والده أن ابنه محمدا ﷺ سيكون له شأن، فلما بلغ ذلك، كان أول المنقلبين على فراسة والده! ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

الراهب بحيرى

كانت صفة نبينا محمد ﷺ عند راهب كان يدعى بحيرى، وما إن علم بمرور قافلة تجارية لقريش إلا وحدس جاءه أن يغتنمها فرصة، ولعل فيها محمدا النبي، بوصفه الذي عنده، فيطلع ويقف ويعرف، وكان من أمره أن أعد طعاما، وشرط على القافلة أن تحضر جميعها، ولا يتخلف منهم أحد، ولما أن حضروا، نظر فيهم فلم ير وصفه عنده في أحدهم! وعلم منهم أن غلاما معهم يلعب فتأخر، وما إن حضر الغلام محمد ﷺ، إلا وأخذ يناظره فحصا و"جعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده [١]"

وكان من بحيرى أنه سأل أبا طالب عن علاقته بمحمد، فأخبره أنه ولده، فقال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه، قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١/١١٨

شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعا، حتى أقدمه مكة، حين فرغ من تجارته بالشام [1].

وهذا شأن يهود، حسدهم ظاهر، وحنقهم متواتر!

وكان أن استحلف الراهب بحيرى نبينا محمدا ﷺ باللات والعزى، فقال له: لا تسألني باللات والعزى شيئا، فو الله ما أبغضت شيئا قط بغضهما! وهذه حنيفية صافية! وهو بعد حدث صغير و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فشب رسول الله ﷺ، والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلا، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرما، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة [2]. وهذا يرينا كيف كان صنع قائد على عين ربه تعالى، ولنعلم قوله تعالى﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾[طه: ٣٩].

روى جابر بن عبدالله أنه "لما بنيت الكعبة ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك. فخر إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، فقال: أرني إزاري. فشده عليه [3]. بهكذا كانت المروءة النبوية، وهكذا كانت الأخلاق المحمدية.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١١٨/١
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١١٨/١و١١٩
(٣) صحيح البخاري: ١٥٨٢

حرب الفجار

وكان الذي هاجها أن عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن أجاز لطيمة- أي تجارة- للنعمان بن المنذر. فقال له البراض بن قيس- أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة- أتجيزها على كنانة؟ قال نعم وعلى الخلق. فخرج فيها عروة الرحال وخرج البراض يطلب غفلته. حتى إذا كان بتيمن ذي طلال بالعالية، غفل عروة فوثب عليه البراض فقتله في الشهر الحرام. فلذلك سمي الفجار [1].

ومن تسميتها الفجار يعلم أنهم هكذا كانوا يعظمون الأشهر الحرم التي هي: شوال وذو القعدة وذو الحجة ورجب.

وفي قول إنما سمى "يوم الفجار" بما استحل هذان الحيان، كنانة وقيس عيلان، فيه من المحارم بينهم. وفيه أن شؤم استحلال ما حرم الله يبقى أثره، ومنه فكان حذره واجبا .

تجارته ﷺ في مال خديجة

كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، بشيء تجعله لهم [2]. وفيه أن النساء الأول كن لا يزاحمن الأسواق! دلالة أنها كانت تستأجر الرجال للقيام بهذا الأمر دونها! وذلك رغم جاهليتها آنذاك، إلا أنها ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢ / ٣٥٣
(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري: ج٢/٢٢

وفيه أن تبادل المنفعة للقضاء على البطالة، والمضاربة في أموال الغير، مقابل جعل، متفق عليه، بينهما موثقا، فيه فائدة، عائدة على طرفي العقد؛ قضاء على البطالة، وتحريكا لسوق المجتمع من جانب آخر، فليس يجد آحادهم فراغا موحشا، موجبا لارتكاب ما نهى الله تعالى عنه، فضلا عن كسب طيب حلال، يعود نفعه على المجتمع بأسره، وحين يعيش سلما اجتماعيا كريما، بعيدا عن الانحرافات والسرقات.

والمضاربة في الأموال سبب لإنمائها، كما أنها موجبة لسرعة دورانها، مما يكسب المجتمع ميزانا تجاريا، ترجح كفته له.

بيد أنه يجمل جعل للمضارب نصيبا يكفيه، فيتجدد نشاطه، ويطمئن أن عمله ليس سدى، أو أن جهده كان هباء منثورا، فيدفعه ذلك إلى عمل دؤوب، لا يعتريه كسل أو فتور، كان عائده على طرفي العقد مباشرة، فضلا عن مجتمعه الذي يعيش فيه.

فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها: من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه [(١)]. وفيه من صفات السؤدد والريادة، والخلق الحميد، والسيرة الحسنة، ما أوجب إرسالها إليه، وفيه أن المرء يحفظ نفسه عن نقائص الأحوال؛ ليكون هدى وصلاحا، يمشي به في الناس، فيعم المجتمع أمنه، ويخص للفرد ذكره وثناؤه، وحين لا يوحل سيرته، ويأخذ على يد نفسه، ليبلغ آفاق السمو والمجد الكريم.

فعرضت عليه ﷺ أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار...فقبل ﷺ منها [(٢)]. وهذه مكافأة الأمين لأمانته، وإظهار ذلك في المؤسسة أوجب. ولأنه موجب رواج

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١٢١/١
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١٢١/١

التجارات. وصنيع لتصنع الأمناء، فترقى المتاجر! وليكن العبد أمينا، يبحث عنه الآخرون، لأنه رصيد صار نفيسا!

والثواب والعقاب أسلوب حسن لإدارة المؤسسة.

نزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي! هكذا نقاد بحكمة الله إلى منازلنا في الدنيا وفي الآخرة!

والمنزل معد سلفا، فلا قلق ! والمكان خال لصاحبه، فلا يشغله غيره؛ فيطمئن!

فلما قدم مكة على خديجة بمالها، باعت ما جاء به، فأضعف أو قريبا! ومنه فعندما تكون مباركا؛ يبارك الله تعالى عملك، ليربو مضاعفا!

وضع الحجر الأسود

يا معشر قريش لا تدخلوا في بناء الكعبة من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغى، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد [1].

وإذ قالها أحدهم لما سقط حجر من يده فعاد موضعه!

وهكذا نطقت الفطرة، رغم اقترافهم شركا! وإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا. وهذا هو الثلاثي- مهر بغي، بيع ربا، المظالم- المدمر للاقتصاد العالمي، والماحق للبركة! وما قام اقتصاد عليها إلا هلك.

وإذ أدخل أحدهم عتلة بين حجرين للكعبة؛ ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس!

---

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ١ / ١٨٦

قال أبو أمية وكان مسنا: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه [١]. ومنه فإن استشارة المسن ذي الخبرة سبب للتوفيق، وموجب للاتفاق.

هذا الأمين، رضينا، هذا محمد [٢]! هذا بيان صادر عن قريش أجمعها، وهذا تصويت حقيقي بالإجماع، فلا تزوير ولا محاباة ولا رياء ولا منفعة. ولا اعتراض من أحد، ولا تحفظ من آخر! من منا هكذا سيرته في قومه؟!

ولنعد النظر: هذا الأمين! فكأنه لا أمين بهذا المستوى السامق يومها غيره!!! وهذه حفاوة عفوية، لم يخطط لها، وبكأنها تحبير فوق تحبير! وإذ كان وقعها بردا وسلاما ورضا وأمنا، ليحل به السلام.

والتعبير باسم الإشارة (هذا) للقريب، دلالة على قربه مكانا، ومكانة في قلوب قومه.

والتعبير باسم الإشارة مرتين تقريرا لأمانته، وتوكيدا لحسن سمعته، وهذا قمن بأثر له في النفوس، وإنه لعظيم أن يحذو العبد حذوه. والتعبير مرة بصفته (الأمين)، ومرة باسمه (محمد)؛ تقريرا واهتماما آخرين!

هم يعرفونه! فلماذا الإشارة؟ ولماذا باسمه؟! سوى أن بلوغ هذه المنزلة في القوم هو غاية المجد، ولا يعادلها مال الدنيا!

اقرأها هكذا: هذا أمين، لتجد وقعها لها في نفسك لم يبلغ ما تبلغه الأولى، فقد كانوا عربا يعرفون عربيتهم!

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١٢٧/١
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢ / ٣٧١

وهذا إيجاز يحمل معاني الإطناب، يجعلك تفكر مليا في رجل هكذا، فقد عبروا عنه بما لم تخطئه عبارة، في قليل أو كثير!

ومنه فإن امرأً وحين يكون ذا مجد أخلاقي، ورصيد أدبي، فيأسر القلوب إليها أسرا.

وحين اتفقت كلمة قريش عليه ﷺ، حكما بينهم في مسألة وضع الجر الأسود، قال: هلم لي ثوبا فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين [١].

مبدأ الحُمْسِ

جاء في لسان العرب: "حمس: حمِس الشرُّ: اشتدّ.. والحُمْسُ: قريش، لأنّهم كانوا يتشدّدون في دينهم وشجاعتهم فلا يُطاقون، وقيل: كانوا لا يستظلّون أيّام مِنًى، ولا يدخلون البيوت من أبوابها وهم مُحْرِمون، ولا يسلِئون السمْنَ، ولا يلقُطون الجُلَّةَ.. أبو الهيثم: الحُمْسُ قريش ومن ولدت قريشٌ وكنانةُ وجَدِيلةُ قيسٍ، وهم فهمٌ وعدوانُ ابنا عمرو بن قيسِ عيلانَ، وبنو عامر بن صعصعةَ، هؤلاء الحمس، سمّوا حُمسًا لأنّهم تحمّسوا في دينهم، أي تشدّدوا. قال: وكانت الحمس سكّان الحرم، وكانوا لا يخرجون أيّام الموسم إلى عرفات، إنّما يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله ولا نخرج من الحرم" [٢].

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٤١
(٢) لسان العرب، ابن منظور: ج ٦/٥٧و٥٨

و" قال في القاموس: الحمس الأمكنة الصلبة جمع أحمس وبه لقب قريش وكنانة وجديلة ومن تابعهم في الجاهلية لتحمسهم في دينهم أو لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة لأن حجرها أبيض إلى السواد، والحماسة الشجاعة [1]".

وعن مجاهد، في قوله تعالى ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]. قال كانوا يطوفون بالبيت عراة « قال ابن جريج: لما أن أهلك الله تعالى من أهلك من أبرهة الحبشي صاحب الفيل، وسلط عليه الطير الأبابيل، عظمت جميع العرب قريشا وأهل مكة، وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤنة عدوهم. فازدادوا في تعظيم الحرم والمشاعر الحرام والشهر الحرام ووقروها، ورأوا أن دينهم خير الأديان وأحبها إلى الله تعالى، وقالت قريش وأهل مكة: نحن أهل الله، وبنو إبراهيم خليل الله، وولاة البيت الحرام، وسكان حرمه وقطانه، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف العرب لأحد مثل ما تعرف لنا. فابتدعوا عند ذلك أحداثا في دينهم أداروها بينهم، فقالوا: لا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم. وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويقرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، إلا أنهم قالوا: نحن الحمس، أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيره. ثم جعلوا لمن ولدوا من سائر العرب من سكان الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، يحل لهم ما يحل لهم، ويحرم

---

(١) نيل الأوطار، الشوكاني: ج ٨ / ٧٧

عليهم ما يحرم عليهم. وكانت خزاعة وكنانة قد دخلوا معهم في ذلك، ثم ابتدعوا في ذلك أمورا لم تكن، حتى قالوا: لا ينبغي للحمس أن يأقطوا الأقط ولا يسلؤوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرما. ثم رفعوا في ذلك، فقالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل في الحرم إذا كانوا حجاجا أو عمارا، ولا يأكلون في الحرم إلا من طعام أهل الحرم إما قراء وإما شراء، وكانوا مما سنوا به أنه إذا حج الصرورة من غير الحمس- والحمس أهل مكة: قريش وكنانة وخزاعة ومن دان بدينهم ممن ولدوا من حلفائهم، وإن كان من ساكني الحل، والأحمسي المشدد في دينه- فإذا حج الصرورة من غير الحمس رجلا كان أو امرأة، لا يطوف بالبيت إلا عريانا- الصرورة أول ما يطوف- إلا أن يطوف في ثوب أحمسي إما إعارة وإما إجارة، يقف أحدهم بباب المسجد، فيقول: من يعير مصونا؟ من يعير ثوبا؟ فإن أعاره أحمسي ثوبا أو أكراه طاف به، وإن لم يعره ألقى ثيابه بباب المسجد من خارج، ثم دخل الطواف وهو عريان، يبدأ بإساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه، فإذا ختم طوافه سبعا استلم الركن، ثم استلم نائلة، فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس، فيأخذها فيلبسها، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عريانا. ولم يكن يطوف بالبيت عريان إلا الصرورة من غير الحمس، فأما الحمس فكانت تطوف في ثيابها، فإن تكرم متكرم من رجل أو امرأة من غير الحمس ولم يجد ثياب أحمسي يطوف فيها، ومعه فضل ثياب يلبسها غير ثيابه التي عليه، فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل، فإذا فرغ من طوافه نزع ثيابه، ثم جعلها لقا، يطرحها بين إساف ونائلة، فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها حتى تبلى من وطء الأقدام، ومن الشمس والرياح

والمطر. وقال الشاعر يذكر ذلك اللقا: كفى حزنا كرى عليه كأنه لقا بين أيدي الطائفين حريم يقول: لا يمس. فصار هذا كله سنة فيهم، وذلك من صنع إبليس وتزيينه لهم ما يلبس عليهم من تغيير الحنيفية دين إبراهيم، فجاءت امرأة يوما وكان لها جمال وهيئة، فطلبت ثيابا عارية فلم تجد من يعيرها، فلم تجد بدا من أن تطوف عريانة، فنزعت ثيابها بباب المسجد، ثم دخلت المسجد عريانة، فوضعت يدها على فرجها، وجعلت تقول: اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله قال: فجعل فتيان مكة ينظرون إليها، وكان لها حديث طويل، وقد تزوجت في قريش. قال: وجاءت امرأة أيضا تطوف عريانة وكان لها جمال، فرآها رجل فأعجبته، فدخل الطواف وطاف في جنبها لأن يمسها، فأدنى عضده من عضدها، فالتزقت عضده، فخرجا من المسجد من ناحية بني سهم هاربين على وجوههما، فزعين لما أصابهما من العقوبة، فلقيهما شيخ من قريش خارجا من المسجد، فسألهما عن شأنهما، فأخبراه بقضيتهما، فأفتاهما أن يعودا، فرجعا إلى المكان الذي أصابهما فيه ما أصابهما، فيدعوان ويخلصان أن لا يعودا، فرجعا إلى مكانهما، فدعوا الله سبحانه وأخلصا إليه أن لا يعودا، فافترقت أعضادهما، فذهب كل واحد منهما في ناحية» ابتدعت قريش (الحمس)، فأحلوا لأنفسهم أداء الحج دون الوقوف بعرفة! هذا فعل الفئة الظالمة، إذا أطلقت العنان لهواها، دون شرع ربها ومولاها [1]!

بزيها! وعلى من أبى، أو لا يجد أن يطوف بالبيت عريانا! انتهاك الحرمات لهوى متبع!

ولذا حينما جاء الإسلام بطهارته كان من أوائل مرسوماته وتعاليمه تطهير هذه المجتمعات مما حسبته نظاما لها ودينا وطهارة،

(١) أخبار مكة للأزرقي: ٢٣٠/١

فعن أبي هريرة: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ثم أردف رسول الله ﷺ بعلي بن أبي طالب، وأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة، وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[١].

وإذ بسبب الحمس كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة، فتقول: من يعيرني تطوافاً تجعلها على فرجها، وتقول، اليوم يبدو بعضه أو كله، فما بدا منه فلا أحله!

فعن عبدالله بن عباس: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تطوافا؟ تجعله على فرجها، وتقول: اليوم يبدو بعضه، أو كله... فما بدا منه فلا أحله فنزلت هذه الآية {خذوا زينتكم عند كل مسجد} [الأعراف: ٣١][٢].

أدى ابتداع الحمس إلى انتهاك حرمات الله، وحين اضطروا المرأة أن تطوف بالبيت عريانة، إذا لم تلبس زي قريش! وهكذا تصنع عقول قوم بحرماته تعالى! وحين تطلق العنان للهوى متحللة من قيد الأمر والنهي الربانيين والذين لا يهديان إلا إلى خير، يعود نفعه عليهم، ولا ينهيان إلا عن شر، كان يعود ارتكابه عليهم وباله.

وإذ كان قوله تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، وبه أبطل الإسلام الحمس! طهارة للنفوس وللقلوب! وإزالة لسلطان طغمة متحكمة بالباطل.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٦٥٥
(٢) صحيح مسلم: ٣٠٢٨

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]. والستر زينة! لكن الهوى يبدل الضوابط والموازين!

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وبه أُبْطِلَ الحمس أيضا!

يتنزل القرآن قوارع؛ لإزهاق باطل، صنعته طغمة قريش المتحكمة؛ كيما لا يكون هناك سلطان إلا سلطان الشرع وحسب؛ إحلالا للنظام العام والآداب، وإبطالا لخبط عشواء كان لهم نظاما.

إن مبدأ الحمس تراه في كل زمان؛ وإن تشكل بزي مغاير! تلبيسا على الناس، وإعطاء الأغيار حقوقا ليست للبسطاء من الناس!

أنكر الرسول ﷺ مبدأ الحمس، فلم يعبأ به حتى قبل بعثته. وهكذا يكون الحنفاء أطهارا من رجس، أنقياء من عيبة أبدا، أثوابهم ناصعة، وقلوبهم نقية.

إن المتأمل فيما كانت تصنعه قريش في حرم الله تعالى، يؤدي به تأمله إلى حتمية ظهور دين جديد؛ ليوقف زحفها على القيم والحرمات؛ ولذا جاء الإسلام.

هذه نصوص الحمس الجائرة: لا ينبغي للحمس أن يأتقطوا الأقط، ولا يسلئوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا في بيوت الأدم ما كانوا حرما، ثم رفعوا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم، إذا جاءوا حجاجا أو عمارا، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت

عراة، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة، ولم يجد ثياب الحمس، فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل، ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا [(١)]! ولذا كان حقا أن يجيء الإسلام ليرفع ذلكم وضع تخاله النفوس الأبية إذلالا.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١و٢]

هذه إرهاصات نبوة نبينا محمد ﷺ، وحين كان منه، وإن جاز البيان، تأهيل الكون كله؛ ولاستقبال مثل هكذا حدث؛ ولأنه حدث هام، ولسوف يتغير؛ ومن موجبه وجه البشرية أجمعها! وبل ولسوف تكون له تبعاته وآثاره المجيدة والإيجابية أيضا، وعلى هذا الكون كله، لا مجرد بشر وحسب، بل سائر ما خلق الله تعالى ودب، على هذا الكون الفسيح العريض الممتد أيضا!

ودلك عليه هكذا قولنا يوم نخلة! وقد كانت متخذا منبرا لهذا النبي محمد ﷺ! وإذ تبكي بكاءها؛ وإذ يسمع الناس المصلون أنينها! لاعتلائه منبرا غيرها!

فعن جابر بن عبدالله: أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه؟ فإن لي غلاما نجارا قال: إن شئت، قال: فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٣٠

ﷺ على المنبر الذي صنع، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها، حتى كادت تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها، فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت، قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر [(١)].

وذلك عليه أن قرآنا كان قد تنزل، ومن موجب هذه الدعوة الربانية، ولسبب هذه العقيدة النبوية المباركة، وإذ كان من وصفه، وكما تحار العقول؛ من إعجازه! ولما تقشعر الأبدان؛ من بيانه!

حجب الشياطين عن السمع

وإذ: لما تقارب أمر الرسول، حجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين مقاعدها؛ لاستراق السمع، فرموا بالنجوم، فعرفت الجن أمرا حدثا لله في عباده [(٢)]!

ومنه كان قوله تعالى ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١و٢]. هذا قول الجن حين حجبوا عن السمع!

وإذ مُنعت الشياطين من استراق السمع؛ لئلا يشكل الوحي بشيء من خبر السماء، ولو شيئا! فيلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه! ولأنهم وحين يسترقون سمعا، وإنما يكون الحق مشوبا بباطل، وإذ حينها ليس يقوم للناس دينهم؛ ولأنه وحين ذلكم أيضا، وإنما تكون كلمة الحق مشوبة، وبمائة كذبة لا كذبة واحدة!

---

(١) صحيح البخاري: ٢٠٩٥
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٣٢

فعن عائشة أم المؤمنين: الملائكة تتحدث في العنان - والعنان: الغمام -، بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة، فيزيدون معها مئة كذبة [1].

وهكذا يجب فصل كلامه تعالى عن قول غيره!

إن منع الشياطين من استراق السمع بالقرآن فيه دلالة على سموه، وعظمته، وفرقانه، وتميزه، ألا يختلط حق بشبهة باطل، أو تلبيس من إبليس، أو تدليس من إنس. وهذا برهان حفظه تعالى لكتابه الكريم القرآن العظيم، وحين قال سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

الإعجاز من التسمية!

وإذ يقف العبد منبهرا جدا! وحين أطلق الجن على هذا القرآن اسمه هذا! متوافقا مع وسم السماء له حقا!

ولئن كان ذلك؛ ومن سببين- ومما أحسب- : أحدهما، أو كليهما:

وأما السبب الأول: وإذ، ولربما كان مأخوذا من القراءة، وهذا وجه لغوي. ومن أدرى به الجن يومهم هذا؟!

السبب الثاني: وإذ ولربما كان من تكهنات الجنة، والناس أيضا، وحين توافق تنزيلا حكيما. وهذا أمر مشاهد، ودلك عليه كثير من مواقف عمر الفاروق، وحين كان التنزيل ينزل، وعلى قوله، ولسانه، وعقده، فريدا كان هذا الفاروق!

---

(١) صحيح البخاري ٣٢٨٨

ولكنه ويظل الإعجاز قائما، وحين كانت الجن، وبهذا البيان، وهذه البلاغة، المنقطع نظيرها، وحين تسم هذا القرآن العظيم وسما، خرجت به عن مألوفات أولاء العرب البلغاء! أنفسهم! وبه دل على كم كان أولئك العربان خارج السياق البلاغي! لا من جهالتهم به! ولكن؛ ومن استكبارهم، وإنكارهم، لما أطبقوا هم عليه كابرا عن كابر! بل ولما جاءت الجن، وبهكذا وسم لهذا الكتاب العزيز، وسما كان متوافقا مع تنزيل السماء! وما قد ورثه الناس، ومن بلاغة وبيان، كانت لغتهم العربية ناطقة به، ومتسمة به أيضا!

شهادة الجن للقرآن

وإذ علمت الجن بمجرد سماعها للقرآن أنه يهدي إلى الرشد، وإلى صراط مستقيم! وما بال قوم يتلمسون الهدى في غيره، وهذا هو الهدى، بين أيديهم وإذ يناديهم أن هلموا!

على أن وقفة جديرة: وبرهانها هذا الذي كانت به الجن أعرف، وعليه أقدر، وحين تسم هذا الكتاب العزيز، وأنه هاد إلى الرشد- كل الرشد-، لا بعضه! ودلك عليه اختيار المفردة ﴿الرُّشْدِ﴾ هكذا معرفة! لتوحي بكل رشد ممكن! ومن كل وجه ممكن! ومن كل سبيل ممكن! ومن كل طريق ممكن! وحين كان هذا القرآن- ومن حق- أنه ليس يهدي إلى الرشد وحسب، وإنما كان هو الرشد- كله- أيضا! ومن وسم الكتاب العزيز له أنه هدي! وليس مجرد أنه إليه هاد! وأنه شفاء، وليس مجرد أنه سبب للشفاء! وأنه بشرى، وليس مجرد أنه سبيل إلى البشرى! وغير ذلك مما استفاض به وسم القرآن لهذا القرآن أيضا!

ولذا؛ آمنت الجن لمجرد سماعها لهذا القرآن! لأن هذا القرآن يحمل بين عطائه ومنحه الخير والهدى للناس، ولخير الناس ولإسعادهم!

لم يكف الجن أن آمنت فقط عند سماع القرآن، وإنما أبدت عدم شركها بربها أحدا! فربٌ هذا قرآنه حقيق ألا يعبد سواه!

إن حقائق الجن كانت أعمق من العمق نفسه!

بلغ سلطان القرآن على الجن أن أوصلها إلى حقيقة أن منزل هذا القرآن على وجهه هذا، لقمن أنه بائن عما سواه، وإلا فلزم وجود كلام ند له! ومن حيث لا يوجد كلام يضاهيه! أو شيئ من ذلك، فدل على أنه الله تعالى الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد!

وهذه كلية حسن درسها ووعيها.

بلغ تأثير القرآن في الجن من العمق أن جعلها تصف ربها بما يعجز عنه بلغاء العربية في كل زمان وفي كل مكان! وهذا شأن القرآن حين يفيض هداه!

وقفة عند قول الجن: ﴿قُرْآنًا عَجَبًا﴾!

هذا قول فصل، وهذا قول إجمال، وما بعده تفصيل لما أجمل من إعجاز القرآن، وحين يأخذك إلى ملكوت الرهبة والخشية.

﴿قُرْآنًا﴾! لأنها على وزن فعلان؛ إيذانا بالمبالغة في استجماعه لمآلات الخير والهدى، وبحيث لم يترك منها ولو واحدة!

﴿قُرْآنًا﴾ هكذا منونا بالفتح! ليدلك على تمكين معنى القرآن؛ ليأطرك أطرا على أن تتدبره، إمعانا في حلاوته، وخشعانا لطلاوته.

عند وزن القرآن بغيره، مما التمسه القوم، لابد من إشهاد الجن؛ لنقف حيارى مبهورين؛ أن لم نجد مسوغا- ولو واحدا- لاستدبار قرآن كان هذا شأن الجن معه!

إذا وضعنا هذيان مسيلمة، وهو عربي! أمام الجن، وهي إذ تصف قرآن الله تعالى، فدلك على كم قد بلغت هكذا شأوا سحيقا عميقا في عربيتها، ند عليه أن يقول مسيلمة هذا منه رشدا واحدا!

اهتدت الجن إلى ربها لمجرد سماعها لقرآنه! ألهذا الحد يبلغ القرآن المجيد أثرا لمجرد سماعه؟! وما بالنا وحين تدبره وتفكره؟! وما بال قوم اتخذوا هذا القرآن مهجورا؟!

وإذ يعمل القرآن المجيد أثره في القلوب لمجرد سماعه! أنبأك عنه توارد صفات الثناء على الله تعالى على ألسنة الجن كرسائل قلب إلى لسان قائله!

﴿قُرْآنًا﴾! وصفته نكرة؛ تعظيما له! هل تعلموا أصول البلاغة؛ ليقولوا هكذا وصفا للقرآن المجيد؟!

﴿قُرْآنًا﴾! لم أسموه- وكما أنف- قرآنا، وقد منعوا استراق سمعه؛ وهل لو سمعه أحدنا لأول مرة كان قد أسماه قرآنا؟!

بيد أن لطيفة ههنا: ذلك أنهم لم يقولوا: عجيبا، وإنما قالوا: ﴿عَجَبًا﴾! وهكذا بالفتح المتتالي بين الحروف جميعها، والممتد إلى آفاق السماء، عاليا، رقراقا، معجزا، مبهرا، مدهشا! بل ومجيئه مختوما بتنوين فتح؛ ومنهما لينفتح الفم انفتاحا! وليس يبلغ به سكوتا أو إغلاقا! وإلا لاعتبارات الوقف الطبيعي! وإنما حمل بذلك عجبا آخر

مركبا! دلنا عليه هذا الفتح! وغير المنغلق من بعده! وإلا لا نصراف القارئ إلى ما بعده من آي الذكر الحكيم! هذا القرآن العظيم!!!! ليمنح كل معنى ممكن أن يناله عَجَبٌ: من إعجازه! وتحديه في بلاغته، وأخباره الماضية، والحالية، والمستقبلة، وما حواه من أحكام، وقصص، وعبر، وآيات مسطورة، ولفت إلى أخرى منظورة، ومما لو فُصِّلَ لما حوته خزائن كثيرة، فجاء هذا القرآن مفصلا وموجزا في آن واحد! وهذا مما يخرج عن نطاق قدرة بشر! أو غير بشر! ومهما أوتوا!

وعلى أن مجيء المفردة ﴿عَجَبًا﴾ هكذا لتوحي بمآلات بلاغية أقوي! وحين كانت مصدرا هكذا! وبدل أن تأتي وصفا، ومن قول: عجيب! وهكذا يضع الكتاب الحكيم أيدينا على لمساته، وكم هي لمساته! وعلى إعجازه، وكم هو معجز هذا القرآن! وعلى دلالاته، وكم هو مبهر هذا الفرقان! وحين كان منه التحدي! وبه الصرفة أيضا!

على أن الوصف يظل مخيما بظلاله! وحين جاءت المفردة صفة للقرآن، ومن حيث القواعد النحوية، وليجتمع منهما المصدر كأقوى، ومن النحو كصفة أوفى!

وهذه مجامع كونه عجبا! وكما كان من بليغ قول، وبيان وصف، لهكذا قرآن ربنا سبحانه، وحين قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا أي في فصاحة كلامه. وقيل: عجبا في بلاغة مواعظه. وقيل: عجبا في عظم بركته. وقيل: قرآنا عزيزا لا يوجد مثله. وقيل: يعنون عظيما [١].

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٩/٧

﴿يَهْدِي﴾! اهتدت الجن أن القرآن يهدي؛ والهدى غير الدلالة، ذلك لأنك قد تدل على طريق ما، ولست تبغي محبة وصول إليه، أما الهدى فيحمل معنى ذلك!

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾! والقرآن يهدي إلى الرشد كله؛ فليس ثمة رشد إلا وقد هدى إليه، وذلك ليس إلا للقرآن! ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥]! وحين يعدلون قوانينهم كل حين مرة أو مرتين؟! لأنها غير محيطة!

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. من استعاذ بالله وحده صادقا أعاذه؛ أما غيره فيزيده رهقا إلى رهق كان ملما به سلفا، وحين استدبر الهدى، وتنكب الصلاح!

إن البدعة لا تأتي إلا ممن حاد من جنس هذا الإنسان! فالجن نسبت الاستعاذة بغير الله إلى الإنس! ولم تنسب ذلك إلى غيره! فإن هذا النفر من الجن يعلمون عن الإنسان مالم يعلمه من نفسه! وفي إشارة إلى هذا الإنسان! وبما يملك من أدوات المعرفة، حسبما يتظاهر، وكان أولى ألا يقع تحت وطأة شيطان مارد، وبهذه الصورة الكالحة، وحين استبدل الاستعاذة من كونها بالله إلى ما سواه!

وعلى أن الجن أنفسهم قد قالوا قول الحق، وحين قال الله تعالى عنهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]. وقال الله تعالى عنهم أيضا ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤ و١٥].

إن الإنسان خلق، وفي قلبه طاقات خلابة، تغنيه عن أن يستعيذ بمخلوق مثله، فكان الأولى الالتجاء إلى الله وحده في دفع الشرور والمنغصات والأوهام والأساطير.

إن المخلوق كمثل المخلوق ينتابه ألم، ووجع، وخوف، ورجفة، واضطراب، ووجل؛ فالأحرى إذًا الالتجاء بمن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]!

إن الاستعاذة بالله تعالى وحده تجلب نفعين هما: دفع المضرة، وجلب المنفعة، أما الاستعاذة بغيره ففيها ضرران بالغان محدقان: ضرر الرهق، وضرر زيادته معه!

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾! لم يعمم هذا النفر من الجن؛ لأن الحنفاء لايخلو منهم زمان! وهذه براعة في التعبير، ند عنها الفصحاء، وغاب عنها الأدباء! ولم يدركها البلغاء! ويكأنهم كانوا، وعلى مثل قول نبينا ونبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قال قوله هذا: لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة [١].

إن عقيدة الجن في الله كانت ثابتة، بل أثبت من الثبات نفسه! راسخة، بل أشد رسوخا من الرسوخ نفسه؛ لأنهم يحكون عن الإنسان شفقة عليه! ولأنهم كانوا في معزل عن شطط الشرك، إلا من استثنوا من جنسهم.

إن المسلم- وحسب- هو الرشيد! وحين كان من وصفه هذا: أنه متحر باحث عن مواطن الرشد، ومظانه! ولهكذا قول الجن! ﴿فَمَنْ

(١) صحيح مسلم: ١٩٢٣

أَسْلَمَ فَأُولَـٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤]! وقد أقره القرآن المجيد، بدلالة سوقه، وكما جاء عنهم، بلسانهم، قولا حقا! وحديثا صدقا!

على الناس أن يتحروا الرشد من مظانه، ومظانه اليقينية في إسلام الوجه لله تعالى. ومنه سبيله تعالى، وما أودعه هذا الكتاب الكريم الخالد القرآن المبين والذكر الحكيم، وسنة خاتم النبيين وإمام المرسلين نبينا محمد ﷺ، وحينها ليأكلن الناس ومن أيديهم ومن خلفهم! وعن أيمانهم وعن شمائلهم؛ ولأن هذا هو قول الجن ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَـٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾. وبدلالة إقرار القرآن الحكيم لذلك أيضا؛ ومن حيث لم يرد نقض له.

وقال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

شهادة يهود بقرب مبعثه ﷺ وقصة إسلام سلمان الفارسي

عن سلمان الفارسي: كنتُ رجلًا فارسيًّا من أهلِ أصبهانَ من أهلِ قريةٍ منها يقال لها : جيٌّ وكان أبي دِهقانَ قريتِه وكنتُ أحبَّ خلقِ اللهِ إليه فلم يزلْ به حبُّه إيايَ حتى حبسني في بيتِه أي ملازمُ النَّارِ كما تُحبس الجاريةُ وأجهدتُ في المجوسيَّةِ حتى كنتُ قاطنَ النارِ الذي يوقدُها لا يتركها تخبُو ساعةً قال : وكانت لأبي ضَيعةٌ عظيمةٌ قال فشغل في بنيانٍ له يومًا فقال لي : يا بُنيَّ إني قد شُغِلتُ في بنيانٍ هذا اليومَ عن ضَيعتي فاذهبْ فاطلُعها وأمرني فيها ببعضِ ما يريدُ فخرجت أريدُ ضَيعتَه فمررتُ بكنيسةٍ من كنائسِ النَّصارى فسمعتُ أصواتَهم فيها وهم

يُصلُّون وكنتُ لا أدري ما أمر الناسِ لحبسِ أبي إيايَ في بيتِه فلما مررتُ بهم وسمعتُ أصواتَهم دخلتُ عليهم أنظرْ ما يصنعون قال : فلما رأيتُهم أعجبَتْني صلاتُهم ورغبتُ في أمرِهم وقلتُ : هذا واللهِ خيرٌ من الدِّينِ الذي نحنُ عليه فواللهِ ما تركتُهم حتى غربتِ الشَّمسُ وتركتُ ضَيعةَ أبي ولم آتِها فقلتُ لهم : أين أصلُ هذا الدِّينِ ؟ قالوا : بالشَّامِ قال : ثم رجعتُ إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلتُه عن عملِه كلِّه قال فلما جئتُه قال : أي بُنيَّ أين كنتَ ؟ ألم أكن عهدتُ إليك ما عهدتُ ؟ قال ؟ قلتُ : يا أبتِ مررتُ بناسٍ يُصلُّونَ في كنيسةٍ لهم فأعجَبني ما رأيتُ من دينِهم فواللهِ ما زلتُ عندهم حتى غربتِ الشَّمسُ قال : أي بُنيَّ ليس في ذلك الدِّينِ خيرٌ دينُك ودينُ آبائِك خيرٌ منه قال : قلتُ : كلا واللهِ إنه خيرٌ من دينِنا قال : فخافَني فجعل في رجليَّ قَيدًا ثم حبَسني في بيته قال : وبعثتُ إلى النَّصارى فقلتُ : لهم إذا قدم عليكم رَكبٌ من الشامِ تجارٌ من النَّصارى فأخبروني بهم قال : فقدم عليهم رَكبٌ من الشامِ تجارٌ من النَّصارى قال : فأخبروني بهم قال : فقلتُ لهم : إذا قضُوا حوائجَهم وأرادوا الرَّجعةَ إلى بلادِهم فآذِنوني بهم قال : فلما أرادوا الرَّجعةَ إلى بلادِهم أخبروني بهم فألقيتُ الحديدَ من رجليَّ ثم خرجتُ معهم حتى قدمتُ الشَّام فلما قدمتُها قلتُ : من أفضلُ أهلِ هذا الدِّينِ قالوا : الأسقفُ في الكنيسةِ قال : فجئتُه فقلتُ : إني قد رغبتُ في هذا الدينِ وأحببتُ أن أكون معك أخدمُك في كنيستِك وأتعلَّمُ منك وأصلِّي معك قال : فادخُلْ فدخلتُ معه قال : فكان رجلَ سوءٍ يأمرُهم بالصدقةِ ويرغبُهم فيها فإذا جمعوا إليه منها أشياءَ اكتنزه لنفسِه ولم يعطه المساكينَ حتى جمع سبعَ قِلالٍ من ذهبٍ وورقٍ قال : وأبغضتُه بغضًا شديدًا لما رأيتُه يصنعُ ثم مات فاجتمعت إليه النصارى لِيدفنوه فقلتُ لهم : إنَّ هذا كان رجلَ سوءٍ يأمركم بالصدقةِ ويرغبُكم فيها فإذا جئتُموه

بها اكتنزَها لنفسِه ولم يُعطِ المساكينَ منها شيئًا قالوا : وما علمُك بذلك ؟ قال : قلتُ : أنا أدلُّكم على كنزِه قالوا : فدَلَّنا عليه قال : فأريتُهم موضعَه قال : فاستخرجُوا منه سبعَ قِلالٍ مملوءةً ذهبًا وورقًا قال : فلما رأوها قالوا : واللهِ لا ندفنُه أبدًا فصلبُوه ثم رجمُوه بالحجارةِ ثم جاؤوا برجلٍ آخرَ فجعلوه بمكانِه قال : يقول سلمانُ : فما رأيتُ رجلًا لا يُصلِّي الخَمسَ أرى أنه أفضلَ منه أزهدَ في الدنيا ولا أرغبَ في الآخرةِ ولا أدأبُ ليلًا ونهارًا منه قال : فأحببتُه حبًّا لم أُحبُّه من قبلَه وأقمتُ معه زمانًا ثم حضرتْه الوفاةُ فقلتُ له : يا فلانُ إني كنتُ معك وأحببتُك حبًّا لم أُحبُّه من قبلِك وقد حضرك ما ترى من أمرِ اللهِ فإلى من تُوصي بي ؟ وما تأمرُني ؟ قال : أيْ بُنيَّ ما أعلمُ أحدًا اليومَ على ما كنتُ عليه لقد هلك الناسُ وبدَّلوا وتركوا أكثرَ ما كانوا عليه إلا رجلًا بالمَوصلِ وهو فلانٌ فهو على ما كنتُ عليه فالْحَقْ به قال : فلما مات وغُيِّبَ لحقتُ بصاحبِ المَوصلِ فقلتُ له : يا فلانُ إنَّ فلانًا أوصاني عند موتِه أن ألحقَ بك وأخبرَني أنك على أمرِه قال : فقال لي : أقِمْ عندي فأقمتُ عنده فوجدتُه خيرَ رجلٍ على أمرِ صاحبِه فلم يلبثْ أن مات فلما حضرته الوفاةُ قلتُ له : يا فلانُ إنَّ فلانًا أوصى بي إليكَ وأمرَني باللُّحوقِ بك وقد حضرك من اللهِ عزَّ وجلَّ ما ترى فإلى من تُوصي بي ؟ وما تأمرُني ؟ قال : أي بُنيَّ واللهِ ما أعلم رجلًا على مثلِ ما كنا عليه إلا رجلًا بنَصيبينَ وهو فلانٌ فالْحقْ به قال : فلما مات وغُيِّبَ لحقتُ بصاحبِ نصِيبينَ فجئتُه فأخبرتُه بخبري وما أمرَني به صاحبي قال : فأقِمْ عندي فأقمتُ عندَه فوجدتُه على أمرِ صاحبَيه فأقمتُ مع خيرِ رجلٍ فواللهِ ما لبث أن نزل به الموتُ فلما حضر قلتُ له : يا فلانُ إنَّ فلانًا كان أوصى بي إلى فلانٍ ثم أوصى بي فلانٌ إليك فإلى من تُوصي بي ؟ وما تأمرُني ؟ قال : أيْ بُنيَّ واللهِ ما نعلم أحدًا بقِيَ على أمرِنا آمرُك أن تأتيَه إلا رجلًا بعَمُوريَّةَ فإنه بمثلِ ما

نحنُ عليه فإن أحببتَ فأْتِه قال : فإنه على أمرِنا قال : فلما مات وغُيِّبَ لحقت بصاحبِ عَموريَّةَ وأخبرتُه خبري فقال : أَقِمْ عندي فأقمتُ مع رجلٍ على هدْي أصحابِه وأمرِهم قال : واكتسبتُ حتى كان لي بقَراتٌ وغُنَيمةٌ قال : ثم نزل به أمرُ اللهِ فلما حضر قلتُ له : يا فلانُ إني كنتُ مع فلانٍ فأوصى بي فلانٌ إلى فلانٍ وأوصى بي فلانٌ إلى فلانٍ ثم أوصى بي فلانٌ إليك فإلى من تُوصي بي ؟ وما تأمرُني ؟ قال : أيْ بُنيَّ واللهِ ما أعلمُه أصبحَ على ما كنا عليه أحدٌ من الناسِ آمرُك أن تأتيَه ولكنه قد أظلك زمانُ نبيٍّ هو مبعوثٌ بدينِ إبراهيمَ يخرج بأرضِ العربِ مهاجرًا إلى أرضٍ بين حَرَّتينِ بينهما نخلٌ به علاماتٌ لا تَخفى يأكلُ الهديَّةَ ولا يأكلُ الصَّدقةَ بين كتِفَيه خاتمُ النُّبوَّةِ فإنِ استطعتَ أن تلحقَ بتلك البلادِ فافعلْ قال : ثم مات وغُيِّبَ فمكثتُ بعمورِيَّةَ ما شاء اللهُ أن أمكثَ ثم مرَّ بي نفرٌ من كلبٍ تُجَّارًا فقلتُ لهم : تحمِلوني إلى أرضِ العربِ وأُعطيكم بقَراتي هذه وغُنيمَتي هذه قالوا : نعم فأعطيتُهموها وحمَلوني حتى إذا قدِموا بي وادي القُرى ظلمُوني فباعوني من رجلٍ من اليهودِ عبدًا فكنتُ عندَه ورأيتُ النَّخلَ ورجوتُ أن تكون البلدُ الذي وَصفَ لي صاحبي ولم يحقْ لي في نفسي فبينما أنا عنده قدِم عليه ابنُ عمٍّ له من المدينةِ من بني قُريظةَ فابتاعني منه فاحتملَني إلى المدينةِ فواللهِ ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُها بصفةِ صاحبي فأقمتُ بها وبعث اللهُ رسولَه فأقام بمكةَ ما أقام لا أسمعُ له بذكرٍ مع ما أنا فيه من شُغلِ الرِّقِّ ثم هاجر إلى المدينةَ فواللهِ إني لفي رأسِ عذقٍ لسيدي أعملُ فيه بعضَ العملِ وسيدي جالسٌ إذ أقبل ابنُ عمٍّ له حتى وقف عليه فقال : فلانٌ قاتَل اللهُ بني قَيلَةَ واللهِ إنهم الآن لمُجتمعونَ بقُباءَ على رجلٍ قدِم عليهم من مكةَ اليومَ يزعمون أنه نبيٌّ قال : فلما سمعتُها أخذتْني العرواءُ حتى ظننتُ أني سأسقطُ على سيدي قال : ونزلتُ عن النَّخلةِ فجعلتُ أقولُ

لابنِ عمِّه ذلك ماذا تقولُ ؟ ماذا تقول ؟ قال : فغضِب سيِّدي فلكَمني لكمةً شديدةً ثم قال : مالكَ ولهذا ؟ أقبِلْ على عملِك قال : قلتُ : لا شيءَ إنما أردتُ أن أستثْبتَ عما قال : وقد كان عندي شيءٌ قد جمعتُه فلما أمسيتُ أخذتُه ثم ذهبتُ به إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهو بقُباءَ فدخلتُ عليه فقلتُ له : إنه قد بلغَني أنك رجلٌ صالحٌ ومعك أصحابٌ لك غُرباءُ ذَووا حاجةٍ وهذا شيءٌ كان عندي للصدقةِ فرأيتُكم أحقَّ به من غيرِكم قال : فقرَّبتُه إليه فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابِه : كُلوا وأمسكَ يدَه فلم يأكلْ قال : فقلتُ : في نفسي هذه واحدةٌ ثم انصرفتُ عنه فجمعتُ شيئًا وتحوَّل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى المدينةِ ثم جئتُ به فقلتُ : إني رأيتُك لا تأكلُ الصَّدقةَ وهذه هديةٌ أكرمتُك بها قال : فأكل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ منها وأمر أصحابَه فأكلوا معه قال : فقلتُ : في نفسي هاتان اثنتانِ ثم جئتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهو ببقيع الغرقدِ قال : وقد تبع جنازةً من أصحابِه عليه شَملتانِ له وهو جالسٌ في أصحابه فسلَّمتُ عليه ثم استدرتُ أنظرُ إلى ظهرِه هل أرى الخاتَمَ الذي وَصف لي صاحبي ؟ فلما رآني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استدرتُه عرف أني استثْبتُ في شيءٍ وُصِف لي قال : فألقى رداءَه عن ظهرِه فنظرتُ إلى الخاتمِ فعرفتُه فانكببتُ عليه أُقبِّلُه وأبكي فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : تحوَّلْ فتحوَّلتُ فقصصتُ عليه حديثي كما حدَّثتُك يا ابنَ عباسٍ قال : فأعجب رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن يسمع ذلك أصحابُه ثم شغل سلمانُ الرِّقَّ حتى فاته مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بدرٌ وأُحُدٌ قال : ثم قال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : كاتِبْ يا سلمانُ فكاتبتُ صاحبي على ثلاثمائةِ نخلةٍ أُحيبها له بالفقيرِ وبأربعينَ أُوقيَّةً فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابه : أَعينُوا

أخاكم فأعانُوني بالنَّخلِ الرجلُ بثلاثين ودِيَّةً والرجلُ بعشرين والرجلُ بخمسَ عشرةَ والرجلُ بعشرٍ يعنى الرجلَ بقدرِ ما عنده حتى اجتمعَتْ لي ثلاثمائةِ وَدِيَّةٍ فقال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ اذهبْ يا سلمانُ ففقِّرْ لها فإذا فرغْتَ فائتِني أكون أنا أضعُها بيديَّ ففقَّرتُ لها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغتُ منها جئتُه فأخبرتُه فخرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معي إليها فجعلْنا نُقرِّبُ له الوَدِيَّ ويضعُه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بيدِه فوالذي نفسُ سلمانَ بيدِه ما ماتتْ منها وَدِيَّةٌ واحدةٌ فأدَّيتُ النَّخلَ وبقِيَ عليَّ المالُ فأُتِيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمثلِ بيضةِ الدَّجاجةِ من ذهبٍ من بعضِ المغازي فقال : ما فعل الفارسيُّ المُكاتَبُ قال : فدُعيتُ له فقال : خُذْ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمانُ فقلتُ : وأين تقعُ هذه يا رسولَ اللهِ مما عليَّ ؟ قال : خُذْها فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سُيؤدِّى بها عنك قال : فأخذتُها فوزنتُ لهم منها والذي نفسُ سلمانَ بيدِه أربعينَ أُوقيَّةً فأوفيتُهم حقَّهم وعُتِقتُ فشهدتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الخندقَ ثم لم يَفُتْني معه مشهدٌ [(١)].

وإذ قالت يهود: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم [(٢)]. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٨٩]! وهذا شأن يهود!

قال سلمان: وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية. ومنه فإن قرار المرأة في بيتها كان معروفا حتى عند المجوس!

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٢/٥٥٦
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢/٣٧٧

وإذ تنقل سلمان الفارسي ما بين فارس إلى الشام إلى الروم إلى المدينة، عبدا يباع ويشترى، في بحث دؤوب عن الحق، وآحادهم أمامه الحق، ولا يكاد يسيغه!

أظل زمان نبي، بدين إبراهيم بأرض العرب، مهاجره أرض بين حرتين، بينهما نخل، علاماته: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة! وهذه صفات النبي الأمي التي كانت عند يهود!

وبعث الرسول فأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر، مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة. وهذا تتبع حثيث من سلمان لمقدم رسول الهدى! وفيه شدة حرصه على ذلك.

ومنه فإن حرص امرئ على الشيء يجعله هاجسه إلى أن يظفر به. وكما قال الشاعر محمد بن بشير الخارجي:

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته   ومدمن القرع للأبواب أن يلجا.

فلما سمعت مبعثه أخذتني العرواء. والعرواء: الرعدة من البرد والانتفاض. وهذا شأن سلمان لما سمع بمبعثه ﷺ! ونسمع دائما ذكره ﷺ، وحالنا هو حالنا!

قدم سلمان صدقة للرسول وصحبه، فأمر أصحابه أن يأكلوا، ولم يأكل هو ﷺ!! فتأكد سلمان من صدق النبوءة في السؤال الأول لاختبار النبوة!

وفيه التثبت في الخبر! وبحث دؤوب عن الحق؛ ليرق القلب له، وإذ لا يتصيد! وفرق بينهما عظيم!

رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل الرسول ﷺ! منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت: هاتان ثنتان. الهدية علو هامة، وسموق قامة، ويدها يد عليا! دون الصدقة فإنها يد سفلى!

فلما رآني الرسول ﷺ استدبرته، عرف أنى أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته. وهذه الثالثة!

صفة نبينا ﷺ عند أهل الكتاب أنه لا يأكل الصدقة ويقبل الهدية وبين كتفيه خاتم النبوة.

قبل نبينا ﷺ الهدية؛ لأنها تعلي من قيمة المهدِي، وترفع من شأن المهدَى إليه.

وإذ كان نبينا ﷺ لا يأكل الصدقة؛ لأنها أوساخ الناس.

إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس (١).

حث ديننا على الصدقة، لأنها مواساة للمستحق، ولأنها سبب لدفع بلاء عن المنفق، وكونها ابتغاء وجه ربه تعالى في الأساس.

أعلى الإسلام من شأن الهدية، حتى كانت سببا في إشاعة الألفة بين العباد، ومنه الحديث: تَهادَوا تحابُّوا (٢).

وكان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها (٣) .

وإذ تحققت الأنباء الثلاثة لسلمان عن رسول الله ﷺ، فأسلم وجهه وقلبه لله تعالى وهو محسن، إلا أنه بقي رقا، وحتى فاتته غزوتا

---

(١) صحيح مسلم: ١٠٧٢
(٢) الأدب المفرد: البخاري: ٥٩٤
(٣) صحيح البخاري: ٢٥٨٥

بدر وأحد، إلى أن أوصله نبينا ﷺ بالمكاتبة فكاتب، وبعد أن أعانه الصحب الكرام على أدائه، حتى كانت أول غزاة له هي الخندق، يوم حفر الخندق، وبمشورته رضي الله تعالى عنه.

علم نبوة ضاف

بيد أنه يذكر قوله: فأدَّيتُ النَّخلَ وبقِيَ عليَّ المالُ فأُتِيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمثلِ بيضةِ الدَّجاجةِ من ذهبٍ من بعضِ المغازي فقال: ما فعل الفارسيُّ المُكاتَبُ قال: فدُعيتُ له فقال: خُذْ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمانُ فقلتُ: وأين تقعُ هذه يا رسولَ اللهِ مما عليَّ؟ قال: خُذْها فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سُيؤدِّى بها عنك. قال: فأخذتُها فوزنتُ لهم منها والذي نفسُ سلمانَ بيدِه أربعينَ أُوقيَّةً فأوفيتُهم حقَّهم وعُتِقتُ فشهدتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الخندقَ ثم لم يَفُتْني معه مشهدٌ.

وهذا علم نبوة ضاف، وكما قد تعودنا أبدا في هذه السيرة النبوية المباركة الندية! وكيف يزن من كمثل بيضة الدجاجة أربعين أوقية ذهبا! أي ما يعدل في موازين الناس ما يربو على الكيلو جرام، ولأن الأوقية ٢٨ جراما ×٤٠ أوقية=١١٢٠ جراما ذهبا، ونحن نعلم يقينا كم هو تقريبا وزن بيضة الدجاجة! فدل والحال كذلك على كم كانت بركة هذا النبي ﷺ على أمته! وكم كانت هذه الأمة نفسها مباركة! حتى استأهلت هذا النبي الكريم، وصدق الله تعالى حين قال ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وأما قوله ﷺ: ما فعل الفارسيُّ المُكاتَبُ: ولأنه لم يكن معروفا لديهم إلى حد الشهرة، فنودي ببلده وصفته؛ وكيما يسهل التعرف

عليه، وهو مكاتب أيضا، وهذه صفته، ولعل أحدا يرق له، فيمنحه ما يعينه على قضاء ما يعينه على أمره!

خُذْ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمانُ: وهذا علاوة على كونه علم نبوة، وحين كان يقينه ﷺ بربه أنها ستفي بأداء ما عليه، إلا أنه أيضا أراد أن يغرس ذلكم اليقين في أصحابه، وأنه يمكن أن يكون العبد مباركا أينما حل، وببركة ذلك الدين الذي يحمله في قلبه، وأن ذلك ليس مقصورا على الأنبياء وحدهم، وذلك من فضله تعالى وجوده ومنه وكرمه.

وعلى أنه هكذا يكون الراعي، معينا لرعيته وعونا لهم!

ثم إن نداءه عليه باسمه هكذا: يا سلمانُ: كناية عن قرب يحمل معنى التلطف ونسيم المحبة وأريج الولاء!

قال سلمان: فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرا، ثم لم يفتني معه مشهد! وصنف هذا شأنه حقيق أن يدور الأرض كلها كي يسلم! وحقيق أن يثبت إيمانه كما الجبال الرواسي؛ ولأنه رأى اليقين بعيني رأسه، لا خبرا، وليس الخبر كالمعاينة.

وهو انتقال نوعي من عبادة النار إلى عبادة الله وحده، مع بذل وجهاد.

ومعروف متواتر أن فضل حفر الخندق كان له توفيقا منه تعالى لعبده.

وإذ سأل سلمان رجلا بين ضيعتين على وصف صاحب عمورية له: أخبرني عن الحنيفية دين إبراهيم. قال: إنك لتسأل عن شئ ما يسأل عنه الناس اليوم! ولذا؛ فإن الإسلام غريب عزيز، وفي كل حين.

إنه لم تكن هذه العقيدة التي طاف من أجلها سلمان المشارق والمغارب بهذا الرخص الذي يتدغدغه نفر من هذا الزمان أو ذاك!

تعلمن والله ما قومكم على شيء

اجتمع نفر من قريش، وتصادقوا أنهم ليسوا على شيء من دين إبراهيم، وتواصوا بالبحث عنه! وإذ قال قائلهم: تعلمن والله ما قومكم على شئ، لقد أخطؤوا دين إبراهيم وخالفوه، فما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع، فابتغوا لأنفسكم، قال: فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض [١]. وهذا صدق فئة على أنفسها؛ التماسا لطوق النجاة! ومنه فما أحوج الناس إلى الصدق مع أنفسهم؛ لأنه يمثل بداية طريق الخلاص! ولما يتركه من أثر تفاعلي في النفوس، فيحولها إلى أمر إيجابي، فتنهض من كبوتها، وتقوم من عثرتها.

فتش زيد بن عمرو عن الحق ولما لم يجد أحدا !قال: يا أهل مكة ما علمت أحدا على الإسلام غيري! ومنه فلا يضن امرؤ بحق يعلمه، وليبحث عن أنصار له. والإعلام بالحقيقة محرك ملكة مراجعة الضمير! وأنسك بما تحمل هو زادك وغناك به وحده، فاعتصم بربك. وحتمية المواجهة بالحق الدامغ. وغربة الحق وأهله!

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ١/ ١٢٧

الحنفاء الأربعة

وإذ كان هؤلاء الذين تصادقوا أنهم ليسوا على دين إبراهيم، وتواصوا بالبحث عنه أربعة هم: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وعبد الله بن جحش. وإن الحق لايقاس بكثرة الأتباع!

وقد كان نفر من قريش زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وعبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر بن صبرة بن برة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسعد بن أسد بن خزيمة، وأمه أميمة بنت عبد المطلب وأخته زينب بنت جحش التي تزوجها رسول الله ﷺ بعد مولاه زيد بن حارثة (١)

والمنصفون لا يخلو منهم زمان، والحنفاء يخلدون بأمر رب الأرض والسماء!

وعن ابن عمر: أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشأم يسأل عن الدين، ويتبعه، فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلي أن أدين دينكم، فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا، وأنى أستطيعه فهل تدلني على غيره، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديا، ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله، فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئا أبدا،

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٢ /٢٩٦

وأنى أستطيع فهل تدلني على غيره، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم، وقال الليث، كتب إلي هشام، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته، لا تقتلها، أنا أكفيكها مئونتها، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مئونتها (١).

والصحبة السيئة فيها هلاك أصحابها، ومنه فكان قمنا إعلان الفرار منها!

والصحبة الحسنة سبيل نجاة، فليعض عليها بالنواجذ! والركون إلى الفئة التي تعين على تنقية دين العبد مما قد علق به! والنفوس تواقة للحق إذا ما انقشع عنها هواها مجاهدةً! ولأنها مفطورة على الحق، وكما قال نبينا محمد ﷺ: يصلى على كل مولود متوفى، وإن كان لغية، من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام، يدعي أبواه الإسلام، أو أبوه خاصة، وإن كانت أمه على غير الإسلام، إذا استهل صارخا صلي عليه، ولا يصلى على من لا يستهل من أجل أنه سقط فإن أبا هريرة رضي الله عنه، كان يحدث، قال النبي ﷺ: ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون

---

(١) صحيح البخاري: ٣٦٥١

فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: {فطرت الله التي فطر الناس عليها} [الروم: ٣٠] الآية [١].

تعلمون والله ما قومكم على شيء! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم! هذا قول الحنفاء الأربعة! ومنه فإنه لابد من تصحيح مسار العقيدة في الله تعالى أولا.

والاعتراف بالذنب، والتوبة منه، سبيل إلى عونه تعالى لعبده؛ ليمن عليه بتصحيح مساره، وهذه مصارحة تزلزل الفؤاد؛ لتثمر إفاقة وبحثا حثيثا عن الحق.

تعلمون والله ما قومكم على شئ! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم! لا مجاملة ولا مواربة على حساب العقيدة في الله تعالى.

ما حجر نطوف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! هذا بيان الداء أولا؛ لينجع الدواء ثانيا. وفضل منه تعالى على إفاقة النفوس لعلها ترشد.

قصة زيد بن عمرو بن نفيل

عن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقدمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم سفرة، فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل

---

(١) صحيح البخاري: ١٣٥٨

لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله! إنكارا لذلك وإعظاما له [1].

وعن عبدالله بن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشأم يسأل عن الدين، ويتبعه، فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلي أن أدين دينكم، فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا، وأنى أستطيعه! فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم؛ لم يكن يهوديا، ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله، فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئا أبدا، وأنى أستطيع! فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم؛ لم يكن يهوديا، ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم [2].

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت كان زيد بن عمرو بن نفيل في الجاهلية يقف عند الكعبة ويلزق ظهره إلى صفحتها ويقول يا معشر قريش ما على الأرض على دين إبراهيم غيري وكان يفدى الموؤودة أن تقتل وقال عمرو بن نفيل[3]:

عزلت الجن والجنان عنى　　　كذلك يفعل الجلد الصبور.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٨٢٦
(٢) صحيح البخاري: ٣٨٢٧
(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٤١٨/٩. خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن.

وعن جابر بن عبدالله: عن جابر قال سئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية ويقول إلهي إله إبراهيم وديني دين إبراهيم ويسجد. فقال رسول الله ﷺ يحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى بن مريم. إسناده جيد حسن [1].

وعن سعيد بن زيد: أن زيد بن عمرو وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين، حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فقال لزيد بن عمرو: من أين أقبلت يا صاحب البعير؟ قال: من بنية إبراهيم، قال: وما تلتمس؟ قال: ألتمس الدين، قال: ارجع؛ فإنه يوشك أن يظهر الذي تطلب في أرضك، فأما ورقة فتنصر، وأما أنا فعرضت علي النصرانية فلم توافقني، فرجع وهو يقول: لبيك حقا حقا * تعبدا ورقا، البر أبغي لا الخال * وهل مهجر كمن قال: آمنت بما آمن به إبراهيم، وهو يقول: أنفي لك عان راغم * مهما تجشمني فإني جاشم. ثم يخر فيسجد. قال: وجاء ابنه إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أبي كان كما رأيت وكما بلغك، أفأستغفر له؟ قال: نعم؛ فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده. وأتى زيد بن عمرو على رسول الله ﷺ، ومعه زيد بن حارثة، وهما يأكلان من سفرة لهما، فدعواه لطعامهما، فقال زيد بن عمرو للنبي ﷺ: يا ابن أخي، لا نأكل مما ذبح على النصب [2].

بيد أن زيدا له شأن آخر؛ ذلك لأنه كما سوف يأتي قد بلغ الإسلام منه مبلغا، حتى أثر الحق في خلجاته وسكناته وحركاته، فخرج يهيم في أرض الله تعالى؛ بحثا عن حق، قد بسط نوره في قلبه، ولما قد تنصر غيره أو أشرك.

---

(١) البداية والنهاية: ٣٠٠/٢. خلاصة حكم المحدث: إسناده جيد حسن.
(٢) إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري: ١٠٤/١. خلاصة حكم المحدث: إسناده رجاله ثقات، وله شاهد.

وإذ فارق زيد بن عمرو بن نفيل دين قومه، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه [1]. ومنه فإن المواجهة بالعيب موقظة محفزة للعودة إلى الجادة.

لم يدخل زيد بن عمرو بن نفيل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه. وإذ لم يكن إمعة تابعا. بل كان موطنا نفسه، مائلا إلى الحق، معرضا عن الباطل.

وإذ قال زيد: اللهم لو أنى أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه. وهذه بشارات خير قادم؛ جزاء بحثه عن الحق، ونفرته من الشرك.

وإذ سأل سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعمر بن الخطاب وهو ابن عم زيد رسول الله ﷺ: أنستغفر لزيد بن عمرو؟ قال: نعم، وفيه شفقة ذي رحم على رحمه.

هذه شهادة فإنه يبعث أمة وحده. وهي شهادة الرسول لزيد. فرد يبعث أمة وحده؛ لأنه جانب الشرك حقا، ووحد الله حقا. وبه فأنت أمة حين تكون صحيح العقيدة. وأنت لا شيء حين يحل فسادها في الفؤاد!

أجمع زيد الخروج من مكة يطلب الحنيفية، فصدته صفية الحضرمية والخطاب بن نفيل عمه، وكان يعاتبه على فراق دين قومه. وهذه عقبات على الطريق، ولما لم يعبأ بها حنيفي كزيد أو حذا حذوه. وحين علم الله تعالى من عبده صدقا ذللها له.

كان زيد إذا استقبل الكعبة يقول: لبيك حقا حقا، تعبدا ورقا. وهذه ترانيم موحد، وكانت قريش تقول: لبيك اللهم لبيك لاشريك إلا شريكا تملكه وما ملك! وهذا شرك بين عواره!

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٤٧

وإذ آذى الخطاب زيدا فأخرجه إلى أعلى مكة، ووكل به شبابا من قريش وسفهائهم، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة. وهكذا الباطل عند مفاصلته!

وهو تسلية لأهل الحق أبدا! فلقد كان سلفهم في ذلكم زيد، وغيره من حنفاء، سطروا ميثاق العهد الغليظ مع ربهم الرحمن سبحانه، فانعتقوا من ربقة الشرك، وانحازوا بكليتهم إلى الإيمان به تعالى وحده، موحدين إياه تعالى، حين قد أفردوه سبحانه في ألوهيته وربوبيته، فأحلوا سلطانه في قلوبهم، قبل أن يكون واقعا فريدا محسوسا ملموسا في حياتهم!

لكنه ولما تغفل حقائق هذا الدين، وما يفعله في القلوب، حين يجعلها ساكنة مطمئنة إلى وعد ربها الحق سبحانه.

وإن صاحب العقيدة الصحيحة ليهون على الأقربين من قومه، قبل أن يكون قد هان أمره أمام الأغيار، ليتشفوا فيه، وما ذاك إلا لأنه يقول: ربي الله، وللحق الذي يحمله!

أخرج أهل مكة زيدا وآذوه لئلا يفسد عليهم دينهم! أرأيت نظرة الباطل إلى الحق كيف كانت، وحين صار المصلح مفسدا في نظرهم؟!

ولكنه ولما أن أخرجوه لدينه، وليس لشيء آخر عند المسلم غيره، وقد كان؛ ليحتسب ويصبر، ويزداد صلابة في دينه!

لاهـــم إني محـــرم لا حلـــه
وإن بيـــتي أوســـط المحلـــة
عند الصفا ليس بذي مضلة!

وهذه صلابة زيد عندما أخرجه قومه! ثبات في يقين، وعزم في إصرار!

وقال زيد: وما أفر إلا من غضب الله تعالى، ولا أحمل من غضب الله شيئا ولا أستطيعه. فحين صدق الله تعالى فصدقه. ومن يتحمل من غضبه تعالى وإن قل؟ وهو هدف سامق وغاية يبلغ شأوها السماء العالية!

خرج زيد يطلب دين إبراهيم عليه السلام، ويسأل حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام كله! وإذ لا يأتي الحق أحدا وهو متكئ على أريكته! فمن يخطب الحسناء لم يغله المهر!

لكنه ومما يوجب حيرة لفهم أولاء، ولما قد كانت فيهم بقية من دين أبيهم إبراهيم عليه السلام من قبل، ولما كان هو قدوة زيد، وهم يزعمون ذلك فلم العداء إذًا؟!

لكن فعل زيد ليس غريبا أمام باغ للخير مقبل عليه، ورافض للباطل معرض عنه، وذلك لأن المبتغى هو جنة عرضها السموات والأرض، أعدت لذلكم نفر قد بذلوا مهجهم رخيصة في سبيل الله تعالى مولاهم الحق، . ولما كانت الجنة هذا هو ثمنها فإن سلعة الله غالية!

إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم! هذا قول راهب! فما بال القوم لا يسلمون وعلى سنة راهبهم؟!

وهذا ناموس ضارب عهده! وإنه حين يعز الحق فيعز أهله! وغربة الحق وغربة أهله!

وإذ يجول زيد الأنحاء والأرجاء؛ عساه أن يجد على الحق أعوانا. فقد كان ذليلا بين أهله وذوي رحمه!!!

وإذ يقطع زيد الفيافي؛ بحثا عن حق، كان أهله أولى به؛ لأن فيهم بقايا من دين إبراهيم عليه السلام. وهذه حجة دامغة أن يقول رجل من بينهم: ربي الله؛ لئلا يعتذروا.

إن إخراج قريش لابنهم زيد إمعان في التنكر للرحم، وإيذان لإدارة الظهور لمعاني الرحمة، فماذا أنت قائل في صنف هذا شأنه مع الحق وأهله؟!

يهدهد أهل الحق قومهم، لكنهم يصرون على إذلالهم وإخراجهم من قريتهم، بسبب أنهم قوم يتطهرون! وهل رأيت أعجب من ذلك؟!

لكن قد أظل زمان نبي يخرج من بلادك (مكة)، هذا قول راهب لزيد! فلماذا لم يتبع القوم محمدا ﷺ، وحين بعث، وهو أعظم محبة لأخيه عيسى عليه السلام، مما يزعمون هم حبه؟!

أخبر راهب زيدا أن اليهودية والنصرانية شيء وأن إبراهيم كان حنيفا فلا يعبد إلا الله وحده. فدعا زيد ربه: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم.

خرج زيد إلى الشام، هو وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش فتنصروا، إلا زيدا فكان حنيفيا. لتبقى حجة الله قائمة.

وإذ يرجع زيد منطلقا إلى مكة، بعد بشارة الراهب بمبعث النبي محمد ﷺ، ليقتلوه شهيدا باحثا عن الحق محبا له مؤثرا عليه نفسه التي كانت بين جنبيه!

رشدت وأنعمت ابن عمرو، وإنما تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله وتركك أوثان الطواغي كما هيا[(1)]

هذا نعي ورقة لزيد رحمه الله.

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ١ / ١٥٦

ومنه فموت على الحق، أو حياة عليه، فذلكم هو سبيل المسلم الحق، الذي قد أسلم وجهه لله تعالى، وهو محسن، وهو شأنه ذلكم فرد قد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها!

قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا. هذا نبأ الرسول ﷺ عن جزاء زيد الحسنى. وهو طمأنة لكل حنيفي بجزاء الحسنى أيضا، مهما أخرج أو ضيق عليه أو أوذي.

فلو قد جاء المنحمنا- محمد بالسريانية- الذي يرسله الله إليكم...فهو شهيد على وأنتم [١]. هذا نص الإنجيل عن سيدنا عيسى النبي عليه السلام! فماذا هم قائلون؟!

قصة قس بن ساعدة

عن ابن عباس قال: قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيكم يعرف القس بن ساعدة الأيادي فقالوا كلنا يا رسول الله نعرفه قال فما فعل قالوا هلك قال ما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس وهو يقول:

يا أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هوآت آت إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحار لا تغور أقسم قس بالله قسما حقا لئن كان في الأرض رضا ليكونن بعده سخط إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفيكم من يروى شعره فأنشده بعضهم:

---

(١) إصحاح يوحنا (١٥)، عدد (٢٦).

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليك ولا من الباقين عابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

رواه الطبراني والبزار وفيه محد بن الحجاج اللخمي وهو كذاب [١]

أقسم قس بالله قسما لاريب فيه: إن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا! هذا قول قس ابن ساعدة، ناطق بالحق، دال على فطرته تعالى، حين تخلى من الهوى.

إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. استدلال مبسط من قس على الله تعالى. لا يعوزه دعم.

قيل إن أول من تأله الله هو قس بن ساعدة الإيادي. لهذا رُوِيَ عن الرسول ﷺ: رحم الله قسا، أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة واحدة.

قال الرسول ﷺ: والذي بعثني بالحق لقد آمن قس بالبعث [٢]. وهذا في قوم كانوا ينكرونه. وكما قال الله تعالى ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]. وكما قال الله تعالى ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]. وكما قال الله تعالى أيضا ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢]. ومنه فإن إجماع قوم على باطل لا يمنحه رخصة.

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٤١٨/٩و٤١٩
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ١٥٢/١

الفصل الثاني: من بعثته ﷺ وإلى هجرة الحبشة الثانية

وفيه مباحث:

المبحث الأول: بعثة النبي وبدء الوحي عليه ﷺ

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنه: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد الليالي ذوات العدد- ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، فقال له النبي ﷺ: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} حتى بلغ {علم الإنسان ما لم يعلم} [العلق: ١ - ٥]. فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة، ما لي؟ وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة؛ أخو أبيها، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي

أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا، أكون حيا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أومخرجي هم؟ فقال ورقة: نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا،ثم لم ينشب ورقة أن توفي. وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ -فيما بلغنا- حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه، تبدى له جبريل، فقال: يا محمد، إنك رسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك [1].

حبب الله تعالى إلى الرسول ﷺ الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده. ولأن الخلوة صفاء ونقاء، حين تكون تأملا واستدعاء لفيوضات الاعتبار والاستبصار.

إن خلوة التأمل ضرورية لاستدعاء طاقات الاعتبار لتقوية الآصرة بالله تعالى.

وما أجمل أن يحبب الله لعبده شيئا جميلا. وإذ كانت من علامات توفيق ودلالات إلهام. ذلك وأنه في حين كان من نعمه تعالى أن يحبب لعبده شيئا جميلا، فإن هناك آخرين مبتلون بشرورهم.

ومنه فإن جعل الإنسان من وقته كثيرا لخلوة التأمل، ولأنها زاده إلى التقوى، ومعينه إلى صفاء قلبه.

---

(١) صحيح البخاري: ٦٩٨٢

علم نبوة ضاف!

وعن جابر بن سمرة: إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن [1].

وإذ كان رسول الله ﷺ لا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. وهذه إرهاصات عهد جديد.

فالحجر والشجر يشهدان بالنبوة، وإذ يجادل فيها قوم آخرون!

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

ويبدو أن الحجارة لها مع الأنبياء شأن! فهذا نبي الله موسى عليه السلام يجر ثوبه؛ وليكشف الله به آيات بينات عج فيها الناس!

فعن أبي هريرة: كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى ﷺ يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فخرج موسى في إثره، يقول: ثوبي يا حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضربا فقال أبو هريرة: والله إنه لندب بالحجر، ستة أو سبعة، ضربا بالحجر [2].

والآدر: عظيم الخصيتين، وقيل: الأدرة في الرجل أن يصيبه فتق في إحدى الخصيتين.

والخلوة موجب أن يتحنث العبد وحده؛ استمطارا لدواعي الإخبات لربه الرحمن.

---

(١) صحيح مسلم: ٢٢٧٧
(٢) صحيح البخاري: ٢٧٨

وكون الخلوة شهرا؛ ربما كان فيه تقدير رباني، لأن تكون كافية لتصفية الذهن، فلا يستكثرنه العبد السالك. وكونها شهرا كاملا متواصلا أدعي لاتصال عملية التصفية والاعتبار.

كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرا، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية. حال الخلوة تتكشف أمامك تجليات يرق عندها قلبك.

حين خلوة العبد تتجلى أمامه منح هدى، وهبات رشد ولولا خلوته ما سقاه الله منها فيض عطاء! فاحرص على خلوتك، يكشف لك خيرا كان غائبا.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١].

بدء الوحي بالبسملة يدل على بركتها، وإنما تكون بركتها عند بدء كل عمل لابن آدم بها، ولأن الله تعالى بدأ بها عند أول الأمر ببزوغ فجر الإسلام.

وإذ بدأ الله تعالى بالبسملة؛ تعليما لنا أن نبدأ بها، وفيه دلالة على أنك تابع لا متبوع. كما أنها انعتاق من حولك كله، إلى حوله تعالى كله.

وإن بدء الوحي بذكر القراءة دليل على أهمية العلم وفضله، وكانت درجات العباد مبنية على مدى علمها لا بكثرة أموالها؛ ولقوله تعالى ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

إن بدء الوحي بذكر القلم دلالة على أنه أداة تعليم حسنة، ولأن العلم صيد، والكتابة قيد.

وإن ذكر القلم كأداة تعليم يبقيه ركيزة أساسية في العملية التعليمية، ومهما استحدثت وسائل أخر.

وإذ بدأ الوحي بإسناد فعل الخلق إليه تعالى؛ لعلمه تعالى أن قوما سيبلغ بهم الطيش أن ينكروه عليه سبحانه.

إن بدء الوحي بإسناد عملية الخلق إليه تعالى تنويه بجعله أساسا لعبوديتنا له سبحانه. وهو دليل على عظيم القدرة، التي لا يحدها حد، ولا يرد عليها قيد. وانظر حولك لترى خلقا غير متناه أوله أنت! وهو دليل على أنه المتفرد بالأمر، كما قد تفرد بالخلق، وفاعلو ذلك معتدون على حقه تعالى، ولا يبلغون فيه رشدا. وهو دليل على علمه وحده بما يصلح خلقه، وإسناد الأمر لغيره لا ينهض بعلاج لأدواء الناس؛ لأنهم قاصرون عن ذلك.

ربط الله تعالى بين عمليتي الخلق والأمر، كونهما له وحده؛ لصالح الخلق، لكن نفرا أبى إلا أن يحشر نفسه فيما لا طاقة له به، فضل وأضل.

بدأ الوحي بفعل الأمر ﴿اقْرَأْ﴾؛ تنويها بأننا مأمورون لا آمرون، تابعون لا مبتدعون، وهذه حقيقة العبودية له سبحانه.

وإذ بدأ الوحي بأمر الرسول؛ دلالة على أنه لا أحد فوق الأمر والنهي؛ لأن الله تعالى قال ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وإذ بدأ الوحي بذكر الأمر؛ دلالة على وجوب توطئة النفوس أن تتلقى أمره تعالى برضا وتسليم؛ لتفوز بفضل العبودية، ولتبرأ من حول البدعة والتشريع.

وإذ بدأ الوحي بقصر صفة الأمر عليه تعالى، وأنه لصالح العبيد؛ ولئلا يحشروا أنفسهم فيما لا قبل لهم به؛ لكن فريقا يأبى ذلك، وما هو ببالغه؛ قصورا عنه.

بدأ الوحي بقصر التسمية عليه تعالى؛ فمن أين جاءت بدعة (باسم الشعب) أو الشعوب كلها! وماذا عساها أن تحمل من هدى ليست ببالغته إلا بأمر ربها؟

بدأ الوحي بذكر أن السلطان كله لله تعالى؛ فمن أين جاءت بدعة أن الأمة مصدر السطات، وهي مسكينة لا تكاد تبلغ نحوا واحدا من سلطة واحدة؟!

بدأ الوحي بخطاب الرسول ﷺ؛ تنويها بقيمته؛ كيما توقره الأمة تبعا؛ لأنه لا أمة مجيدة بغير ميراث نبوة، يعتقها من براثن الهوى، ودركات الغي.

بدأ الوحي بذكر لفظ الربوبية؛ لما يحمله من معاني اللطف والحلم لرب كريم، كان ذا وصف لصيق به سبحانه.

بدأ الوحي بذكر لفظ الربوبية الكريم؛ تأكيدا على أنه لا رب لنا سواه، فيرحمنا ويأخذ بأيدينا إلى حيث هدانا وصلاحنا وانعتاقنا.

بدأ الوحي بذكر لفظ الربوبية؛ دليلا على أنه سبحانه ليس يريد بنا إلا خيرا دائما أبدا؛ لأنه هو الرؤوف الرحيم، وأما غيره ففيهم ما يوجب هروبا.

إن اتصال كاف الخطاب بلفظ الربوبية الكريم؛ دليل على مدى الرعاية الربانية لعبده محمد ﷺ، ولسائر من اتخذه ربا من العبيد؛ لأنه بهم رؤوف رحيم.

إن مجيء الاسم الموصول في قوله ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾؛ تنويه بعملية الخلق، وأنه لا قدرة لأحد أن يخلق، ولو جناح بعوضة، أو حتى فيلا! فذلكم خارج نطاقنا!

فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ: هذا إيذان فعل التكاليف في المكلف، وأن الأمر جد ويحتاج إلى مجاهدة، وانظر قوله تعالى ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

إن الجد مع التكاليف الشرعية هو منهج الأنبياء والرسل، كما قد آذن به جبريل عليه السلام. وهو إعمال لداعي الخوف من الله تعالى؛ لتثمر جدا آخر؛ إعمالا لها في الواقع.

إن النظر إلى التكاليف الشرعية من باب التيسير فقط داع إلى التحلل منها.

وفيه وجوب بذل الوسع مع التكاليف الشرعية، وما كان خارج الوسع، فههنا مساحة التجاوز والمسامحة.

إن ما أوقع الناس في الانعتاق من التكاليف هو النظر إليها من جانب تغليب الرجاء على الخوف، وهذا مسلك غير صالح.

إنه يجب مجاهدة النفس، لإلزامها بموجب العبودية، وموجبها هو الوقوف مع النص. ولأنه تعالى قال ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

إنه لو علمت قريش أن إسلامها معناه: التحلل من التكاليف، لأسرعت إليه الخطا، لكنها كانت أعرف أن لازم القول العمل.

قلت: ما أقرأ؟ هذا استفهام كما هو باد من سياق النص، وليس اعتراضا كما قد قيل. فرسولنا ﷺ معلم الأدب وحسن الأخلاق أبدا.

وهذا استفهام استعلام، وهو تعليم لأدبه عند استغلاق الجواب، وإنما كان شفاء العي السؤال، كيما تكون عبادة الله على بصيرة.

يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. هذا إيذان عهد جديد عنوانه ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا﴾ [المزمل: ٥]. ليعد عدته لأمر عظيم، يواجه به أمة مستغرقة في غياهب الغي.

وهذه طمأنة ملك لرسول لا عهد له وحين غته، وهو قد بلغ منه الجهد. ومنه فإن سوق التكاليف بقالب الرضا قمن لاستقبالها على وجهها برضا أيضا.

وهذا خطاب التكليف بكلام موجز، ومنه فإن إيجاز العبارة قمن أن يعيها المستقبل تامة غير منقوصة، وليؤديها تامة كاملة أيضا.

وجاء خطاب التكليف حين تحنثه ﷺ؛ تهيئة للمستقبل، لتقبل الرسالة على وجه التسليم. وهذه رسالة إعلامية مجيدة. وقد وقع هذا بعد أن غته وأقرأه. ومنه فلا تلقى بالتكاليف دفعة واحدة، فالتدرج بها داع لقبولها يسيرة غير مرهقة.

فغتني به حتى ظننت أنه الموت (ثلاثا). وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتكلم ثلاثا. فتكرار الكلام أدعى لانتباه السامع، وإثارة مجامعه لحسن الاستقبال.

فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء. وهذه من قدرة ربنا الرحمن سبحانه، أن هيأه على تلكم صورة مهيبة!

إن جبريل الملك عليه السلام، وحين نقف على هكذا وصف له، وإنما وحينا لتقشعر من صفته هذه الأبدان! وحين كان له جناحان، وقد بلغ من عظمهما أنهما يسدان الأفق! وحينها تسبح الخلائق بحمد رب خالق عظيم، وإذ كان من خلقه، ومن مثل هذا الملك جبريل عليه السلام!

خديجة تستبطئ زوجها ﷺ!

وانصرفت راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها مضيفا إليها [1]. إن الزوجة الحانية محضن إلف، وصناعة وفاء، وعامل جذب، وركن عطاء. وإن الانصراف إلى محضن الأسرة، والرجوع إلى مصنع الوفاء، وفاء وإخلاص. وإن سلوى امرئ في بيته أولا، وإشعار لأهله بقيمتهم، ومبالغة فيه، وكل ذلك خلق حسن جميل.

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٥٦

إن صناعة أسرة يتبادل فيها الإلف فضل رباني، فهذه زوجة تبحث، وهذا زوج يرجع إليها! وإن الزوجة الحانية محضن إلف، وصناعة وفاء، وعامل جذب، وركن عطاء. وإن صناعة أسرة يتبادل فيها الإلف فضل رباني، فزوجة تبحث وزوج يرجع إليها!

وهذا بيان دلالي عميق، يوحي بأثر فعل أسرة متضامة في أفرادها ومكوناتها.

إن ذكر اسم الزوجة على الملأ ليس عيبا، فمن أين جاءت بدعة إخفائها؟! وهذا هو نبينا ﷺ يذكر خديجة، وهذا قول ربنا سبحانه ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

إن ذكر الأهل اسما ووصفا دليل محبة وعامل جذب وقدوة صلاح. وبرهان ذكره ﷺ اسم خديجة وغيرها من نسائه ذكرا حسنا عددا جميلا منيفا.

(انصرفت- راجعا): وهذه مزاوجة في استعمال مفردات اللغة، توحي بتضلعه فيها. وهو تعبير دال بتركيبه العميق على مدى فعل زوجة حانية في زوجها ليركن إليها! وإن الزوجة الحانية على زوجها تحرك مشاعره نحوها، وتثير عاطفة مودته إليها.

إن حسن إدارة الأسرة توفيق رباني، قبل أن يكون فنا ذاتيا ماهرا. إن أسرة عرفت ربها كان الإلف والتوفيق نصيبها. وإن أسرة كان الإيمان حصنا لها فعيشها رغيد، ورأيها سديد، ومحياها سعيد! وإن أسرة لا إيمان يرعاها، فلا تسل عن كيف كان شقاؤها أو نكدها أو إملاقها.

زوجة تتحسس زوجها!

قالت خديجة رضي الله تعالى عنها: فو الله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا إليَّ [1]! هذا فعل كريم من زوجة كريمة، ليحتذى به، وهو موجب لطف وحنان، لتتنشأ عليه الأجيال، أن هكذا حنو زوجة على زوجها، وهذا مثال زوجة يحتذى، وقدوة وفية تقتدى.

إن الزوج صنوان بيته، فيطلب حين يتأخر عن إلفه، ويتحسس حين غيابه عن عين زوجته وأسرته، وهذا من معاني الإلف والتراحم والمحبة والوفاء. وإنه إذا تأخر الزوج عن عادته فيتحسس مظانه، ويتطلب مكانه، وفاء وتقديرا وتكريما، فهو حق عشرته، وواجب أسرته.

فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فو الله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا أعلى مكة [2]. وهذا نداء حان لطيف هكذا بكنيته لا باسمه. وإن تقدير زوج حق قدره. والنداء بالكنية ألطف عبارة، وأندى إشارة. مع كل معامليك.

وإن تأكيد الكلام بالقسم لا يعني كذبا من قائله. وإن هذه زوجة حانية، وإذ تشعر بلهفة زوجة على زوجها، وحين قد غاب عنها يسيرا!

ثم حدثتها بالذي رأيت: يلاحظ أن أول من بث أمره إليها كانت زوجه خديجة. وليس غيرها، وهكذا يكون محضن أسرة متآلفة؛ تخفيفا لثقل الأحداث، وتتويجا لغاية المودة والرحمة.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٥٦
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٥٦

وفيه الحديث إلى من يؤمن إليه، وأوله زوجة حانية، وفيه إشعار لها بقربها، إمعانا في التآلف، وإدراكا لتفاعل أسري كان نبينا صلى الله عليه وسلم قدوته.

أبشر يا بن عم وأثبت، فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة [1]. إن البشرى الخير آمن للفؤاد، وأثبت للقلب، وحسن اتخاذها هذا نظام حياة. وهذه زوجة عالمة؛ لتتعلم الزوجات؛ لأن العلم النور، وكذا أفراد الأمة كلها. ولعل مصدر علمها كان مأخوذا مما كان يتداول بين أهل الكتاب بنبوءته ﷺ.

يا بن عم: هذا إلف الزوجية منضافا إلى إلف الرحم، فأضحى تعبيرا حانيا لطيفا!

وإذ كانت خديجة تعرف ربها، وعلى علم به تعالى، فأقسمت به وحده، لا شركا باللات والعزى. وإذ أكدت قولها بمؤكدين: القسم، وإنَّ. وهذا ثقة ويقينا في وعد ربها. وإن تأكيد الكلام تقوية له، وأمعن في استقباله على وجه الرضا به. وتأكيد ممزوج برجاء؛ لأن الغيب عنده تعالى وحسب، وهذه عقيدة في الله تعالى راسخة، وحسن حذو حذوها. ولأن قولا بغير ذلك، يعد قولا عليه تعالى بلا علم.

وهذا قول ظاهره الأمر، ومعناه تلطف به، واستدعاء لأمن نفس تواقة إليه.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٥٦

انطلاق خديجة إلى ورقة

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة [1]. وهذه حشمة امرأة في وسط مجتمع يعج بالفجور. وهذا كناية مروءة ودين وطهر وعفاف. وإذ كان هذا بيت نبي منتظر، فما بالك به! وهذا استدعاء آخر، ولما يجب أن تكون عليه امرأة أرادت لنفسها عفة وطهارة.

وهو اهتمام زوجة بأمر زوجها، وهو باعث لقراره، وعامل لاستقراره ووقاره. وحسن اقتداؤه. وفيه جوب وقوف الزوجة مع زوجها فيما يهمه، وكذا زوج مع زوجه، فذلك خلق التراحم، وهذا أدب التعاضد.

(قامت، فجمعت، انطلقت): وهذه تعابير تترى؛ لتفي بمقصودها. خفة، ونشاطا، وإقداما على تحقيق الهدف المنشود. وإذ كان التراخي في الأداء نظاما لايعرفه المجدون! والانطلاق إلى من تؤمن مشورته يكون عونا، لا معول هدم للقوى، ولا بعثرة للأهداف، ولا تبديدًا للآمال والطموحات العريضة.

فقولي له: فليثبت

والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت [2].

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٥٦

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٥٦

لقد: هذه مقدمات صحيحة، أفضت إلى نتائج صحيحة، أوجبت التأكيد.

يلاحظ أن ورقة لم يذكر ناموسا لعيسى عليه السلام، مع أنه كان نصرانيا؛ لأنه في مهده ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]. فأغني عن الناموس!

وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت! هكذا الأمور العظام ليست سهلة، لأن مناوئين كثر سيقفون طابورا عريضا؛ لصد هدى كاسح، سيخلع عنهم سلطانهم!

وليس يقال إن عونا ربانيا معه، فهذه مُسَلَّمَةٌ، لكنه يبقى أنها سنة ثابتة ليتسلى بها أصحاب الدعوات.

ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه [1]. ما ظنك بحق سوف يقض مضاجع الجبابرة المتألهين، ولو جاؤا في ثياب الواعظين؟! الحق جد لا هزل فيه. وهذه أربعة مقسم عليها: ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه. بعضها أشد من بعض، تنتظر أصحاب الدعوات الصادقة؛ ليعدوا لها عدة اليقين؛ وبما حملوا والصبر عليه.

وإنه إذا لم تصب العبد هذه الأربعة أو بعضها، فحري به مراجعة دينه الذي يحمله! لأنها عهد الدعاة الأزلي الأبدي، ولا استثناء منه!

وإن بدء النكال يبدأ ممن لا خلاق لهم، فليعتبر عبد، وليصطبر سالك، وليكن مشعل هدى وصلاح، ولا تثبطنه عثرات الطريق؛ فربه تعالى معه.

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٥٦

ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه [1]. وهكذا يقيض الله من عباده دعائم خير، ومشاعل هدى، وركائز صلاح. فمعيته تعالى مع عبده وليطمئن. وهذه همة أنصار الحق، لا تعرفها هوادة، ولا يعتريها فتور، ولا يدركها خور! وهكذا فإن صاحب الحق والنصير، كان همه الأوحد هو نصر دين ربه، ولا عليه من نفسه التي بين جنبيه!

إن مؤثري الراحة لا تعرفهم هذه التأكيدات! ولا عهد لهم بذلكم قسم!

وهذا فقه عظيم؛ لأنه يعلم أن نصره ربه تعالى، سيقابله نصر من الله، وفتح قريب، وبشرى للمؤمنين! وإذ كان همُّ أصحاب الحق هو نصر دين ربهم، خاليا عن مداهنة، مجافيا لمجاملة.

ثم أدنى ورقة رأسه من الرسول فقبل يافوخه [2]. هكذا في شفقة مما ينتظره، وهكذا في رحمة قذفها الله في قلبه؛ ليطمئن أصحاب الحق أنهم لهم أنصارا!

ومنه فإن الربت على صدور دعاة الحق يكون لفاعله أجر نصرته ومؤازرته وعونه.

إن في خبر اختبار خديجة لملائكية جبريل عليه السلام دلالة على فقهها، وخبرتها، وسبرها أغوار الحقيقة، إلى قعرها؛ لتعرف أين بدء طريق هائلة تضحياته!

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٥٦
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١/ ١٥٦

هَدْيٌ من وَحْيٍ

(زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ)(١)

هذا جزء من حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في شأن بدء الوحي على رسول الله محمد ﷺ، وكان من شأن قوم أن حُرِموا التوفيقَ رأيًا، كما قد مُنِعوا الرشادَ قولًا، أن جعلوه مادة للغط والمراء أخذًا وردًّا.

وإذ كان من شأنهم أنهم قالوا: وإذا كان الله تعالى قد أوحى فيما أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ إعدادًا له لتحمُّل مهام الرسالة، والقيام بأعباء النبوة، كما هو الشأن في رسل الله تعالى الكرام وأنبيائه عليهم السلام، فلم إذًا ذلكم الخوف قد أصابه، ولم إذًا ذلكم الوجل قد ألَمَّ به، وهو إذ يتلقى الوحي عن الروح الأمين عليه السلام، ومن ثم لِمَ لَمْ يثبته الله تعالى، وإذا كان الأصل أنه مثبت ربانيًّا، فدل على أن الحديث فيه مطعن؟!

وإن الإنسان ليعجب أن يقال هذا، وفي حق رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو في مرحلة الإعداد للرسالة، وإنه ليزداد عجبه وهو إذ لا يخرج عن مقتضى بشريته ﷺ، وهو إذ يتلقى أمرًا جديدًا لا عهد له به من قبل! فدل أيما دلالة على البشرية، كما أبان أعظم بيان على عدم خروجٍ عن ذلكم الناموس الذي هو عهده تعالى فيمن خلق من إنسي،

---

(١) صحيح البخاري، بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٣].

وفيما قد برأ من آدمي، فضلًا عن أن يكون نبيًا رسولًا؛ إذ هم - عليهم السلام - أشد بلاءً من غيرهم!

ورسول الله محمد ﷺ بشر من البشر، ويسري عليه قانون أحكمه الله تعالى في سائر البشر، ولا يكاد يخرج عنهم في شيء من ذلكم، إلا ما اقتضته طبيعة الرسالة وأعباؤها من جانب، وإلا ما أودعه الله تعالى في سائر رسله، مما يفوق الأغيار في جوانب عديدة، دلك عليها صبرهم لا كصبر أحدنا، ودلك عليها رضاهم لا كرضاء أحدنا، ودلك عليها قناعتهم لا كقناعة أحدنا، ودلك عليها قوتهم لا كقوة أحدنا، ودلك عليها شجاعتهم لا كشجاعة أحدنا، وفي كل ذلكم هم بشر، وكما قلت ويسري عليهم سَنَنُهُ تعالى في كل بشر.

ألم تر أنه ﷺ وُعِكَ لا كوعك غيره في مرضه الأخير الذي قد توفاه الله تعالى فيه، كما أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى عَنِ الحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَجَلْ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا)[١] .

والشاهد قوله ﷺ: (إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ)، فدل على الاشتراك في لأواء المرض ووعكاته، وهو ناموس رباني مودع في كل بشري، كما دل على اختلاف في نصيبه ﷺ من ذلكم الوعك، وأنه على

(١) صحيح البخاري: ٥٣٦٠

الضعف ممن سواه من الناس. اقتضاء لعهد النبوة، واتساقا مع أمر الرسالة.

ولا علاقة لذلك بثبات امرئ من عدمه، خاصة إذا كان رسولًا نبيًا؛ ذلك أن مثبتات الله تعالى لرسوله ﷺ لكثيرة، أخصك منها بمثالين بتثبيته تعالى لرسوله ﷺ، أحدهما ما كان بسبب ظاهر كالقرآن العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وثانيهما دونما ذكر لسبب ظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]، فتثبيته تعالى لنبيه محمد ﷺ بعصمته إياه عما دعاه إليه قومه من الفتنة، وهو ما عوفي بسببه من ميل، وهو ما برئ من أجله من ركون، ولذا كان من شأن رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية، أنه قال: لا تكلني إلى نَفْسي طَرْفَةَ عَيْنٍ[1].

بيد أن نفرًا من هؤلاء قد تغطى عنهم نور أضاء ما بين سطور قول رسول الله محمد ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: (إنَّا كذلِكَ، يَشتدُّ علينَا البَلاءُ ويُضاعفُ لنَا الأجرُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً؟ قالَ: الأنبياءُ ثمَّ الصَّالِحونَ، وقد كانَ أحدُهم يُبتلَى بالفَقرِ، حتَّى ما يجِدُ إلَّا العَباءَةَ يجُوبُها فيلْبسُها، ويُبتلَى بالقُمَّلِ حتَّى يقتُلَه، ولأحدُهُم كانَ أشدَّ فرَحًا بالبَلاءِ، من أحدِكم بالعَطاءِ)[2].

وقد كان يمكن بناءً على تخرُّص هؤلاء أن يقولوا: ولِمَ لَمْ يخفف الله تعالى عنه لا كمثل غيره من سائر البشر؟!

---

(١) تفسير الطبري: ج٨/ ١٢٠

(٢) صحيح الأدب المفرد، الألباني، الصفحة أو الرقم: ٣٩٥

وهو كما ترى سماجة قول، وتهافت رأي، وبلادة حس، أنبأك عنه ما سبق بيانه أن رسول الله ﷺ بشر كسائرهم من حيث هي البشرية، وأنه - وكما قلت آنفًا - إن اختلف عنهم في شيء، فإنما لا يخرجه ذلكم عن بشريته، كما أنها من طبيعة الأنبياء، كيما نتعلم عنهم صبرًا وحلمًا وجلدًا وعطاءً وبذلًا.

وأنهم إذا لم يكونوا كذلكم بشرًا، كما نحن مثلهم في البشرية، لا ستبعد أحدنا أن يطاولهم في مَكْرُمَة أو منقبة، أو أن يشاركهم في مَحْمَدَة أو مأثرة، أو أن يحذو حذوهم في خَصْلَة أو مفخرة، أو أن يكون مثلهم في مَزِيَّة أو فضيلة، أو أن يسلك سبيلهم في نافِلة أو شميلة!

وهو المتناغم مع مقتضى رحمته تعالى بمن أُرْسِلَ فيهم رسولٌ، أو فيمن بُعِثَ فيهم نبي؛ ذلك لأنه تعالى قال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فإنه منكم، وتعرفونه صادقًا أمينًا: ﴿ قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]، وإنه ليس من غيركم، فتتهموه على أنفسكم في النصيحة لكم، وإنه عزيز عليه عنتكم، وهو دخول المشقة عليكم والمكروه والأذى بكم، وإنه لحريص على هُدَى ضُلالكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق، وإنه بالمؤمنين به لرؤوف رفيق رحيم(١).

وليحص أهل الإحصاء فضائل حميدة كهذه فيمن تواتر نعته بها إلا رسول الله محمد ﷺ؛ من حيث إنه (رَسُولٌ، مِّنْ أَنفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ، رَّحِيمٌ).

ولقد بحثت وفتشت لأجد مسوغًا ولو واحدًا لزعمهم، ولما لم يكن ذلك ممكنًا، فرأيت نعيهم بأنه لم يكن لرسول الله ﷺ أن يقع منه

(١) جامع البيان - ابن جرير الطبري - ج ١١- الصفحة ١٠١

ذلكم الروع، أو ذلكم الذي منه جاء دالًّا عليه قوله: (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ)، وهو ﷺ؛ إذ ذاك نبي في علم الله تعالى، وكان منه أن يثبته الله سبحانه، فلا روع له من أساس، أقول: رأيت أنه متهافت أيما يكون التهافت واقعًا، كما أن منه أنهم أخذوا طعنًا في صحة الحديث من أساس أيضًا؛ كيما يمكنهم من بعد الطعن في كتب الصحاح التي أوردت الحديث سالف الذكر، ومنه يكون المدخل للطعن في السيرة نتيجته المرة الحنظلة اللئيمة، ومن ثم يكون المدخل الطبيعي لذلك إلى الطعن في القرآن الكريم نفسه، ومنه ينال من دين الله تعالى ربنا الرحمن في زعمهم.

وذلكم مكر وقفنا له، كما قد أوقف أغيار صالحون أنفسهم قبلنا ومعنا ومن بعدنا، ذودًا عن هذه الجبال الشم الشوامخ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم:٤٦].

فتحصل من إيراد ما سبق، ومما حصل مع نبينا محمد ﷺ، وما كان يمكن أن يقع مع غيره من أنبياء الله تعالى لأقول: إنه قد تحصل من ذلكم كله أنها مقتضى بشرية الأنبياء، كيما يكون متفقًا مؤتلفًا مع قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وهو إذ يتفق أيضًا مع سنته تعالى في إرسال رسله بشرًا، وفي بعث أنبيائه من جنس بني آدم، وبلسان قومهم، كيما يفهموا عنهم، ويفهموهم من مقتضى علمهم بلسانهم، كيما لا يكون هنالك مجال

تمحل في لججهم عدم الفهم عنهم؛ إذ كانوا من غير جنسهم، أو هم قد أرسلوا بلسان لا على لسان أقوامهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وذلكم هو دأبهم إذ يشيعون في كل مرة زعمًا، وإذ ينشرون في كل محفل ريبًا، كما رد الله تعالى عليهم في عدم مسايرتهم طلبهم إلا أن يكون الرسول من غير جنسهم، وليس ناطقًا بلسانهم؛ كيما يجدوا عندها المدخل طعنًا، للمخرج ذمًّا؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]؛ "أي: هلا أنزل علينا الملائكة، فيخبروا أن محمدًا صادق، أو نرى ربنا عيانًا، فيخبرنا برسالته[١]"

وذلكم من كبرهم، وهو من عُتوِّهم، وهو من استعلائهم في الأرض، وانظر كيف جاء اختيار النظم بليغًا أيما بلاغة، موحيًا أيما إيحاء في قوله سبحانه: ﴿ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾؛ إذ لما كان العتو هو أشد الكفر وأفحش الظلم، فناسب أن يأتي النظم به دلالة على ما في قلوبهم من غي، وما تحمله ضمائرهم من غيظ، ومن نفرتهم من حق، هو لخيرهم هم بدرجته الأولى، وهو لغيرهم بالأولى والأخيرة؛ "حيث سألوا الله الشطط؛ لأن الملائكة لا تُرَى إلا عند الموت، أو عند نزول العذاب"[٢]

والله تعالى ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

---

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٣/ ١٩
(٢) المرجع السابق: ج ١٣/ ٢٠

وهم وإذ لم يكتفوا بالمعجزات الساطعات، والبراهين الدامغات، وآيات القرآن البينات، فكيف يكتفون إذًا بالملائكة الكرام عليهم الصلوات والتسليمات؟!

ومن لَجِجهم حكايته تعالى عنهم في قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٦].

وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣]، وهو من التمحل المعهود في كل ذي علة من نفاق، وهو من المراء الذي لا يكاد يفارق كل ذي عاهة من كبر؛ إذ ما علاقة إلقاء أسورة منْ ذَهَبٍ بالتأييد من عدمه، وهي إذ لا تعدو أن تكون ممَا يُجْعَلُ مِنَ أجل الْحُلِيِّ، وحسبها ذلك سبب تحلية وزينة! وإذ ما علاقة أن يَكْتَنِفَه الملائكةُ خِدْمَةً لَهُ، ويَشْهَدُونَ بِتَصْدِيقِهِ، وإذ هم معروفون بوصفهم الذي قد تواتر خلفًا عن سلف أنهم ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦]؟!

ومن زعمهم أيضًا ما حكاه القرآن المجيد عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١]؛ "أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في

أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة، والطائف [1]"؛ إذ ماذا سوف يفرق - ديانةً - أن يكون الرسول المصطفى هو محمدًا ﷺ أو غيره، ومن حيث إننا قد سلمنا لله تعالى في قوله الحق المبين: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥]؟!

قريش تستنجد بأبي طالب

يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا [2]. إن تسفيه الباطل؛ ولأن بعض المتبوعين لا يعلمون حقيقة أنهم على باطل. وإنما كان تسفيه الباطل إيقاظا لغافل، أو تعليما لجاهل، أو تنبيها لساه. وإنما يسفه الباطل، لأن أهله ينمقونه؛ إضلالا للناس! وإنما يسفه الباطل؛ تخلية للأذهان مما علق بها منه، فتقبل على الحق مرضية به.

ونقطة بدء الدعوة من ههنا- وههنا فقط-. فالتخلية قبل التحلية. وتأخير ذلك تأخير للبيان عن وقت الحاجة، والبدء من ههنا، وبدء بغيره لا يسد مسده، وليس يغني عنه. ولأنه قدم القرآن الكريم الكفر بالطاغوت أولا على الإيمان به تعالى. وكما قال الله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

---

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير الدمشقي: ج٧/ ٢٠٧

(٢) سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار: ج ٢ / ١٢٩

إن اجتماع فريق على باطل لا يمنحه حقا، ولا يزيل عنه صفته!

ولا يستوحشن أحد من كثرة الباطل، وقلة النصير، فإن هذه سنة أبينا إبراهيم، وإن المجابهة بإزهاق الباطل داعية لنفرة القوم! ومنه قول سيد قريش أبي لَهَبٍ: تَبًّا لكَ سَائِرَ اليَومِ، أَلِهذا جَمَعْتَنَا؟!

المبحث الثاني: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

وهكذا كان نبينا محمد ﷺ، وحين ائتمر بأمر ربه تعالى؛ نذارة للأقربين، عن الشرك، وبشارة بالتوحيد، ودعوة لدين رب العالمين، وتوحيدا لله الخالق المبين.

فعن عبدالله بن عباس: ما نزلت: {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي -لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم؛ أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: {تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب}[1].

إن المصارحة بالباطل خير لأهله قبل غيرهم! لأن خير الحق عائد إليهم أولا. وتسفيه الباطل إعلاء لقيم الإصلاح في الأرض. وإن بيان الباطل رحمة بأهله؛ كيما لا يحملوا أوزارهم وأوزار أتباعهم، ولا يطيقون!

---

(١) صحيح البخاري: ٤٧٧٠

سب آلهتنا! فإنهم يعرفون أنهم على باطل. باتخاذهم أندادا من دون الله تعالى! وهذه سلسلة باطل مقيتة، حق لها أن يأتي دين جديد؛ لمحوها ومحو آثارها!

و(إنَّ؛ وقد) شهادة منهم أن الرسول ﷺ- وحده- جابههم- كلهم- بالحق غير مكترث ببطشهم! ومنه فلا يستوحشن امرئ بانتفاش الباطل، ولو كان وحده، ولأن الباطل كان زهوقا! وإن حقا يحمله ذووه لمعول هدم لباطل يبدو منتفشا، فلا غرو! وكم هم الذين جابهوا الباطل وُحدْآنَا، وكان فتحه تعالى على أيديهم!

وإنه لتأخذ امرؤ شفقة على أهل باطل، يعلمونه وكما يعلمه! ولقولهم ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]. وإذ يعلمون أنه هدى!!

إن إعلان المواجهة مع الباطل خير لأهله قبل غيرهم؛ كيما لايزدادوا إثما!

إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا. ومنه كان المسلم منارة خير وهدى وصلاح، وحين وقف لا يدع باطلا ينتفش، وإذ هو منكفئ على نفسه!

(سب، وعاب، وسفه، وضلل). هكذا صعق الباطل! فلربما أفاق للهدى! وإن صدعا بالحق سيف فتاك بالباطل، فلا تعدمن أمة قولا ولو واحدا! ولأن معاول هدم الباطل كثيرة، وإذ كان أولها أنه يحمل أسباب سقوطه بين جنباته؛ ولأنه تعالى أسماه زهوقا، وأنه زبد أيضا، فلا يستقلن أحد بمعوله!

قريش تتوعد!

فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه [١]. وإذ كان الكفر واحدا، لكنه درجات: فمنهم شديد العداء، ومنهم دون ذلك. وإن بدء حركة المقاومة العنيفة لهذا الدين الجديد لتبدأ، ومن حيث نهضت حركات المقاومة للباطل، وبلا هوادة من كلا الفريقين! وإذ كان منه استنفار قريش كلها؛ لمجابهة فرد واحد هو الرسول ﷺ! وإذ كان بدء العداء من بيته وقرابته حكمة؛ فإن حسبه في ذلكم هو الله تعالى.

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بإسلام الرسول ﷺ! لهم ولا خذلانه [٢]. وإذ يقيض الله أنصارا للحق من بيت الكفر فاطمئن!

ونبينا ﷺ يثبت وكما جبل راسخ!

يا عمَّاهُ، واللهِ لَو وَضعوا الشَّمسَ في يميني والقمرَ في شمالي علَى أن أتركَ هذا الأمرَ حتَّى يُظهرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما ترَكتُهُ [٣].وهذا لطف عبارة في إصرار على الحق، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، وهذه طبيعة جِبِلِّيَةٌ، وحين لم يجد على الحق نصيرا، ولا سيما ولما يكون هذا العداء مستحكما هكذا ومن أهله!

وإذ قال أبو طالب: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبدا. ومنه فإن الإصرار على الحق موجب لأن يقيض الله

---

(١) سيرة ابن إسحاق، ابن إسحاق: ج ٢/ ١٢٩
(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/٦٧
(٣) فقه السيرة الألباني: ١٠٩، خلاصة حكم المحدث : ضعيف.

لصاحبه من ينصره ولا يخذله، ومن داخل بيت الباطل! وليأتيه فرج ربه فلا يعجلن امرؤ؛ وإن عليه فقط الاستمساك بحق يؤمن به، فربه ناصره وناصر حقه معه! وإذ يجعل الله تعالى في قلوب بعض أهل الكفر لينا ورحمة، وقمن استثمارها لصالح القضية الكبرى، لا لصالح شخصي.

وهذه نخوة عربي، وإلف فطري، نصرة للحق، ولا يخلو زمان من ذلكم، فليطمئن كل صاحب حق. وإذ كلما ضاق الأمر اتسع، فلا عجلة ولا قنوط، فإن الله مؤيد ونصير وكافٍ.

مساومات

حين يئست قريش من إسلام أبي طالب النبي ﷺ قالت: هذا عمارة بن الوليد. فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك [١]. وهذا جهل بأبسط قواعد المفاوضات. فلا تكافؤ بين ظل وحرور. وهذ آلة إعلامية سندها متصل!

وجاء رد أبي طالب: والله لبئس ما تسومونني! أتعطفونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله مالا يكون أبدا [٢]. وهذا رشد رد، على سفه عرض! وهذا جهل بمقاديره تعالى؛ فإنه لو كان أسلمه لهم، فإن الله تعالى قد كان مانعه؛ ليتم نوره، ويبسط هداه، ولو كره المشركون!!!

فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك [٣]. وهذا تبادل أدوار؛ لإدارة أسلوب تفاوض ماكر، غرضه الأوحد هو التنازل

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٤٧٥/١
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٤٧٥/١
(٣) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١٧٢/١

عن قضية الحق بأكملها! وزادك عجبا أن يقسم القوم برب يشركون معه آلهة أخرى! ومنه فقد يشرك به ويقسم به في آن؛ ولأن الفطرة ناطقة!

فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم [1]. وهذه سنة ماضية. وجودها حتمي، وانعدامها فرض عدمي!!! وإن ركام الجاهلية الهائل ليطفو مرة من بعد كرة، فلا يغترن امرؤ إلا بحق ربه.

ومنع الله رسوله ﷺ منهم بعمه أبي طالب: والمنعة من الله تعالى فليطمئن عبد إلى ذلك، وباتخاذ السبب معه في الطريق، فلا تنافي بين سبب وتوكل على المولى الكريم سبحانه! وتعبير هني رقيق دفيء، يشي بمدى ما للعبد من رعاية مولاه، وحين تتظاهر عليه أمم الباطل كلها، وإذ هو وحده، لكنه كثير قوي بمعية ربه تعالى له.

قام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون فدعاهم إلى منع رسول الله ﷺ، فأجابوه [2]. إن وجود نصير للحق، ولو واحدا، كسب رباني، وفقه دعوي.

الوليد ابن المغيرة

"وأن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجتمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا يكذب بعضكم بعضا ويرد قول بعضكم بعضا فقالوا فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقوم به فقال بل أنتم قولوا أسمع فقالوا نقول كاهن فقال ما هو بكاهن لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه فقالوا نقول مجنون فقال

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/٦٨
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٧٣

ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته فقالوا نقول شاعر فقال ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضة ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قالوا فنقول ساحر قال ما هو بساحر قد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده قالوا فما نقول يا أبا عبد شمس قال والله ان لقوله لحلاوة ان أصله لعذق وان فرعه لجني فما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا أعرف أنه باطل وان أقرب القول لأن تقولوا ساحر فقولوا ساحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وبين أخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون يسئلون الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد الا حذروه إياه وذكروا لهم أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله * (ذرني ومن خلقت وحيدا) * إلى قوله * (سأصليه سقر) * وأنزل الله عز وجل في النفر الذين كانوا معه يصنفون له القول في رسول الله ﷺ وفيما جاء به من عند الله تعالى * (الذين جعلوا القرآن عضين) * أي أصنافا * (فوربك لنسألنهم أجمعين) * أولئك النفر الذين يقولون ذلك لرسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس"[(١)]!

إن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحرا! وهكذا تتبدل التهم الموجهة لأهل الحق بتبدل الأحوال والأزمان. وإن هذا لتسلية لصاحب الحق أن له سلفا وصموا بأنكى الكذب على الله تعالى، وحين ادعوا له ولدا ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]. ومن قبل أن يكذبوا على نبيه محمد ﷺ. وإذ ها هم يقولون إنه ساحرا! ويكأنهم يعلمون أنهم كاذبون!

---

(١) سيرة ابن إسحاق، ابن إسحاق: ج ٢ / ١٣٢

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]! هذا نزال منه تعالى مع الوليد! يا لطيف! ومن ذا الوليد أو غير الوليد! لينازله الله! وهذه رسالة إلى كل أحد ولاسيما مناوئي الحق ألا يتجرؤوا!

على أن المنازلة، وحين تكون من الله تعالى ابتداء، ويكأنها ليست على غرار، وأن تكون من العبد أولا!

منازلة العبيد لربهم!

عن أبي هريرة يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه[١].

منازلة الرب للعبيد!

عن أبي هريرة إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها،

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: ٣١٦/٢٥. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن؛ يكره الموت، وأنا أكره مساءته[1].

وأن يبارز عبد ربه بالمحاربة! فإن هذا لسوء طوية، وخلق شين، ومعدن رديء! وفضلا عن جهالة مطبقة برب، كان قد خلقه، ومن تراب! وما أحمق عبدا كان ذا خلقه!

وأن أذن الله تعالى بحرب عبد! وأي طاقة له من ذلك؟! وحين قالت قريش ومن ملئ فيها وعلى لسان متحدثها الرسمي آنذاك! وحين قال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فو الله ما لنا بالله من طاقة! وإن كنا نقاتل الناس فو الله إن بنا على الناس لقوة[2].

إن المغامرة بحرب الحق وأهله ثمنها غال، يدفعه أهل الباطل، علموه أو جهلوه، أو قد تجاهلوه! وهذا واقع محسوس أبدا!

إن الله تعالى ليغار غيرة رب مقتدر، وحين تمتهن كرامات أوليائه، وإن بطشه أليم شديد!

وقراءة للتاريخ، وكم حل من خراب حين انتهكت حرمات أولياء الله تعالى، لا لسبب إلا لأنهم يقولون: ربنا الله!!! وقال الله تعالى ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

---

(١) صحيح البخاري: ٦٥٠٢
(٢) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٨ / ٢٥

وهذه عاقبة الافتراء والكذب على الله تعالى، ولأن الوليد عرف قدر القرآن فليس شعرا! وعرف قدر الرسول ﷺ. فليس بساحر أو كاهن أو شاعر أو مجنون!

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧]. سأكلفه مشقة من العذاب، لا راحة له منها! يقظته ونومته! فإن نام نام غير مرتاح! وإن استيقظ لاحقته أذية الأولياء الصالحين! وإن الصعود جبل في النار، يكلَّفُ أهل النار صعوده! لينضاف إلى رصيد عدم راحتهم في الدنيا، وإن الوليد لتراه نائما في غير نوم! أو يقظانا في غير يقظة! هذا أخذه تعالى بجريرة المغامرة بمناوئة الحق وأهله، علم من علم وجهل من جهل!

وقال ابن عباس: المعنى سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيه. ونحوه عن الحسن وقتادة. وقيل: إنه تصاعد نفسه للنزع وإن لم يتعقبه موت، ليعذب من داخل جسده كما يعذب من خارجه[١].

وعن أبي سعيد الخدري الصعود: جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفا، ويهوي فيه كذلك أبدا[٢].

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١].

هذا رد القرآن على اتهام الوليد الماجن! وفريقه الهازل! أنه القرآن الحكيم سحر يؤثر! و﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. ومنه فإن المسؤولية جماعية، وكل على جرمه في حق هذا القرآن.

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٩ / ٧٤
(٢) ضعيف الترمذي، الألباني: ٢٥٧٦

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: إن الله تعالى محيط بكل شيء، فمن أين جاءت غفلة الوليد، وهو إذ يعلم قدرة ربه؟! أم إنه الصلف حين يعمي القلوب، والكبر حين يصم الآذان؟!

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: وتتعدد العقوبات بتعدد الفاعلين! وهذا مبدأ جنائي سبق به الإسلام منذ أربعة عشر قرنا! وكما أن شخصية العقوبة مبدأ جنائي أيضا، وقد جاء به الإسلام أيضا منذ أربعة عشر قرنا! ومن قوله تعالى﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾: إذا كان القرآن سحرا يؤثر، فماذا عساكم أن تقولوا في هذيانكم إذا قيس بعظمة القرآن التي تعرفها سليقتكم العربية؟!

وهذا تهكم القرآن من قوم، ومن من قول، كانوا هم أول من يعلم كذبهم فيه، لأنهم أول شاهد له على بلاغته، وأنه لا كقول البشر، ولا قياس من أساس!

﴿الَّذِينَ﴾: هكذا في تقرير، يفيده الاسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾؛ نعيا عليهم، وتبكيتا لهم؛ جزاء عظيم إفكهم، وكذب ادعائهم. وهكذا بوصفهم، لا بذكر أسمائهم! لأن العبرة بالقول، لا بقائله، ولأن قوما آخرين سيأتون مفترين! ليعمهم الذكر المبين!

وإذ جاء إعراض القرآن عن شخوصهم؛ لأنها شخوص تزكم الأنوف، وحين تقول قولا هي أول من تعلم كذبها فيه!

وجاء هذا ﴿الْقُرْآنَ﴾! بتعريفه بالألف واللام! إذ ماذا عساه أن يكون قولا فصلا، إن لم يكن هو هذا القرآن؟!!! وهذه جرأة القوم في بهتان، وزعم بغير سلطان! ف ﴿هَـٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾

[الأنعام: ١٩]. فهو النذير المبين، والقول الفصل المتين، والذكر الحكيم!

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾: هم الذين جعلوا! أما هو ﴿هَـٰذَا الْقُرْآنُ﴾ فإنه قول الله! ومن قدره تعالى كان قدر القرآن؛ لأنه صفته، ولأنه كلامه!

والجعل يفيد التحويل، والتحويل غير معتد به، إلا من ذي صفة! وأولاء لا طاقة لهم أن يأتوا، ولو بشيء من مثله! ومن أية جهة إذًا جاء جعلهم هذا؟!

والنجار حين يحول الخشب بابا لا يخلع عنه صفة أنه باب من خشب! وكذا القرآن فإنه قرآن، وإن حاولوا أن يحولوا!

وكثير هم الذين يحاولون جعل القرآن هكذا مائدة للتلاوة والترتيل والترنيم! و هم الذين يجعلون هذا القرآن صرفا له عن هداه! فماذا عساهم أن يقولوا حين وقوفهم عراة للحساب؟!

فلتقر أعين الأوابين، فقافلة الهدى ماخرة بأمر ربها، ولا يوقفها أحد، وليس بفاعل، وليس بقادر، لأنه خارج إمكاناته!

وليرح محاولو طمس الحقائق أنفسهم؛ فهذا الدين بالغ أمره، وسيبلغ ما بلغ الليل والنهار؛ فلا تستعجلوا واعملوا.

إنه لو علم محاولو طمس الحقائق أنها تزيد من نورها لمعانا! ومن بريقها سطوعا! ما فعلوها؛ لأن الله تعالى يأبى إلا أن يتم نوره!

إن محاولات طمس الحقيقة دائما تبوء بفشل ذريع! بل تزيد من بريقها ولمعانها! فقد ذيع صوت القرآن رغما عنهم!

وطمس الحقيقة لا يغير من كونها حقيقة وإن أبوا!

معين السماء بحديث الاستسقاء بالماء

قال ابن هشام رحمه الله تعالى: وحدثني من أثق به قال: أقحط أهل المدينة فأتوا رسول الله ﷺ، فشكوا ذلك إليه، فصعد رسول الله ﷺ المنبر فاستسقى، فما لبث أن جاء من المطر ما أتاه أهل الضواحي يشكون منه الغرق، فقال رسول الله ﷺ: اللهم حوالينا ولا علينا، فانجاب السحاب عن المدينة فصار حواليها كالإكليل، فقال رسول الله ﷺ: لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره! فقال له بعض أصحابه: كأنك يا رسول الله أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة للأرامل.

قال: أجل[1].

ولايزال ربنا الرحمن سبحانه ممتنا على عباده فرحا حين يغدق عليهم نعمه، أو ترحا حين يَحُلُّ عليهم ما يكون داعية لغم أو حزن أو ما شابه ذلك من منغصات الدنيا التي ما انفكت أن تكون سبيل تمحيص لأولياء الله تعالى، وإن كانت نظرة آحادهم إليها لا كما يجب أن تكون من توجيهها وجهتها التي ما أنزلت إلا من أجلها قدرا مقدورا ؛ وإن كل ذلك إلا ابتلاء، وإن عموم ذلك إلا اختبارا منه تعالى لعبيده، كيما يتحرك ساكن الإيمان في ألبابهم، وكيما يتأكد عامل اليقين في قلوبهم، ومن إلف فطرة فطر سبحانه الناس عليها، وكل ذلكم كيما يتنمى فيهم جانب صدقهم حين اللجأ إليه تعالى وحده، دليل توحيد، وموجب إفراد له تعالى بالألوهية، وذلك لأنه سبحانه يريد لفت أنظار عبيده إليه وحده، وإذ لا يكشف ضرا عنهم سواه، وإذ لا يجلب نفعا إليهم غيره سبحانه، ومنه فقد كانت حقيقة عبودية العبيد إلى مولاهم الحق الرحمن

---

(١) السيرة النبوية - ابن هشام الحميري - ج ١/١٨٠و١٨١

سبحانه؛ حين يتوجهون إليه تعالى وحده، وليس لأحد سواه؛ وذلك حين يطلبون منه نفعا، أو حين يدعونه كشف الضر عنهم؛ لأنهم والحال هذه فإنما هم يدعون قادرا حيا، سميعا بصيرا يجيب دعاءهم، ولأنهم حينئذ قد ربى فيهم ربهم عزتهم، حين لايكون لجأهم إلا إليه، وحين لا يكون صدق توكلهم إلا عليه سبحانه وحده، وإذ إن ذلك هو موجب مطلق الإعزاز منه تعالى لعبيده، وإذ إنه لم يلجأهم إلى سواه؛ فيكونون والحال هذه أذلاء؛ لا يرفعون لهم رأسا، ولا تعلو لهم قامة، والأمر عند هذا الحد ليبدو واضحا جليا، حين كان الله تعالى هو المعبود وحده لا سواه، وبحيث كان نفع عبادة العبيد لا إلى ربهم، وإنما كان نفعها إليهم وحدهم راجعا، وإنما كان كشف الضر عنهم وحدهم مرفوعا، وليس لربنا الرحمن في ذلك من نفع - ولو واحدا - حين قد نفع عبده، وليس يضيره من نقص خزائنه، ولو من مثل مثقال ذرة، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر! وأنت حصيف حين علمك أن المخيط إذا أدخل بحرا، بلغ جنس مائه ثلاثة أرباع الكرة الأرضية التي منحنهاها ربنا الرحمن سبحانه! فإنما لم ينقص منه شيئا ظاهرا، وهذا من تقريب المعاني إيجابا لآثارها من صدق العبودية والافتقار إلى الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه.

ولعل هالة إخبات تغمرك حين تعرف أنه ليس عبد واحد هو ذاك الذي يرفع يديه إلى مولاه ليعطيه مسألته، وإنما سائر من خلق، إنسا وجنا، من أزل! وإلى الأبد!

فعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني

أطعمكم، يا عبادي كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني، إذا حدث بهذا الحديث، جثا على ركبتيه [(١)]".

وحديث بابنا تملؤه عبارات علم، وتندرج منه نفحات فيض الرب الرحيم المتعال، وهو دال على حسن استنباط لأبي طالب حين قد تأكدت لديه بواعث النبوة، وإشراقات الرسالة لابن أخيه رسول الله محمد ﷺ، وليس يكون ذلك إلا من فراسة قد منَّ الله تعالى بها على أبي طالب عم رسول الله ﷺ!

وكما أن الحديث دال على مدى ما أكرم الله تعالى به رسوله محمدا ﷺ من بركة دعائه حين كان صدق لجأ مفترض فيه ﷺ إليه تعالى، وأنه دال على صدق بركته ﷺ حين أجابه ربه سبحانه، وتوا حين دعا !

والحديث فقها دال على جواز صلاة الاستسقاء، حين يقحط بأهل محلة من المحلات، إلا أنني أنحو فيه نحوا دالا على أهمية صدق

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، حديث رقم: ٤٨٠٢

العبيد حينما حل بهم بلاء، وأنه ليس يكون أحد أحق بذلك التجاء إليه منه سبحانه؛ قدرة نافذة له، وإعزازا لعبيده منه تعالى.

ودلالة الحديث واضحة في جواز الاستسقاء بالفاضل الحي، وهو هنا رسول الله محمد ﷺ، مع وجود المفضول، وهم سائر أصحابه، وعموم أتباعه رضي الله عنهم أجمعين، وعمل الناس على ألا يستسقى إلا بفاضل. ودلك على هذا قول أنس بن مالك رصي الله تعالى عنه، أن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون[١].

وهذا من فقه وكرم عمر رضي الله تعالى عنه وحلمه وتكريمه لذوي رحم رسول الله ﷺ، وذلك حين قدم العباس في دعائه واستسقائه به، وذلك رغم فضله، وسبق علم الناس عن دينه وتقواه.

لكنه وعلى أية حال سنن لنا لنحذوه أن ننزل الناس منازلهم حقا واجبا في أعناق ذوي المروءة والفقه والعلم والدين من الناس، ولقد رأيت كم كان تقديم عمر للعباس رضي الله تعالى عنهما مع ما سبق ذكره من الفضل لكلٍ. وهو وإن دل فإنما يدل على ذلكم تواضع آخر لعمر رضي الله تعالى عن، ومن قد رفع قدر الناس رفع الله تعالى قدره؛ فحق له لَيُرْفَعَنَّ! ومن قد أنزل قدرهم، فدين عليه لَيُقْضَيَنَّ! فتأمله جيدا يا رعاك مولاك!

على أن الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه إنما كان يعرف فضل العباس، وذلك لأنه ليس يغيب عن باله ثناء رسول الله ﷺ في حضرته، حيث قال"... مهلًا يا عباسُ لَإسلامُك يومَ أسلمتَ كان أحبَّ إليَّ من

(١) صحيح البخاري، أبواب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، حديث رقم: ٩٧٨

إسلامِ الخطابِ ومالي إلا أني قد عرفتُ أنَّ إسلامَك كان أحبَّ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من إسلامِ الخطاب.. [١]".

ومن حديث عمر الأنف تبين أن الاستسقاء بميت ليس في الشرع جائزا؛ إذ لو كان الاستسقاء بالميت جائزا لقدم الرسول؛ لأنه الأفضل قطعا.

وحين القول بجواز الاستسقاء بالفاضل الحي، وعدمه بميت، فإنما كان ذلك لأن الميت وضعا لا يجيب أحدا.

وألا يجوز الاستسقاء بالميت حماية لعقيدة العبد وتوحيده؛ لأنه ليس يكشف ضرا، ولا يجلب نفعا، وإنما ذلكم هو من اختصاص ذي القدرة كلها، وذي الإرادة كلها، وهو الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه وحده.

وقول أبي طالب ولما لم يحدث قحط بعد! ولما لم تكن نبوته ﷺ بعد! ولما لم يدعُ استسقاءً بعد! فإن ذلك دال على أنه علم من أعلام نبوته ﷺ، إضافة إلى ما سبق أنه فراسة من أبي طالب، منة من الله تعالى عليه، إذ إن الفضل كله لله تعالى، حين ينعم على عُبَيْدٍ من عبيده بفضله، وإذ قد أنعم عليه تعالى بجزيل منِّه، وعظيم عطائه، وفيض منحه.

والحديث دال على ما لصلاح العبد في دينه من عظيم أهمية، وأن ذلك هو ترياقه عند مواجهة الأزمات، وحلول الابتلاءات، كما أنه دال على وجوب إصلاح العبد من نفسه، حين كان متعرفا إلى مولاه حال رخائه؛ ليعرفه ربه حين حلول شدة به؛ لأنه سبحانه هو الركن الأحد،

(١) شرح معاني الآثار، الطحاوي، الصفحة أو الرقم: ٣/٣٢٠]، وقال المحدث الطحاوي رحمه الله تعالى: صحيح.

ولا ركن لأحد على الحقيقة غيره سبحانه، وذلك لأنه تعالى قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ولأنه تعالى قال ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر: (١٤)].

ودونك الفعل (فأُنزِلَ) مقترنا بفاء التعقيب؛ دلالة على فورية إجابة الله لعبده. ومنه فليكن أحدنا عبدا منيبا أولا؛ فيحقق الله تعالى رجاءه، ويجيب مولاه سبحانه دعاءه، في لا زمن يكاد فيه أن يحسب في عداد العادين!

ومادة الاستسقاء من المفاعلة. دلالة على وجوب مجاهدة العبد لتحقيق مراده، وداعية على اختبار صدق اللجأ إلى مولاه الله تعالى!

وكون أن الاستسقاء من المفاعلة. دلالة أخرى على وجوب أن يكون المسلم جادا في عمله؛ فلا خور في عقيدة، ولا ضعف في التجاء إلى رب السماء!

ودلالة الحديث على وجوب تضرع عبد إلى مولاه سبحانه، وفي كل شأن يهمه، ولو كان شراك نعله! فربه مجيبه، ومولاه جابر بخاطره؛ فليس يرد أحدا منكسرا أبدا! وحاله أنه وقد انطرح بين يديه، رافعا شكواه وحاجته إليه.

ومنه فإن إظهار فقر العبد إلى ربه لداعية خير إلى استغنائه به تعالى، واستغنائه به وحده معه؛ لأنه كريم كرما لاحد له، ولأنه حليم حلما لانهاية له!

ولئن كان الاستسقاء من المفاعلة، فإنه دال على أن البدء من العبد حين توجه إليه تعالى بطاعته، وحين قد أفرده سبحانه بدعائه،

وذلك على هذا قول الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: (٦٢)]. فإنه سبحانه إذا دعاه عبده أجابه، وذلكم كله لدليل حنو رباني، وذلكم كله لموجب لطف إلهي من الله تعالى على أولاء العبيد المحاويج المساكين إلى عفوه ومنه وجوده وإكرامه وتجاوزه، فإنه سبحانه حسن التجاوز، عظيم المن، باسط يديه بالرحمة، وهو سبحانه مبتدئ النعم قبل استحقاقها!

ومن حيث كان معنى الفعل (أقحط) هو احتِباس المطر، ثم ما يستتبع ذلك من الجدب لأنه من أَثره، وهو فعل يقع على ما لم يسم فاعله[١].

والفعل(أقحط) دال بمعناه على وقوعه بشدة أفزعت القوم، وبدلالة سرعة قد أتوا بها إلى رسول الله ﷺ، وعلى المنبر! ومنه نفيد أنه إذا اشتد خطب امرئ؛ فإن مسارعته باللجأ إلى ربه سبحانه؛ فإنه آكد لإجابته، وإنما كان ذلك لموجب الاضطرار الموجب هو الآخر للإجابة، كما قد حكى القرآن العظيم في آية النمل السابقة الذكر.

وإذ قد(أقحط أهل المدينة)! دلالة على حلول عموم البلاء على أهل المدينة، ومنه فإنه إذا عم البلاء، فلقد كان السبب منعقدا، والحال كذلك إلى هرولة إلى الله تعالى؛ لاستجلاب رضاه ونفعه، ودفعا لضرر محدق قد حل بالبلاد والعباد، وإذ إنه ليس يدرى ما بعده، فقد تكون جائحة، وإنما قد كان ترياقها أن تدفع بالدعاء والاستسقاء.

ومن قوله: (أقحط أهل المدينة)، دلالة على الاستسقاء عند حلول الجدب العام، أو شبهه أو خوفه أو مظنته.

(١) لسان العرب، ابن منظور : ج ٣٧٤/٧

وصلاة الاستسقاء سنة مؤكدة؛ إظهارا لفقر العباد إلى الله تعالى مولاهم الحق سبحانه، وذلك حين يخرجون فلا يرجعهم ربهم صفرا!

وصلاة الاستسقاء ركعتان جهريتان بسورتي الفاتحة والأعلى في الأولى، والغاشية بعد الفاتحة في الثانية.

وصلاة الاستسقاء بغير أذان ولا إقامة، وإنما ينادى لها بالصلاة جامعة، كما أنه لا يشترط الأذان لخطبتها.

وصلاة الاستسقاء كصلاة العيد، فيكّبر سبعاً في الركعة الأولى، وخمساً في الثانية.

ويخطب الإمام في الناس، ويندب تحويل ردائه، والمصلون معه، مع رفع اليدين إظهارا لمطلق الخضوع، وإخباتا بداعية التذلل لمولاهم سبحانه.

وهذه خمسة آداب لرسولنا ﷺ مع ربه سبحانه، وقد كان حريا أن نقتديها وقد كان مليا أن نتأملها، ومن حيث: وإنما " قد أرسلني أميرٌ من الأُمراءِ إلى ابنِ عباسٍ أسأَلُهُ عن الصلاةِ في الاستسقاءِ فقال ابنُ عباسٍ : ما منعَه أن يَسألَني ؟ خرج النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ متواضعًا مُتَبَذِّلًا مُتَخَشِّعًا مُتَرَسِّلًا مُتَضَرِّعًا فصلَّى ركعتينِ كما يُصلِّي في العيدِ لم يَخطبْ خطبتَكم هذه[1].

ومنه فإن هذه موجبات من موجبات تترى؛ لتدلك على صدق العبد حين اللجأ إلى الله تعالى.

فإن خروجه ﷺ على هذه الهيئات الخمسة من ضعة ماشيا بلا جمهرة فلربما فتنت عبدا، ولا لامة ولا سيفا، فلربما أورثت وضعا

---

(١) مسند أحمد: ج١١٥/٥. وقال المحدث أحمد شاكر رحمه الله تعالى: إسناده صحيح.

توجبه ساحات القتال؛ نكاية من عدو! والأمر ههنا مع الله تعالى العلي الأعلى، ملتمسا منه عونا، ومستمطرا من لدنه مطرا!

ومن كونه (متبذلا) دون تجمل بزي، وبغير تزين بلباس! لأن الحين هو حين التضرع والفقر والاستكانة إلى مولاه .

ومن كونه(متخشعًا) ظاهرا عليه الخشوع، باديا عليه صلى الله عليه وسلم كله! هيئته، وحركته، ومشيه، و قلبه ولبه وفؤاده من قبل! إذ لما كان القلب خاشعا وبهذه المثابة، وهو القائد وبهذا الوضع؛ فلزم منه أن يتبعه جنده من الجوارح والأعضاء!

ومن كونه (متخشعا مترسِّلًا) مترسلا يعني: في مشيه ما يسرع، وهذا ترسل أكثر مما كان يعتاده ﷺ؛ دلالة على هم يحدوه ﷺ وهو إذ يروح واقفا مخبتا بين يدي ربه الرحمن الرحيم المتعال، وحاله ذلكم الذي أنف! متواضعًا مُتَبَذِّلًا مُتَخَشِّعًا مُتَرَسِّلًا مُتَضَرِّعًا.

ومن كونه (متضرعًا) مُظهرًا حاجته إلى الله تعالى، ومبديا فاقته وفقره إليه سبحانه.

وتضرع ليس يُعلمُ إلا خبرا، وهو ما أخبر به الإمام الحبر الترجمان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، حين كان وصفه للرسول صلى الله عليه وسلم، وبهذه المثابة سالفة الذكر وآنفة البيان.

وظاهر حديث المسند الآنف الذكر أنه ﷺ لم يخطب خطبتكم هذه، ومنه فإنه يحتمل أنه ﷺ صلى صلاة الاستسقاء، ومن ثم لم يخطب، أو إنه احتمالا قد خطب، وإنما على غير صورة خطبتكم حين تخطبون.

والاستسقاء بالرسول ﷺ؛ دليل جواز الاستسقاء بالفاضل الحيّ، وكما أنف بيانه، وهذا يكشف عن معدن أولاء الصحابة الأخيار، ولما قد

تربوا على علم منه ﷺ، ولما قد صنع فيهم الخير على يديه، حتى صاروا به فاتحي أمم من بعده ﷺ، فرضي الله تعالى عنهم، وحين قد صارت عقائدهم راسخة، ولا تسل عن رسوخ الجبال، وحتى أضحت قلوبهم عامرة بتوحيد ربهم صافيا، ولا تسل عن صفاء السماء حين كان صيفا لا يظن معه ولو رقعة من سحاب؛ ليعكر صفوا، أو يذهب بعض بريقها ولمعانها.

وأما الأموات فلا يجيبون أحدا، وهذا ما جاء الإسلام به، وهو الذي كان عليه عمل الأولين من القرون الثلاثة المفضلة الأولى، عملا بنص القرآن، كما قال تعالى ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: (١٤)]. ونزولا على تعليم ولد عدنان رسول الله ﷺ، كما هو الشأن الآن معنا، ولأنهم كانوا قد استقوا بالعباس، عم رسول الله محمد ﷺ، وقد كان حيا، وقد كان رسول الله ﷺ ميتا.

فعن ثمامة بن عبد الله بن أنس، عن أنس بن مالك، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون[١].

وأؤكد مرة أخرى لمناسبة هذا الحديث أو غيره، وكما هو منهجنا أبدا في التذكير أن عقيدة صحيحة يتبعها عمل صالح، وتعلق قلب بمولاه، لقمن كل ذلك أن ينتج أثره من إجابة الدعاء، ومن غوث مستغيث بربه تعالى، ومولاه الملك الحق المبين سبحانه؛ لأنك رأيت أنهم ما برحوا حتى سقاهم الله عز وجل!

---

(١) صحيح البخاري، أبواب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، حديث رقم: ٩٧٨

ومرة أخرى؛ فهذا هو أمير المؤمنين الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه، وعلى فضله، يقدم العباس - رضي الله عنه - عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنه ولما قد تواضع لمولاه؛ وإذ إن مولاه كان قد رفعه وولاه.

وعلى ما سلف بيانه فإنه لو كان الاستسقاء بالميت جائزا لقدم عمر رضي الله تعالى عنه الرسول ﷺ ولأنه الأفضل، ومنه فإنه لا يجوز الاستسقاء بالميت، وحاله أنه لا يكشف ضرا، ولا يجلب نفعا، لا عن نفسه التي بين جنبيه فضلا عن أن يكون عن غيره من باب أولى.

وصدق عبد في عبوديته موجب لاستمطار منحه تعالى وفضله، ويوم أن قدم بين يدي ربه، لهثا بالدعاء لداعية الاستسقاء، ولغير داعية الاستسقاء، ودلك عليه ما أنف، وأزيدك علما آخر؛ لأن تظاهر الاستدلال قمن أن يجعل المسألة من باب اليقين وعينه، وليس وحسب من باب العلم وظنه! كما أنه يوجب التعلق بعتبات باب ربنا الرحمن ذي المنة وفضله.

فعن أبي لبابة بن عبد المنذر قال: استسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو لبابة بن عبد المنذر: إن التمر في المرابد يا رسول الله، فقال: اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عريانا ويسد مثقب مربده بإزاره، وما نرى في السماء سحابا فأمطرت، فاجتمعوا إلى أبي لبابة فقالوا: إنها لن تقلع حتى تقوم عريانا وتسد مثقب مربدك بإزارك، ففعل فأصحت[١].

---

(١) عمدة القاري، العيني: ج ٧ / ٣٦

فأخبر أنه لن يتوقف نزول المطر إلا أن تفعل، ففعل فتوقف نزوله! وذلك علم من أعلام نبوته ﷺ، منضافا إلى أعلام أخر ليس هذا باب بيانها.

وفيه إثارة المستقبل؛ لأنه أمعن في البلاغ، بدلالة قيامهم كلهم إلى أبي لبابة. يحثونه على فعل ما أمر به رسول الله ﷺ.

والمربد: موضع يجفف فيه التمر. وثعلبه: ثقبه الذي يسيل منه ماء المطر(١).

وفيه أن مراعاة الإمام لمصالح الأمة معتبرة. بدلالة قوله صلى الله عليه وسلم: حتى.

وفيه تلطف الإمام مع رعيته؛ كيما يكون قريبا كل منهم إلى قلب الآخر، بدلالة قوله: حتى يقوم أبو لبابة عريانا.

وفيه إعمال لقوله تعالى ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

والاستسقاء دعاء واستغفار. والاستسقاء يمكن أن يكون مع صلاة. أو بدونها، وبخطبة أو بدونها أيضا.

فعن عبد الله بن أبي بكر، أنه سمع عباد بن تميم، يحدث أباه، عن عمه عبد الله بن زيد، أن النبي ﷺ خرج إلى المصلى فاستسقى فاستقبل القبلة، وقلب رداءه، وصلى ركعتين قال أبو عبد الله: كان ابن عيينة يقول: هو صاحب الأذان، ولكنه وهم لأن هذا عبد الله بن زيد بن عاصم المازني مازن الأنصار(٢).

وشاهد الحديث أنه ﷺ استسقى أولا وهذا دعاء.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٢٣٨/١. و النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ج ٢١٣/١
(٢) صحيح البخاري: ٩٨٠

والاستسقاء يمكن أن يكون مع صلاة. وشاهده أنه ﷺ صلى ركعتين بعد دعائه.

وجواز الاستسقاء بغير خطبة، وشاهده من الحديث أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين، ولم يذكر الخطبة.

والاستسقاء يجوز أن يكون بغير صلاة. ولأنه ﷺ "استسقى على منبر المدينة استسقاء مجردا في غير يوم جمعة، ولم يُحفظ عنه في هذا الاستسقاء صلاة"[1].

وفيه عدم تأخير البيان عن وقت الحاجة. وشاهده قوله (على المنبر).

والاستسقاء حين حل وقته، ووقته إذا حل جدب أو جفاف.

فعَن أبي أُمَامَة قَالَ: وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال قام رسول الله ﷺ في المسجد ضحى فكبر ثلاث تكبيرات ثم قال اللهم اسقنا ثلاثا اللهم ارزقنا سمنا ولبنا وشحما ولحما، وما نرى في السماء سحابا فثارت ريح وغبرة ثم اجتمع سحاب فصبت السماء فصاح أهل الأسواق وثاروا إلى سقائف المسجد والى بيوتهم ورسول الله ﷺ قائم فسالت الطريق ورأينا ذلك المطر على أطراف شعر رسول الله ﷺ وعلى كتفيه ومنكبيه كأنه الجمان فانصرف النبي ﷺ وانصرفت أمشي على مشيه وهو يقول هذا أحدثكم بربه قال أبو أمامة ما رأيت عاما قط أكثر سمنا ولبنا وشحما ولحما إن هو إلا في الطريق ما يكاد يشتريه أحد ثم انصرف نحو الرجال فوعظهم ونهاهم ثم انصرف نحو النساء فوعظهن فشدد عليهن في الحرير والذهب فأقبل رجل من بني عامر فقال يا رسول الله بلغنا أنك شددت في لبس الحرير والذهب والذي بعثك بالحق إني لأحب الجمال

(١) أوجز المسالك الى موطأ مالك، محمد زكريا الكاندهلوي ١: ج٤/٩٥.

وإنما الكبر من جهل الحق حتى من حبي الجمال جعلت حراز سوطي هذا من جلد نمر فقال رسول الله ﷺ إن الله جميل يحب الجمال وإنما الكبر من جهل الحق وغمص الناس بعينه. رواه الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد وكلاهما ضعيف[١].

عظمة القرآن

عن أسماء بنت يزيد. قالت: إني لآخذه بزمام العضباء ناقة رسول الله، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة[٢]. كما جاء من حديث عبد الله بن عمرو قال: "أنزلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها"[٣]. وهذا دال على عظمة هذا القرآن، ولئن كانت هذه سورة من سوره العظيمة، ولما تضمنته من أصول الشريعة، وفي باب التحليل والتحريم خصوصا، ولأن النبي ﷺ قد أشار إلى ذلك، وحين أمر بتحليل حلالها وتحريم حرامها؛ وكيما تكون نافذة خير، وفاتحة هدى للناس.

و"سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم والأمر والنهي، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: "هي آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها" ولهذا افتتحت بقوله: {أوفوا

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٢ / ٢١٤
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٦١٦)، وقال عنه الأرنؤوط: "حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم وشهر بن حوشب"، وكذلك أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣/٧).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٦٤٣)، وقال عنه شعيب الأرنؤوط: "حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة وحيي بن عبدالله"، وصححه الألباني في صحيح السيرة ص: ١٠٧

بالعقود}. والعقود هي العهود، وذكر فيها من التحليل والتحريم والإيجاب ما لم يذكر في غيرها[1].

﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [سورة القيامة: ١٦]. وفيه شدة حرصه ﷺ على أخذ القرآن من الملك جبريل.

شفقة نبينا ﷺ

يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه حتى نخفف عنه من عياله[2]. وفيه مواساة الرسول ﷺ لأهله، ومواساته لمجتمعه الذي يعيش فيه.

فأخذ رسول الله ﷺ عليا فضمه إليه، فلم يزل مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيا، فاتَّبعه علي وآمن به وصدقه[3]. وهذه مواساة عملية لخلق المواساة.

هذا محمد يزعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة آمنت به، وهذا علي آمن به[4]. نواة البناء ثلاثة فلا تستوحش!

وإشارة إلى أن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه ﷺ، وفيه أن آمال العظماء عريضة، وأنهم لاينظرون تحت أقدامهم! وأن تكذيبهم لا يفت في عضدهم! ولا يهون من همتهم.

---

(١) مجموعة الفتاوى : ٢٤٩/١
(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ٢ / ٥٨
(٣) المرجع السابق: ٢ / ٥٨
(٤) المرجع السابق: ٢ / ٥٨

وحين فتحت كسرى وقيصر. فدل على أن هذه من أعلام نبوته ﷺ!

وهذه امرأته خديجة آمنت به، وهذا عليٌّ آمن به. فالزوجة الصالحة سند لزوجها، وكنزه العظيم. وأن تأليف قلب عليٍّ دعاه إلى المؤازرة، وهذا فن دعوي باكتساب الناس، ولربما ينفعون الدعوة، إن بتقليل العداء، وإن بكسبها إلى الصفوف.

المأموم تابع للإمام.

فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب، فركع الغلام والمرأة[1]. صلاة المرأة خلف صفوف الرجال. وفيه أن صلاة المرأة خلف الصفوف؛ طهارة للمجتمع المسلم. وأولاء كانوا ثلاثة يصلون جهرة أمام الكعبة، ولا يخافون بطش قريش! وفيه إظهار شرائع الملة، وقت الإطباق على الضلال، وهذه مدحة، ومنحة، وثبات، وكما وأن فيه قيمة العبودية لله تعالى، وحين كانت الاستعانة به وحده. وكذا فإن إقامة الصلاة زاد على الطريق.

وإنما تكسب الصلاة العبد طاقة إيمانية، وإذ يهون أمامها كل خطب، وإنها لزاد روحاني لمواجهة الأعباء. وإذ كانت الصلاة شعيرة كبيرة، جعلت قريشا تعجب من دين جديد، وأن هذه بعض شعائره، والتي لم تعهدها من قبل! وكما أن إظهار شعائر الله سبب لدعوة الناس، واجتماعهم على الحق. وفيه البدء بأهل بيت الرجل أولا.

---

(١) المرجع السابق: ٢ / ٥٦

وإذ أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء، ثم استقبل الكعبة، فقام مستقبلها[1]. استقبال القبلة شرط صحة الصلاة.

وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة[2]. لايضرنك قلة السالكين إلى الله تعالى مولاهم الحق.

إن الرسول النبي محمد ﷺ وعلي وخديجة أنصار حق يَزِنُونَ الجبال ذهبا. ولا تخلو الأرض من قائم بالحق وبه يعدل. وهكذا كان القسم لتأكيد الكلام.

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٥ ٨٦

(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ٢ / ٥٦

المبحث الثالث

إسلام بعض الأصحاب

إسلام علي ابن أبي طالب

عن ابن إسحاق قال ثم إن علي بن أبي طالب جاء بعد ذلك بيومين فوجدهما- النبي وخديجة- يصليان فقال علي ما هذا يا محمد فقال النبي ﷺ دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده وإلى عبادته وكفر باللات والعزى فقال له علي هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره فقال له يا علي إذا لم تسلم فاكتم فمكث علي تلك الليلة ثم إن الله أوقع في قلب علي الاسلام فأصبح غاديا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال ما عرضت علي يا محمد فقال له رسول الله ﷺ تشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد ففعل علي وأسلم ومكث علي يأتيه على خوف من أبي طالب وكتم علي اسلامه ولم يظهر به وأسلم زيد بن حارثه فمكثا قريبا من شهر يختلف علي إلى رسول الله ﷺ وكان مما أنعم الله به على علي أنه كان في حجر رسول الله ﷺ قبل الاسلام[1].

تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد. من لوازم الشهادتين كفر بالأنداد والشركاء والنظراء.

وقوله: دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده والى عبادته وكفر باللات والعزى: تفصيل بعد إجمال، ولأنه بين ذلك الدين، وأنه عبادة الله وحده، وكفر باللات والعزى، وهذا هو فصل الإسلام الأول.

---

(١) سيرة ابن إسحاق، ابن إسحاق: ج ٢ / ١١٨

أسلم علي وهو ابن عشر سنين. وفيه اعتبار إسلام الصبي، ولمَّا لم يبلغ بعد؛ إشاعة للهدى، وتكثيرا لأهله، وتربية لنشئه على التوحيد منذ نعومة أظفارهم.

وإذ قال أبو طالب لعلي: أسلمتَ؟ قال: نعم. قال: وازر ابن عمك وانصره. وهذه مروءة رجل.

بعث النبي ﷺ يوم الاثنين، وولد فيه أيضا! وهذه حكمة ربانية، فإنه يوم ترفع فيه الأعمال، فكانت له فضيلة، لذا؛ فقد ولد وبعث فيه ﷺ. فعن أبي هريرة: تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم(١).

إسلام أبي بكر الصديق

ثم إن أبا بكر لقي رسول الله ﷺ فقال أحق ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا وتسفيهك عقولنا وتكفيرك آبائنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر اني رسول الله ونبيه بعثني لأبلغ رسالته فأدعوك إلى الله بالحق فو الله إنه للحق وأدعوك إلى الله يا أبا بكر وحده لا شريك له ولا يعبد غيره والموالاة على طاعته أهل طاعته وقرأ عليه القرآن فلم يقر ولم ينكر وأسلم وكفر بالأصنام وخلع الأنداد وأقر بحق الاسلام ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق(٢).

كان إسلام أبي بكر الصديق أنفع، إذ كان صدرا في قومه معظما، ورئيسا في قريش مكرما، وصاحب مال، وداعية إلى الإسلام. وفيه أن إسلام رؤساء القوم يعد نصيرا للدعوة.

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٧٤٧
(٢) سيرة ابن إسحاق، ابن إسحاق: ج ٢/ ١٢٠

قال أبو بكر: أحق ما تقول قريش يا محمد؟ من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا؟ وهذا دليل إشاعة الجهر بالحق بلا اعتبار لموروثات القوم!

وهذا رده ﷺ: فو الله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى:

١- الله وحده لا شريك له.

٢- ولا تعبد غيره.

٣- والموالاة على طاعته.

وهذه ثلاث محكمات، وهن ضابط إسلام المرء.

وإذ دعا الرسول ﷺ أبا بكر قائلا: إني رسول الله أدعوك إلى الله، فلما فرغ كلامه أسلم أبو بكر. لم يتلعثم تلعثم غيره في قبول الحق. وما بين الأخشبين أحد أكثر سرورا منه بإسلام أبي بكر، فسرور عبد بهدي عبد فضل ونعمة.

وهذه فراسة رسول الله ﷺ في صاحبه. وقد كانت له في الإسلام صولات خير. وإظهار البشاشة لدى سماع نبأ خير هدي سنة. ولأنه" وما بين الأخشبين أحد أكثر سرورا منه ﷺ بإسلام أبي بكر. والبشاشة خلق حسن. وأول ثمارها راحة فاعلها، قبل غيره، فالتحلي بها خير وبركة.

وإذ قال نبينا ﷺ: وما عرضتُ الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة، إلا أبو بكر، فإنه لم يتلعثم في قوله[1]. لأنه رجع مسلما مصدقا، ولم تأخذه هنة من مراجعة، فالحق نور.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٦٥

وإذ لا يترك معسكر الكفر من آمن، وإذ لا يرحم من أسلم، ولو كان رأسا فيهم يوما! ولأنه قد اشتد أذى قريش لأبي بكر، وبعد إذ آمن!

قالوا: لم يكن أبو بكر أولهم إسلاما، ولكن كان أفضلهم إسلاما! وهذا تعبير يند عن وصفه، وتتقاطر منه معاني فضله(١).

قال: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة: أعبد وامرأتان، وأبو بكر. ومنه فإن غثاء السيل عمل غير صالح! وإن قلة مؤمنة بربها، وإنها لتزن الجبال قيمة وفضلا. ويكانه هذه مسارعة النساء، ومسابقتهن إلى الهدي، حتى أشرفن على مناصفة الرجال! وهذا اهتمام الإسلام بالعنصر البشري، ولوكان عبدا! ولقد كان للعبيد فيه شأن!

ألبست قريش المسلمين أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فواتوهم على ما أرادوا، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله. وإذ بلغ إيمانه به تضحية فريدة.

عن عبدالله بن مسعود: كان أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد(٢).

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٨
(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١٢٢

قال أبو حنيفة: أول من أسلم من الرجال الأحرار: أبو بكر، ومن النساء: خديجة، ومن الموالي: زيد بن حارثة، ومن الغلمان: علي بن أبي طالب.

وأسلم على يدي أبي بكر: الزبير، وعثمان، وطلحة، وسعد، وعبد الرحمن، وهؤلاء الخمسة كان لهم في الإسلام. فحسن اختيار معادن الناس فراسة وتوفيق وإلهام.

إيذاء أبي بكر في الله تعالى وصبره فيه

عن أبي الدرداء: كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبو الدرداء ونحن عنده: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما صاحبكم هذا فقد غامر قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أنتم تاركون لي صاحبي، هل أنتم تاركون لي صاحبي، إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعا، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت قال أبو عبد الله: غامر: سبق بالخير[1].

آذى المشركون أبا بكر، وما كان له من هم إلا قوله: ما فعل رسول الله! وأولاء هم رجال حول رسولهم محمد ﷺ. ينافحون عنه، ويدفعون عنه، ويدافعون عنه، ويذودون عنه، وإن كلفهم ذلك ما كلفهم!

(١) صحيح البخاري: ٤٦٤٠

وإذ قال أبو بكر: ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي. وهذا إباء عبد، وهذه شكيمته في الحق.

وهكذا الحق، يواجه أهل الباطل أهله! ولو كان صاحبهم من أمس! فقد أوذي أبو بكر! وكان رأسا فيهم!

وهذا دفاع نبي عن صاحبه. أسوة حسنة. وفيه أن عادة أهل الباطل تكذيب الحق وأهله! والتهوين من كيد العدو أمام القائد فيه طمأنة للصف في مواجهة خصوم الدعوة. وفيه التهوين من بذل النفوس في الله تعالى.

وعلى أنه ولما أوذي أبو بكر أكبَّ الرسول ﷺ عليه فقبَّله، وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رقة شديدة. وهذه هي مشاعر القلوب الرحيمة. ولو كان فيه تناسي ما قد حدث لهم معه هو نفسه!

مطالبة أبي بكر الرسول ﷺ بالجهر بالدعوة

عن عائشة؛ قالت: لما اجتمع أصحاب رسول الله وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألح أبو بكر على رسول الله في الظهور؛ فقال: يا أبا بكر إنا قليل فلم يزل أبو بكر يلح عليه وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته وقام أبو بكر خطيبا في الناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وكان أول خطيب دعا إلى الله ورسوله[1]. وفيه أن هؤلاء هم أعوان الخير، وهذه هي مناقبهم، وإذ يشدون من أزر قائدهم. وهذه أيضا طموحات سامقة. وكما وأن فيه حسن تقدير القائد للمواقف.

---

(١) أخبار القضاة، محمد بن خلف بن حيان: ج ١ / ١٨٢

وشد أزر القائد في إظهار الحق دأب جنده المخلصين. وإن القائد ليستأنس بمواقف رعيته الخالدة. وحين يستكثر أبو بكر بثمانية وثلاثين رجلا. لا كغثاء سيل!

إسلام عمرو بن عنبسة

قال عمرو بن عبسة السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا جرآء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: أنا نبي، فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر وعبد، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا؛ ألا ترى حالي وحال الناس، ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني. قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار، وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم علي نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله، فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله، أتعرفني؟ قال: نعم، أنت الذي لقيتني بمكة، قال: فقلت: بلى، فقلت: يا نبي الله، أخبرني عما علمك الله وأجهله، أخبرني عن الصلاة، قال: صل صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع؛ فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل؛

فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة؛ فإن حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصل؛ فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلي العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس؛ فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار. قال: فقلت: يا نبي الله، فالوضوء حدثني عنه، قال: ما منكم رجل يقرب وضوءه فيتمضمض، ويستنشق فينتثر؛ إلا خرت خطايا وجهه وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله، إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين، إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه، إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين، إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلى، فحمد الله وأثنى عليه، ومجده بالذي هو له أهل، وفرغ قلبه لله؛ إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه. فحدث عمرو بن عبسة بهذا الحديث أبا أمامة صاحب رسول الله ﷺ، فقال له أبو أمامة: يا عمرو بن عبسة، انظر ما تقول! في مقام واحد يعطى هذا الرجل، فقال عمرو: يا أبا أمامة، لقد كبرت سني، ورق عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله ولا على رسول الله، لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة، أو مرتين، أو ثلاثا -حتى عد سبع مرات- ما حدثت به أبدا، ولكني سمعته أكثر من ذلك[1].

وفيه إطلاق اسم الرسول على النبي. والبدء بتوحيد الله تعالى، وعدم الإشراك به. ثم فروع الشريعة، ومن مثل قوله ﷺ: صلوا أرحامكم؛ ولأن من وصل رحما فقد وصله الله، ومن قطعها فقد قطعه الله.

---

(١) صحيح مسلم: ٨٣٢

واستعمال أسلوب الخطاب لإيصال الفكرة حسن بيان. والإسلام مدحة ومنحة، بشهادة مشرك هو عمرو بن عنبسة، قبيل إسلامه.

وقوله ﷺ: حر وعبد؛ كناية عن قلة الأتباع في ذلكم الوقت. وهذا دين لا يفرق بين حر وعبد؛ لأن التفاضل في البر والتقوى.

وقوله: فأسلمت، قلت: فأتبعك يا رسول الله؟ قال: لا ولكن الحق بقومك، فإذا أخبرت أني قد خرجت فاتبعني. وفيه جواز الإسرار بالحق؛ لتأسيس قاعدة مؤمنة أولا. وجواز الإقامة بين ظهراني الكفار؛ حيث لا دولة للإسلام، وفي مراحل الاستضعاف، وإن سنة إخراج أهل الحق ماضية! والحق نور يقذفه الله في قلوب من اجتباهم له.

وإذ قال عمرو بن عبسة: لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام، وقال سعد : لقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام. انظر كيف كان إحصاؤهم! وهذا كناية عن قلة الأنصار.

وعلى أنه كانت من مناقب هذا عمرو بن عنبسة رضي الله تعالى عنه، هو ذلكم استشراف الحق وعن أمد! ولأنه كان يمقت الجاهلية، وهي من جهالات الناس، وحين وصموا بها؛ ومن كثرتها! وكما أنه أخذ سفرا إلى هذا النبي ﷺ، وحين قد علم بظهور نجمه! وليس قد تقاعس وقعد في بيته، وإلى أن يأتيه الخير إلى عنده!

وكما أن فيه عظم صلة الأرحام، وها هي قد جعلها الله تعالى قرينة الإفساد في الأرض؛ ومن قوله تعالى ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

وعلى أن مسألة الإسلام الأولى، وحين كانت من هدم الأصنام وتكسيرها، وكما كان من فعل إخوانه الذين مضوا، ومن هذا الرعيل الكريم عليهم الصلوات والتسليمات والبركات. رسالة خالدة، لا تقبل

مساومة، ودينا قيما، لا يفت في عضده ماكر، ولا يحول دونه جبار، وإن الأصنام لتكثر، وإن من كثرة تُبَّعُهَا، وإن الشرك ليعظم، وحين يتخذ صورا عديدة، كان منها هو هذه الأصنام، وكان منها هو هذه الأوثان، وكان منها هو ذلك البهتان، وحين شرع الناس لأنفسهم شرعا، لم يأذن به الله تعالى، وحين قد جعله الله تعالى قرين هذه الأصنام، سواء بسواء، وحين قال الله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

وإنما كان النهي عن اتخاذها كلها أو بعضها؛ ولأنه من نواقض التوحيد، ولأنه من تضاد الإفراد لله تعالى بالعبودية له والتذلل سبحانه.

علم نبوة ضاف

وعلى أن هذا علم نبوة ضاف، وحسن نظر للمستقبل، بعين الأمل الرحب السعيد، وحين كان أمره ﷺ لعمرو بن عنبسة أن يرجع إلى بلاده، وإلى أن يسمع بظهور هذا النبي محمد ﷺ لعمرو بن عنبسة! وها هو قد ظهر! وبه دل على أن هذا كان علما من أعلام نبوة هذا النبي محمد ﷺ الضافية.

وكما أن فيه جواز كتم الإيمان، وإلى أن يأذن الله تعالى بظهور دولته، وتمكين أمته، فيذودون عن حياضه، ويدفعون عن حرماته.

وكما أن فيه عظم شأن الصلاة، وحين كان قد سأل عنها عمرو بن عنبسة، ولما كان قد بينه النبي محمد ﷺ، ومن أمرها، ومن مواقيتها، وإنها وإذ تقام على وقتها، ومن قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وإذ كان من شأن صلاتنا هذه شهود ملائكة كرام بررة لها، وها هم أولاء عباده تعالى يباهي الله تعالى بالمصلين ملائكته، وكما هو الشأن في ربنا الرحمن سبحانه، وكما أن هذه الصلاة، وحين كان من شهودها هذا، ما دل عليه القرآن الحكيم، وما قد برهن عليه كلام سيد المرسلين وخاتم النبيين نبينا محمد ﷺ. وحين قال الله تعالى ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. وحين قال نبينا محمد ﷺ: تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم وحده، بخمس وعشرين جزءا، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: {إن قرآن الفجر كان مشهودا} [الإسراء: ٧٨] قال شعيب: وحدثني نافع عن عبد الله بن عمر، قال: تفضلها بسبع وعشرين درجة[١].

وكان بعض نحويي البصرة يقول: نصب قوله (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ) على الإغراء، كأنه قال: وعليك قرآن الفجر (إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) يقول: أن ما تقرأ به في صلاة الفجر من القرآن كان مشهودا، يشهده فيما ذكر ملائكة الليل وملائكة النهار[٢].

لكن شأن الوضوء كان عظيما أيضا، وقد كان من عظم شأنه هو ذلكم حط الخطايا عن العبيد؛ ولأنهم قد توضأوا! وحين تغسل جوارحهم، وحين تماط وتُحَتُّ أجسادهم منها؛ ولأنهم توضأوا أيضا! وحين قال هذا النبي محمد ﷺ: إلا سقطت خطايا رجليه من أنامله مع الماء. وحين يقف من بعدها بين يدي ربه تعالى خاشعا قانتا متذللا مخبتا وإلا «انصرف خارجا من خطيئته» وإذ كان وكأنما! بل لا كأنما بل هو «كهيئته يوم ولدته أمه»! فضلا منه تعالى ورضوانا.

---

(١) صحيح البخاري: ٦٤٨
(٢) تفسير الطبري، الطبري: ٣٣/١٥

إسلام عبد الله بن مسعود

عن عبد الله قال جاءني رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه وقد فر من المشركين وأنا أرعى غنما لابن أبي معيط بجياد فقال يا غلام عندك لبن تسقينا فقلت اني مؤتمن ولست بساقيكم فقال عندك جذعة لما ينز عليها الفحل فقلت نعم فأتيته بها فمسح الضرع فحفل الضرع وأتاه أبو بكر رضي الله عنه بصخرة مقعرة فحلب وشرب وسقى وسقى أبا بكر رضي الله عنه وسقاني وقال للضرع اقلص فقلص ثم أتيته بعد ذلك فقلت يا رسول الله علمني من هذا القول أو من هذا القرآن قال إنك غلام معلم فأخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد حدثنا خلف بن عمرو العكبري ثنا يعلي بن مهدي الآتي ثنا أبو عوانة عن عاصم عن زر عن عبد الله قال كنت في غنم لعقبة بن أبي معيط فأتاني رسول الله ﷺ فقال يا غلام هل معك من لبن قلت نعم ولكني مؤتمن قال فائتني بشاة لم ينز عليها الفحل فأتيته بعناق أو جذعة فجعل يمسح الضرع ويدعو حتى أنزلت فأتى أبو بكر رضي الله عنه بصخرة فاحتلب فيها ثم ناول أبا بكر فشرب ثم شرب النبي صلى الله عليه وسلم بعده ثم قال للضرع اقلص بإذن الله فقلص فعاد إلى ما كان فلما كان بعد أتيت النبي ﷺ فقلت علمني من هذا القرآن أو من هذا الكلام فمسح رأسي وقال إنك غلام معلم فلقد أخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها بشر[١].

أتى عليّ رسول الله وأبو بكر وقد فرا من المشركين - فقال أو فقالا-: عندك يا غلام لبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن، ولست بساقيكما. وهذه أمانة فريدة! وفيه جواز الفرار من المشركين؛ ريثما يهيئ الله تعالى لأهل الحق مخرجا.

---

(١) المعجم الكبير، الطبراني: ج ٩ / ٧٩

وإذ قرأ الرسول القرآن على ضرع شاة فأدر حليبها ثم أمرها أن اقلصي فقلصت! وهذه بركة أولياء الله. ومنه فإن التماس البركة إنما يكون وحين كان العبد وليا لله تعالى، وفيه بركة الرسول والقرآن معا، وإن القرآن طيب، فتطيب به القلوب، وتتعطر به الألسنة، وتوزن به الأفعال؛ ولتكون على وفقه وهداه.

فقلت: يا رسول الله: علمني من هذا الكلام أو من هذا القرآن، فمسح رأسي، وقال إنك غلام معلم، فعلمني سبعين سورة ما نازعني فيها بشر. وفيه فضل تعلم القرآن الحكيم، وحرص الصحابة على ذلك.

إسلام خالد بن سعيد

أسلم خالد ابن سعيد فأقسم أبوه أن يمنع عنه القوت! فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به[1]! وهذا بر ولد في مقابلة قسوة والد! وهكذا الإسلام! وهذه عقيدة تقود إلى حسن ظن العبد بربه!

إسلام حمزة

شهد حمزة بن عبد المطلب عم نبينا محمد ﷺ واقعة سب أبي جهل رسول الله ﷺ، فشجه في رأسه! فقام الناس من بني مخزوم لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله لقد سببت ابن أخيه سبا قبيحا[2]. وهذه شهادة كافر على نفسه! وهذه بقية مروءة رجال كانت معهودة عند العرب! ومنه فإن لطف العبارة سبيل إلى عدم اتساع رقعة الخلاف.

---

(١) السيرة الحلبية، ابن هشام الحميري: ١/٤٥٤

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج ٢ /٨٣

قال حمزة: ومن يمنعني وقد استبان لي ما أشهد أنه رسول الله وأن الذي يقول حق، فو الله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين[1]. ومنه فإن استبانة دين العبد قمن بها أن يقوى بها يقينه. وثمن إسلامه هو ابتلاؤه، ومن بني جلدته، والصبر على ذلك احتسابا هو عهد أهل الحق.

إسلام أبي ذر

لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ، قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاما ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل فاضطجع، فرآه علي فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمر به علي فقال: أما نال للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان يوم الثالث، فعاد علي على مثل ذلك، فأقام معه ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهدا وميثاقا لترشدني، فعلت، ففعل فأخبره، قال: فإنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٣/٤٤

النبي ﷺ: ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري، قال: والذي نفسي بيده، لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه، قال: ويلكم! ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجاركم إلى الشأم؟ فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكب العباس عليه[1].

وهذه همة عالية، وإذ كان قد تميز بها هذا الجيل كله، وإذ تبوأ مقعد صدق في هذا أبو ذر، وما كان من مثله أخوه عمرو بن عنبسة توا!

وفيه خلق التثبت. وإن حسن الخلق أساس في الدعوة، وإنه لأقوى من الكلام به. وفيه شجاعة فريدة لأبي ذر. وبلاء في الحق عظيم، وكما أن سنة الإيذاء في الله تعالى ماضية. والأرحام عصبة حامية، وفضيلة العباس مدافعا عن أخيه أبي ذر! وإصرار باطل على ظلمه، يقابله صبر مسلم واحتسابه. وإن اجتماع زمرة ظالمة على فرد أعزل! خارم لمروءة، لطالما كانوا يتغنون بها!

وإذ كان أبو ذر قد أرسل أخاه أنيسا ليتحسس نبأ هذا النبي محمد ﷺ فقال أنيس: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاما ما هو بالشعر!

وهذه دعاوى مناهضي الحق المعراة المكذوبة، يعرفونها كما يعرفون أبناءهم.

وإذ قال أبو ذر لأخيه أنيس: هل أنت كافيٍّ حتى انطلق؟ قال: نعم! وهذه نصرة أخ لأخيه في وقت عز فيه الناصر!

وإذ ينصح أنيس أخاه أبا ذر: كن من أهل مكة على حذر، فإنهم قد شنَّعوا له وتجهموا له. والتشنيع والتجهيم سنة ماضية، ومنه فإن

(١) صحيح البخاري: ٣٨٦١

الثبات على الحق، ولأنك عبد يحمل حقا كمثاقيل الجبال، وإذ كان كمثلها!

قال أبو ذر: فانطلقت حتى قدمت مكة، فتضعفت رجلا منهم فقلت: أين هذا الرجل الذي يدعونه الصابئ؟ ومنه فليكن عبد ذا حيلة وفطنة لدى مواجهة الصعاب والشدائد. وجواز التعريض في القول؛ ولقوله: فإنهم يزعمونه- ﷺ- صابئا! وما هو بصابئ!

فأشار إلى الصابئ فمال أهل الوادي عليّ بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشيا عليّ، ثم ارتفعت حين ارتفعت كأني نصب أحمر. وهذا صبر على الإيذاء عظيم.

فأتيت زمزم فشربت منها، وغسلت عني الدم، فلبثت ثلاثين مالي طعام إلا ماء زمزم، فسمنت وما وجدت على كبدي سخفة جوع.

فما يطوف بالبيت غير امرأتين، فأتتا عليّ وهما يدعوان: إساف ونائلة. فقلت: أنكحوا أحدهما الآخر! فما ثناهما ذلك. وهذا جواز تسفيه الباطل وأهله. وهو ضرب فريد من التعجيز والتحدي!

قال أبو ذر: فأتيت الرسول ﷺ، فكنت أول من حيَّاه بتحية أهل الإسلام. وهذا سبق فريد لأبي ذر ومنقبة له أيضا، وليتحلى العبد أبدا بسابقة خير كأبي ذر، فتكون له ذخرا.

فمن كان يطعمك؟ قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم، فقال رسول الله ﷺ «إنها مباركة، إنها طعام طعم». وهذه بركة ماء زمزم، وكونه طعاما.

فهل أنت مبلغ عني قومك؟ لعل الله ينفعهم بك ويأجرك فيهم؟ وهذا إرشاد وتحفيز في الدعوة.

وحين أخبر أبو ذر نبينا ﷺ أنه من قبيلة غفار، فقال رسول الله ﷺ: «غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله». وهذا فأل حسن بالاسم الحسن.

وإذ أسلمت قبيلة أبي ذر عن آخرها وبسببه، ومنه فإن إسلام قبيلة بأكملها بسبب فرد يشي بقيمة الفرد المسلم وأهميته، وحين يهب وينشط لدينه وحين يجد أرضا خصبة بالطبع!!

علم نبوة ضاف

عن أبي موسى الأشعري: رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، ورأيت فيها بقرا، والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله من الخير، وثواب الصدق الذي آتانا الله به بعد يوم بدر[١].

وهذا علم نبوة ضاف، وإذ لم يرها ﷺ. ومنه فإن الهجرة سنة ماضية.

إسلام ضماد الأزدي

عن عبدالله بن عباس: أن ضمادا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل، لعل الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه، فقال: يا محمد، إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي

(١) صحيح البخاري: ٧٠٣٥

من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد، قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر، قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي، قال: فبعث رسول الله ﷺ سرية، فمروا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئا؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة، فقال: ردوها؛ فإن هؤلاء قوم ضماد[1].

كان ضماد معروفا بالرقية، فأراد رقية الرسول ﷺ، لما قيل إنه مجنون، فلما سمع قوله(إن الحمد لله...) أسلم لتوها! ولأن هذا كلام نبوة، يفتح الله تعالى به قلوبا غلفا! ولم يكن لهم بذلكم قول من عهد!

وهذا قرع للآذان بما يحرك القلوب؛ وإن سلطان الذكر سيف حق. ومنه فلتكن دعوتنا مؤثرة، غير مكرورة؛ لتبلغ قاموس البحر!

وناعوس البحر، أو قاموسه، وعلى رواية في ذلك. وهذه من الكنايات أي أن كلامه ﷺ، وقد بلغ من البلاغة والفصاحة شأنا عميقا، وكما عمق البحر!

ولكن ضماد الأزدي، وإذ لم يكتف بنفسه، بل دعا قومه، ولما أسلموا وجوههم لله تعالى؛ ولأن المسلم داعية خير، وليس منكفئا على

(١) صحيح مسلم: ٨٦٨

ذات نفسه وحسب، ولأن هذا الدين ذو حركة دائبة مستمرة، وحين يحب العبد للناس أجمعين ما يحبه لنفسه التي بين جنبيه.

جواز تغيير الأسماء

كان اسم عاقل بن البكير غافلا، فسماه رسول الله ﷺ عاقلا. وفيه جواز تغيير الأسماء إلى الحسن منها.

المبحث الرابع: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

أمر الله تعالى رسوله محمدا ﷺ بعد ثلاث سنين من البعثة بأن يصدع بما أمر، وأن يصبر على أذى المشركين. وفيه جواز الإسرار بالحق مدة ريثما يزداد العدد ويتأهب. وحين تتملك العدة أيضا. ولزوم الصدع بالحق، ووجوب الصبر على الإيذاء فيه. ولأنه تعالى أمر به. وبدء الدعوة بالإسلام كان تاريخا لها؛ احتفاء بها، واهتماما بها، وهكذا الأحداث العظام، تكون محلا للتأريخ لها وبها، ومنه حادث الهجرة. ومنه أيضا تعظيم قيمة الفرد، وكيما لايكون في جماعته زيادة عدد وحسب! وشأن امرئ مما يدعو به، فالدعوة إلى هدى فيكون صاحبها هاديا مهتديا.

وإن أناسا يهدون بالحق وبه يعدلون، وأناسا يدعون إلى غيره! هل يستوون؟!

والصبر على الإيذاء ليس ضعفا، بل قوة عظمى!

ولا يستعجلن صاحب الحق، فإن الله ناصره، وبحقه الذي يحمله، وإن طال به الزمن. وصاحب الحق حلقة في سلسة الدعاة الطويلة. وعمله لتتواصل الحلقات فتسلم إلى غيره.

وثلاث سنين عددا! أو أقل أو أكثر. المهم أن يعمل الدعاة بهمة ونشاط، ولا يعتريهم فتور أو كسل أو خور، فإن أصحاب الدعوات يستيقظون على دعوتهم، وينامون عليها.

عزائم رجال

كان الصحابة إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، واستخفوا بصلاتهم من قومهم. استخفوا بتوحيدهم ربهم الحق، مقابل شرك قومهم. وصلاتهم لا كصلاتهم. ومنه كانت مغايرة مألوفات القوم الباطلة بجديد، هو ذاك الحق الذي واجههم به ﷺ. وهذا كناية عن شدة ما يلاقون من المشركين من إيذاء.

وإذ اعتدى المشركون على سعد بن أبي وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعيد بن زيد، بينما هم يصلون، فضرب سعد أحدهم. فكان أول دم أهريق في الإسلام. وفيه جواز دفع الصائل. وبغير إذن الإمام. وفيه فضيلة سعد وقوته. وجواز دفاع فرد عن جماعة عند قدرته. وإذ إن دأب المشركين هو الإيذاء؛ ولأنهم لا يطيقون حقا!

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٤].

لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. قال الرسول ﷺ: إن بادأت بها قومي رأيت ما أكره، قال جبريل: إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك[١] ومنه فلا مخرج دون البلاغ. والبلاغ والإلا العذاب، ووجوب البلاغ بالحق! وإذ إن الآل يؤذون ذا حق فيهم، ولما كان الإيذاء في الله تعالى سنة ماضية.

وإذ نادى نبينا ﷺ قومه: يا آل عبد المطلب: والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل من ما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا

---

(١) سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار: ج ٢ / ١٢٦

والآخرة[1]. وبه فإن الدعوة لا تعرفها الكهولة! وإذ يعد الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه شابا، وبعد الأربعين!

وإذ دعا الرسول ﷺ قريشا إلى طعام فأكلوا، فاتهمه أبو لهب بالسحر! وهم على مائدة طعامهم بعد. ومنه فإن الإطعام من أسباب التأليف والتقريب والتهذيب، ولا يكتفى به، بل ليجعل مادة للبلاغ، كما هو مائدة للطعام، ولما يكن ذلكم ذخرا. و"إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة". بالتوحيد سعادة الدارين. وإنه لأفضل بلاغ!

لما دعا الرسول قومه وهم يطعمون! أحجم القوم عنه جميعا، وقاموا يضحكون! وهذه رسالة إلى دعاة الإطعام أن ينتبهوا! ولأن فئاما يتبعون من أعطى أكثر، وحسبهم ذلك!

يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا

عن طارق بن عبدالله المحاربي: رأيتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلَى آلِه وسلَّمَ مرَّ في سوقِ ذي المَجازِ وعليهِ حلَّةٌ حمراءُ وَهوَ يقولُ : رأيت رسول الله ﷺ مرتين: مرة بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي - هكذا قال- أبيعها، فمر وعليه حلة حمراء وهو ينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا، ورجل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوه؛ فإنه كذاب، قلت: من هذا؟ فقالوا: هذا غلام بني عبد المطلب، قلت: من هذا الذي يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى، وهو أبو لهب لعنه الله، فلما ظهر الإسلام وقدم المدينة أقبلنا في ركب من الربذة وجنوب الربذة حتى نزلنا قريبا من المدينة ومعنا ظعينة لنا، فبينما نحن قعود إذ أتانا رجل

---

(١) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٢ / ٣٢٤

عليه ثوبان أبيضان فسلم فرددنا عليه، فقال: من أين أقبل القوم؟ قلنا: من الربذة وجنوب الربذة، قال: ومعنا جمل أحمر، قال: تبيعوني جملكم هذا؟ قلنا: نعم، قال: بكم؟ قلنا: بكذا وكذا صاعا من تمر، قال: فما استوضعنا شيئا، وقال: قد أخذته، ثم أخذ برأس الجمل حتى دخل المدينة فتوارى عنا، فتلاومنا بيننا، وقلنا: أعطيتم جملكم من لا تعرفونه، فقالت الظعينة: لا تلاوموا؛ فقد رأيت وجه رجل ما كان ليحقركم، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه، فلما كان العشي أتانا رجل فقال: السلام عليكم، رسول رسول الله ﷺ إليكم: وإنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا، وتكتالوا حتى تستوفوا، قال: فأكلنا حتى شبعنا، واكتلنا حتى استوفينا، فلما كان من الغد دخلنا المدينة فإذا رسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول، أمك وأباك، وأختك وأخاك، وأدناك أدناك، فقام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين قتلوا فلانا في الجاهلية، فخذ لنا بثأرنا، فرفع يديه حتى رأينا بياض إبطيه وقال: ألا لا يجني والد على ولده [١].

والمسألة هي إعمال لا إله إلا الله في الواقع والضمير.

وإذ يقول أبو جهل: لا تطيعوه؛ فإنه كذاب، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى. وهذا سهر جبهات الباطل على باطلهم! وهذا أثر الإعلام السلبي في التشويش على الدعوة والدعاة! ومن سادة القوم جهلائهم!

وماذا عليهم لو وحدوا ربهم؛ لعز الدنيا، وفلاح الآخرة؟! ولما كانت بداية الفلاح من تحقيق لا إله إلا الله.

---

(١) تخريج سنن الدارقطني، شعيب الأرناؤوط: ٢٩٧٦

وفيه تنبيه المنادى، وذلك أدعى لاستجاشة كوامن الخير فيه. وهذا كناية عن الدعوة في سائر الأماكن، وخاصة في مظان اجتماع القوم.

قولوا لا إله إلا الله تفلحوا: الله أحد في ذاته وأسمائه وصفاته وحكمه وسلطانه وأمره ونهيه. وهذا يسر عقيدتنا، وسهولة ديننا، فلا طقوس ولا أساطير ولا أتباع ولا صور ولا تماثيل، فكلها تتحطم على عتبات عقيدتنا!

ولقد عز عليهم حتى قولها، لأنهم يعلمون ثمنها، ألا سلطان لهم من بعدها. فالسلطان كله لله تعالى! ولأنهم يعلمون ضريبة قولها من هجرنهم أحكامهم ومن تركهم أصنامهم!!! وأن ألوهيته تعالى تعني إزالة كل آمر ناه بغير أمره تعالى ونهيه. شرط قدرة عليه. فالتخلية قبل التحلية، وهذا عمل دؤوب من دعاة الهدى، من أجلها، ليلَ نهارَ.

إن ألوهيته تعالى تعني أن الأمر أمره والنهي نهيه. وقول أو عمل بغير ذلك لا على سبيلها!

أيكم يقضي عني ديني ويكون خليفتي في أهلي؟

من يقضي عني ديني ويكون خليفتي في أهلي[1]؟ قال ابن كثير: يعني: إذا مت، وكأنه خشي إذا قام بإبلاغ الرسالة إلى مشركي العرب أن يقتلوه. وعلى سنتهم الماضية في ذلك. ولأن الشهادة واستشرافها سبيل المصلحين!

قال: فسكتوا، وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله. وهذا الضن بالنصرة من عمه! قبل أن يسلم! فطريق الدعوات ليس مفروشا بالورود!

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٥٣

استماتة قريش

جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا[1]. والجهالة أمام الحق خيبة، والإذعان له مروءة. والصلف والكبر داعيان لرد الحق، ودلك على كبرهم وصلفهم قولهم: ابن أخيك، هذا! وهذا تعبير كناية عن ذات نفس خائبة، وليكن امرؤ متواضعا! ولا يغرن امرؤ انتفاش الباطل ظاهرا، فإن فردا واحدا يهزمه!

وهكذا الصادقون همهم هو هداية الناس إلى التوحيد، ولا يستقلن امرؤ بنفسه، فإن بداخلها طاقات خلابة! وهذا فرد يواجه أمة كاملة وحده! ولأن عبدا واحدا بالتوحيد أمة وحده! وهذا الذي نعت القرآن الحكيم به نبيه تعالى إبراهيم عليه السلام، وكما قال تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠].

وهذا التعريض باسم الرسول ﷺ! لأنه يحطم دينهم ويسفه أحلامهم! وكون أن لهم مسجدا ويصلون. فليست هذه براهين توحيد!

إصرار رسول!

وإذ قال نبينا ﷺ: ترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم! قال: فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة[2].

وهذا هو ثبات الفئة المؤمنة الواعية لسبيلها، ومهما نصبت على طريقها الشباك! وإذ كان الأصل هو تلكم المفاصلة بين الحق وأهله من جانب وبين الباطل واهله من جانب آر ولما كان هذا هو استدعاء لمعنى

---

(١) سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار: ١/ ١٥٥
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ١/٤٦٣

قوله تعالى﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[الكافرون: ١-٦]. وبه قضي الأمر! ولئن كانت المساومة على الحق هي طريقة أهل الباطل. وإن التحدي بالتعجيز مهارة! وهذه بلاغة نبوية. وحين أطلق كلا، وأراد منه جزءًا! وإذ كان من إمكان فرد أن يعجز أمة. إذ فأنى لهم إشعال شمعة منه؟! وما زال فرد واحد يواجه أمة بأسرها! ولما كانت قوة امرئ ولحق يحمله ويدعو إليه! وكما أن هذه عزة صاحب الحق، وبالحق الذي يحمله بين جنباته!

عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة أن نبينا ﷺ قال: يا عمَّاهُ، واللهِ لَو وَضعوا الشَّمسَ في يميني والقمرَ في شمالِي علَى أن أترُكَ هذا الأمرَ حتَّى يُظهرَه اللهُ أو أهلِكَ فيه ما تركتُهُ[1]. وفيه إصرار آخر على الحق! وإذ لا حيلة مع صاحبه!

ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى. والبكاء تحسرا وشفقة رحمةً، من تداعيات النفس البشرية، وحين بكى ﷺ شفقة على نفسه ألا نصير! وشفقة على قومه ألا يسلموا!

يا ابن أخي فأقبل عليه، فقال: امض على أمرك وافعل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا. وهذه مروءة عم، ووقفات رجال. وإنها لتسلية لصاحب الحق، وحين يستشعر، أنه ليس وحده. لكنه عمه فقط! ولأن أعوان الحق قلة. فلا يستوحش أهل الحق، وحين يجابهون وضعا كهذا! ولأن قلة السالكين سبيل التوحيد وأهله، وهي سنة ماضية! وإذ يسخر الله من بيت الكفر من ينصر دعوته، وهذا داع لاطمئنان العبد السالك!

(١) فقه السيرة الألباني: ١٠٩، خلاصة حكم المحدث: ضعيف.

لكن النداء: يا ابن أخي! وإذ يحكي وشيجة القربى الجياشة.

منع الله نبيه حين عزم أبو جهل ضرب الرسول ﷺ

عن أبي هريرة قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته -أو لأعفرن وجهه في التراب- قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟! فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا، قال: فأنزل الله عز وجل -لا ندري في حديث أبي هريرة، أو شيء بلغه-: {كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى * أرأيت الذي ينهى * عبدا إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذب وتولى}، يعني أبا جهل، {ألم يعلم بأن الله يرى * كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدع ناديه * سندع الزبانية * كلا لا تطعه} [العلق: ٦ - ١٩]. وفي رواية: وأمره بما أمره به. وفي رواية: {فليدع ناديه}، يعني قومه[١].

وإذ عزم أبو جهل ضرب الرسول ﷺ بحجر وهو يصلي، فأمسك الله يده! ورأى كمثل جمل أراد أن يهلكه! وإذ كانت آية على أنه تعالى يدفع عن أوليائه، ومنه فلا يبتئسن من كان هذا شأن ربه سبحانه معه!

---

(١) صحيح مسلم: ٢٧٩٧

وهذه جرأة كافر معاند على داعية الحق، ويكأنها دالة نور وهدى وصلاح على عباده تعالى المؤمنين أيضا، وإذ كانت هي زادهم على الطريق!!!

وإذ كان أبو جهل نائبا عن أمة الكفر كلها؛ ليحمل أوزارهم على ظهره! ولا ينقصن ذلكم من وزره شيئا أيضا!

وإذ إن القرآن حجاب عباد الله المؤمنين! ولنر قول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا. وذلك أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ؛ فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبلة ؛ يعنون شيطانا . وأعمى الله - عز وجل - أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك[1].

وإذ قرأ الرسول ﷺ القرآن حين هجرته من مكة البلد الحرام إلى طيبة الطيبة المدينة يثرب، فأغشاهم الله عنه! وبه يكون القرآن ستر العباد من الأذى، ومنه أيضا كان حسن اتخاذه سترا للعبد نفسه من الأخطار ومن ملمات الفجار.

وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب ثم قال نعم أنا أقول ذلك أنت أحدهم وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم - إلى قوله - وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون حتى فرغ

(١) الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي: ١٩٦/٥

رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات فلم يبق منهم رجل إلا وضع على رأسه ترابا ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال ما تنتظرون ههنا قالوا محمد قال خيبكم الله قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته أفما ترون ما بكم قال فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب(١).

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت لما نزلت " تبت يدا أبي لهب " أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول: مذمما أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ " إنها لن تراني "، وقرأ قرآنا اعتصم به كما قال. وقرأ " وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ". فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، أخبرت أن صاحبك هجاني! فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها(٢).

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: لما نزلت " تبت يدا أبى لهب وتب " جاءت امرأة أبى لهب إلى النبي ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر: لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما يؤذيك، فإنها امرأة بذية. فقال النبي ﷺ: " إنه سيحال بيني وبينها " فلم تره. فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك! فقال: والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله. فقالت: وإنك لمصدقه، فاندفعت راجعة. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ١٠٠/٢
(٢) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ٦٠٤/٤

الله، أما رأتك؟ قال: " لا. ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت[1]".

فهذه بركة القرآن؛ وصدق الله تعالى حين قال﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. فدون العبد هو.

عزم أبو جهل إيذاء الرسول ﷺ فقرأ القرآن فسد الله أفق السماء عليه! هجوم كاسح على أهل الباطل؛ فلا طاقة لهم به! فمن ذا يحارب الله في أوليائه؟!

عن عبدالله بن عباس: قال أبو جهلٍ لئن رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُصلِّي عند الكعبةِ لآتِينَّه حتى أطأَ على عنقِه قال فقال لو فعل لأخذتْهُ الملائكةُ عَيانًا ولو أنَّ اليهودَ تمنَّوا الموتَ لماتوا ورأوا مقاعدَهم في النَّارِ ولو خرج الذين يُباهلون رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجَعوا لا يجدونَ مالًا ولا أهلًا[2].

وإذ كان طريق الدعاة ملبدا شوكا، لكنهم لا يضيرهم من ذلكم من شئ ولأن لهم أسوة في نبيهم محمد ﷺ. وإذ إن العبد الصالح العامل كجراح يقطع عضوا ليعالج مريضا! وإذ كان من شان داعية الخير أنه يدعوهم إلى النجاة، وهاهم أولاء يؤذونه!! وإذ لا يعلم المساكين أن دعوة الحق لا يهزها عتو مستكبر؛ وذلك ليقين بالله منقطع النظير. ولما كان الله تعالى هو الركن الركين، ومنه فحسن الاستمساك بحبله أبدا!

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٢٦٩/١٠
(٢) السلسلة الصحيحة، الألباني: ٨٧٢/٧

هذا صلف الجهلاء! وهذا رد الأنبياء!

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بأنَّ اللَّهَ يَرَى، كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ، فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ، كَلَّا لا تُطِعْهُ﴾ [العلق من ٦: ١٩].

ولماذا زبانية كثر، وإن واحدا منهم لو بسط جناحيه لكسحهم جميعا؟! وهذا لزوم الحشد، وتخويفا ونرهيبا وإرعادا وإرهابا!

وإذ كانت اللام توطئة للقسم، فهل هناك حاجة للقسم بسفع خفيف؟! نعم! فلقد كان عظيم قومه! ومجرد سفعه إهانة له!

وهذا من لطفه تعالى بالعظماء، ولعلهم أن يعودوا، وعساهم أن يؤوبوا، فسحة منه تعالى لأولاء نفر، كان لهم التأثير في أقوامهم، ريثما يعودون إلى حظيرة الحق؛ ليسلموا، ومن ثم يسلم قومه معه، فتكون له سنة حسنة، له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وانظر إلى رسالة نبينا محمد ﷺ. إلى هرقل عظيم القبط، فَإِذَا فيها: باسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و{يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}[1] .

وفيه التدرج في العقاب، فهذه المرة سفع، وفي المرة القادمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

---

(١) صحيح البخاري: ٧

والسفع هو اللفح اليسير فيحول اللون الأبيض أسود! وهذه من صفات النار! وإذ تتحول عادة من اللون الأحمر إلى الأبيض ثم إلى اللون الأسود! فما بالك لو كان هذا السفع كثيرا! فما هو تحوله حين ذاك؟!

وهو من قولهم: سفعت الشّمس وجهه: لفحته لفحًا يسيرًا فغيَّرت لونَ بشرته وأصابته بالاسمرار[١].

وقال المبرد: السفع: الجذب بشدة؛ أي لنجرن بناصيته إلى النار[٢].

ولم جاءت الزبانية- جمعا- ؟! وواحد منهم كفيل بالناس عامة! وهذا إمعان في امتهان، وقدرة على دك!

والزبانية! ملائكة غلاظ شداد! بمثابة قوات خاصة، وظيفتها حراسة العقيدة، وأصحاب العقيدة معا!

والزبانية هم خزنة النار، وهذا كناية عن دقة اختيار الغلاظ الشداد؛ لمواجهة هذا الصلف والعتو!

وفيه شناعة المعصية؛ لأنها دليل عمل للشيطان، وبرهان توهين للإيمان.

وفيه شناعة الكذب، وخاصة حين يكون على الله تعالى؛ لأنهم ادعوا له شركاء كثر، وهو سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ولو واحدا!

فعن أبي هريرة: قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه[٣].

الكذب من الخطأ، والخطأ متعدد! فجمع بينهما ذلكم الصنديد أبو جهل!!!

---

(١) المعجم الوسيط: مادة: سفع
(٢) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٢٠/ ١٢٥
(٣) صحيح مسلم: ٢٩٨٥

وكاذبة وخاطئة على وزن فاعل! لأنه وصف لصيق بمن هكذا شأنه، فجاء هكذا نكاية في افتضاحه!

وجاءت الناصية الأولى معرفة تحديدا للهدف! وجاءت الثانية نكرة نكارة لصاحبها! وهذه بلاغة قرآن!

والناصية لا تكذب، ولا ذنب لها! وإنما يكذب صاحبها. لكنه إشهاد منها عليه! وامتهان سيق إليه نعتا له ووصفا به! وما أشد أن يكون وصف المرء في ناصيته!!

لكن تكرار ذكر الناصية؛ إمعانا في النكاية والازدراء!

وهذا حشد لضمائر بلغت سبعة، وفي مثل هذا الحيز الذي يبدو قصيرا، لكنه واسع سعة معان قد تضمنها، ومنه ناسب ذلكم الحشد الهائل من الضمائر، ومع ميزة وجودها زينة للكلام، وداعية الالتفات؛ للإثارة وجذب الاهتمام، وهذه من التألقات البلاغية للقرآن الحكيم!

وذكر الجاهل بضمير الإفراد(ناديه) احتقارا له ولكبره وجهله!

ومجيء كلام ربنا تعالى عن نفسه الكريمة بضمير الجمع(سندع) تعظيما. ولنعظمه تبعا أبدا سبحانه.

وتعريف الناصية(بأل)كناية عن دقة تصويب الهدف! وليس يكاد يفلت منه أحد! وليحذر أخذه تعالى بكذلكم دقة أيضا!

وهذا قسم، وربنا تعالى لا حاجة له به لكنه إمعان في نكاية المواجهة مع عدوه اللدود! وإذ لا جواظ ولا عتل أمام قوة الله تعالى القاصمة!!!

وسفع الله تعالى قاطع مضاء!!! وحذره أدعى وأوجب!!!

وإذ كان الجهلاء يستقوون بناديهم! وهؤلاء الزبانية تجرفهم جرفا؛ لأن وراءهم قوة ربنا القادرة القاهرة!

لكن الله تعالى قادر على أخذه دون زبانية! لكنها مقابلة بمقابلة مثلها!

وإذ جاء وصف الجبابرة هكذا في القرآن المجيد!

وكان هذا إمعان قريش في إيذائها رسول الله ﷺ، وليهون إذاء غيره تبعا لإيذائه ﷺ!

جواز الدعاء على الظالمين

عن عبدالله بن مسعود: بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة وجمع قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجدا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة عليها السلام - وهي جويرية -، فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجدا حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، ثم سمى: اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد. قال عبد الله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: وأتبع أصحاب القليب لعنة(١).

---

(١) صحيح البخاري: ٥٢٠

وإذ وضعت قريش سلا جزور على ظهر نبينا ﷺ بينما كان يصلي فدعا عليهم، وإذ قد حدث هذا إلا أنه لا يكن هم امرئ كثرة الدعاء على الظالمين! وإذ روى أبو هريرة أنه قِيلَ: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين قال: إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة[1].

وعن أبي الدرداء: إن اللعانين لا يكونون شهداء، ولا شفعاء يوم القيامة[2].

وإذ امتحن رسولنا ﷺ في ربه، فليس أحد خارجا عن سننه. وليتسل به ﷺ.

وإذ حدث (وهو يصلي)! فدل على أن الكفر لا يرعي لمشاعر الله حرمة!

والإغفال عن قضايا الأمة الأساس، غفلة عن سنن رسول الله محمد ﷺ، ومنه فقد وجب مجابهة الظالمين، وعلى قدر القدرة، وبالحكمة والموعظة الحسنة أيضا.

وكل من دعا عليهم الرسول ﷺ قتلوا يوم بدر جميعا، ثم سحبوا إلى القليب غير أبي- أو أمية بن خلف- دعا عليهم، ولم يقعد في داره! بل غزاهم! وفي عقر دارهم!

ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد. انشغالك بالدعاء على الظالم ربما أضعف من قيمة المجابهة بالحق فأين دورك غير الدعاء ومعه؟

وعن عبدالله بن مسعود: بينما رجل يحدث في كندة، فقال: يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، يأخذ

---

(١) صحيح مسلم: ٢٥٩٩
(٢) صحيح مسلم: ٢٥٩٨

المؤمن كهيئة الزكام، ففزعنا، فأتيت ابن مسعود، وكان متكئا فغضب فجلس، فقال: من علم فليقل، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: لا أعلم؛ فإن الله قال لنبيه ﷺ: {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين} [ص: ٨٦]، وإن قريشا أبطؤوا عن الإسلام، فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف. فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان، فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله، فقرأ: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين} إلى قوله: {عائدون} [الدخان: ١٠ - ١٥]، أفيكشف عنهم عذاب الآخرة إذا جاء؟! ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله تعالى: {يوم نبطش البطشة الكبرى} [الدخان: ١٦]: يوم بدر، و{لزاما} [الفرقان: ٧٧]: يوم بدر. {الم * غلبت الروم} إلى {سيغلبون} [الروم: ١ - ٣]، والروم قد مضى[١]. فالدعاء سلاح مضاء.

فاطمة بنت محمد ﷺ تميط الأذى عن أبيها

وإذ ألقت فاطمة سلا الجزور عنه ﷺ، وأقبلت عليهم، فسبتهم. وهذا دور المرأة، فلا يقل أثرا وقيمة عن دور الرجل في الدعوة والدفاع عن مقدسات الأمة.

وفيه جواز سب الظالم في وجهه؛ لردعه عن ظلمه، واكتفاء شره وبطشه.

---

(١) صحيح البخاري: ٤٧٧٤

وإذ لما دعا الرسول ﷺ عليهم، وكانوا يضحكون عليه فوجموا! وهذا لتأثير سلاح الدعاء المضاء في عدو الله، وليطمئن عبد إلى معية مولاه.

دعا الرسول على قريش لما قذفوه بسلا الجزور، وفي حضرتهم!

والسلى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا فيه[1].

وبه فإن داعية الحق قوي بربه، غير وجل!

قصة الأراشي

قال ابن إسحاق: حدَّثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثَّقفي، وكان واعية، قال: قدم رجل من إرَاشَ -قال ابن هشام: ويقال: إرَاشَة- بإبل له مكَّة، فابتاعها منه أبو جهل، فمَطَلَه بأثمانها. فأقبل الإرَاشِيُّ حتى وقف على نادٍ من قريش، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس، فقال: يا معشر قريش، مَنْ رجل يؤدِّيني على أبي الحكم بن هشام، فإنِّي رجل غريب، ابن سبيل، وقد غَلَبَني على حَقِّي؟ قال: فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرَّجل الجالس -لرسول الله ﷺ وهم يهزؤون به؛ لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة- اذهب إليه فإنَّه يؤدِّيك عليه.

فأقبل الإرَاشِيُّ حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا عبد الله، إنَّ أبا الحكم بن هشام قد غَلَبَني على حقٍّ لي قِبَلَه، وأنا رجل غريب، ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدِّيني عليه، يأخذ لي حَقِّي

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ١٤/٣٩٦

منه، فأشاروا لي إليك، فَخُذ لي حَقِّي منه، يرحمك الله. قال: انطلق إليه. وقام معه رسول الله ﷺ. فلمَّا رأوه قام معه، قالوا لرجل ممَّن معهم: اتبعه، فانظر ماذا يصنع.

قال: وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه، فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: محمَّد، فاخرج إليَّ. فخرج إليه، وما في وجهه من رائحة، قد انتقع لونه، فقال: أعط هذا الرَّجل حقَّه. قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له. قال: فدخل، فخرج إليه بحقِّه، فدفعه إليه. قال: ثم انصرف رسول الله ﷺ، وقال للإِرَاشِي: الْحَقْ بشأنك. فأقبل الإِرَاشِي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيرًا، فقد والله أخذ لي حَقِّي. قال: وجاء الرَّجل الذي بعثوا معه، فقالوا: ويحك! ماذا رأيت؟ قال: عجبًا من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه وما معه روحه، فقال له: أعط هذا حقَّه، فقال: نعم، لا تبرح حتى أُخْرِج إليه حقَّه، فدخل فخرج إليه بحقِّه، فأعطاه إياه. قال: ثمَّ لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا له: ويلك! ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط! قال: ويحكم، والله ما هو إلَّا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعت صوته، فملئت رعبًا، ثم خرجت إليه، وإنَّ فوق رأسه لفحلًا من الإبل، ما رأيت مثل هَامَتِه، ولا قَصَرَتِه، ولا أنيابه لِفَحلٍ قطُّ، والله لو أَبَيْت لأكلني[1].

وإذ ذهب الرسول ﷺ إلى أبي جهل، وكان عدو الله تعالى؛ ليطالبه بحق الأراشي؛ لدين له عليه فأعطاه. وإذ كان أولياؤه لم يجرؤوا على مطالبته، وإنما أشاروا إليه ﷺ! وإذ لم ينتصب لهذا الدور العظيم غيره ﷺ! وحين جبنت الحاشية أن تطاله! وحين انتصب لها الرسول ﷺ!

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣٨٩/١

ومنه فإن الإسلام ليس رهبنة، وإنما نصرة المظلوم، ولو كان كافرا! ومنه فإن اختلافك مع الظالم لا يمنع مطالبته بحق الآخرين، وهذ يبين عن الدور الإيجابي للمسلم في مجتمعه.

هم قريش بقتله ﷺ ودفاع أبي بكر عنه

عن عبدالله بن عمرو: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: {أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله} [غافر: ٢٨] الآية(١).

وبينما كان النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه على عنقه، فخنقه خنقا شديدا. وهذا مبين عن كم هو حنق الظالم على أهل الحق!

وإذ أقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكب عقبة بن أبي معيط، ودفعه عن النبي ﷺ، وبه فإن حماية قائد الحق واجبة على أوليائه.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]. وإذ كان قوله ﷺ: لزوالُ الدنيا أهونُ على اللهِ مِنْ قتلِ رجلٍ مسلمٍ(٢).

---

(١) صحيح البخاري: ٣٨٥٦
(٢) صحيح الجامع، الألباني: ٥٠٧٧

وهذا استفهام تعجبي! لأنه ليس واردا لدى الحكماء! إلا أنهم يفعلونه!

وهذا استفهام إنكاري؛ لأنه منكر عند العقلاء قتل رجل هذا وصفه. لكنك تذهل من وقوعه.

وإذ كان عارا على أمة أرادت قتل رجل؛ لأنه يقول ربي الله! وإذ كان من أمره أنه ﷺ جاء بالدعوة إلى الله تعالى بالدليل الصادق، وأولاء يأتون باطلهم ليل نهار، وبلا دليل صادق.

وحين أقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكب عقبة بن أبي معيط،، ودفعه عن النبي ﷺ، وبه كان التجشم للدفاع عن الحق منقبة.

خمس واجبات!

ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا. وهذه خمسة واجبة. وإذ كان رجل واحد يهز أركان الباطل! وإذ كان منه أن السهام مصوبة نحو قائد الخير! وحين كان تسفيه الظلم شأن أهل الحق.

أتسمعون يا معشر قريش؟

عن عبدالله بن عمرو: أتسمعون يا معشرَ قريشٍ! أما والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه ؛ لقد جئتُكم بالذَّبحِ. قال: فأخذت القومُ كلمتَه، حتَّى ما منهم رجلٌ إلَّا لكأنَّما على رأسِه طائرٌ واقعٌ، حتَّى إنَّ أشدَّهم فيه وطأةً قبل ذلك يترفَّؤه بأحسنِ ما يُجيبُ من القولِ؛ حتَّى إنَّه ليقولُ: انصرِفْ يا أبا القاسمِ ! انصرِفْ راشدًا؛ فواللهِ ما كنتُ جهولًا! فانصرف رسولُ اللهِ

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حتَّى إذا كان من الغدِ، اجتمعوا في الحِجرِ؛ وأنا معهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتَّى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه! وبينا هم في ذلك؛ إذ طلع عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوثبوا إليه وثبةَ رجلٍ واحدٍ، وأحاطوا به يقولون له: أنت الَّذي تقولُ كذا وكذا؟ لمَّا كان يبلغُهم منه من عيبِ آلهتِهم ودينِهم، قال: نعم أنا الَّذي أقولُ ذلك، قال: فلقد رأيتُ رجلًا منهم أخذ بمجمَعِ ردائِه، وقام أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي اللهُ عنه دونه يقولُ – وهو يبكي - : أتقتلون رجلًا أن يقولَ ربِّي اللهَ، ثمَّ انصرفوا عنه. فإنَّ ذلك لأشدُّ ما رأيتُ قريشًا بلغت منه قطُّ[1].

وإذ قال الرسول ﷺ: أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح. وإذ جاءهم نبينا ﷺ، ومقدما للناس دينا قيما، ولخيرهم، وإذ هم يمنعونه إبلاغ أمر ربه! وعندما توصد أبواب الدعوة إلى الحق، فبقيت نفرة أهله للدفع عنه.

وإذ كان هذا تهديدا في العهد المكي! فدل على جوازه في مراحل الاستضعاف.

وهذا تهديد الرسول ﷺ وحده قريشا بأجمعها! وها هو في موقف الاستضعاف! فدل على طاقة هائلة يحملها دعاة الحق ودا عن حق يحملونه للناس.

وكما أن فيه جواز الإقسام وعند الحزم والعزم. وتمييع الحق أتاح للباطل أن ينتفش، وفاعل ذلك مشارك له! وفيه جواز الحزم مع الظالم لعله أن يرتدع.

---

(١) صحيح الموارد، الألباني: ١٤٠٤

والمسلم قوي بربه، ولو كان وحده، وحين يكون على توحيده قائما.

وإذ أخذ رجل بمجامع ردائه ﷺ، وقام أبو بكر يبكى دونه ويقول: ويلكم: أتقتلون رجلا يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه. وهذا رجل واحد يدافع عنه ﷺ، وهذه به قلة صابرة محتسبة على الله أجرها.

ولكنه تعالى يصرف عن أوليائه كيد الظالمين، وليطمئن لذلكم أولياؤه!

والشهادة في سبيله تعالى منارة في الظلام الحالك، وحين واجههم وإذ كان في خلده إمكان أن يكون ثمن ذلك شهادته! وإذ لم يكن قد نزل بعد قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٧].

ولما هددهم الرسول بالذبح قالوا: انطلق راشدا فما كنت بجهول، ثم أحاطوه بالتهديد. وهذا من مكر الظالم؛ فيلملم أوراقه المبعثرة!

أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم. فيقول رسول الله ﷺ: نعم أنا الذي أقول ذلك. وهذ جرأة في الحق عزيزة!

وإذ أخذ رجل بمجامع ردائه ﷺ، وقام أبو بكر يبكى دونه ويقول: ويلكم: أتقتلون رجلا يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه. وهذ من فقه أبي بكر؛ ولعلمه نيتهم قتله! وإذ كانت عادة الباطل هي التخلص من أهل الحق

وانصراف القوم عنه ﷺ، وإذ كان بانزجارهم بالقرآن، وإذ إن فعل التذكير بالقرآن نافذا! ثم بالصديق، وفيه تضافر أسباب المواجهة

ويقدمها القرآن الحكيم. وإذ ها نحن أمام رجل واحد يواجه، ورجل واحد يدافع!

وفيه الصبر على لأواء العيش، ومكابدة قريش، وكل في سبيله تعالى، ويهون كل شيء في سبيله سبحانه.

وإنما تقاس كل حادثة بسياقها الذي جاءت به، وكذا نوع المخاطبين بها، والحادثة التي تفسرها، وتبين المقصود منها، والنظر في جميع النصوص المتعلقة بها، والتي من خلالها يمكن الوصول إلى فهم نظرة الإسلام إلى المسألة، وليس من خلال نص واحد فقط.

وقد علم الناس مشارق الأرض ومغاربها أن النبي ﷺ كان قد عفا عن أهل مكة، وبعد أذاهم الشديد له، وذلك حين جاءه ملك الجبال ليطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلان بمكة، وإذ كان جوابه صلى الله عليه وسلم وكما روت عائشة أم المؤمنين: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا[1]. وهذا عفوه ﷺ عن كفار قريش ويوم أن ظلموا

---

(١) صحيح البخاري: ٣٢٣

المؤمنين، واستباحوا بيضتهم، واستحلوا أكل أموالهم بالباطل والعدوان، بعد فتح مكة.

وهذا فعله ﷺ ويوم أكرم بعض كبرائهم؛ وكيما يحسن إسلامهم، وذلك حين قال يوم فتح مكة المكرمة البلد الحرام، وفيما روى الإمام الحبر الترجمان عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ عام الفتح جاءه العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان بن حرب فأسلم بمر الظهران فقال له العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فلو جعلت له شيئا قال: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن[1].

وهذه مقاصد ديننا، وكما قال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال عز وجل أيضاً ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]. "يقول تعالى: فإن كذّبك- يا محمد- مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾. وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله ونبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين "[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين قال: إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة[3].

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٣٠٢١
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٣٥٧/٣
(٣) صحيح مسلم : ٢٥٩٩

من صور إيذاء المشركين للنبي ﷺ

لقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد.

عن أنس بن مالك: لقد أخفت في الله وما يخاف أحد . ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد . ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال [1].

هذا وصفه ﷺ، وإذ كان كونه (لله)! وبه قضي الأمر.

وليلة! وما لي ولبلال ما يأكله ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال. وهذا بيان ما كان عليه القوم من لأواء، ومنه فإن إطعام الناس ببذخ يفتح باب تمردهم على حياتهم وأقدارهم!

وهذا كناية عن عيش الكفاف! وما يقيم للإنسان صلبه؛ وكفى!

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]!

إن إرسال الآيات موجب صدق الاتباع، ومنذر لدواعي المخالفة؛ وغيره هو التكذيب المانع من الآيات.

وقال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧،٩٦]!

إن الآيات القوارع تحيطنا من كل صوب، وينبغي الاعتبار، لا وكأنه لم يكن شيء قد حدث! والحال أنه إذا حقت كلمة ربك فماذا يردها، ولتحذر نفس أن تمعن في المخالفة، ومن بعدُ؛ ولأنهم سبق عنادَهم غيُهم واستكبارهم وفتنتهم المؤمنين.

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٤٧٢

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله منهم رسول الله ﷺ بعمه أبي طالب[1]. وهذه صورة مكرورة أبدا!

وبه فإن التنعم موجب الترهل، وداعي التكاسل، والتقشف صانع الجلَد، والاخشوشان داعية الصبر، وإذ وكما قيل: فإن النعيم لايدرك بالنعيم.

وإذ كان من قولهم: ابعثوا إلى محمد فكلموه، وخاصموه حتى تعذروا فيه[2]! انظر! لا لكي يهتدوا، وإنما كي يعذروه! وهذا فعل المساومة فيهم دائما!

وقال الله تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. فليس كل ما يدعو به العبد هو خيرا له، فالله تعالى أعلم ما هو خير لعبده، فليدعه، وليكل أمره إليه، فلن يضيعه.

وإذ سألت قريش الرسول ﷺ عن أهل الكهف وذي القرنين والروح ليسلموا! ولما أجابهم لم يسلموا! ولو جاءتهم كل آية!

وعن عبد الله بن عباس قالت قريش ليهود: أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فأنزل الله تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا قالوا: أوتينا علما كثيرا، التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا. فأنزل الله تعالى: قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي إلى آخر الآية[3].

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٦٨/٢

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٩١

(٣) الاقتراح، ابن دقيق العيد: ١٠٤. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة، وهو يتوكأ على عسيب معه، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يجيء فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم: لنسألنه، فقام رجل منهم، فقال يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقمت، فلما انجلى عنه، قال: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتوا من العلم إلا قليلا). قال الأعمش: هكذا في قراءتنا[1].

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه: عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، فقلت: لا يا رب! ولكن أشبع يوما، وأجوع يوما فإذا جعت؛ تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت، حمدتك وشكرتك[2].

واخشوشان المعيشة يصقل النفوس ويهذبها. ولكنه على أي وجه كان شأن العبد فإنه يذكره بربه.

فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال: ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك. وهذا سوء أدبهم مع الله تعالى. وفيه معرفة الداعية حدود صلاحياته، وأدب طلباته.

وإذ كان منه أيضا قوله: ما بي ما تقولون، ما جئت لأطلب أموالكم، ولا الشرف ولا الملك، بعثت إليكم رسولا، بشيرا نذيرا، فبلغتكم، فإن تقبلوا فهو حظكم وإن تردوه أصبر[3].

وهذا شأن المعجزين والمحرجين، ولكن الداعية العاقل الصابر يعرف جوابه تماما؛ ولأنه يعمل بنور من ربه تعالى، وحين قالوا له: يا محمد: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ. فطنة وحكمة

---

(١)صحيح البخاري: ١٢٥
(٢) تخريج مشكاة المصابيح، الألباني: ٥١١٨. خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف جدا.
(٣) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١/ ١٩٢

نبي. وهذا أدب الرسول مع جده الذي رباه. وهذا بر ولد بوالده(جده). وإذ لا يريد ذكره بسوء.

فعن جابر بن عبد الله اجتمعت قريش للنبي ﷺ يوما فقال: انظروا أعلمكم بالسحر، والكهانة، والشعر، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ما يرد عليه. قالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة. قالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة، فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك قد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا سخطة أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أن في قريش ساحرا، وأن في قريش كاهنا، ما ينتظر الأمثل صيحة الحبلى بأن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك من أموالنا؛ حتى تكون أغنى قريش رجلا، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش، فنزوجك عشرا. فقال له رسول الله ﷺ: أفرغت؟ قال: نعم، قال: فقال رسول الله ﷺ: {حم (١) تنزيل من الرحمن الرحيم...} حتى بلغ: {فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} [فصلت: ١-١٣]. فقال عتبة: حسبك حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: لا. فرجع إلى قريش. فقالوا: ما وراءك؟ فقال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته. قالوا: هل أجابك؟ قال: نعم، قال والذي نصبها بنية، ما فهمت شيئا مما قال؛ غير أنه قال: {أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} [فصلت: ١٣]. قالوا: ويلك يكلمك

رجل بالعربية، فلا تدري ما قال؟ قال: لا والله، ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة[1].

وإذ يرسل الله تعالى صواعقه؛ ولعل الناس يفيقون، ولكن كثيرا لا يمسكون! وكأنما لا يسمعون! وهل بعد ما أصاب ديارنا من صاعقة! وهذ تشريد عمال، وهذا إغلاق مصانع، وجثوم كورونا(فيروس ميت)، فما بال الناس لو كان حيا!

وقوله: حسبك، هو من قوله: وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب[2]. وهذه شفقة ظالم على قومه! وما بالهم لا يشفقون هم على أنفسهم؟! بل وما بال كثر لا يرعوون كثيرا عند ذكر العذاب؟! وهذا عظم شأن الرحم حتى عند الجاهلية! فما بال قوم يقطعون أرحامهم إربا إربا!!!

وهذا إطباقهم كلهم على صدقه. ومنه فصدق العبد قمن معرفته به، وليكون شارة عليه خلقا حسنا. ومنه فليكن أحدنا صادقا أبدا.

والصاعقة كل أمر هائل، رآه الرائى، أو عاينه، أو أصابه، حتى يصير من هوله، وعظيم شأنه، إلى هلاك، وعطب، وذهاب عقل :"[3] وتذكير بما أخذنا به غيركم. فارعوه سمعكم جيدا! وهذه صاعقة واحدة استأصلت أمة بأسرها.

وقال الله تعالى ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]. وإذ كان من شأن داعية الحق تعرضه للكيل من أولئك المعاندين، فيكيلون له الكيل، ومن بعد كيل آخر،

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ٦/٢٢. خلاصة حكم المحدث: فيه الأجلح الكندي، وبقية رجاله ثقات.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير: ج ٣ / ٨٠

(٣) تفسير الطبري،ابن جرير الطبري: ٢ / ٨٣

وحين اتهموا نبينا صل تارة ساحرا، وتارة مجنونا، وتارة شاعرا. ولكن الله تعالى أبكتهم ومن ضلالهم.

وأنهم لا يستطيعون سبيلا ولا حيلة في صد الناس عنه، وها هم قد صرف الله تعالى قلوبهم عن الهدى؛ ومن كفرهم وجدالهم وتشهيرهم، وهذا الذي ينبغي الحذر منه، وأن يختم الله تعالى على قلب امرئ معاند مناوئ! وكما قال تعالى ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الإسراء: ١٢٧]. ويكأن الله تعالى حرمهم التوفيق، فلا يجدون مخرجا مما أورطوا أنفسهم فيه؛ ولتناقض كلامهم في قولهم: مجنون، ساحر، شاعر، ولكن داعية الحق هكذا لا تؤثر فيه مزاعم أدعياء الباطل.

موقف والد أبي بكر

وإذ خاطب والد أبي بكر ولده: يا بني إني أراك تعتق ضعافا، فلو أنك أعتقت رجالا جلداء يمنعونك؟ قال: فقال أبو بكر: يا أبة إني إنما أريد ما أريد[1]. وهذا بعد نظر! فقد كان لهم شأن!

وقال الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]. وهذه الآيات نزلت في أبي بكر؛ لأنه كان يشتري عبيدا كثر من أسيادهم الكفار عذبوا في الله تعالى؛ ليعتقهم.

عن زيد بن أسلم عن المغيرة بن شعبة قال: إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال لأبي جهل: يا أبا الحكم هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا هل تريد إلا أن نشهد أن قد

(١) مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا: ١٢٥

بلغت فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق ما اتبعتك فانصرف رسول الله ﷺ وأقبل علي فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن بنو قصي قالوا فينا الحجابة فقلنا نعم فقالوا فينا الندوة قلنا نعم ثم قالوا: فينا اللواء فقلنا: نعم وقالوا: فينا السقاية فقلنا: نعم ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي والله لا أفعل[1]. سب نظام الكفر مثخن فيه!

إن الشرف هو التجرد للحق، ولازال موجودا! والتجرد حق وراحة. وعيبة جاهلية متحكمة!

وإذ قال أبو جهل: فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك. قاعدة عدم العذر بالجهل. لكنه برهان تناقض الكفر أبدا؟!

وإذ قال أبو جهل: هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت؟ وهذا حنق مشرك على هدى الله خيره هو قبل غيره!

فقال أبو جهل: يا محمد، هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ الرسول ص يناديه: يا أبا الحكم. وهو يناديه: يا محمد! وهذا حلم نبي وجهالة مشرك.

وفيه وجوب سب الشرك لصالحه، فلعله أن ينزجر عنه إلى الحق والهدى، فكثير أولاء المغمورون. وهذا صلف مشرك وكبره وغمطه.

وإذ قال ﷺ: أما أنت يا أبا سفيان، فما لله ورسوله غضبت ولكنك حميت للأصل، وأما أنت يا أبا الحكم فو الله لتضحكن قليلا ولتبكين كثيرا، وهذا تقسيم بليغ! وكما أنه إبطال لمنهج الظلم كله، وهذه جرأة قول الحق في مواجهة صناديد الباطل.

---

(١) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج ١٦١/١

وإذ قال أبو جهل: فو الله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك. وهذا كذب في دعواه؛ لأنه سبق قوله يوما: حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي، والله لا أفعل!

تنص القوانين الوضعية على عدم الإعذار بالجهل بالقانون؛ وافتراض علم الكافة بالقاعدة القانونية، ومن بعد صدورها في الجريدة الرسمية للدولة. ضبطا للنظام العام! ورغم ذلك لم يُعذَرْ.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

في التوسط الاعتدال. هذه وسطية ديننا. فليكن أحدنا وسطا.

﴿تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك، فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن. وهذه جهالة أهل الباطل. ولا تخافت بها عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك. وهذه وسطية ديننا أيضا. وفيه عظمة القرآن. وفقه الدعوة، وكيما لا يتعرض لأهل الباطل فيسبوا الله عدوا بغير علم؟ ولأنهم غلاظ القلوب، فلا يهتدون لسناه ونوره وهداه.

الفصل الثالث

من الهجرة إلى الحبشة وإلى الإسراء والمعراج

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الهجرة الأولى إلى الحبشة.

كان أول من هاجر إلى الحبشة أحد عشر رجلا وأربع نسوة، وأنهم انتهوا إلى البحر ما بين ماش وراكب فاستأجروا سفينة بنصف دينار إلى الحبشة[١].

وهذه هجرة في الله. وهذا جهاد المرأة في الله. وهذه قلة مؤمنة! وهذه مجاهدة في الله. والوطن حيث يقيم العبد دينه.

قال ﷺ: لو خرجتم إلى أرض الحبشة؟ فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي- أرض صدق-حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه[٢]. وهذه فضيلة العدل. وهذا جواز تزكية المشرك لعدله. وهذه خبرة نبينا محمد ﷺ بمواطن المهاجر. وهو تضلع بأخبار التاريخ. وحنو وحلم رسول قائد، وهذه شفقة نبي. وسبق للخير فضيلة. وهذا تحسس الراعي أحوال رعيته.

ولكنه وإذا ظلم الراعي ظلمت رعيته. وإذا عدل الراعي عدلت الرعية.

وفيه شؤم الظلم. وأن الفرج بيده تعالى وحده.

---

(١) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، العيني: ٥٨٨/١١

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: باب هجرة الحبشة

كانت الهجرة إلى الحبشة أول هجرة في الإسلام؛ لاشتداد الأذى بالرسول ﷺ، وأصحابه الثلة المؤمنة المستضعفة أنذاك. وكان منهم عثمان وزوجته رقية. فبيت النبوة يتبوأ الصف الأول في البلاء والهجرة فيه.

كانت الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة حين دخل أبو طالب، ومن حالفه مع رسول الله ﷺ إلى الشعب. وإن كان الإمام العماد الحافظ ابن كثير له نظر في ذلك وحين قال: وفيه نظر. وفيه مشروعية الهجرة خشية الفتنة.

قال رسول الله ﷺ: صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام[1].وهذه فضيلة عثمان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ.

وكان عثمان بن مظعون أميرا على أصحاب الهجرة الأولى. وفيه أهمية الإمارة ضبطا للنظام.

عن ابن مسعود: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحوا من ثمانين رجلا. وهذه قلة تصنع التاريخ.

بعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجدا له! وأيهما أولى، سجود لله تعالى بعزة، أم سجود لغيره بامتهان؟! وفيه أن الكفر موجب عنتا. وإذ كان يمكنهما الإسلام لله تعالى وتوافرا على راحة لا مشقة سفر كهذا ويسجدون لغير الله ضعة وذلة.

قال عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد للنجاشي: إن نفرا من بني عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا. واعتزال الباطل طهارة للحق

---

(١) فتح الباري، ابن حجر: ج ١٤٣/٧

وأهله. وقال تعالى ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]. وهذه آلة إعلامية تؤلب على الحق وأهله. وقد عزت النخوة! ولما راحوا يشتكون بني عمومتهم!

وقال جعفر بن أبي طالب: إن الله بعث إلينا رسولا، ثم أمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة[١]. ولأنك مبلغ عن ربك فأحسن بلاغه تعالى. وهذه أهمية الصلاة فهي صلتك بربك، والزكاة فهي مواساتك. وإسناد الأمر لله دليل تجرد وإخلاص. والبحث عما أشرك فيه القوم، والبدء بهدمه أولا. وهذه براعة في العرض. لا نسجد (تخلية)إلا لله(تحلية). وإذ بدأ جعفر بالتوحيد. لنبدأ به أولا أيضا.

وإذ كان من شأن جعفر أنه كان خطيبهم، وقد اتبعه أصحابه، فدل على ألفة بين الفريق الواحد، وكما أنه برهان على عمل أصول الإمارة فيهم. وتنظيم الصف قوة وهيبة.

ولكنه حين دخل فسلَّم، ولم يسجد. وحين اعترضه الناس ولأنه لا سجود لأحد غير الله تعالى ولا شريك له في حكمه أيضا، ولعله قال: السلام على من اتبع الهدى. وفيه مجابهة القوم بما غلب على شركهم. فلا تمييع للقضية أول الأمر وكيما نكون على بينة من أمرنا وإلا كان غشا للمدعو، وإلا كان عقبة في دعوته من بعد، وهذا أمر مشاهد. والعبد عزيز بهكذا إظهار عبوديته لله.

ولعل كلمة إسلامنا في نبي الله عيسى عليه السام وإنما تفوق عدلا ما يقولونه الناس، وحين كان قولنا أقوم من قولهم فيه! وإذ يعلم هذا

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٦ / ٢٤

ومن سؤال النجاشي: ما تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله: هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر[1].

ولذلك لم يجد هذا الرجل المنصف العادل وعلى وصف نبينا له وإلا أن يقول: والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحبا بكم، وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله ﷺ. وهذه الشهادة عنوان على الحق ويدان بها الذين يغمضون عينا، أو يصمون أذنا، وحين كان ذلك بمثابة إقامة الحجة على القوم! وهذا الذي يذكره التاريخ لعدولهم، وحين لم تمنع نصرانية ورقة بن نوفل أن يقول حقا هو يعلمه، وكذا النجاشي. وبالتالي فإن حجة الله تعالى على القوم قائمة!

وإلا أن هذا فن تعلم المجادلة بالحق. وحين يدلي كل بدلوه ومع مصاحبة تجرد وإنصاف تامين تامين.

ولكنك تنبهر وحين كان سؤال الرجل متضمنا بنوة عيسى لمريم عليهما السلام!

ولكن علم الصحابة الكرام بحقيقة عيسى عليه السلام، وبهكذا الذي قاله رسولهم محمد ﷺ، وحين جاء مطابقا وهو لا شك مطابق لقولهم، وإنما هو برهان صدق نبوءة رسولنا ﷺ فيه!

ولكن إسلام النجاشي هذا ليعد إنصاف كتابي. ومنضافا إلى إنصافه إكرام وفادة المسلمين إليه أيضا. ولكنك تتسلح بالعلم لدى قدومك على أرض أخرى؛ وكيما تستطيع ردا على هكذا أسئلة متوقعة أو غير متوقعة، ومن حقل الذي يدينون به؛ ولأنه سوف يكون محلا لهذه التساؤلات.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤ /٣٨٥

ولكن الملك فتنة، وحذرها أمكن لدين العبد. وهذا قول النجاشي الذي أفيد منه قولي هذا: والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه.

وإنما كتب القرآن بين يدي الرسول محمد ﷺ، ومنه فضُمِن عدمُ تحريفه، أو تبديله، أو تغييره، فمن يضمن عدم تحريفه بعد هذه المدة؟!

وإنما أسلم النجاشي؛ ولأن لديه علم الكتاب الأول المخبوء!

وإذ لم يكتب الإنجيل إلا بعد موت سيدنا عيسى علسه السلام بثلاث مئة سنة! فكيف نصدق تحريفا، وحين قالوا: إن مخطوطات العهد الجديد، والتي أنشئت في كثير من اللغات ليست كتابًا واحدًا بخط المؤلف نفسه بل هي نسخ أو نسخ النسخ للكتب الأصلية التي فقدت اليوم، إن أقدم النصوص المتوافرة للعهد الجديد ترقى إلى القرن الثالث وقد كتبت باللغة اليونانية على الرق، ويعتبر المجلد الفاتيكاني أقدمها ويعود لحوالي العام مائتين وخمسين عاما! وسبب تسميته لأنه محفوظ في مكتبة الفاتيكان، وكذلك المجلد السينائي الذي يعود لحوالي العام ثلاث مائة عام! وقد أضيف إليه جزء من سفر الراعي لهرماس، وهو من محفوظات المتحف البريطاني في لندن وسبب تسميته اكتشافه في دير سانت كاترين في شبه جزيرة سيناء؛ غير أنه يوجد عدد كبير من البرديات والمخطوطات التي تعود أقدمها إلى بداية القرن الثاني وتظهر أجزاءً مختلفة متفاوتة الطول من العهد الجديد؛ إن نسخ وطبعات العهد الجديد ليست كلها واحدة بل تحوي على طائفة من الفوارق بعضها بقواعد الصرف أو النحو وترتيب الكلمات، لكن بعضها الآخر يتعلق بمعنى الفقرات، إن أصل هذه الفروق يعود لأن نص العهد الجديد قد نسخ طول قرون عديدة وبلغات مختلفة بيد نساخ صلاحهم للعمل

متفاوت، ما يؤدي حكمًا إلى أخطاء عديدة في النسخ، سوى ذلك فإن بعض النساخ حاولوا أحيانًا أن يعدلوا بعض الفقرات التي بدت لهم تحوي أخطاءً أو قلة دقة في التعبير اللاهوتي، إلى جانب استعمال نصوص فقرات عديدة من العهد الجديد في أثناء إقامة شعائر العبادة ما أدى أحيانًا إلى إدخال زخارف لفظية غايتها تجميل النص(١)!

أهدي كتاب (إظهار الحق) لرحمة الله الهندي لكل باحث عن الحق ولكل باغ للحق ولكل مناهض للحق ولكل معاد للحق! وحين تناول كتاب (إظهار الحق) بالحق! إثبات تحريف الإنجيل ونسخه. ونبوة نبينا محمد ﷺ، وأن القرآن كلام الله المعجز، وإبطال التثليث. ودفع شبهات القسيسين.

إنه يجب مراجعة كتاب (إظهار الحق) لرحمة الله الهندي؛ لأنه كان رأسا في الكنيسة، فأنعم الله تعالى عليه بهداه.

وإذ لاحقت قريش برسوليها المهاجرين إلى الحبشة، وحين قالا: قد صار إليك ناس من سفلتنا، وسفهائنا، فادفعهم إلينا(٢). ولكن الرجل ومن عدله قال: لا حتى أسمع كلامهم! وهؤلاء رجال لا تُشْتَرَى! وإذ كان من ألف باء المحاورات، هو ضرورة سماع الخصوم جميعهم.

ولكنه وحين قذف الله الحق في قلب النجاشي، رد على قريش هديتها! وهذا رجل سجل التاريخ له أنه لم يبع دينه بهدية!

وحيث قد وردنا إسلام النجاشي، ولم يرد إلينا إسلام قسيسيه! والله -سبحانه - يجتبي إليه من يشاء!

---

(١) مدخل إلى العهد الجديد، العهد الجديد، لجنة من اللاهوتيين، دار المشرق، الطبعة السادسة عشر، بيروت ١٩٨٨، بإذن الخور أسقف بولس باسيم، النائب الرسولي للاتين في لبنان: ٢٣

(٢) تفسير ابن كثير: ٤ /٣٨٥

يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء! (سواء)!هذا أدب القرآن في دعوة القوم. فتحل بأدبه.

وإذ كانت البعثة الثانية إلى الحبشة بعد وقعة بدر، ثأرا فلم يجبهم النجاشي إلى شيء مما سألوا. ومنه فإن دعم النجاشي رسالة إلى مناصري الحق أن يثبتوا. ومن حيث إن دعم النجاشي ليعد شمعة مضيئة لأهل الحق ألا يقنطوا، ولأن ملاحقة أهل الحق خارج ديارهم سنة قائمة.

ولكن الرجل وحين آثر الحق على ما هو فيه، وحين اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك فارقت ديننا، وخرجوا عليه. ومنه فليحذر مناهضو الحق، فإن التاريخ يوثق الأفعال والأقوال، ولايعرف المحاباة! وكما قد سجل هكذا أمجادا لهذا الزكي النجاشي!

هكذا السنن الماضية مواجهة الكفر كله لشخص واحد، ويثبت!

وهكذا السنن الماضية، وحين مواجهة الكفر كله لشخص واحد، ويثبت! وهذا اختبار حقيقي للنجاشي أيثبت في وجه العاصفة أم سينحني لها؟! وحين أظهر أولئك القساوسة سوء أدبهم مع ملكهم. وإذ كانوا يعرفون ما عرفه تماما! ولكنها رسالة هامة إلى كل ملك عادل؛ لنصرة الحق، ولو كان فيه زوال ملك الدنيا! ولأن التجرد للحق الباقي أولى من ملك ذاهب.

انظر! فارقت (وحدك)! ديننا (كلنا)! وهذه بصمة إيجابية يذكرها التاريخ للنجاشي، ولمن سار سيره، واقتفى أثره، ولا ينساها!

فقال: فما بكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبده ورسوله. قال: فما تقولون؟ قالوا: هو ابن الله. فأعلمهم أنه عبد.

فرضوا. وهذا حسن إدارة الخلاف. ولا سيما أنهم رضوا قوله ذلك؛ ولأنه حق، والحق له سلطانه. وتلك حجة الله الدامغة.

ولكننا نشير إلى حكمة أخرى وفي إدارة الموقف، وحين توجه النجاشي إلى قومه قائلا: يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى! قال: فكيف أنتم بسيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة. وهذا هو رصيد الداعية المسلم العاقل الواعي وحين كان من موجب قبول دعوته حسن سيرته ومعهود خيريته، وهذا هو رصيده عند إدارة الأزمات.

وهذا تلطف راع مع رعيته. وهي حكمة تبدى بها سيدة موقف كان مفروضا! وإذ ما حرك الرجل أساطيله سحقا لأولاء المتمردين!

وإنما نعى رسول الله ﷺ النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم، وكبّر أربع تكبيرات. وفيه جواز صلاة الغائب. جبرا لخاطر ونيلا لثواب وجواز النعي. وجوازه يوم الوفاة. وإنما كان هذا مجدا للنجاشي؛ لنصرته الحق ولو زال ملكه. وفيه وفاء نبينا محمد ﷺ لهذا النجاشي الملك العادل. وهذا هو الإسلام لا ينسى لأهل الفضل فضلهم.

وصلاة الجنازة أربع تكبيرات. وتسوية الصف منقبة لهذا الدين. وجواز صلاة الجنازة في المصلى.

وفيه إنزال الناس منازلهم حتى بعد موتهم! ومن فعل الرسول ﷺ نفسه، وليس نائبا عنه اهتماما!

وإذ قال النجاشي يوما: ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناسَ فيّ فأطيع الناس فيه[1]. وهذا تمجيد

---

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج ١ / ٢٠٣

وثناء على رب كريم. وفيه عظم سوء الرشوة! وهذه صلابة دين النجاشي، وهذه خشيته لله تعالى رب العالمين.

وإنما فضل النجاشي أن يعيش عبدا لدى سيده، على أن يعيش ملكا! إلا أن يعطوه ماله الذي اشتراه به! وهذا صنف عزيز مثله! وإذ لا يفوت عبد ما قدر الله له فلا يأس.

وقد كان من خبره أن باعت الحبشة النجاشي صغيرا؛ خشية تملكه عليهم، ثم ردوه، وملكوه، ولم يعطوا سيده ماله، فشكاهم إلى ملكهم، فأبى إلا أن يعطوه، وإلا ليرجعن إليه غلاما.

وإذ كتم النجاشي إيمانه عن قومه، لا محبة في ملك، وإنما خشية أن يقتلوه؛ كما قتلوا أباه الملك من قبل! وفيه جواز كتم الإيمان لمصلحة الدعوة. وخشية الفتنة، وإمكان الدعوة سرا.

وقيل إن: النجاشي اسم علم على من ملك الحبشة، وفرعون علم لمن ملك مصر. وقيصر لمن ملك الروم، وكسرى لمن حكم فارس.

واسم النجاشي مصحمة أو أصحم - وهو بالعربية -: عطية. وهذا اسم دال على مسماه!

وإنما أهدى النجاشي ابن أخي النجاشي للرسول ﷺ خادما له. وأهداه المقوقس مارية القبطية! وهذه رقة قلوب عرفت الحق، فآمن بعضهم، وكفر آخرون. وهذا مصداق قوله تعالى ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى!

ولكن المفارقة أن ملوكا يهدون نبيا، وإذ يحاربه قومه!

واسجل إكرام النجاشي وفادة الصحابة، وكذا إكرامهم لدى عودتهم ويم أن حملهم وأهداهم. وفي هذا عاقبة التقوى والإخلاص

وحين يسخر الله تعالى من عبيد من يأوي عبيد ويكرمهم حالين وترحالين. ومنه فأخلص قلبك لله، يقيض لك من يكرمك، وإن أهانك قومك!

لكنه وحين قدم وفد النجاشي على الرسول ﷺ فقام يخدمهم، قالوا: نحن نكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابي مكرمين وإني أحب أن أكافيهم. وهذه أخلاق نبينا وقد سبق فيها ما يسميه الناس يومهم هذا بالأخلاق الدولية في القانون الدولي.

المبحث الثاني: إرهاصات إسلام عمرو بن العاص

لما قدم عمرو من الحبشة جلس في بيته فلم يخرج، فقالوا: ماله لا يخرج؟ قال: إن أصحمة يزعم أن صاحبكم نبي. وهذا إرهاصات انهيار الآلة الإعلامية الكاذبة!!! ولأن مجرد إسلام ولو فردا واحدا فإنه يؤثر في الآخرين! وهكذا وعما قريب ترق قلوب كانت قاسية! وقد رأيناها كثيرا فيمن يلاحقون أهل الحق، وكما أن داخل كل عبد قوة دافعة مركزية إلى الحق، لتأطره عليه أطرا، وحين يأطرك إيمانك فلا تخفه! وهكذا يكون صنع الإيمان في قلوب أصحابه، وهذه مبشرات خير لك يا بن العاص! وبه فقد ارتد السحر على الساحر!

فعن جابر بن عبدالله: لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة قال فتية منهم بلى يا رسول الله بينا نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدا قال يقول رسول الله ﷺ صدقت صدقت كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم(١).

وعن أم سلمة ابنة أبي أمية ابن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي آمنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا ان يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين وان يهدوا للنجاشي هدايا مما

---

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٣٢٥٥

يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منه إليه الأدم فجمعوا له أدما كثيرا ولم يتركوا من بطارقته بطريقا الا أهدوا له هدية ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي وأمروهما أمرهم وقالوا لهما ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل ان تكلموا النجاشي فيهم ثم قدموا للنجاشي هداياه ثم سلوه ان يسلمهم إليكم قبل ان يكلمهم قالت فخرجا فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار وعند خير جار فلم يبق من بطارقته بطريق الا دفعا إليه هديته قبل ان يكلما النجاشي ثم قالا لكل بطريق منهم انه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاؤا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم إليهم فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بان يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فان قومهم أعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم فقالوا لهما نعم ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له أيها الملك انه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاؤا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه قالت ولم يكن شئ أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم فقالت بطارقته حوله صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم قال فغضب النجاشي ثم قال لا ها الله أيم الله إذا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوما جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فاسألهم ما يقول هذان في أمرهم فان كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وان

كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني قالت ثم ارسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل إذا جئتموه قالوا نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن فلما جاؤه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم قالت فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار يأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام قال فعدد عليه أمور الاسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك قالت فقال له النجاشي هل معك مما جاء به عن الله من شئ قالت فقال له جعفر نعم فقال له النجاشي فاقرأه على فقرأ عليه صدرا من كهيعص قالت فبكى والله النجاشي حتى اخضل لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم

حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال النجاشي ان هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد قالت أم سلمة فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص والله لأنبئنهم غدا عيبهم عندهم ثم استأصل به خضراهم قالت فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا لا تفعل فان لهم أرحاما وان كانوا قد خالفونا قال والله لأخبرنه انهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد قالت ثم غدا عليه الغد فقال له أيها الملك انهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه قالت فأرسل إليهم يسألهم عنه قالت ولم ينزل بنا مثله فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه قالوا نقول والله فيه ما قال الله وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن فلما دخلوا عليه قال لهم ما تقولون في عيسى بن مريم فقال له جعفر بن أبي طالب نقول فيه الذي جاء به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول قالت فضرب النجاشي يده إلى الأرض فاخذ منها عودا ثم قال ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال فقال وان نخرتم والله اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي والسيوم الآمنون من سبكم غرم ثم من سبكم غرم فما أحب ان لي دبرا ذهبا واني آذيت رجلا منكم والدبر بلسان الحبشة الجعل ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد على ملكي فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه قالت فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار قالت فوالله انا على ذلك إذ نزل به يعنى من ينازعه في ملكه قالت فوالله ما علمنا حزنا قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف

منه قالت وسار النجاشي وبينهما عرض النيل قالت فقال أصحاب رسول الله ﷺ من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر قالت فقال الزبير بن العوام أنا قالت وكان من أحدث القوم سنا قالت فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم قالت ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده واستوسق عليه أمر الحبشة فكنا عنده في خبر منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة[1].

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: ج / ١ ٢٠١

المبحث الثالث: "المُقْتَصَد في حديث "لا يظلم عنده أحد"

ومن حسن القول إن أول هجرة لأصحاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كانت إلى أرض الحبشة، وكانت باختيار رباني، ثم إنها كانت بتوفيق نبوي، أن يختار لها ذلكم المكان، الذي كان يحكمه ذلكم صنف من الإنس، قد بلغ صيته الآفاق، حتى وصلت إلى مكة المكرمة، بلد الله تعالى الحرام، وبلده الأمين، ومهبط وحي نبينا محمد ﷺ، الذي أسس فيه أول بيت وضع للناس، على ما قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

بل إنما كان ذكر الحبشة كأرض، وفي مقابلة ذكر مكة المكرمة كأرض أيضا، وكأعظم بقعة على ظهر البسيطة، ليس من باب مشابهة، وإنما لشأن اهتمام للقرآن بالبقع، حال كونها سببا لخير، كما شأننا في مكة، وأرض الحبشة لا غير، كما أنه ينبئنا أن أرضا يمكن أن تكون نذير شر لأهلها، ولمن أتوا إليها، أو مروا عليها، كما هو الشأن في نهيه صلى الله عليه وسلم عن البقاء في مكان، أو المرور في آخر، ومن ذلك " أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ قالَ لأَصْحَابِ الحِجْرِ: لا تَدْخُلُوا علَى هَؤُلَاءِ القَوْمِ إلَّا أنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فإنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فلا تَدْخُلُوا عليهم، أنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أصَابَهُمْ[1]".

وإلا فنحن أمام ذلكم خيار لنشبه تبرا بمدرا! وهو خروج بالتشبيه عن بابه! وهو إحالة لتشبيه أسود بأبيض! ولا يلتقيان! وإننا ههنا نكون قد قلبنا ما تعارف عليه العقلاء، من إطباق على أن مكة هي مكة! ولا

---

(١) صحيح البخاري: ٣٣٧٩

قياس! ولا مشابهة! ولا عقد لمقارنة، من باب بيت! أو شباكه! أو حتى من مسمار فيه!

وإنما أقسم الله تعالى بمكة، بلده الحرام، وإنما لم يقسم ببقعة إلا لعظم أمرها، وإنما لم يقسم بمكة إلا لشرف شأنها، واسمع قوله تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾[سورة التين: ١-٣]. واستمع قوله سبحانه ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾[البلد: ١،٢].

أقول: إنه كان من الإلهام لنبينا محمد ﷺ اختيار أرض الحبشة مهاجرا لأصحابه رضي الله تعالى عنهم؛ لأنها كانت أرضا، يحكمها ملك، بلغ عدله ما بلغ، حتى كان من زكاء نبينا محمد ﷺ له وصف وثناء وإشادة، وهذا صنف لاشك عزيز، عز ما يملك، ألا وإنه لخصيصة عدل، كان من سموه أن يأمر الله تعالى به الأولين، وكان من رفعته أن يحث الله تعالى عليه الآخرين، كما قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]. وإذ كان من شأنه قول رسولنا الكريم ﷺ " لا يقدِّسُ اللَّهُ أمَّةً لا يُقضَى فيها بالحقِّ ويأخذُ الضَّعيفُ حقَّهُ منَ القويِّ غيرَ مُتَعْتعٍ[١]". وما ذاك إلا لأن قوام الكون كله عليه، وما كان ذلك إلا لأن أساس الأمر كان مستندا إليه، ركنا ركينا به دوامه، وأساسا عظيما بدونه انفراط عقده وضياعه! وبكأنه عدل كانت النفوس إليه مشرئبة آمنة، وبكأنه رشد صارت البشرية به سوية مطمئنة.

---

(١) الزواجر، الهيتمي المكي : ١١٤/٢، خلاصة حكم المحدث: إسناده عن معاوية رواته ثقات، وعن ابن مسعود إسناده جيد.

وهذا وإن العدل ليحل به الأمان، ألا ترى أن الإمام عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى عنهما، قد شهد له به، ولما أن كان أمنه به، ولما كان من أمنه استقرار أمره، وأن كان من أمنه عدله وقسطه، وامتناع جوره وحيفه! وذلك لأن الرجل قد أقام له سوقه، وذلك أن الإمام الحفيد لأبي العدل في عهده عمر الفاروق قد نصب له ميزانه، فغلبت به كفة عدله ورجحانه.

ناهيك عن أن العدل المطلق كان ركنه التوحيد، ويكأنه أول قسط كانت الكتب إنما أنزلت إلا من أجله، ألا وهو حق الله تعالى على العبيد، وهو ذاك القول السديد، وهو هذا الأمر الرشيد، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة: ١١٧]. وهو ذاك الذي أنزل الله تعالى ربنا الرحمن فيه قرآنا، يتلى إلى يومنا، وإلى يوم الوعد والوعيد، ومضمون ذلكم العدل أنه توحيد الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، وإفراده بالعبادة، دون من سواه معه، أو من دونه -سبحانه -.

وليس أحد فيما أعلم قد زكي هذا الزكاء، وليس أحد قد أثني عليه بمثل هذا الثناء، إلا رجلا اسمه أصحمة، وإلا فردا، كان من وصفه أنه النجاشي، ملكا على قومه، كملك كان لأبيه، بيد أنه قد نعت نعتا، لو وزع على أهل الأرض لوسعهم، وذلك لأن الرسول ﷺ قال "لا يظلم عنده أحد"! هكذا بأسلوب نفي مانع؛ لإحالة أن يكون مظلوم في أرضه، ولعدم إمكان أن يوجد مغبون في ملكه! وهكذا بأسلوب لم يسم فاعله؛ تقديرا لشأن النجاشي، وتشريفا لمن كانت سيرتُه سيرتَه أيضا، وهكذا بدون استثناء! ونبينا ﷺ إذ كان شأنه أنه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[النجم: ٣،٤]. وهو بالتالي يعرف ماذا يقول حين قوله مرة أخرى "لايظلم عنده أحد"! هكذا بدون استثناء مرة أخرى! ولو واحدا! وهكذا بالعندية ظرفا للمكان، تقريبا للخصوم، وإن كلا من مجلسه وعلى

مسافة واحدة، وهكذا بتقديم الظرف اهتماما لشأن الرجل، واهتماما لشأن فعله العدل معا! وكأنما قد انتصب بذاته؛ للفصل بين المدعين، ويكأنه قد انتظم بمفرده فصل القضاء، وأنه كان قد تفرد حكما، أو أنه ربى فصيلا، يعرف للعدل مكانته، ويقدر للقسط أهميته، كيما يعرف مغبة ظلم، أول ما يعود جرمه عليه، وأن أول ما يبوء بإثمه إن هو إلا إليه، وحده لا أحد غيره، يحمل عنه وزره، وليس سواه يثَّاقل عنه بإثمه، ولا مخلوق دونه يسأل عنه سؤله، اللهم إن كان وزر كذب وبهتان ورشاء، ويكأن النجاشي قد أقام حملة تطهير لمحاكمه، دفترة، وجدولة، وإعادة هيكلة، تعيد الحق إلى نصابه، وترسم منهج نصفة للضعفة والمظلومين والمكلومين، فليس يبقى فيها إلا العادلون، أو كان قد أزال كل تمثال للظلم في القلوب والجنان، قبل أن يزيح هلامه من الأجسام والأبدان، وإن كل ذلك إلا للحيلولة دون حيف أحد المتخاصمين، ولعله قد كان ألحن حجة من صاحبه، ولعله قد كان ملسانا، ويكأنه قد كان للدلائل طماسا، ويكأنه قد كان للرشاء معطاء، ويكأن صاحبه كان معدما، ويكأنه خصم كان بالأبواب مدفوعا، إلا أن واحدا كمثل هذا النجاشي، فليس يرمش أمام عدله رامش، وليس يهمس في مجلس قضائه هامس، وليس يطمع حاطب في ظلمه، وليس يطمح كانس في حيفه. ويكأنه قد كان يجلس لفصل المنازعة بشخصه وذاته!

إذ وما قولك في رجل قال عنه رسول الله محمد ﷺ "لايظلم عنده أحد"؟!، وهكذا أيضا في أسلوب عربي متقن بليغ معجز جامع مانع ندي، ويكأن دلالة عليه قوله ﷺ "بُعِثْتُ بجَوامِعِ الكَلِمِ، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وبيْنا أنا نائِمٌ أُتِيتُ بمَفاتِيحِ خَزائِنِ الأرْضِ، فَوُضِعَتْ في يَدَيَّ. قالَ أبو هُرَيْرَةَ: فَذَهَبَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ وأَنْتُمْ

تَنْتَثِلُونَها[1]". ولم لا؟! وقد أوتي أكثر ما يمكن من المقاصد والمعاني، في أقل ما يمكن من الألفاظ والمباني، ولم لا ؟! وأية منقبة عزت في الوجود أمثال نبينا محمد الرسول النبي الأمي الهاشمي القرشي العدناني - صلى الله عليه وسلم -.

وأية فضيلة كانت قد بلغ إلى مكة ريحها ومسكها وعبيرها، حتى يقول الرسول ﷺ قولا قاله فيه؟! وحتى يذكر النبي ﷺ له ذكرا لم يعهد مثله - من حيث اللفظ -، حتى في أصحابه الغر الميامين - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - أولئك العدول الأخيار، وهم أولاء الشُّمُّ الأبرار، وعلى مائدة رسول الهدى والنور، والسنا والحبور، محمد ﷺ قد تخرجوا؟! وهم أولاء الذين نزل فيهم أجمعهم عدولا وسطا نصفة مقسطين، قول الله تعالى رب العالمين﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوٓاْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، إذ ولما كانوا هكذا﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾، فذلك ليس يكون حاصلا إلا حين كانوا عادلين، وذلكم ليس يكون محققا إلا حين كان من وصفهم أنهم به مقسطين!

وانظر مرة أخرى إلى قوله ﷺ "لايظلم عنده أحد"، لأدلك على ألا فصل بين الظرف(عنده) واللفظ(أحد)! دلالة على قرب الكل من مجلسه، وبرهانا على سواسية القوم أمام قضائه، وعلامة على إحالة غض طرف عن فرد، ولو واحدا، ذكرا كان أو أنثى! وإن كل ذلك إلا غيضا من فيض جوامع كلم رسول الله محمد ﷺ!

ولأن الظرف(عنده) قد كان متصلا بضمير الغائب العائد على هذا الرجل النجاشي الحبشي! دلالة أخرى على قرب كلٍ من مجلس الفصل،

---

(١) صحيح مسلم: ٥٢٣

وآية على إعمال نظره في سائر الخصوم؛ ليطمئن كل إلى عدله، ولا يخشى أحدهم من بطشه وغيه وظلمه!

وهو ذكر وإطراء، وهو مدح وثناء، وقد كان حقا خليقا لذلكم صنف كريم عادل، ولقد كان إشادة لذلكم رجل فريد نادر، وليس من وصف لائق له سوى قولنا، إنه "لايظلم عنده أحد"!

وانظر إلى قوله(أحد)! وما يمكن أن تنبيء به عن نفي لكل أحد، يمكن أن تستضعفه ثلة ظالمة، أو أن تنال منه فئة كاسرة، أو قلة جائرة، أو كثرة غالبة! وسائر ذلك وصف غير جائر، لمن تنكب سبيل النصفة والقسطاس العادل.

وانظر مرة أخرى، إلى قوله(أحد)، وما يمكن أن ليس يشمله حيوان، وليس يعمه جان! وما يمكن أن يقتصر فيه على جنس الإنسان، عموم إناثه والذكران. وتبدو قيمة هذا البديع، حين كان النظر إلى بيئات، ولا تزال تعج بظلمها، لشقائقنا النسوان، بصنوف عديدة من الاستضعاف والامتهان والبهتان!

وإن كل ذلك إلا وقوفا على وصف نبينا ﷺ للنجاشي، وذلك لأن وصف نبينا ﷺ له فوق وصفنا، وما كنا بالغين نصيفه أو ربعه أو خمسه أو سدسه أو بعضه! وصفا لذلكم الملك الذي ليس يطمع خصم ظلوم في زيغه، وهو ذلكم القاضي الشهم الأجودي، الذي لامطمع لجهول في حيفه، وهو ذلكم الأشم، الذي ليس يطمح جهول في غيه، وهو ذلكم الملك الذي لاييأس ضعيف من عدله، وقسطه، وبرهانه، ونصفته، ووقوفه عدلا مع المظلوم، وركونه قسطا بجانب المغبون.

ويكأن رسولنا ﷺ قد زكى أرضه، كأرض كان الأصل في مدادها أنه من طين! إلا أن المكان ليشرف بشرف مَن فيه، وإن البقعة لتعظم لعظم

ساكنيها، ويكأنها ليشرق بهاؤها لأجل قاطنيها، ودلك عليه قوله صلى الله عليه وسلم "لو خرجتم إلى أرض الحبشة؟ فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي- أرض صدق- حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه[١]". لأنني أفهم أن تكرار الذكر لشيء؛ فإنما كان لمزية فيه، ولأنني أروم أن إطراءه غير مرة، وما كان ذاك إلا لخير نابت فيه، وإلا لأن ربوعا في ملكه الذي قد أشرق نور عدله، حتى أشرقت أزاهير صداه إلى حيث هناك! وما أدراك ما هناك؟! إنه بلد الله تعالى الحرام، مكة المكرمة، تلك التي عجت أرضها، من شرك أهلها، وتلك التي اشتكت السماء من ظلمهم لنبيها!

وإذ كيف لا يرومك مدحا للنجاشي، وهو ذاك الذي كان من إلف قوله حكيما راشدا عاقلا كريما، وهو إذ يسمع الآفاق قولا له سديدا، وهو إذ يعلم الأرجاء حديثا له صدقا نبيلا، ويكأنك تسمع له همسا، ويكأنك تنصت له صمتا وقولا، وهو إذ ذاك يسمعك مسك حديثه، وهو إذ ذاك يحذيك طيب كلامه. ودلك عليه قوله لعمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه " فو الله ما أخذ الله مني الرشوة، حين رد علي ملكي، وما أطاع الناس في، فأطيع الناس فيه[٢]". وقد كان لذلك أنه رد الله تعالى عليه ملكه، بعد إذ حيكت له الحبائل، وإثر إذ نصبت له الكمائن، فلما أن ردوه إلى ملكه مكرهين، وبلا رشوة منه، أو حتى سعي منه إليها، وذاك بعد إذ باعوه، عبدا لآحادهم، ويوم أن استرجعوه منه عنوة، دون دفع حق الله فيه، وإذ قد أبى أن يأخذ رشوة قريش؛ لرد أولاء الأصحاب، إلى حيث قد جاؤوا، إلى صناديدهم؛ ليفتنوهم، أو يثبتوهم، أو يقتلوهم، أو يخرجوهم، من حيث قد حلوا! أو أن يؤلبوه عليهم؛ ليصير نائبا عنهم في ظلمهم، أو ليصبح وكيلا لهم في غيهم، بطشا

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ٢١٣
(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ١/ ٤٢٩

بالعباد، وتنكيلا بالأصحاب! ومنه فقد زين، مذ ذاك اليوم، كما الذي قال فيه كلمته السالف ذكرها، حتى قالوا فيه قولا مشهورا، وحتى قد أذعوا في شأنه خبرا كان عنه مسطورا، نعمت به الأرضون في يومها وغدها، وحتى يوم الناس هذا، يقرؤونه، ويدرسونه، ويعلمونه، الأجيال جيلا من بعد جيل، وهكذا السنن الحسنة يحفظها ربها على أصحابها، وكذلك الخصال الحميدة يعود فضلها على أربابها، وإلى أزمنة يعلمها ربها، وإلى آماد عنده تعالى وحده غيبها، وذلكم هو قولهم" وكان ذلك أول ما خُبر من صلابته في دينه، وعدله في حكمه(١)". وهو الذي أفيده حديثا فصلا، أن يكون أول عهده عدلا، وهو ما أحسبه آخر زمنه حقا، وهو ما أستنه أن تكون سابقة حكمه قسطا، منارة للولاة، وهديا للرعاة، أن يسلكوا سبيله، وأن يأخذوا طريقه، حذو قذة بقذة أخرى تليها، ومثل خطوة بخطوة أختها تتلوها، بل إن الرعية به لمطالبة، بل إن الأمة به لمكلفة، فينير الله تعالى عليهم قبورهم، كما قد قيل في ذلك عن النجاشي المهدي، بهدي ربه تعالى ومولاه سبحانه، إنه " لما مات النجاشي، كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور(٢)"!

وانظر كيف كان الرجل مثالا للولاة، وانظر كيف كان النجاشي قدوة للرعاة، وذلكم حين أكرم الوفادة، وذلكم حين أحسن الرفادة، وهو مسلك حميد ليقتفي أثره الكبراء والسادة، وهو سلوك قويم لتعمله الأفراد والقادة، وهو تأسيس لعرف الأخلاق الحميدة الحسنة، وهو تأصيل لعهد المجاملة البرة البركة، وهو ما أحسبه وضعا لقواعد العلاقات الدولية في الإحسان والإكرام والنصفة والعدل والقسطاس المستقيم، ويكأنه دليل للحيارى، في جميع الأزمان، ويكانه قدوة لكل سالك، في سائر الأوطان، وذلكم حين قال الرجل قولا حكما عدلا فصلا"

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج١/ ٤٣٠

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ج ١ / ٤٣٠

إن هذا والذي جاء به عيسى لَيَخرُج من مِشْكاة واحدة، انطلقا، فوالله لا أسْلِمُهم إليكما أبداً، ثم قال لجعفر وأصحابه: اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي - والشُّيُومُ في لسانهم: الآمنون -، من سبَّكُم غَرِمِ، من سبّكم غَرِمِ، قالها ثلاثاً، ثم قال: رُدُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله الرشوة مني حين رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فآخُذُ الرشوة فيه، وما أطاع الله الناس فيَّ فأطيعهم فيه. قالت أم سلمة: فخرجا من عنده مقبوحين[١]". وكيف لا؟! ولقد كان العدل عهدا في وطن يقطنه، وكيف لا؟! ولقد كان القسط نهجا في محل يسكنه، ومرة أخرى قال عنه رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم "لا يظلم عنده أحد"!

وإن قيل: أطلتَ الكلام! دونما ذكر لتعريف عدل نسير عليه! ولئن قيل: أسهبت البيان! دونما شرح لعدل يكون نظاما نهتدي إليه!

قلت: إن المنهج هو الذكر الحسن لمزية العدل، وكونه مكرمة مروءة، جنبا إلى جنب كان عداده منقبة وفضيلة، وقلت: إن السبيل هو الإشادة بالعادلين استدعاء لقيمته في النفوس، وغرسا لآدابه في الأفئدة؛ كيما يكون نظاما محبوبا، وكيما يكون إلفا مألوفا، لتقبل النفوس عليه محبة، ولتقوم عليه الجماعات راضية مرضية، فلا نفرة من حق وعدل، ولا ذود عن زيغ وغي.

ثم إني لأزف إليك خبرا، أنت ترنو إليه وتريده، وأطرح بين يديك نبأ، أنت تهفو إليه وترومه، فإن "المراد بالعدل: من له ملكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة[٢]". والعدل" ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجور[٣]". والعدل هو" الذي لا يميل به الهوى

(١) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، ج ٥ /٢٩٢
(٢) نزهة النظر شرح نخبة الفكر، أبي الفضل أحمد بن علي/ابن حجر العسقلاني: ٣٨
(٣) لسان العرب - ابن منظور، ج ٤٣٠/١١

فيجور في الحكم، وهو في الأصل مصدر سمي به فوضع موضع العادل، وهو أبلغ منه لأنه جعل المسمى نفسه عدلا، وفلان من أهل المعدلة أي من أهل العدل[١]". و"العدل: الحكم بالحق[٢]" .

وانظر كيف كانت للعدل أركانه الثلاثة التي عليها يقوم، وانظر كيف كانت له أصوله الثلاثة التي عليها يُنشَّأ مجتمع فاضل مستقيم؟! إذ كان شأن من عدَل بين المتخاصمين أنه "أنصف بينهما وتجنَّب الظُّلْمَ والجَوْرَ، وأعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه [٣]". فدلك على قواعد عليها كان عماده، ولأقول لك إن واحدة منها لو تخلت لانحلت عراه، ولانفرط عقده معها، وهذه الثلاثة الأركان هي كونه (أنصف حكما، وتجنب جورا، ومنح حقا).وبسطه ليس ههنا موضعه. غير أن الإشارة قد تكون أوفى من عبارة، وكل لبيب بها لأريب!

وهكذا كان النجاشي، ومن حذا حذوه.

---

(١) المرجع السابق: ج ٤٣٠/١١

(٢)المرجع السابق: ج ٤٣٠/١١

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة: ١١٢

المبحث الرابع: إسلام عمر بن الخطاب

إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا وما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه[(١)]. وهذه فضيلة عمر الفاروق. وهذا ثناء أخ على أخيه؛ ولأنه قلوب بيضاء كانت متصلة بالله وليها ومولاها. وفيه أنه يلزم للحق قوة تحميه.

قال عبد الله بن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[(٢)]. وهكذا فمن بين أيدينا صدق نبوءة الرسول ﷺ، وحين قال: اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين.

هذه بصمات عمر! فأين بصماتك؟!

وإذ قال ابن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة. وهذه ثلاثة: فتحا، ونصرا، ورحمة. وبه فإن فردا واحدا وإذ كان هذا حاله، ومنه فلا يستقل عبد بمواهبه وعطاء الله تعالى له!

ولكن التوكيد ب(إنَّ) ثلاث هكذا جعل من المعنى رجالا صنعوا مجدا لدينهم لا لذواتهم! وإذ كانت هذه بصمات عمر، ومنه فليحدث كل عبد نفسه وما هي بصماته؟

كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة، وحين كفل الإسلام حرية الانتقال، دون حواجز، وهذه هي

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٣٢
(٢) صحيح البخاري: ٣٦٨٤

حقوق الإنسان في ديننا، بل وأول مرة، وحين راح الناس إلى النجاشي، ولم يرد قيود ليحدثنا عنها التاريخ، وكما هو عهدنا به.

وإنه لتستوي الأرض في حس المسلم الملهم، وشرطه الوحيد أن يتمكن من إقامة دينه، فالأرض أرضه تعالى!

وهذا توزيع النبي ﷺ للمهام، وكل على ما يصلح له. ولأنه قائد مسدد. والعبد شعار دين أينما حل، فليكن على قدر ذلك!

وهكذا نفر هاجر فأسلم على يديه ملك. وهذا نفر قعد ليحمي بيضة الدين في مهده! وكيما لا تترك قاعدة الدعوة فارغة! حتى وإن أوذوا! وحين بقيت قاعدة الدعوة في مكة، وأساسها النبي ﷺ ومن معه كأبي بكر وعمر! ويكأن عمر في وسط شدة البلاء! ولم يحدث نفسه أن يهاجر! وهذا بأسه شديد! وهذه هي الفروق الفردية في ديننا.

وإذ قال عمر: يا رسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله. إن عدم تحديد وجهة الانطلاق، أي نقطة البدء، وإلى أين؟ مشكلتان ينبغي ألا يتوحل فيهما العاملون!

تحديد وجهة الانطلاق، ومن أين؟ من عندما جاء من عند الله!

إن الفصل بين الإيمان بالله ورسوله وبما جاء من عندهما كفصل بين رأس وجسد! ولأنها ثلاث لاتتجزأ! وإذ كانوا يعرفون تبعة إيمانهم تماما! وهو الالتزام بما جاء من عند الله تعالى.

وثلاث لا تتجزأ هي:

١- الإيمان بالله تعالى.

٢– والإيمان برسوله.

٣- والإيمان بما جاء من عند الله.

وهكذا فإن الإسلام يعطف قلوبا، ويرقق ألسنة! فقد كان لعمر موقف محاد لله ورسوله، وها هو يأتي بوجه حان لطيف، عابد حنيف.

وحين أسلم عمر، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة، فعرف أهل البيت أن عمر قد أسلم. وأمتنا لاتخلو عن مثل عمر شكيمة وعزة وإباء!

وهذا تكبير نبينا ﷺ، فقد كان لعمر شأن عظيم. وفيه جواز التكبير لحدث يهم الإسلام. وفيه أن القائد يفرح بإسلام ولو فردا واحدا! فما بالك بعمر؟!

وب (ما جاء) من عند الله. كله غير منقوص! ومنه فإن حصر الإسلام في مسبحة، أو محراب، أو شطيرة، ليس يتواءم مع عظمة ديننا، وليس يتفق مع قيمة إسلامنا!

تكبيرة! مفعول مطلق مصدر لصدور فعله عنه! فكأن التكبير صفة قائمة للعبد! وتكبيرة! مفعول مطلق. أفاد التوكيد اهتماما بإسلام عمر. وهذه بلاغة نبي الأمة ﷺ!

وتكبيرة مفعول مطلق. ويسميه سيبويه "الحدث" و "الحدثان" اهتماما به.النساء في مكان والرجال في مكان آخر. لا اختلاط. آفة الآفات الاختلاط!

لم يكبر الرسول ﷺ، حين أسلم كثيرون! وهذا بعد نظر النبي ﷺ! وإذ كان لعمر شأن!

وإذ قال عمر: كنت للإسلام مباعدا، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها[1]. وهذا تأنيب ضمير لما فات. وفرح بما هو

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ١٠٢

فيه! وهذا شعور جد مهم، وحين يذكر العبد جاهليته بشر، ولما يذكر يوم إسلامه بخير، وليميز الله تعالى الخبيث من الطيب.

وهو الذي دعا ربه: اللهم بين لنا في الخمرِ بيانا شافيا[(١)]. وهي نقلة نوعية بلا شك، وبكل المقاييس! وحين ينتقل العبد من جاهليته، ومن كليتها، وإلى الإسلام، وبكليته أيضا!

وإذ كان عمر فردا واحدا، وكان هذا هو شأنه! فزيادة العدد دون وزن للمعدود لا قيمة لها! ومنه غلا يستقل بإسلام ولو فردا واحدا، فقد يغير الله بسببه موازين القوى!

وقول عمر: كنت للإسلام مباعدا، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها. يضعنا أمام قوله تعالى ﴿وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَـٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وإن لا داعي لتكبير شأن أكذوبة الإدمان! ولأن عمر هو الذي قال: انتهينا انتهينا، وبه قضي الأمر!

ولكن الذي نفيده من إسلام عمر، وحين تحول من عدو محاد لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، وإلى ولي لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، وإنما نستحضر معه قول الله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فضل ربك.

ومنه فإن تذكر الشر داعية لمعرفة فضل الخير، ومنه قول حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه: كان الناس يسألون رسول الله

---

(١) جامع البيان، إبن جرير الطبري: ج ٧ / ٤٤

ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[1].

والمعصية ذل وخسار، والطاعة عز وفوز! والكفر صَغار، والإسلام إكبار! والخمر داعية تثبيط الهمم، واندحار الأمم، وقتل القيم، ووأد الشيم! والمرء بخمره كالحيوان في بهيميته! وانظر كيف مقت عمر الجاهلية! فإنها وبال ونكال. وانظر كيف مجد الإسلام، فإنه نعمة، فاذكر نعمة الله عليك.

وكان أن مر أحدهم، وهم يناوشون عمر، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر! قال: فمه رجل اختار لشأنه فماذا تريدون؟! وهذه دعوى حرية العقيدة، إلا إذا كان الإسلام!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما قاله الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى: وحدثني نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي فغدا عليه. قال عبد الله بن عمر: وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل - وأنا غلام أعقل كما رأيت - حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت،

---

(١) صحيح البخاري: ٣٦٠٦

ودخلت في دين محمد ﷺ؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر، واتبعته أنا حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبا. قال: يقول عمر من خلفه: كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال: وطلح فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا. قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ فقالوا: صبأ عمر. قال: فمه؟ رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون؟ أترون بني عدي يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبة من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك أي بني العاص بن وائل السهمي(١).

وقال الإمام العماد الحافظ رحمه الله تعالى: وهذا إسناد جيد قوي، وهو يدل على تأخر إسلام عمر؛ لأن ابن عمر عرض يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة وكانت أحد في سنة ثلاث من الهجرة، وقد كان مميزا يوم أسلم أبوه، فيكون إسلامه قبل الهجرة بنحو من أربع سنين، وذلك بعد البعثة بنحو تسع سنين والله أعلم(٢).

لكن عمر هذا، وحين قذف الله تعالى في قلبه رقة، لم يعهدها قومه، ودلالة على كم هو الرضا، وحين يفتح الله تعالى له وبه قلوبا غلفا. وهذا الذي حدثته أم عبد الله ليلى امرأة عامر بن ربيعة، وحين قال: إنا لنرحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر تعنى زوجها إلى بعض حاجته

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨٨/٢
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٨٨/٢

إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على وكنا نتقى منه الأذى والبلاء والشدة علينا فقال إنه لخروج يا أم عبد الله فقلت والله لنخرجن إلى أرض فقد اذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا وفرجا فقال صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وتفرست فيه حزنا لخروجنا وقلت لعامر يا أبا عبد الله لو رأيت ما وقع من عمر[1].

ولكن هذا هو الفأل الحسن ومن قولها: حتى يجعل الله لنا مخرجا! ولأنه قد وقع بعدُ. فالمرأة الصالحة قسيمة الرجال العظام في مهامهم العظيمة. وإذ كان هذا قول امرأة، همها ذلك الدين، وليس شيئا آخر!

لكنك رأيت حرية التنقل، وكيف كانت سلسة سهلة، بلا عوائق؟! ولان الناس ينظرون إلى الأرض ويكأنها أرض الله! وما لحواجز وأسلاك، ومجال جوي، وآخر أرضي، وثالث بحري، ورابع فضائي؟!

ولكنك رأيت أيضا، وحين استأجر القوم سفينة من جيوبهم، وعلى حسابهم الخاص، ابتغاء الأجر والمثوبة من الله تعالى، وهذا الذي نفيده، وحين يغدق العبد من مال الله الذي آتاه، ولحفظ دينه، ومهاجرا على الله ورسوله أيضا. وفيه الصبر على البأساء في الله ولله تعالى. فإن العاقبة خير للمتقين.

وهذه همة امرأة مسلمة! وأي جيل يتوقع نباته من امرأة هذا قولها؟! وإلا أن يكون جيلا قائدا فذا فريدا! ومنه كان إعداد الإسلام للمرأة واهتمامه بها كالرجل تماما. وليس يهمهما في ذلك ما يقع عليهما من الإيذاء والقهر! وشدة الإيلام!

وهذه أقوال نساء خرجن من مدرسة محمد ﷺ! نساء تربين على مائدة النبي القائد ﷺ! وهذه أمة لا تعرف ولا يعرفها الخوار!

---

(١) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ٢/ ٥

المبحث الخامس: حصار الشعب

بعد ثلاث سنين من بعثة نبينا محمد ﷺ تلاوم رجال من قريش على قطع الرحم واستخفاف بالحق، واجتمعوا على نقض الغدر. وهذا هو عهده تعالى في الأذلين، وإذ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة! ولكنه تعالى يقيض الله أسباب الفرج وليطمئن عبيده تعالى تماما.

وإذ لم يسلم من أسلم يومه هذا وإلا وهو يعرف تماما ضريبة إسلامه ويكأنه صبره واحتسابه معه وكدثاره الذي يلتحف به!

وإذ لبث بنو هاشم في الشعب ثلاث سنين، حتى قطعت قريش عنهم الأسواق. وحين كان من عقدهم هذا الظالم ألا يناكحوا القوم ولا يتزوجوا منهم وألا يبايعوهم وألا يشتروا منهم!

وهذه حرب اقتصادية ماكرة!

ولكنه الله تعالى!

وإذ لا يعرفون أنهم سيكونون غنائم يوما!

وإذ اشتد البلاء على المسلمين كأشد ما يكون، وجمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية. وتلك سنة ماضية! والشهداء وقود الحق.

وقد أتت الأرضة على كل اسم لله في صحيفة الظلم إلا ما دسوه فيها من سم القطيعة والظلم. وهذه آية ولعلهم يفيقون! بل قالوا: سحرا! وليبقى عارهم لابسا فيهم! وهذا ركون الظالم إلى الأسباب المادية. وهكذا الطبع على القلوب!

وحين رأى قوم آخرون أن الذي أتت عليه الأرضة هو كل شيء حاشا اسم الله تعالى.

ولكن العصبة المؤمنة ثبتت على الحق الذي هم به يؤمنون! ولو استمر سنوات أُخَرَ، فهم باقون صامدون ثابتون لايتزحزحون!

وإذ كان من أسباب حصار الشعب وصحيفته الظالمة انتشار للإسلام أغاظهم، واستقبال من النجاشي كان أشد غيظا! فإذا أغلقوا بابا للدعوة فتح الله تعالى لها أبوابا. وكلما ضاق الأمر اتسع! وهل رأيت قوة أمكنها حجب ضوء الشمس أو نور القمر؟! وها قد قال الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١و٣٣].

وكان أن بلغ الصحابة والرسول ﷺ من فتنة الجهد والبلاء حتى سمعت أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع! ولكن تسلية لأهل الحق، وإذ كان من قبلهم يؤذون في الله تعالى، وحين شق أصحاب عيسى عليه السلام بالمناشير! وما ردهم ذلك عن دينهم من شيء، سنة ماضية!

وقد كان منه ما لاقاه سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه، وها هو يحدثنا عما قد أنَّ منه وعاناه ولاقاه: قال: خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها، ورضضتها، وسففتها بالماء، فقويت بها ثلاثا([1]).

قال أبو لهب لهند بنت عتبة، حين فارق قومه، يا ابنة عتبة هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقها؟ قالت: نعم[2]! وانظر كم يسهرون لتكثير عددهم! فأين أنت؟! وإذ أين ولاء المؤمنين، وإذ أين براء المتقين؟! وها هم يعرفون النصرة بالولاء والبراء! ولكن هذه هند بنت عتبة كانت امرأة سوء، ومثالا سيئا للمرأة الرقيقة!

(1) فقه السيرة، محمد الغزالي: ١ / ١٢٨

(٢) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٢/٣٧٧

ويكأن المرء ليخجل لقوم يعبدون أصناما! ويسهرون على عدائهم لأهل الحق والتوحيد والنور!

وإذ تصل النكاية بأعداء الحق ألا تأخذهم من ذوي قرباهم رحمة ولا شفقة وهذا منع أبي جهل حكيم بن حزام أن يعطي قمحا يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله ﷺ في الشعب! وهكذا لا يرعوي الظالم وهو إذ يحارب امرأة! وقد كانوا يعدون ذلك من ضيم وضيع، فلا يقربون النساء بشر!

لكن خديجة كانت زوجة حانية وإذ تعيش هم زوجها. ومقابلة بينها كمثال خير وبين هند وكمثال شر وسوء.

ولكن الله تعالى يقيض من عبيده ولو كان كافرًا وما منه تتبدى أوجه الإعجاز محلقة سماء الناس قطبة ليروها ومن رأي أعينهم ولعلهم يتذكرون، ولما كان منه عمل هشام بن عمرو العامري وحين كان يحمل بعيره طعاما وثيابا، وليأخذ بخطام البعير، حتى إذا أوقفه على رأس الشعب، فيخلع خطامه، ويطلقه في الشعب؛ ولئلا يراه من أحد فيدخلونه شعب الظلم والمحاصرة!

وبعد ثلاث سنين تلاوم رجال من قريش على قطع الرحم واستخفاف بالحق، واجتمعوا على نقض الغدر. بغير طلب من الرسول ﷺ! وهذه عزة في الله لاتقبل ضيما! وهذا تسخير من داخل قوى الشر أنفسهم، وإن الله تعالى ليقيض من عبيده من ينصر دينه وأولياءه، ولو بعد حين، آية أخرى!

وإذ قال ذووا رحم: بُرَآءُ مما في هذه الصحيفة. وقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل! وهذه قسوة القلب، ويكأنه نظام لدى أهل الشر، فلا تلين قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق.

المبحث السادس: قصة النضر بن الحارث

أساء النضر بن الحارث الأدب مع الرسول ﷺ، فأفحمه تاليا قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وفيه جواز الدعوة بالصدمة؛ عله يفيق من كبوته، فكثير مغمورون!

عن ابن عباس، قال: كان النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصيّ من شياطين قريش، وكان يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، تعلَّم بها أحاديث ملوك فارس، وأحاديث رستم وأسفنديار، فكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلسا، فذكّر بالله وحدّث قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم، من نقمة الله خلفه في مجلسه إذا قام، ثم يقول: أنا والله يا معشر قُريش أحسن حديثا منه. فهلموا فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار، ثم يقول: ما محمد أحسن حديثا مني، قال: فأنزل الله تبارك وتعالى في النضر ثماني آيات من القرآن، قوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٣]. وكل ما ذُكِر فيه الأساطير في القرآن[١].

وحين كان من النضر ما أنف، فأنزل الله تعالى فيه قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]. وكل ادعاء كهذا، له من الإفك نصيب. ولأن كثيرين يفضلون قولهم على قول القرآن العظيم، ولأن ما يقع من مثل ذلك يعد تجرأ على القرآن الكريم، فكان الفعل إفكا، وكان فاعله أفاكا.

---

(١) تفسير الطبري، الطبري: ٢٣٨/١٩

وبينما كان الرسول ﷺ يقرأ القرآن، ليرد عليه النضر بن الحارث بذكر أخبار رستم! وهذا من جهله، فالقرآن قرآن! وأخبار الناس منها ما يكون أساطير! ولهذا السبب؛ فقد أنزل القرآن صاعقته، وحين دخل أعماق النفوس البشرية، والفاعلة فعلها هذا، ومن مثل النضر بن الحارث هذا، وحين قال الله تعالى ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. ولأنه وإذا انطلى هزال مكرهم، فإنهم تحت مرآة الحق! ومنه فإن مواجهة القرآن العظيم قضية خاسرة من ألف بائها؛ ولأنه يدخل أعماق نفوس أصحاب ذلكم الإفك فيزلزلها.

قال تعالى ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لك أنت! أما علينا فلا! فهم عندنا، خَصِمون!

انظر! خصِم على وزن فعِل: صيغة مبالغة! القوم يبالغون في عداوتهم إلى أقصى معانيها! رفقا بأنفسكم!

لكنه كان يمكنهم رد حقيقة القرآن عنهم! وإذ لم يفعلوا! وليس من وسعهم وإلا فقد القرآن إعجازه! وإن ذلك ليعد رصيدا إضافيا ضافيا للقرآن العظيم، وهو إذ يواجه هزال مكرهم! وإذ ها هو القرآن يغوص داخل النفوس الهزيلة ليفضحها!

أرادت قريش ضرب القرآن! حين قال الله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وإذ قالوا: يعني عزير في النار؟! ونسوا أو تناسوا وهم أهل العربية أن ما: لغير العاقل فلا يشملها عزيرا! وقالوا: يعني عيسى في النار؟! ونسوا أو تناسوا، وهم أهل العربية أن ما: لغير العاقل، فلا يشملها عيسى عليه السلام!

وقالوا: يعني الملائكة في النار؟! ونسوا أو تناسوا، وهم أهل العربية أن ما: لغير العاقل، فلا يشملها ملك!

وحين احتج القوم بأنهم يعبدون ملائكة! فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ومنه كان مفهوما عبادته تعالى وحده. فلا إشراك في أمره ولا نهيه ولا حكمه.

يحتج القوم بعبادة عيسى وعزير أو ملك، وربنا تعالى أنزل فيهم ومن مثلهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. وإذ حاق وبال شركهم عليهم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. وهذه خلاصة القول في عيسى عليه السلام! لأنه أوذي، وعذب، ولو كان ربا لدفع عن نفسه، وإلا كان ضعيفا لا يصلح للربوبية!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهذه خلاصة القول في عيسى عليه السلام! لأنه قال ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[آل عمران: ٥٢]. فدل على أنه حقيقة مغايرة لحقيقة ربه تعالى!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هذه خلاصة القول في عيسى عليه السلام! رفع عيسى أو غيره عن مقام العبودية ظلم له! لأنه كان يروح الحمّام! فهل ينتقص الله إلى حد كهذا؟!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هذه خلاصة القول في عيسى عليه السلام! قمة الأدب مع الله تعالى وغايته أن يبقى أحدا فردا صمدا أبدا! ومنه فلا تقبل مماحكة أكثر من هذا فيه ولا في غيره!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هذه خلاصة القول في عيسى عليه السلام! لأنه أوذي، وعذب، وادعاء أن الله يعذب امتهان له تعالى! وقول بأنه لم يعذب تكذيب للتاريخ كله!

المبحث السابع: الوليد بن المغيرة

قال الوليد بن المغيرة: أَيُنزَلُ على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها! ويترك أبو مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين[1]؟! وهذا كبر وصلف، يعمي البصائر عن الحق! وهذا الوليد بن المغيرة وحين شهد للقرآن بينهم! وإن البلية في الهوى، وحين يركب الرؤوس، فيُستغلَقُ عليها! وهذا جهل منه بربه تعالى، ف ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ٢٤٢

المبحث الثامن: أبي بن خلف

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨و٧٩]. نزلت في أبي ابن خلف؛ لما أنكر البعث. وحين أمسك أبي عظما باليا، وقال: يا محمد أتزعم أن الله يبعثه بعد ما أرم؟ قال: نعم! يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ثم يدخلك النار[١]! وهذا حيود عن الفقه الأكبر، وهو جهل بالله تعالى. لكن هذه دعوة بالصدمة أيضا، وحين واجه النبي ﷺ أبيا بقوله هذا.

وإذ كانت عاقبة التآمر هو ذلكم القرآن العظيم وحين يتنزل صاعقة على قلوب المتآمرين وحين يفضح مسعاهم وحين يكشف ندمه مسبقا! وقال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧و٢٨]. وحين نزلتا في أبي بن خلف وعقبة ابن أبي معيط. ويا لمر هذه عاقبة التآمر!

ولكن القوم كانوا على اجتماعهم على هذا النبي محمد ﷺ، وإذ كانوا يتمالأون عليه وحده، ويكأن الله تعالى ناصره ومؤيده ومعينه، ويوم أن قال أبي بن خلف لعقبة ابن أبي معيط: وجهي من وجهك حرام أن أكلمك إن أنت جلست إلى محمد أو سمعت منه إلا أن تتفل في وجهه ففعلها عدو الله عقبة[٢]. ولكن هذا صبر هذا النبي ﷺ لربه. وهذا هذا فعل قرين السوء بصاحبه أيضا.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ /١١٢
(٢) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج ٥ / ٦٩

وإذ بلغت بالقوم حيلهم، وإذ أيس منهم مكرهم، وحين قالوا: هلم يا محمد فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي نعبده خيرا مما تعبد كنت قد أخذت منه بحظك وإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا منه بحظنا. فأنزل الله تعالى: (قل يا أيها الكافرون)[١].

وهذا حسم في البيان، فلا مهاودة لا مهادنة. ولأنه لايلتقي الإسلام مع الكفر عند أي مفرق طريق! وهذا وجوب مفاصلة الكفر. ومهما كانت مساوماته التي لا تنتهي!

المبحث التاسع: سخرية أبي جهل بالقرآن الكريم.

ولما سمع أبو جهل بشجرة الزقوم قال: أتدرون ما الزقوم؟ هو تمر يضرب بالزبد! ثُمَّ قال: هلم فلنتزقم. فأنزل الله تعالى: " إن شجرة الزقوم طعام الأثيم[٢]. وهذا جزاء المستهزيء.

وبينما كان رسول الله ﷺ يكلم الوليد ابن المغيرة، طمعا في إسلامه، فجاءه ابن أم مكتوم الأعمى، ولما أعرض ﷺ عنه، نزل فيه قرآن يعاتبه. فجبر الخواطر دين، والربت على صدور الناس خلق قويم.

---

(١) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٢ / ٤٢٥
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٥٥

المبحث العاشر: فتح المولى في قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت "أُنْزِلَ: عَبَسَ وَتَولَّى في ابنِ أمِّ مَكْتومٍ الأعمى، أتى رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ فجعلَ يقولُ: يا رسولَ اللَّهِ أرشِدني، وعندَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ رجلٌ من عُظماءِ المشرِكينَ، فجعلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ يُعرِضُ عنهُ ويُقبلُ على الآخَرِ، ويقولُ: أترى بما أقولُ بأسًا؟ فيقولُ: لا، ففي هذا أُنْزِلَ"[١]

هذا حديث صحيح رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى، يحكي لنا قصة سبب نزول سورة عبس، وإن حكاية سبب النزول لتضعنا في لب الحدث، وكأنما نعيشه لحظاته، لحظة من بعد لحظة، وكأنما هي صورة حية، نقلت إلينا أحداثها، حدثا من بعد حدث أيضا؛ لنروي بها ظمأنا، ونشبع بها جوعنا، ونسد بها رمقنا، ونرقق بها قلوبنا.

ومنه كان العزم تناولها، رحيقا مختوما، ختامه الأرائج الفيحاء، في السماء العلياء، وكأنما نحن في بساتين غنَّاء، نتنسم عبيرها، ونترسم خطاها، ونحن إذ نشتمُّ شذاها، ومهتدين بهداها.

وبينما كان رسول الله ﷺ يكلم رجلا من أشراف قريش، فجاءه ابن أم مكتوم الأعمى، ولما أعرض عنه، نزل فيه قرآن يعاتبه. وهذه خلاصة السبب، وهذا هو موجز الأنباء! ولعل تفصيلا أريده، ولعل استنباطا أرومه.

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٣٣١

هذا، وتعددت أقوال أهل التفسير حول اسم ذلكم الرجل من أشراف قريش، والمقصود من دراستنا غير ذلك. لكنهم اتفقوا حول اسم عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه.

وإشارة لزم بيانها، وهي عامة في القرآن كله، ومنه ما معنا الآن، ذلك أن الشأن البياني في الكتاب المجيد لهو سياجه الذي يمنحه نوره وبهاؤه ولطفه، وبغير النظر إلى ذلكم الوجه في كلام ربنا سبحانه، إنما نكون قد تعرضنا من غير حلة زينتها البيان، وحسنها معرفة مواطنه، وإدراك صوره ومحاسنه، ولأن ذلكم النظر هو الذي يعطي للنص جزالته، ومن ثم يكون له ذلكم التأثير في المستقبِل، لو أُحْسِنَ بيانه والوقوف عليه حينا طويلا، وهذا جانب سوف يختصر مشوار البيان والبلاغ عن الله تعالى كثيرا كثيرا!

ودلك على صحة قولي مجيء الفعلين " عبس وتولى " لا على سبيل الخطاب، وما فيه من إحراج، وإنما على سبيل الضمير الغائب تعظيما، وتلميحا لا تصريحا، أكسب البيان حلاوة، كما أنه أضفى عليه طلاوة، ولأن في دلالة كل من الفعلين ما يكفي من شدة كلح وإعراض خيمت على جو النص، هون منها مجيئهما على ذلكم وجه غيبي؛ لتدرك كم هي عظمة قرآن ربك في البلاغ، وفي البلاغة معا! وكيما تحاول أن تكون أديبا أريبا حين قولك، ولأن ذلك قمن لزينة حديثك، وأوعى تأثيرا في محاورك! وأنت إذ تفعل ذلك فإنما كان القرآن لك مثالا، وأنت إذ تطلع بذلك فإنما كان الفرقان لك إماما.فتزدان بزينته، وتزين بحلته.

وبنفس هذه الإلماحات القرآنية الفريدة الأخاذة، حين انتقال النظم الكريم من حكاية ضمير الغائب في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾[عبس: ١]. إلى ضمير خطاب، في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾[عبس: ٣]. وعلى مسافة قصيرة بينهما! لا يتسنى فيها لنسيانٍ أن يقع! ولربما أفقد السياق هذا

الذي نراه ونلمسه ونعيشه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الزمر: ٢٨]. ثم ما يحكيه ذلكم الخطاب من إيناس، من بعد عتاب! ليحدث في النفس أثر الطمأنينة والإيحاء بلطف رب كريم، مع عبده ورسوله ومصطفاه محمد بن عبد الله ﷺ، وبكأنك في روضة من رياض الإلف والرحمة والتراحم والسكينة والزكاء النفسي السامق العالي! أضفاها إيقاع النص أولا، وحكاها جرسه تاليا!

ومن وجه فإن جبر الخواطر دِين كريم، وخلق قويم، حث عليه ديننا، وأمر به قرآننا، وأوصي به نبينا ﷺ، ودلك عليه قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ذلك أن النفوس إنما جبلت على انكسارها، حين لومها، أو تقريعها، فكانت بحاجة إلى من يجبر خاطرها، ضمادا لجراحها، وربتا على صدورها، ولما كان مؤملا أول ما يؤمل قياما بهذا الدور العظيم إلا هذا الدين الكريم، دين الله تعالى الإسلام، ولذا كان التنزيل القرآني في مثل هذه الحالة، ويوم أن تلهَّى رسول الله ﷺ عن ابن أم مكتوم، وكانت مناسبة لجبر خاطر منكسر، وفي نفس الوقت كانت تعليما وتوجيها ربانيا حانيا لذلكم الرسول ﷺ، بسبب تلهيه عن ابن أم مكتوم؛ كيما يتوافق سيره مع ثناء القرآن عليه، حين قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وثمة معني لطيف، كان منه ذلكم البعد في إمعان القرآن جبرا لخاطر، وذلك على حد ما قال "وقد ذُكر عن بعض القرّاء أنه كان يطوّل الألف ويمدها من (أنْ جاءَهُ) فيقول: (آنْ جاءَهُ)، وكأنّ معنى الكلام كان عنده: أأن جاءه الأعمى؟ عبس وتولى، كما قرأ من قرأ: (آنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) بمدّ الألف من " أن " وقصرها [١]". وذلك دلالة على ظل

---

(١) تفسير الطبري، الطبري : ج١٢/٤٤٣

ظليل للآية، ندرك منه غاية التوجيه الرباني، كما ندرك منه أقصى درجات الرأفة والرفق الرضي، حين توجيه ذلكم العتاب، بحيث إنك لتقرأ النص، وهو إذ يقف بك على عتاب: نعم! ولكنه في ذات الوقت تتلمس منه ربتا على صدر الرسول ﷺ، وكأن ضمادا له هو الآخر، يحمله النص بين أنواره، لرسول الله ﷺ، وأنت إذ تلمح عتابا لمحا، لا تصريح فيه، وأنت إذ ترمقه رمقا، وكأنما قد أشرق نوره، وعن بعد تستشعره، وكأنما هو على مهل آت إليك لا محالة؛ لينير لك طريقك، وليهتدي به سبيلك، كما هي لمسات القرآن الكريم الحانية، في مثل ذلكم موقف، وما سواه مما عنه عهدناه، ومما به عرفناه، من نظمه وبلاغته، ومن تركيبه وطلاوته؛ لأنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت: ٤٢].

والقرآن الحكيم ما كان ليذر، ولو شيئا قليلا، مما يمكن أن يكون سبب تأثر، ولو قليلا، لقيم مجتمعه، أن لو كان قد ترك ليستفحل أمره، كائنا من كان من صدر عنه، فضلا عن أن يكون قائدا؛ لأنه قدوة، وفضلا عن أن يكون راعيا، لأنه أسوة، بل فضلا عن أن يكون نبيا رسولا؛ ولأنه هو الأسوة والقدوة، وبالتالي فليس يكون إلا عتابا خفيفا، يكون على قدر رسول، وبالتالي فليس يكون إلا أخذا لطيفا، يكون على قيمة مسؤول، وشأنه أنه نبي الله ﷺ، وذلكم أيضا كما أوردت وسبَّقتُ؛ جبرا للخواطر، وتلمسا للمشاعر الكواسر. وانظر إلى قولهم "ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصفة؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني، وكان النظر إلى المؤمن أولى، وإن كان فقيرا أصلح وأولى من الأمر الآخر" (١)

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ج١٠/١٣٩

ولقد كان من حسن أن ينزل فيه قرآن، ولقد كان من جيد أن يتنزل فيه بيان؛ ليبقى مركوزا في الأذهان، جيلا من بعد جيل آخر، لتتفاعل هذه المعاني الفياضة، ومن وراء النص؛ لتحمد بها السيرة، ولتزكو بها السريرة، وانظر كيف كان للتنزيل أثره، وكأول أثر في شخص رسول الله ﷺ، ومن حيث إنه لما " نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم فأكرمه واستخلفه على المدينة مرتين[1] " . وإنما كان إكرامه تعويضا عما لحقه من موقف سبق وصفه، وإنما كان توليه لصلاح رآه الرسول فيه من أمره.

ولأن الإسلام ينظر إلى الناس وكأنهم أجمعين سواسية أمام مشطه، ولأنهم جميعا متساوون أمام عدله وقسطه، ومنه فكان هذا العتاب، ومنه نزل التكليف والخطاب، توطينا للمقود والقادة، وشحذا للمسود والسادة، وتعليما للرعية وأهل الريادة؛ كيما يستن القوم على الفضائل، ولينشأ مجتمع الخير والشمائل.

وليس يقال إن الرسول ﷺ كان قد غاب عنه البيان، أو إنه ﷺ قد غض طرفا عن الإكرام والفضل والإحسان، لابن مكتوم أو لابن غيره! ولأن توجيها كثيرا قد أنف، ولأن تفسيرا جليلا لما حدث قد سلف، لأئمة مفردين، وعلماء جهابذة مؤولين، بحثا عن سبب وعذر، والتماسا لتأويل سائغ مبرر، ذلك لأنه يند أن يصدر عن رسولنا إلا ما دل على حسن أخلاقه وآدابه، وإلا ما كان دالة على دماثة نعوته وأوصافه. ومن ذلك إطباق أهل التفسير جماعتهم على " أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم،

(١) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج ٦ / ٣١٥

فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عبد الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية." (١).

وشاهده قوله: (فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عبد الله عليه كلامه، فأعرض عنه). فدل على أن سبب الإعراض لم يكن سخرية، ولا استهزاءً، ولا استضغافا، ولا احتقارا، وإنما كان كراهية أن يقطع عليه كلامه ﷺ. وهذا علاوة على أن الرسول بشر، وإنما تؤثر فيه بواعث فطرته وبشريته، وإنما تظهر عليه أمارات إنسانيته، فرحا وترحا، وصبرا وكظما، ورضا وغضبا. صحيح هو ليس كأحدنا في ذلك، أو قريبا منه، بل فاق عنا ما أفاقه به ربه سبحانه. فعن أنس بن مالك قال "كان النبي ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن احدى عشرة قال قلت لأنس أو كان يطيقه قال كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين" (٢)

و" كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وأَجْوَدَ النَّاسِ، وأَشْجَعَ النَّاسِ، قالَ: وقدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ لَيْلَةً سَمِعُوا صَوْتًا، قالَ: فَتَلَقَّاهُمُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى فَرَسٍ لأبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وهو مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، فَقالَ: لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا، ثُمَّ قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وجَدْتُهُ بَحْرًا يَعْنِي الفَرَسَ"(٣).

وشاهد الحديثين اشتراكه ﷺ في مشاعر الإنسانية مع جنسه، وتفاعله بها في محيطه، وكان منه ذلكم الذي حدث في شأن الصحابي الكريم عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه. خاصة وأنه قد نزل

---

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٢١١/١٩
(٢) صحيح البخاري، البخاري: ج ١ /٧١
(٣) المرجع السابق: ٣٠٤٠

قرآن كريم لشأنها من فوق سبع سماوات طباقا، تنويها بأطراف الحدث جميعا.

وكما أن شاهده أنه وعلاوة على اشتراكه مع بني جنسه البشر في صفاتهم، إلا أنه يفضلهم بمراتب، كان من موجبها أنه رسول وكان من سببها أنه نبي، وحسبنا!

بل إننا وكما نحاول - وهو الحق - تأويل موقف رسولنا ونبينا ﷺ، أن قد حمله على ما سيق وقيل، إلا أننا أيضا نحاول أن نبحث عن عذر، كان قد حمل ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه على ذلكم، ذلك أن هذا الجيل كان أبيض الصفحة! حسن التلقي! جميل الاتباع! فريد الانصياع! مدبر الابتداع! حسن السيرة! زكي السريرة! فعلاوة على حرصه أن يعلم، وإضافة إلى مبادرته أن يتزود، ومن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم مشافهة ومواجهة ومقابلة، وهذه وحدها لكافية، إلا أن ما يمكن إضافته قولهم" أقبل ابن أم مكتوم والنبي ﷺ مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوي طمعه في إسلامهم وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ابن أم مكتوم وهو أعمى فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بغيره" (١).

وزادك علما وتأويلا لموقف رسولنا ﷺ ولأنه أسوة الأمة، وإذ يحال أن يأتي موقفا عامدا، أنه يجرح شعورا، أو أن يكسر إحساسا، أنه " إنما قصد النبي ﷺ تأليف الرجل، ثقة بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان، كما قال" إني لأصل الرجل وغيره أحب إلي منه، مخافة أن يكبه الله في النار على وجهه "(٢).

---

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٩ / ٢١٢
(٢) المرجع السابق: ج ١٩ /٢١٣

وفيه أمانة رسولنا - ﷺ -، وفيه صدق نبينا - ﷺ -، إذ بلَّغ عن ربه تعالى ما أنزل عليه، ولو كان مقصودا هو نفسه بالعتاب، أو كان هو نفسه موجها إليه الخطاب، وهو دليل حي آخر ليقف بنا على أسوة حسنة، في البلاغ عن الله تعالى، أو عن غيره سبحانه، وبه تنتظم أحوالنا، ومنه تستقيم أمورنا. ودلك عليه قول ابن زيد" كان يقال: لو كتم رسول الله ﷺ شيئا من الوحي لكتم هذا" [١].

وفيه أن الإسلام لا يحابي أحدا، لأنه دين جاء ليقطع دابر المحاباة والمحسوبية في أول مهدها، وذلك وهو في طريقه لرسم خريطة مجتمع أساسه النقاء، وفرعه التفاني والوفاء. وهذا البيان دليل وافٍ على اهتمام في الإسلام بقيمة الأخلاق العالية، ولأن الأمم كما قيل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

ومن أول ما يتوجه إليه الخطاب هم القادة؛ ولأنهم هم قدوة أقوامهم، ولأنه قيل "إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن" [٢] ولأنه " وكما قيل إن: الناس على دين ملوكهم، فقد أخرج البيهقي عن كعب الأحبار قال "إن لكل زمان ملكا يبعثه الله على نحو قلوب أهله فإذا أراد صلاحهم بعث عليهم مصلحا وإذا أراد هلكتهم بعث عليهم مترفيهم[٣]."

وانظر كيف كان للراعي أثر محمود، إن كان حليما حميدا، أو كان له أثره المذموم، إن كان غليظا معيبا، وذلك لأنهم قالوا "وكانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: ماذا بنيت؟ ماذا عمرت؟ وكانت همة أخيه سليمان في النساء، وكان الناس

(١) تفسير الثعلبي، الثعلبي: ج ١٠ / ١٣١
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ١٨٠/٥
(٣) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج ٣ / ٤٦

كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم تزوجت؟ ماذا عندك من السراري؟ وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن، وفي الصلاة والعبادة، وكان الناس كذلك، يلقى الرجل الرجل فيقول: كم وردك؟ كم تقرأ كل يوم؟ ماذا صليت البارحة؟" (١)

قال الحافظ العماد رحمه الله تعالى" وهذا يوجد في بعض الأزمان وبعض الأشخاص" (٢)

وانظر قرار صِدِّيقِ الرسول، وادّبَّرْ سيرته في هذه المرأة السؤول، وذلك حين "دَخَلَ أبو بَكْرٍ علَى امْرَأَةٍ مِن أحْمَسَ يُقَالُ لَهَا زَيْنَبُ، فَرَآهَا لا تَكَلَّمُ، فَقالَ: ما لَهَا لا تَكَلَّمُ؟ قالوا: حَجَّتْ مُصْمِتَةً، قالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فإنَّ هذا لا يَحِلُّ، هذا مِن عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ، فَتَكَلَّمَتْ، فَقالَتْ: مَن أنْتَ؟ قالَ: امْرُؤٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، قالَتْ: أيُّ المُهَاجِرِينَ؟ قالَ: مِن قُرَيْشٍ، قالَتْ: مِن أيِّ قُرَيْشٍ أنْتَ؟ قالَ: إنَّكِ لَسَئُولٌ، أنَا أبو بَكْرٍ، قالَتْ: ما بَقَاؤُنَا علَى هذا الأمْرِ الصَّالِحِ الذي جَاءَ اللَّهُ به بَعْدَ الجَاهِلِيَّةِ؟ قالَ: بَقَاؤُكُمْ عليه ما اسْتَقَامَتْ بكُمْ أئِمَّتُكُمْ، قالَتْ: وما الأئِمَّةُ؟ قالَ: أما كانَ لِقَوْمِكِ رُؤُوسٌ وأَشْرَافٌ، يَأْمُرُونَهُمْ فيُطِيعُونَهُمْ؟ قالَتْ: بَلَى، قالَ: فَهُمْ أُولَئِكِ علَى النَّاسِ" (٣)

ومنه قوله تعالى ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[إبراهيم: ٢١].

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٩ - / ١٨٦
(٢) المرجع السابق: ج ٩ - / ١٨٦
(٣) صحيح البخاري: ٣٨٣٤

وهذه سنة تاريخية؛ لأن البلاد المفتوحة إنما كان يتبع أهلها سيرة فاتحيها، ولأن البلاد الغازية إنما تطبع أهل بلاد قد غزوها بطبعهم، وألزموهم بنظامهم، وذلك بقطع النظر بداهة عن مسألة الرضا والقبول من عدمه ههنا.

فدل على اهتمام القرآن بذلكم شأن عظيم؛ لما له من أثره البالغ في صبغ الأمة بصبغة قائدها، فضلا عن أن يكون نبيا مرسلا؛ ليجمع بين كونه رسولا نبيا ليقتدى، وبين كونه قائدا راعيا ليحتذى، والأمر بشقيه كانت له ضرورته في وقوف القرآن المبين هذه الوقفة، ولما كانت واقعة ابن مكتوم مناسبتها، ويكأن الله تعالى كان من قدره وقوعها لذلكم شأن وهدف وغاية، وإذ إن سبب النزول ليظل عالقا بالأذهان، وإذ إن علة التنزيل تكون داعية لتعلقها بالأفهام.

ولأنه أعمي؛ فقد جاء ذكره، ولأنه ضرير؛ فقد تنزل وصفه، إمعانا في جبر الخواطر، وتأكيدا على أن كل واحد من الرعية له احترام كينونته، بقطع النظر عن حاله فقرا كان أو غنى، وبصرف النظر عن نعته مبصرا أو أعمى، لأن نظرة هذا الدين إلى الإنسان، ولأن كونه إنسانا، فضلا عن أن يكون وصفه كابن أم مكتوم، أو كان نعته على مثل غيره، أعرابيا أو بدويا أو حضريا، أو كان على التخوم، أو قائما على الثغور، أو مرابطا على الحدود، وذلك لأن الأصل أيضا في نظرة الإسلام إلى الناس كلهم، أنهم سواسية، ولا يخرج عن هذا من أحد ولو قيد أنملة، ودلك على صحة قولي، جِيدُ الكلامِ، وحديثِ ذي الجلال والإكرام ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات: ١٣]. وهو قول حكيم من لدن رب كريم أولا، وما كان لرسول الله ﷺ إلا أن يُعْمِلَه، وما كان لرسول الله ﷺ إلا أن يوظفه، ويقوله، ويفعله، ودلك عليه أنه ﷺ قد قال قولا

نعلقه في القلوب، قيمة منحوتة على أوتارها، وعظة مرسومة على حركاتها وسكناتها، وذلكم حين " سُئِلَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَن أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قالَ: أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ قالوا: ليسَ عن هذا نَسْأَلُكَ، قالَ: فأكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ قالوا: ليسَ عن هذا نَسْأَلُكَ، قالَ: فَعَنْ معادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ معادِنُ، خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإسْلَامِ، إذَا فَقُهُوا"[1] ومنه قوله ﷺ " يا أيُّها الناسُ إنَّ ربَّكمْ واحِدٌ ألا لا فضلَ لِعربِيٍّ على عجَمِيٍّ ولا لِعجَمِيٍّ على عربِيٍّ ولا لأحمرَ على أسْودَ ولا لأسودَ على أحمرَ إلَّا بالتَّقوَى إنَّ أكرَمكمْ عند اللهِ أتْقاكُمْ" [2].

بيد أن لطيفة حسن التنويه بها، وذلكم حين قد تنزل القرآن العظيم، معالجا لمثل ذلكم وضع، وتوا ما زال في ذاكرة الوجدان، بحيث يمكن القول إذ لو مر وقت أن أصبح طي النسيان، لكن التفاعل مع الحدث أوله هو ما يعطيه قوته وزخمه، وهو ما يمنحه إيجابيته وقبوله! وهو ما يسمونه في أصولهم عدم تأخير البيان عن وقت الحاجة، وههنا أدركنا، ومن هنا عرفنا، لِمَ قَعَّدوا قاعدتهم؟ ولِمَ أصَّلوا أصلهم؟ وأكرر؛ كيما يكون في المشاعر والوجدان حاضرا، وكيما يمكن في الأحاسيس والضمير ناجزا، وليس يمكن تحقيق ذلكم إلا حال كونه أمرا فوريا، لا أنه قد أصبح نسيا منسيا! أو كان قد تأجل مليا!

ومنه يكون العقاب أول حدثه مثخنا، ومنه يكون الإيلام أول وقته فاعلا، وليس يكون له من أثر كهذا حين جاء متأخرا، وليس يكون له من وقعه أن كان قد جاء تراخيا.

---

(١) صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٣٣٨٣
(٢) غاية المرام، الألباني: ٣١٣. وقال: صحيح

وفيه وقوف بجانب ضعيف ونصرته، وفيه تقوية عضده وشدته، إن بقرآن يتنزل فأهلا، كما هو الآن معنا ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١-١١]. وإن بسنة فسهلا، كما جاء "أنَّ أُسَامَةَ كَلَّمَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ في امْرَأَةٍ، فَقالَ: إنَّما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ، أنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الحَدَّ علَى الوَضِيعِ ويَتْرُكُونَ الشَّرِيفَ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لو أنَّ فَاطِمَةَ فَعَلَتْ ذلكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا" [١].

بل إن أخذ الحق من القوي لهو نصرة له، حين كان فيه ردعه، وحين كان فيه كفه، عن ظلمه، وعن غيه، وذلك كما قال رسول الله محمد ﷺ "انْصُرْ أخاكَ ظالِمًا أوْ مَظْلُومًا فقالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللَّهِ، أنْصُرُهُ إذا كانَ مَظْلُومًا، أفَرَأَيْتَ إذا كانَ ظالِمًا كيفَ أنْصُرُهُ؟ قالَ: تَحْجُزُهُ، أوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فإنَّ ذلكَ نَصْرُهُ" [٢].

ودلك على صحة قولي، إن أناسا كانوا من جنس الضعفاء، كعبيد وإماء، وموالي، وقد كانت لهم صولاتهم المأجورة، وقد كانت لهم وقفاتهم المأثورة، نصرة لدين ربهم، حتى تقلدوا الأوسمة الخالدة في ظل دين الله تعالى الإسلام، رفعا لشأنهم، وتمييزا لتفانيهم وعطائهم وجهادهم، فهذا بلال، وقد كان من قول فيه لقمن أن يكتب بمداد لا كمدادنا، وذلك لأنه أبلى في الله تعالى بلاء حسنا، لا كبلائنا أو قريبا منه! فعن مجاهد قال "أول من أظهر الاسلام سبعة، رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وبلال وخباب وصهيب وعمار وسمية أم عمار،

---

(١) صحيح البخاري : ٦٧٨٧
(٢) المرجع السابق: ٦٩٥٢

قال: فأما رسول الله ﷺ فمنعه عمه، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأخذ الآخرون فألبسوهم أدراع الحديد، ثم صهروهم في الشمس، حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ، فأعطوهم ما سألوا، فجاء كل رجل منهم قومه بأنطاع الأدم فيها الماء، فألقوهم فيه، وحملوا بجوانبه، إلا بلالا، فلما كان العشي، جاء أبو جهل، فجعل يشتم سمية، ويرفث، ثم طعنها، فقتلها، فهي أول شهيد استشهد في الاسلام، إلا بلالا، فإنه هانت عليه نفسه في الله، حتى ملوه، فجعلوا في عنقه حبلا، ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة، فجعل بلال يقول أحد أحد" (١).

وعموم الخطاب لسائر الأمة، وليس يخرج عن ذلكم من أحد، إلا ما جاء خاصا لفرد أو نازلة أو حدث، ولأن العبرة إنما هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومنه فرسول الله ﷺ كان أول المخاطبين بنصوص التنزيل، وفيه من الملاحة أنه إذا كان الرسول ﷺ أول المخاطبين بكلام ربه الرحمن سبحانه، فكان خطاب غيره أولى، وكان التزام سواه به أوعى، وبه تستكين نفوس، وترضى قرائح، ومنه تطمئن قلوب، وتسكن جوارح! ومنه فإن الكل مناط النص!

وفيه المحافظة على نسيج الأمة، وهذا باب جد عظيم، إذ ما قولك حين يتوجه الخطاب، ثم لتفرد به فئة من دون فئة أخرى، خطابا وإلزاما وتكليفا ملزما، وإذ ما ظنك حين كان الأمر كذلك، وهي إذ تتفلت من عقاله، واحدا تلو أخيه إهمالا، أو إغفالا، أو تمردا، أو تنمرا، أو تفلتا، أو حتى تأولا لكنه غير سائغ! ومن ثم ليصبح النص مفرغا، ومن ثم لتصبح أوصال الأمة به مبعثرة، ليس يربط بين أعضائها رابط، وليس يضبط بين أجزائها ضابط، وليس يحكمها بين أفرادها نظام ثابت؟! ألا تراها وقد انحل عقدها؟! وألا تراها وقد انفصلت عراها، وتهاوى أولاها،

---

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٣ / ٢٣٣

من قبل أن يسَّاقط أخراها، وخارت قواها، حتى كانت به لقمة سائغة، بين أنياب المستعمرين، أو كانت شربة سائغة في أفواه الغازين؟!

وفيه أن الإسلام يرفع هامات مُنَكَّسة، ويعلي رؤوسا مطأطأة، لتقوى شكيمتها، ولتزكو نفوسها، بذلكم النظام المحكم، في إعلاء قيم المساءلة والضبط والجزاء والعقاب؛ وهذا من حسن ديننا، وهو من سمو شرعنا، كيما لا ييأس ضعيف من عدل، وكيما لا يطمع قوي في جور! وكيما لا يطمح شريف في حيف!

وفيه أن قمة الهرم كقاعدته تماما! وأن خطاب الأعلى هو خطاب للأدنى، ولأنه "أشبه ذلك مما ينص فيه على الأدنى لينبه به على الأعلى، وعلى الأعلى لينبه به على الأدنى"[1] هكذا في هذا الدين! الكل سواسية كأسنان المشط، ومرة أخرى؛ لأن خطاب الأعلى هو نفس خطاب الأدنى! وهنا يطمئن كلٌ إلى عدل الإسلام وقسطه، وهنا سوف ترفع الرؤوس، وتعلو الهامات، إعزازا وإكبارا، لسائر أفراد الأمة،وإذ كانت قائمة، لا على أساس إلا أساس واحد، تكون فيه المفاضلة، ولا على أصل إلا أصل واحد تقوم عليه المساءلة والمفاصلة، ألا وهو التقوى، ومنه قوله ﷺ " يا أيُّها الناسُ إنَّ ربَّكمْ واحِدٌ ألا لا فضلَ لِعربِيٍّ على عجَمِيٍّ ولا لِعجَمِيٍّ على عربِيٍّ ولا لأحمرَ على أسْودَ ولا لأسودَ على أحمرَ إلَّا بالتَّقوَى إنَّ أكرَمكمْ عند اللهِ أتْقاكُمْ "[2]

وقول بغيره فيه انحسار الأخلاق الفضيلة، وزعم بسواه فيه انحدار القيم النبيلة، والمثل العليا، وليحل محلها النعوت الدنيا، والأوصاف السفلى، ويكأن الناس به همل رعاع، ليس يجمعهم جامع،

---

(١) غاية المرام، الألباني: ٣١٣. وقال: صحيح
(٢) كتاب اللمع في أصول الفقه، الشيرازي: ٤٤

وليس يمنع سقوطهم مانع! وليس يوحدهم هدف بينٌ! وليس يؤلفهم عامل أو قاسم مشترك! ليهووا إلى القاع عند أول معترك!

وقيادة الأمة إنما تكون بهكذا حزم، وإنما كان سموها محققا به إيجادا، وإنما كان ترهلها منوطا به انعداما، وإنما كان سقوطها واندحارها مسببا به. وإنه لا مجاملة في الإسلام، كيف ذلك وإنما جاء ليهدم أركانها؟! وإنه لا محسوبية في الإسلام، وكيف ذلك وإنما جاء ليدحر أوكارها؟!

والله تعالى لا يستحيي من الحق. ذلكم الحق الذي به وعليه قامت السموات السبع، والأرضين السبع أيضا، وقضاء على ذلكم مسلك في مهده، ألا يَطّاول من بعد حكمةً، والإتيان عليه أول أمره حجةً بالغةً.

والتعريض أدعي للاستجابة، وأقوم في جعل الفرد المسلم عزيزا بلا تجريح، وإنما كان علاجه في التلميح لا التصريح. وذلكم خلق حسن نبيل، وهو سمت حميد جميل، أنباك عنه ذكر مسألة الأعمي في القرآن، وحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أنه " أَتَتْهَا بَرِيرَةُ تَسْأَلُهَا في كِتَابَتِهَا، فَقالَتْ: إنْ شِئْتِ أعْطَيْتُ أهْلَكِ ويَكونُ الوَلَاءُ لِي، وقالَ أهْلُهَا: إنْ شِئْتِ أعْطَيْتِهَا ما بَقِيَ - وقالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: إنْ شِئْتِ أعْتَقْتِهَا، ويَكونُ الوَلَاءُ لَنَا - فَلَمَّا جَاءَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذَكَّرَتْهُ ذلكَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ابْتَاعِيهَا فأعْتِقِيهَا، فإنَّ الوَلَاءَ لِمَن أعْتَقَ. ثُمَّ قَامَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى المِنْبَرِ - وقالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: فَصَعِدَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى المِنْبَرِ - فَقالَ: ما بَالُ أقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا ليسَ في كِتَابِ اللَّهِ؟! مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا ليسَ في كِتَابِ اللَّهِ، فليسَ له، وإنِ اشْتَرَطَ مِئَةَ مَرَّةٍ"(١)

---

(١) صحيح البخاري: ٤٥٦

وشاهده قوله ﷺ (ما بَالُ أقْوَامٍ) بهكذا قول ضافٍ معبر، يحفظ العزة والكرامة، ويصون والإباء والشكيمة!

وإنما كان تعريض القرآن المجيد بشخص رسول الله ﷺ سيرة حسنة، لئلا تُلاكَ قدوتُنا، وسبيل قويم أن تُعزَّ وتُوَقَّرَ قادتُنا. لتظل هكذا يتلوها كل تال شهريا، أو يقرؤها كل قارئ أسبوعيا، أو يوميا؛ لتعمل أثرها فيه، ولتطبع خلقها به، عطاء مكتسبا، ونورا محتذيا!

وإنما كان التعريض أيضا خشية أن يقال يوما إن التنزيل خاص برسول الله محمد ﷺ، وذلكم ليشطح كل غاد سبيل التوهين، وكذلكم ليقع كل عاد في عرض المؤمنين.

وانظر مرة أخرى كيف كان انتقال السياق من ضمير إلى ضمير آخر، تفننا تميز به الخطاب، وتفردا سبق به الكتاب، إمعانا في لفت الأنظار، وتقلبا في إعمال البصائر والأبصار. وهذه لوحة الحدث لتحكيه لك مرة أخرى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾[عبس: ١-١١].

وفيه أن العقوبة شخصية في الإسلام، وذلكم هو مطلق عدله، وهو دليل نصفته، ولأنه أدعى للتأثير، ولأنه أقوم لاستدعاء أسباب التوبة والإقلاع، ولأنه أحفظ لدواعي الأوبة والامتناع. واذكر قول ربك الرحمن سبحانه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وذِكْرُ الأعمى لفت لجبر خاطره، وإن قيل كيف وقد صرح بذكر عيبه؟ وأقول: إن العمى ليس عيبا؛ لأننا في سياق الخلقة، وآداب النظر إلى ما خلق الله تعالى ربنا الرحمن وسوَّى، ولأننا أمام جميل صنيع،

ولأننا متصافون نظرا واعتبارا، أمام ذلكم تكوين بديع، وإن كان أعمى! ولأن ذلكم ليس يخرجه عن عموم الخطاب حين قال الله تعالى ربنا الرحمن ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[الانفطار: ٦-٨].

وأي تكريم يكون لجنس الإنسان إلا ما قد قرأت، وأي إعزاز لهذا الإنسان إلا ما قد سمعت، لأنك بهذا الإسلام كنت أولا في تكريم ذوي الحاجات، ولأنك بهذا قد حزت سبقا إلى الإحسان إلى أصحاب الابتلاءات، فئات عزيزة، وفصائل كريمة، نزل في شأنها قرآن، واهتم بحالها الله تعالى ربنا الرحمن، حين قال "إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ منهما الجَنَّةَ يُرِيدُ: عَيْنَيْهِ" [١].

---

(١) صحيح البخاري: ٥٦٥٣

المبحث الحادي عشر: من للضعيف غير الإسلام؟

سجود المشركين لسماع القرآن آية.

عن عبد الله بن عباس: أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَجَدَ بالنَّجْمِ، وسَجَدَ معهُ المُسْلِمُونَ والمُشْرِكُونَ والجِنُّ والإِنْسُ. [١]

وإذ سجد الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيها– يعني النَّجْمَ– والمسلمونَ، والمشركونَ، والجنُّ، والإنسُ. وهذا فعل القرآن في القلوب!

وسجود المشركين لسماع القرآن آية، يجب ألا نمر عليها إلا خشوعا وتدبرا وتأملا لأثر هذا القرآن العظيم. وإنما سجد المشركون لسماع سورة الجن لفعل القرآن وأثره، لا خوفا من المسلمين، ولاعن غير قصد منهم.

وإنه وحين اكتفى الأولون بالقرآن عاشوا كراما، وحين تركه أهله عاشوا مَرارا!

نحن نملك بقرآننا ترياقا لمشاكل عج بها العالم كله. يحلها لهم القرآن، بإشارة إصبع واحدة، لو يؤمنون! وإذ نحن نملك بقرآننا هذا المستشفيات والصيدليات والاقتصاد والسياسة والأمن والحرب والسلام!

إن هذا القرآن ليس قرآنا عربيا فحسب؛ وإنما هو كلام الله تعالى الخالد المعجز المبهر المبارك، ومن بركته حل أدوائنا، وألو استمسكنا به حقا، رحمة منه تعالى.

---

(١) المرجع السابق: ١٠٧١

إن مشكلتنا مع هذا القرآن العظيم أننا لا نلجأ إليه إلا تجربة، وإلا ونحن عنه غافلون، وإلا ونحن ننظر إليه بعين واحدة! ومع غيره بعينين اثنتين!

لو أخذنا هذا القرآن بيقين، كما أخذوه بيقين لحلت مشاكلنا، ونحن متربعون على أرائكنا، ونحن خاشعون لذلك الرب العظيم سبحانه الذي أنزل هذا (القرآن العظيم)!

لماذا يتعجب الناس من سجود المشركين عند سماع القرآن، والقرآن كان له أثره البالغ في كل من أخذه متجردا من هوى نفسه التي بين جنبيه؟!

خبر عثمان بن مظعون

لما رأى عثمان ما يلقى رسول الله ﷺ وأصحابه من الأذى وهو يغدو ويروح بأمان الوليد بن المغيرة قال عثمان والله إن غدوي ورواحي آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل بيتي يلقون من البلاء والأذى في الله عز وجل ما لا يصيبني لنقص كثير في نفسي فمشى إلى الوليد بن المغيرة وهو في المسجد فقال يا أبا عبد شمس وفت ذمتك قد كنت في جوارك وقد أحببت أن أخرج منه إلى رسول الله ﷺ ولي به وبأصحابه أسوة قال الوليد فلعلك يا بن أخي أوذيت أو انتهكت فقال لا ولكني أرضى بجوار الله تعالى ولا أريد أن أستجير بغيره قال فانطلق إلى المسجد فأردد علي جواري علانية كما أجرتك علانية قال فانطلق قال فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد هذا عثمان بن مظعون قد جاء

ليرد علي جواري فقال عثمان صدق وقد وجدته وفيا كريم الجوار وقد أحببت ألا أستجير بغير الله وقد رددت عليه جواره. [١].

ولما رأى عثمان ابن مظعون أمانا يعيشه في كنف الوليد، والصحابة يذوقون البلاء في الله، قال: إن هذا لنقص كثير في نفسي! وهذه شهامة ومروءة رجال! وهذه مناقب أولاء وإذ منهم ومن سيرتهم كيف تكون النصرة ولهذا الدين ولأولياء الله تعالى؟

يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك. لكني أرضى بجوار الله تعالى، ولا أريد أن أستجير بغيره. وهذه عزة صحابي، وهذا أنفة مسلم. وهذا هو صدق الاعتصام بالله تعالى وإذ هو النجاة. وهذا يحمل تأليبا للوليد! وإذ ليس الوليد بضار عثمان بن مظعون من شيء، ولأنه صار في كن الله تعالى ورعايته ولئن مسه من شيء، فإنما يجد برده وحين كان لله تعالى.

وهذا هو عمل صدق التوحيد، وهذا هو موجب صفاء العقيدة، ومنه فإن تعليق العبد قلبه بربه، وكمثل عثمان، لموجب أن يكون العبد به سامقا دنياه، عزيزا مكرما يوم أخراه، ولما كان متبعا نور ربه وسناه وهداه.

وهذ أخلاق المؤمنين وحين لا تتنكر لمعروف! وإذ ها هو عثمان يشهد أمام الملأ من قريش بفضل إجارة الوليد وحين قال: صدق وقد وجدته وفيا كريم الجوار!

وإذ فقئت عين عثمان بعد فكجواره فعايره الوليد فقال: إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله!. [٢] وهذا صدق لجأ،

---

(١) سيرة ابن إسحاق: ج ٢ / ١٥٩
(٢) سيرة ابن إسحاق: ج ٢ / ١٥٩

وهذا إخلاص احتساب أيضا. ولأن حسنى عاقبة جوار ربه خير له، وإن فقئت عينه!

ولكن هذا فعل الكفر، وحين لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة، وكما قال تعالى ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠]. وما ذلك إلا ولأن الفئة المؤمنة معتصمة بربها العلي الأعلى سبحانه، ولأن أولاء المشركين، وحين يوقعون بهم الأذى، وإنما لا يفعلون ذلك إلا نكاية في أولاء الصحب الكرام، وإذ يعز عليهم أن يكونوا أعزاء، ومن مثل عزة أولاء الكرام البررة الأوفياء الباذلين. وحين قال تعالى أيضا ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وإلا أن قريشا لم تدع عثمان! وحين اشتد به البلاء، بعد فك جواره، فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي إلى جوارك فعد. قال: لا! إذ وما لزوم الجوار وقد كان بينهما عيش وملح! وهذا موجب نصرته وإن فك جواره!

وعلى أية حال، فإن هذه صفحات عمل القرآن في أولاء قوم تلوه حق تلاوته. وهذه صفحات تربية النبي القائد محمد ﷺ. وحين كان الإيلام في الله أهون من الولاء لغيره!

ولما كان هذا نبأ عزة مسلم، وإعلام إباء حنيفي! وإذ وكما قيل:

ولا تقبلن الدهر ما عشت تسب بها إما هبطت المواسما.
وول سبيل العجزِ غيرك منهم فإنك لم تخلق على العجز لازما [1]

(١) هذان البيتان من قصيدة قالها أبو طالب عم النبي ﷺ، وانظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج ١٤/٥٧

المبحث الثاني عشر: أذى قريش بأبي بكر

اشتد أذى قريش بصاحب المعروف والفضل أبي بكر. وحين آذاه قومه، وأخرجوه، حتى استأذن النبي محمدا ﷺ أن يهاجر موطنه هذا! ولأن هناك قوما يتنكرون للمعروف، ويقطعون وشائجه! وإذ كان أبو بكر رَغِدَ العيش، لكنه نداء إيمان وبذل وفداء.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني، وضيقوا على، قال: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جواري.

فرجع معه، حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضن له أحد إلا بخير. قالت: فكفوا عنه [١]

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار: بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجرا قبل الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة، وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي، قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يخرج؛ فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك، فارتحل ابن الدغنة، فرجع مع أبي بكر، فطاف في أشراف كفار

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ٢٥٠

قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟! فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وآمنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر، فليعبد ربه في داره، فليصل، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به؛ فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة، ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء، لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك، فابتنى مسجدا بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فأته، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك؛ فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر، فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي؛ فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له، قال أبو بكر: إني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله. ورسول الله ﷺ يومئذ بمكة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أريت دار هجرتكم؛ رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين». وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة، وتجهز أبو بكر مهاجرا، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك؛ فإني أرجو أن يؤذن لي»، قال أبو بكر: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟

قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر.[1]

ومنه لتكن لأحدنا صنيعة من معروف يذكر بها يوما! إن في المعاش، ويوم المعاد أيضا.

ولكن هذا قول ذي مروءة، وإذ لم يجحد صنائع معروف أبي بكر.

---

(١) صحيح البخاري: ٢٢٩٧

المبحث الثالث عشر: أبو بكر يبني مسجدا عند باب داره!

كان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح، وكان يصلي فيه. وحين كان من شانه عرف بقوله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]. وهذه رسالة المسجد في هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد. وإنما تعمر المساجد بالساجدين الذين يعلون كلمة ربهم فوق كل كلمة! وإن المسجد بيت الله تعالى، والمسلم معه في بيت العزة والكرامة! والمسجد زاد إيماني، وباب إحسان، ومعين تقوى لاينضب، والقريب منه خير، فبه تستطلع حال جارك، مشاركة أو مشاطرة. والمسجد هو بوابة استطلاع أحوال الناس؛ ليكشف الله بك كربة، أو يزيل بك غمة، أو يغيث بك ملهوفا.

والمسجد هو مدرسة المسلم الإيمانية، وهو مرجع عصمة، وباب خير فلا يغلقنه أواب أواه منيب، وهو نقطة الانطلاق الأولى نحو تربية جيل يقف في وجه الشدائد بصدر ذي جأش، وقلب لا ينز وَهَنًا!

وهذه حرية بناء المساجد! فقد كان أبو بكر بين ظهراني كفار، ولم يمنعوه بناء مسجده!

وإنه لينبغي استصحاب المظهر الحسن، والثوب الحسن، والطيب الحسن، لدى خروج إلى المسجد؛ ولأنه تعالى قال ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وليس ينبغي أن تشكو مساجد الله مما يقال فيها! ولأنه تحويل لها عن نهجها الذي أعدت له! وبكأنه صرف لها عن قبلتها التي كانت عليها! ولأن تحويل المساجد عن رسالتها، وإنما هو كتحويل جهة القبلة تماما! وإنما أذن الله تعالى برفع المساجد؛ ليذكر فيها اسمه وحده؛

ولتحطيم الشرك على منابرها! وحين قال الله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]. وقال تعالى أيضا ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

وعلم مسلم وإذ هو يعمر مسجدا لله تعالى بناء أو صلاة فيه، وإنه لينال شرف به الذكر من الله تعالى.

المبحث الرابع عشر: فعل القرآن بالكفار!

طلبت قريش من أبي الدغنة مجير أبي بكر أن يصلي في بيته خوف فتنتهم بصوته الرقيق، وحين كان يتلو القرآن! وهذا أثر القرآن العظيم؟! ولعل إسماع الناس قرآن ربهم وكهيئة أبي بكر!

وإلا أنه قد أبى أبو بكر إلا أن يبلغ رسالة ربه تعالى، وإن فك أبو الدغنة جواره! فجوار الله تعالى خير جوار!

المبحث الخامس عشر: اللهم اهد دوسا وائت بهم.

ولكن هذا النبي محمدا ﷺ كان غاية في الرحمة، وحين جاءه الطفيل بن عمرو الدوسي، ولما أسلم، وعاندت قبيلته دوس، فجاء إليه صلى الله عليه وسلم؛ طالبا منه أن يدعو عليهم، ولكنه ﷺ دعا لهم، وبقوله: اللهم اهد دوسا وائت بهم [١]

وهذا علم كريم من أعلام نبوة هذا النبي محمد ﷺ، وحين جاءت دوس مسلمة لله تعالى وجهها، وقد حسن إسلامها، ويوم قدم هذا الطفيل بن عمرو الدوسي على النبي ﷺ بخيبر، ومن بعد أمره له أن يرجع إليهم، وليرفق بهم، وليدعوهم إلى دين ربهم سبحانه. وها هو وقد نزل المدينة بسبعين بيتا، أو ثمانين بيتا من دوس!

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إن دوسا عصت وأبت، فادع الله عليها. فقيل: هلكت دوس. قال: اللهم اهد دوسا وأت بهم.[٢].

وهذه رحمة نبي بأمته، فلتكن قدوتنا به رحمة أيضا. فعن عبد الله بن عمرو الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله. [٣] وكذا قوله ﷺ: إنما أنا رحمة مهداة. [٤].

---

(١) صحيح البخاري: ٢٩٣٧
(٢) صحيح البخاري: ٢٩٣٧
(٣) صحيح الترمذي، الألباني: ١٩٢٤
(٤) تخريج مشكاة المصابيح، الألباني: ٥٧٣٧، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

المبحث السادس عشر: خبر الأعشى بن قيس.

أراد الأعشى بن قيس أن يسلم، فصدوه بأن محمدا يحرم الزنا والخمر! وهذا هو الإسلام طهارة، ولما كان الشرك رجسا. وفيه جوب مجابهة الإعلام المعادي؛ لتأثيره في الناس، وكأعظم من سكر لشاربه! وكذا ومن سحر الآلة الإعلامية المعادية. وهذا الذي وصلت إليه البشرية التائهة الضائعة يومها الأول، ويوم الثاني، وكل يوم أيضا.

وإذ كان من خبره هذا الأعشى بن قيس أنه أجل إسلامه للعام القادم؛ ريثما يتروى من خمره فمات، ولم يسلم! وإذ كان من شأنه أن صورته زوجته، وبينما كان يعاقر خمرا، فلما رأى نفسه تاب توا! وإذ لو صور كل شارب سكر، أو آكله نفسه، ثم استعاد شريطه لعاف نفسه.

وفيه كرامة الإيمان بالغيب في حياة المسلم، وإذ ظن الأعشى أنه سيحيا إلى عامه القادم! وهذا جهله بمقاديره تعالى.

وكان من محاولات إثنائه على الإسلام، ولخطورة عمل الشعر، وقد كان رأسا فيه، وهذا الذي جعل أبا سفيان بن حرب يخشى إسلامه، وحين أمر بتجهيزه بمائة من الإبل قائلًا: "يا معشر قريش، هذا الأعشى والله لئن أتى محمدًا واتّبعه ليُضرِمَنّ عليكم نيران العرب بشعره، فاجمعوا له مئة من الإبل"، فجمعوا له مئة من الإبل وأخذها، ولكن في طريقه قرب اليمامة رمى به بعيره فوقع عنه ومات، ودفنَ في مكانه، فكان الفتيان يخرجون إلى قبره ليشربوا عنده، فكانوا إذا أرادوا الانصراف رمَوا ما كان من فضلات شرابهم على قبره[1].

---

(١) تاريخ دمشق، ابن عساكر: ج٣٣/ ٥١٤

المبحث السابع عشر: خبر ركانة

عن ابن عباس، قال: جاء يزيد بن ركانة إلى النبي - ﷺ - ومعه ثلاث مئة من الغنم، فقال: يا محمد! هل لك أن تصارعني؟ قال: «وما تجعل لي إن صرعتك؟». قال: مئة من الغنم. فصارعه؛ فصرعه. ثم قال: هل لك في العود؟ فقال: «ما تجعل لي؟». قال: مئة أخرى. فصارعه؛ فصرعه، وذكر الثالثة. فقال: يا محمد! ما وضع جنبي في الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إلي منك، وأنا أشهد أن لا اله إلا الله، وأنك رسول الله. فقام عنه، وردّ عليه غنمه[١].

يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه؟ قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك[٢].. وهذا برهان أنه لم يعذره جهله بالتوحيد؛ ولأن الناس مفطورون عليه.

وإذ عرض الرسول مصارعة ركانة وكان معروفا بقوته شرط أن يسلم فصرعه الرسول! فأسلم!

لكن مصارعة الرسول لركانة لا يجيزها على وجهها الذي نراه؛ لأن وجهها كان لمصلحة الدعوة، تحديا، ولمرة واحدة، وعلى منهج الحق والعفاف.

ومصارعة الرسول ركانة على مائة من الغنم دليل على جوازها بعوض لمصلحة الدعوة.

ومصارعة الرسول ركانة ثلاث مرات إمعان في التحدي والتعجيز. وفيه دلالة على تكرار التحدي؛ إفحاما للخصم، وتأثيرا فيه. وهذا دليل

---

(١) الإصابة، ابن حجر: ٦/ ٦٥٥
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢/ ٨٢

على سنة الاقتداء بتحدي القوم فيما نبغوا فيه. وهذا برهان على محبة الله تعالى، لأن المسلم القوي خير وأحب إلى الله من المسلم الضعيف. وعلى وجوب أن يكون للحق قوة تحميه. وعلى وجوب أن يكون المسلم قويا فتيا؛ ولمصلحة دعوته لا مباهاة بها للقوم!

ورد الرسول غنم ركانة إليه بعد مصارعته، دليل على استقلال الذمة المالية للمسلم عن مسألة دعوته تماما، فهو أدعى لطهارته، وأوجب لتقبل الناس منه دعوته ولقناعة يده وعفته.

وهذا دليل على ضرورة إشعار داعية الحق الناس بغناه عما في أيديهم، ولو كان حقا له!

وهذه دعوة أخرى؛ ليُعْلَمَ أن المسلم لاغرض له إلا هداية الناس إلى ربهم الحق سبحانه، لاغيره! وهو دليل على عزة نفس المسلم، وأن وجهته هي دعوته، لا التربح منها!

وكان صارع النبي ﷺ أبا الأشدين فصرعه رسول الله ﷺ. ولأن همم الدعاة هي هداية الناس إلى ربهم الحق، وأجرهم على من يدعون إليه، وهو الله تعالى، وحسبهم ذلك!

وهذا نبي يحمل هم دعوته، وليبذل فيها كل جائز ممكن! وهذا برهان وجوب أن يكون القائد قويا، وقت لزومها، حليما وقت وجوبه.

المبحث الثامن عشر: من صور استهزاء الكفار بالمسلمين!

١ - ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَـٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. يقولون هذا، ولم يأخذهم ربهم إمهالا! وهذه رحمة ربنا الرحمن سبحانه! وإذ لو يعلم أحدنا حقيقته لمشى الأرض الهوينى، مطأطأ رأسه حياء من ربه تعالى!

وهذا استفهام استنكاري! ومن ذا الذي يستنكر عليه تعالى؟! والجواب: هم صنف من عبيده الذين خلقهم أول مرة! وهذا من سوء الأدب وسوء الطوية وسوء القريحة مع ذي الإنعام.

هذا رد للأمر على آمره، وهو الله تعالى، وكم فيه من صلف واستكبار.

هذه عقدة العقد، وأن ينظر قوم إلى آخرين هكذا نظرة، وما أكثرهم في كل مكان! وسائر الأزمان!

لكنهم وإذا رموك حجرا فأطعمهم تمرا! لأنك في القمة أدبا وخلقا وسموا!

﴿أَهَـٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ هذا قولهم! وهذا قول ولي الله تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١]. أنت في القمة السامقة أبدا!!!

إن المسلم طبيب، حاذق، مهذب، لايفت في عضده سوء خلق مريضه، وليسر، ولا يلق بالا كثيرا!

وهذا كبرهم، وإن أول ما يقتل يقتلهم هم أولا!

وهذا تسلية لأهل الحق، وحين ينظر إليهم أغيار من علٍ!

وهذا درس لدعاة الحق ألا ينساقوا وراء من يكون شغله المفاضلة! لأنها عنده تعالى وحده!

﴿أَهَـٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ هذا قولهم! وهذا قول أهل الحق ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]. وإنهم ليجرون أهل الحق أن يرد صلفهم بصلف مثله! وهذا الصلف ليس يعرف داعية الحق! ولا يعرفه داعية الحق أيضا؛ ولأنه داء قاتل مدمر لأهله!

﴿هَـٰؤُلَاءِ﴾: اسم الإشارة! وهذا إمعان في الإذلال! ولكن داعية الحق لا يلقي لهم بالا! ولأنه محب الخير لهم! ولأن له العقبى والعتبى!

٢ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]. وإذ لم يقولوا فيه(خير)! حجة عليهم باعترافهم أنه كله خير، لا أنه فيه خير؛ لأنه يحتمل والقول هكذا أن يكون فيه شر.

وإذ يقولون مرة ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ ومرة يقولون ﴿أَهَـٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ وأخرى يقولون ساحر أو كاهن أو شاعر! وكما قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]. وهكذا تكال التهم على عواهنها!

ومرة يقولون ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وهذا حالهم أيضا، متخبطون! لايستقرون على حال واحدة!

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ انظر! لايريدون حتى ذكر القرآن! هكذا إبهام القوم لأنهم قوم مبهمون! ولأن ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وإذا لم يكن هذا القرآن خيرا، فأين يكون الخير إذاً؟!

وهذا نعي من الله تعالى عليهم لردهم حكمه وأمره.

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، وهذه ضمائر أربعة متباينة! وهذا أسلوب التفات، يتميز به القرآن العظيم أبدا! ويفيد لفت انتباه السامع والقارئ معا!

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ هكذا بالضمير (واو الجماعة) لمزا وغمزا! لأن طويتهم صلف، ولأن كبرهم أنف!

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ يعرف القوم أسلوب الشرط وقوته! لأنهم يعرفون عربيتهم، ومع ذلك عبروا به! نصرة للقرآن! فانقلب السحر على ساحره!

وهو اعتراف منهم بمسابقة المسلم إلى الخير، واعتراف آخر منهم أنفسهم بتأخرهم وخذلانهم، وهذا إعجاز آخر! بأفواههم!

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وهكذا المسلم: سبَّاق إلى أوجه الخير أبدا!

وكان الأجدر أن يقولوا: لسبقنا إليه! هكذا باقتران جواب لو باللام! ليكون أقوى جانبا لهم! لكنه الإعجاز وحسب! وإذ يفوت عليهم ما مقتضاه نقصهم، وعجزهم، ولو كانوا عربا قحا!

﴿خَيْرًا﴾: نكرة! إفادة لاشتماله على جميع أوجه الخير؛ فكان به خيرا! فسبحان منزله.

هكذا بأسلوب الشرط! دلالة على قوة كون القرآن كله خير! وإذ تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن!

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ إيجاز قِصَرٍ. وهذا أغزر إشارة بأوجز عبارة! فصاحة القرآن العظيم! وإذ كان تقديره: لو كان هذا القرآن خيرا، ما سبقنا محمد وتابعوه إليه!

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ كلام موجز جامع مانع! جزالة بيان وبلاغة قرآن!

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وهذا أسلوب التفات؛ ليمنح النص إيقاعه الداخلي، ليجذب الانتباه، فيتفاعل معه قارئه، وسامعه، ومستمعه معا! وهذا إعجاز آخر!

٣ - ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وإذ كيف كان سيكون موقف القرآن حيال ذلكم موقف إلا أنه نزل هكذا كما ترون؟!

وكيف راح بهم خيالهم أنه ﷺ سيلبي طلبهم؟!

وكيف يطرد هكذا صنفا نعته أنه يدعو ربه غداة وعشيا؟!

وعبر بالاسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ تنويها بمن ذموهم يوم ان قالوا ﴿أَهَـٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾. والطرد كسر للخواطر؛ فلذا نهي عنه دعاة الخير؛ لأن دعوتهم جبر الخواطر لا كسرها.

وهذا أمر منه تعالى أن يبقي بجواره عصبة، ما فتئت قريش دعوته ﷺ، أن يطردهم، وها هم عباد لله!

وجاء الضمير المتصل في ﴿رَبَّهُم﴾ كناية عن فقر العبد وحاجته ورضاه عن رب كريم كهكذا رب سبحانه.

لو لم يأت لفظ ﴿رَبَّهُم﴾ لزعم زاعم أن الآية مطلقة عن قيد الإخلاص، فسبحان منزل كتابه.

وجاء ذكر ﴿رَبَّهُم﴾ تنويها بشأن الربوبية الحانية الكريمة. وتنويها بإخلاصهم حال دعائهم.

هكذا الشأن في الإسلام يغنيهم عن الأنداد حال الدعاء وغيره إعزازا وإكراما.

وأولاء العصبة يدعون ربهم وحده، بلا وسائط؛ لأنهم يعلمون عنه قربه من عبده، وغناه عن ذلكم واسطة!

وهذا تنويه بشأن الدعاء، فإنه سلاح المؤمن. فلا يلقين عبد سلاحه أبدا؛ فإن العدو متربص به!

و﴿يَدْعُونَ﴾، هكذا بواو الجماعة فالقوم أجمعهم قانتون لربهم. الاجتماع على الخير خير.

وجاء لفظ ﴿رَبَّهُم﴾ معرفة؛ ليناسب إعراب ﴿يُرِيدُونَ﴾ حالا، وإلا كانت صفة، والحال أبلغ من الصفة!!

وجاء لفظ الرب مقرونا بالضمير المتصل (هم)؛ لإفادة التعريف؛ وهذا لغرض بلاغي بالغ! وهو هذا الاتصال بالرب العظيم، وحتى بلغ مبلغا وكأنما الإلصاق! وكما الضمير(هم)، وقد جاء مقرونا متصلا ملصقا!

وجاء لفظ الرب بدلا عن الله؛ لأن الألوهية سلطان وأمر ونهي، ومقام الرب حنو ولطف، ليناسب مقام الدعاء أقوى، ذلا وخضوعا كان أدعى!

وجاء لفظ ﴿رَبَّهُم﴾ تعبيرا بالربوبية، بدلا عن الألوهية؛ لمناسبة الضمير المتصل (هم)، والذي يحسن هنا، ولا يحسن هناك!

وجاء لفظ الربوبية بدلا عن لفظ الألوهية؛ لأن الدعاء مقام حنو، ورضا، وسكينة، وتربية، وإكلاء!

وجاء ذكر العام ﴿يَدْعُونَ﴾ قبل الخاص ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾؛ كيما لايقال: كفي الغداة والعشي!

وجاء ذكر الغداة والعشي في القرآن الكريم كثيرا، فدل على أهميتهما وشرفهما، ودليلا على أفضلية هذين الوقتين للتضرع إلى مولاك، فاتخذهما.

وجاء ذكر ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ هنا معرفة، وجاءتا في غيره غدوة وعشيا نكرتين؛ تنويعا واهتماما.

و ﴿يَدْعُونَ﴾ فيه عموم الزمان ومنه الغداة والعشي، وعموم المكان أيضا، لكن مجيئهما من باب ذكر الخاص بعد العام؛ تنويها.

و﴿يَدْعُونَ﴾ يفيد استمرارا، ومنه الغداة والعشي! لكن مجيئهما لزيادة فضلهما، فاتخذهما نظاما لدعائك.

وجاء إعراب ﴿يُرِيدُونَ﴾ حالا لا صفة؛ كناية عن عمق الدلالة على إخلاصهم لله تعالى، وكذا ولما يشي به ظل لفظ الإرادة وإنما كان حاملا معنى القصد والوجهة لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

و ﴿يَدْعُونَ﴾ و ﴿يُرِيدُونَ﴾ فيه تحديد الوجهة، بمعرفة أين الابتداء، وأين الانتهاء! وليكون العبد ذا هدف إيجابي. وتحديد الوجهة كان مقصد هذه عصبةٍ، أرادوه ﷺ طردها!

﴿وَجْهَهُ﴾ والتعبير بالوجه بلاغة عميقة، لأنه يناسب مقام الحال من صدق تَوَجُهٍ، ومنه القصد والإرادة، من مُتَوَجِّهٍ، وهو ذلكم العبد المخلص الصادق، إلى مُتَوَجَهٍ إليه، وهو ذلكم الرب الرحيم الغفور!

والتعبير بالوجه بلاغة عميقة أيضا، لما تحمله من تأثير عميق، يكون أكبر وأعظم من التعبير بغيره!

جاء ذكر ﴿وَجْهَهُ﴾ مقترنا بضمير الغائب البارز المتصل، توحيدا، وإفرادا له تعالى بالعبادة دونما سواه، وما يحمله ذكر الضمير هكذا من تعظيم لائق بالله تعالى.

وجاء ذكر الوجه لله تعالى في غير ما موضع من القرآن العظيم؛ إثباتا وتكريما.

وجاء ذكر الوجه إثباتا أن لله تعالى وجها لا كوجه غيره أبدا. ولأنه تعالى قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وحين اشتد الأذى بالرسول ﷺ فدعا ربه تعالى، فشدد الله عليهم. فالظلم قد يدفع المظلوم لرفع يده لمن لا يغفل ولاينام سبحانه!

فعن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: إن الله بعث محمدا ﷺ، وقال: {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين} فإن رسول الله ﷺ لما رأى قريشا استعصوا عليه، فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم السنة حتى حصت كل شيء، حتى أكلوا العظام والجلود، فقال أحدهم: حتى أكلوا الجلود والميتة، وجعل يخرج من الأرض كهيئة الدخان، فأتاه أبو سفيان، فقال: أي محمد، إن قومك قد هلكوا، فادع الله أن يكشف عنهم، فدعا، ثم قال: تعودون بعد هذا - في حديث منصور - ثم قرأ: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين} إلى {عائدون} أنكشف عنهم عذاب الآخرة؟ فقد مضى: الدخان، والبطشة واللزام، وقال أحدهم: القمر، وقال الآخر: والروم [١].

وفيه جواز التدرج في العقاب. وهذه رحمة رب كريم، يأخذهم قليلا لعلهم يرجعون!

ولكنه تعالى يأخذ، وحين الصلف، والاستكبار، والاستهانة، والتعدي، وإدارة الظهور، لكهذا شرع منزل، ولهكذا دين مطهر. وحين قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

ولكنه هذا عناد الظالم، وحتى لو كان فيه هلاكه؟!

ولكن دعاء الرسول ﷺ على قريش، وإذ أجابه ربه تعالى، وإذ دعا لهم فأجابه ربه تعالى أيضا! ولم ترعو قريش، ولم تع الدرس، فظلت على كفرها وعدائها! وإذ كان من شأنه أن تسلم وحين رأت بأعينها، لا

---

(١) صحيح البخاري: ٤٨٢٤

نقلا عن خبر من أحد، أن هكذا يدعو ابنهم الرسول محمد بن عبد الله ﷺ، فيجيبه ربه، وفي حالين مختلفين، وحالا! ولكنه وهكذا يكون حال الظالم، ولما يتمادى؛ ليلقى حتفه بنفسه!

وعندما دعا الرسول ﷺ عليهم، وأكلوا الجيف، وحين دعا ربه لهم، فقال الله ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]. ولأنه تعالى يَعْلَمُ ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. وعلم الله تعالى هو ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وهذا من طبيعة الظلم السفلية! وحين رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم وظهورهم عليهم، وكل ذلك في خمس عشرة سنة. ولأن التاريخ لا يكذب!

وقال الله تعالى ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ *بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ

يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١-١٨].

الفصل الرابع

وفيه مباحث:

المبحث الأول: السراج الوهاج في لطائف الإسراء والمعراج

جاء الإسراء والمعراج زادا لأصحاب الدعوات أن لهم ربا لطيفا رحيما ودودا يكلؤهم حين يجتمع عليهم الظلم. ودلالة على وجوب التزود بالتقوى، وتزكية النفوس والأرواح؛ استعدادا لتبعات مراحل الدعوة التالية. وبرهانا على معية الله تعالى لعبده حال تضييق أهل الأرض عليه. ومنه فليطمئن عبد إلى معية ربه؛ فإن الله معه، وعلى كل حين من أمره، وعلى سائر كل حال من أحواله. وكما قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. وكما أنه تعالى وتقدس وتبارك وتنزه أيضا ﴿قَالَ لَا تَخَافَاۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وكما أن هذا الإسراء والمعراج وإنما جاء إعجازا ناطقا بالتحدي، ولمن تساوره نفسه الأمارة أن يولغ فيما ليس له من طاقة، أو أنه يزعق صوته العالي! وإذ ينسى المسكين، ويكأنه في الصحراء ربعها الخالي! وليس يكاد يسمعه من أحد! وحين أطبقت سجلات التاريخ كله على صحة هذا المستند، صحيفة رسمية ناطقة أخرى، ومن صفحات هذا التاريخ الخالد التليد العتيق، المترامية أطرافه، وكما قد أطبقت سجلاته على هكذا حق ثابت، والذي ليس يمكن قول ومن بعد قوله، وليجيء هذا مشككا، وقد أيقن الناس عامهم، ومن قبل خواصهم، ولربما جاهلهم ومن قبل عالمهم، ولهذا الإطباق التاريخي، ولهذا الإجماع السرمدي الأبدي الأزلي أيضا! أو غيره مضيقا لما وسع الله تعالى على

العباد، وأنه هذه نافذة من نوافذ التسلية والتسرية عن أولاء الدعاة العاملين، وحين تضيق بهم مجتمعاتهم وأهلوهم، وإذ ها هم يكلؤهم ربهم، وإن ناصبهم الناس أجمعون كيدا كيدا! وكما أنه لإظهار داعيتي التحدي والإعجاز، وإطلاق طاقات ينفذ بها العبد ومنها إلى طلاقات هذه القدرة الربانية الكريمة المعجزة المبهرة والباهرة أيضًا أيضًا! وبمثل حدث كهذا الذي بين أيدينا: الإسراء والمعراج!

وأكرسه في ثنتين وثلاثين مسألة.

المسألة الأولى: آفاق خلابة وبيئة جذابة

وقد جاء الإسراء والمعراج كمحطة من محطات الدعوة؛ طمأنة وتسلية، وتثبيتا وتسرية. ومنه فكان مطلب الترويح عن الدعاة العاملين، أمرا سائغا مرغوبا، بل إنه كان سبيلا مأمولا، وطريقا مطلوبا.

وقد جاء الإسراء والمعراج آية على اختراق عاملي الزمان والمكان؛ ليعلم العباد أن الله على كل شيء قديرا!

وجاء الإسراء والمعراج آية ومعجزة؛ لترد الظلم على عقبه، يوم أن يجابه فردا أعزل، علم أن الله تعالى معه!

وجاء الإسراء والمعراج تذكيرا للرسول ﷺ، بما أصاب إخوانه الأنبياء الذين رآهم ليهون عليه أمره.

وجاء الإسراء والمعراج دلالة على أن معية الله تعالى وحده كافية، كان الناس معك، أو كانوا عليك! فقط كن عبدا ربانيا!

وجاء الإسراء والمعراج مرحلة فاصلة في تاريخ الدعوة أجمعه؛ لأن فرض الصلاة كان فيها، دلالة على عظمها، وهي رسالة لتارك الصلاة ليتدبر أمره.

وجاء الإسراء والمعراج طاقة ضافية، حين أضيفت عبودية الرسول محمد ﷺ إلى ربه سبحانه وحده، وهذا إكرام ضاف آخر.

وجاء الإسراء والمعراج آية ضافية أخرى أيضا؛ لإثبات أن الرسول محمدا ﷺ عبد لربه، فأنت عبد، ومن باب الأولى؛ ولداعية الاتفاق في البشرية، وليقف بك أمرك عند هذا الحد عبدا لمولاك؛ لأنه لا إطراء في ديننا! وكيما يقف أحدنا على عتبات هذه العبودية، وإذ ليس يكاد يخرج عنها قيد شيء!

وجاء الإسراء والمعراج دلالة على التجديد في أطوار الدعوة، بما يلائم مراحلها؛ ليكون زادا ضافيا على زادها، فإن شأن الدعوات أنها ليست جامدة.

وجاء الإسراء والمعراج آية على وجوب الأخذ بالأسباب؛ لأن الرسول اتُخِذَ له براق نقل، وكذا معراج، وكان يمكن ألا يكون!

المسألة الثانية: تحد وإعجاز

وجاء الإسراء والمعراج آية ضافية؛ لإفحام قريش؛ لأنها رأت وصفا أبهرها، حين سألوه ﷺ عن أمارات المسجد الأقصى! لكنهم لم يؤمنوا! وهكذا الإعراض حين يستحكم جهلا أو عنادا، وهكذا إلواء الرؤوس عن الحق، كما قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥]!

المسألة الثالثة: إزالة حدود وكسر قيود

وجاء الإسراء والمعراج آية على ربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى، أمانة في أعناق هذه الأمة جيلا من بعد جيل آخر، لاحِقٍ له، وأن الدفاع عن حماهما شرف ودين ندين الله تعالى به.

وجاء الإسراء والمعراج ربطا بين بقاع الأرض، وكأن لم تكن هنالك حدود فاصلة في وجه حرية التنقل؛ لأن الأرض لله تعالى وحده! وها قد رأينا وكيف انتقل مهاجرو مكة، المسلمون والكفار إلى الحبشة، ودون عوائق أو سواتر! وها قد كانتا رحلتا الشتاء والصيف، ولم يحدثنا التاريخ عن شيء من ذلكم!

المسألة الرابعة: اختبار البراء وصدق الولاء

وجاء الإسراج والمعراج آية ضافية للرسول ﷺ؛ ليطمئن إلى صاحبه أبي بكر رضي الله تعالى عنه، وقد أثبت التاريخ سلامة وصدق هذا الرجل النادر. ومنه فلقد كان دلالة واضحة على كشف حال الصديق مع صديقه في ابتلائه وامتحانه في الحق. وهي علامة فارقة في عالم العلاقات، كيما تبنى عليها الوشائج، وكيما تنمو على قاعدتها الروابط.

وجاء الإسراء والمعراج تأكيدا على تلقيب أبي بكر رضي الله تعالى عنه بالصديق، دلالة على صدق الصديق لصديقه في مواقف تستلزم ذلك!

المسألة الخامسة: آية المساجد وتذكير الساجد

وجاء الإسراء والمعراج آية على أن المساجد من شعائره تعالى ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وجاء الإسراء والمعراج آية ضافية على اعتبار المساجد في الإسلام، وأن لها حرمة بالغة، وأنها منابر حق، يقال فيها ما هو تأكيد لعبودية الكون كله لله تعالى.

وذكر المسجدين في أمر الإسراء دلالة واضحة على أن المسجد هو بيته تعالى في الأرض، وكان حقا على المزور أن يكرم زائره، ألا فزوروها تكرموا! فقد روى سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال "مَن توضَّأَ في بيتِهِ فأحسنَ الوُضوءَ ثُمَّ أتى المسجِدَ فَهوَ زائرُ اللَّهِ، وحقٌّ علَى المزورِ أن يُكْرِمَ الزَّائرَ" (١)

وذكر المسجدين في أمر الإسراء؛ دلالة على أن المسجد هو نقطة الانطلاق الأولى لقوافل الخير والهدى للناس.

إن تأهيل المساجد كيما تكون بيئة جاذبة، مسؤولية يقع عاتقها على مجتمع يرنو إلى العلا، ويبتغي التوفيق والسداد والإلهام.

إن تحول المسجد كبيئة طاردة لرواده، يجعل المجتمع بأسره عرضة لانهياره في قيمه وآدابه وأخلاقه وإرثه الإسلامي السامق العريق.

لا يحسن أن تكون نوادي الشباب والملاعب بديلا عن المسجد؛ لأنه قل الانحراف في أهله، ولأنه يكثر الانحراف من غيره.

---

(١) الترغيب والترهيب، المنذري: ١٧٣/١. وخلاصة حكم المحدث: روي بإسنادين أحدهما جيد، وروي نحوه موقوفا بإسناد صحيح.

إن لكل أمة بيتها الذي تزكو نفوسها عنده، وبيتنا الذي تزكو نفوسنا فيه هو المسجد، ألا فهلموا بإعماره، صلاة فيه، وقياما، وركوعا، وسجودا، وذكرا، وتسبيحا.

إن أمة تجد سلواها في غير بيت ربها، إن هي إلا أمة فاتها قطار محمل بأنواع الخيرات ونوادر الصالحات.

المسألة السادسة: آية الإسراء وبرهان التسبيح

قال الله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

فسبح الله تعالى نفسه؛ لمناسبة الإسراء، دلالة على قدرة رب قادر، لايعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء أيضا!

وسبح الله تعالى نفسه لمناسبة الإسراء؛ لأن آياته التي عرضت أمام رسوله ﷺ، لتدل على مدى قدرة له تعالى، تخر له الجباه ساجدة ومسبحة، تعظيما وتقديرا.

وسبح الله تعالى نفسه لمناسبة الإسراء؛ لأن رحلة وبهذه الترتيبات، ليحال على غيره فعلها أو قريبا منها!

المسألة السابعة: نسبية الزمن والإسراء والمعراج!

إن الإسراء والمعراج آية ضافية على قدرة الرب القدير العزيز، ولست أقول باختزال عامل الزمان، وبقدر ما هو قانون يحكم العلاقات النسبية بين الزمن والسرعة، وعلى اختلاف الأماكن، وهذا الذي اكتشف العلم الحديث منه جانبا، وليس يفتح منه جوانبه كلها أو جلها؛ بل

قليلها! ولأن الله تعالى قال ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. وكما دل عليه " أن رسول الله ﷺ قال: فرج سقفي وأنا بمكة، فنزل جبريل عليه السلام، ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج إلى السماء الدنيا، قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح قال: من هذا؟ قال: جبريل."(١).

وإذا قلنا قولنا هذا، وإذ يمكن صياغة ذلك توافقا مع سبق هذا الدين في بيان ما قالوا عنه من بعد الثورة الصناعية الكبرى، وحين أفرزت شيئا مما سبق به هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد! ومن يوم الإسراء والمعراج بهذا النبي محمد ﷺ.

وحين رأوا أن الزمن يتباطأ، وبالنسبة لراصد ثابت، ومع زيادة السرعة؛ وبرهنوا على ذلك بأنه وعند حساب الزمن بالنسبة لصاروخ منطلق وبسرعة الصاروخ المعروفة تزايدا، فإنهم لا حظوا أن الزمن يتباطأ عند ذلك، ودلالة تحرك عقارب ساعة وضعت على جسم الصاروخ المنطلق هذا، وإذ كانت أكثر تباطؤا، وحين كان الصاروخ أكثر تسارعا! وفي الوقت نفسه ولو راقبنا ساعة على سطح الأرض، ولقياس الزمن، والعلاقة بينه وبين سرعة الصاروخ المنطلق، وبهذا السرعة العظيمة إلا أنهم لا حظوا أن قياس الساعة الأرضية لهذه السرعة، وإنما تسير بسرعة أيضا وبأكثر معدلا عن هذه الساعة الموضوعة على جسم الصاروخ المنطلق!

والأمر أيسر، ويكأنه أبهر! وحين كانت مقاييس الزمن يوم القيامة، وخارج مناطق القياس البشري المحدود، وحين قال الله تعالى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:

---

(١) صحيح البخاري: ١٦٣٦

٤]. ويكأن يوما واحدا عند الله تعالى، وكألف سنة مما يعد الناس من أيامهم! وبغير مقاييس الناس يومهم هذا! ولما قال الله تعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

ومنه فإنه مقاييس الزمان عنده تعالى، وفي مثل رحلتي الإسراء والمعراج، ليحكمها عوامل أخر، ولتندرج تحت الإعجاز والتحدي، ومن نوع ما توصل إليه أينشتاين، ولكنه على حسبة خالق أينشتاين وقانون أينشتاين! وعلى غير قانونه أيضا! وبقانون آخر يعلمه الله تعالى وحده، يحكم هذه العلاقة اللامتناهية سرعة، والمتباطئة زمنا أيضا!

المسألة الثامنة: زكاء مَلَكٍ ونبل نبيٍّ

وهاك " أن النبي - ﷺ - أتي بالبراق ليلة أسري به، ملجما مسرجا، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: أ بمحمد تفعل هذا؟! فما ركبك أحد أكرم على الله منه، قال: فارفض عرقا" [١]

فهذا قول مَلَكٍ! نعرف منه قدر الرسول ﷺ، في الملأ الأعلى! ثم نقوِّم مدى تبعيتنا له، تأسيسا على ذلك!

وحمل الملك جبريل عليه السلام الرسول ﷺ، على البراق. فيه بيان قيمة الرسول ﷺ، في السماء، وهذه قيمته في الأرض أيضا! ودلك عليها أن حدثا بين الفينة والفينة يحدث، وإذ بك ترى الأرض ثائرة؛ لثائرة الناس، حبا لرسولهم ﷺ، وانتصارا له، طائعهم وعاصيهم معا!

---

(١) تخريج مشكاة المصابيح، الألباني: ٥٨٦٣

وحمل الملك جبريل عليه السلام الرسول ﷺ على البراق! فيه أدب ملك، كان من وصف جنسه أنهم ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وكان من حمل الملك جبريل الرسول ﷺ على البراق، وانطلاق موكب الإسراء، فلا يفوت أحدهما الآخر! دلالة على قدرة ربنا سبحانه، أن يخلق ملكا وبراقا، فتخترق أمام سرعتهما عوامل الزمن! ﴿آيَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢]!

ودلك على انبهارنا أن القوم كانوا يقطعون هذه المسافة يومها في شهر ذهابا، ويعودون منها في شهر آخر إيابا!

أما براق خلقه ربنا، فقد قطعها في جزء ليلة، ذهابا وإيابا، ولسنا ندري كم هو ذلكم الجزء؟! لأن الرحلة كانت قائمتها عديدة، ومهامها كثيرة، ولعل الذهاب والإياب كانا قدرا ضئيلا منها، أمام ضخامة المهام، وعظم المسؤوليات الجسام!

المسألة التاسعة: نداء الإيمان ووازع البيان

وحديث الرسول ﷺ بالإسراء إلى قومه عزيمة نافذة؛ لأنه يعلم نتائجها، ومن حيث تكذيبه، ولكنه نداء الإيمان، ولكنه وازع البيان، عن الله تعالى الرحيم الرحمن.

وقال الله تعالى ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]. وهذا وصف ضاف لنبينا محمد ﷺ: فما زاغ بصره يمينا أو شمالا، ولا ارتفع عن المكان الذي حدَّ له النظر إليه. وهذا هو أدبه، وهذا هو معينه، الذي به نقتدي، وهذا هو دأبه الذي به نحتذي. وقوفا على النصوص إخباتا، لا تعديا ولا تغييرا، ولا تعديلا، ولا تبديلا!

المسألة العاشرة: أمارات الإسراء ودلالات الصدق

إن ذكر الرسول ﷺ أمارات إسرائه، كمروره على بعير لبني فلان، وإناء مغطى شرب منه، ونوم القوم، وأن العير تقبل الآن، ويقدمها جمل أورق!. [1]إن كل ذلك لدليل صدقه، وإنه لبرهان أمانته؛ خاصة وأنها أمارات وعلامات، ليست لتقبل ريبا، وليست تبرهن شكا، ولأنها قد جاءت أمامهم كفلق الصبح! ورغم ذلك فإنهم كذبوه! وزاد من تكذيبهم، أنهم كانوا "بين مصفق، وبين مصفر، تكذيبا له، واستبعادا لخبره" [2].

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم فعجبوا، وقالوا ما آية ذلك يا محمد؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط! قال: آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حس الدابة، فند لهم بعير، فدللتهم عليه! وأنا متوجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان، مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياما، ولهم إناء فيه ماء، قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه، وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان! وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب من البيضاء ثنية التنعيم! يقدمها جمل أورق! عليه غرارتان: إحداهما سوداء، والأخرى برقاء! قالت فابتدر القوم الثنية، فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم، وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء، ثم غطوه، وإنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماء! وسألوا الآخرين، وهم بمكة،

---

(١) الروض الأنف، أبو القاسم السهيلي: ٢/٢٠٠(بتصرف)
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ١٤٠

فقالوا: صدق والله! لقد أنفرنا في الوادي الذي ذكر، وند لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه [1]

بل إن الإعجاز أنه أحاط بذلك كله، من أمارات، ومن علامات، ويكأن الله تعالى له حكمته البالغة في ذلك، أن القوم سوف يسألونه؛ إحراجا وتعجيزا، وإلا فليس كل أحد يرمق ما مر عليه حين سفره أو تجواله، وخاصة على هذا الوجه الدقيق وصفاً! وكأنما كانت أمامه صلى الله عليه وسلم كتابا مفتوحا!

إن تصديق أم هانئ، زوجة الرسول ﷺ نبأه عن الإسراء، لَسببُ إلف، وموجب اطمئنان، ودليل تسلية، وبرهان تسرية عنه ﷺ. وحين يكون هذا الإلف من داخل بيته عونا وأزرا وشدا وتصديقا.

لكن قوما أبوا إلا تكذيبا! فماذا أنت فاعل؟! وماذا أنت قائل! وقد رأوا وصفا للمسجد الأقصى! وليس يختلف بل هو صورة طبق الأصل! ويكأنها ليست صورة! بل حقيقة! وليس يحكم ذلك ويبينه ويوضحه إلا قوله تعالى ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠]!

وعن جابر بن عبد الله، أنه قال نبينا محمد ﷺ: لما كذبتني قريش، قمت في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه [2]

وفي الصحيح: أن المشركين هم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك. قال: فجعلت أخبرهم عن آياته فالتبس عليَّ

---

(١) الروض الأنف، أبو القاسم السهيلي: ١/١١٧

(٢) صحيح البخاري: ٣٨٨٦

بعض الشيء، فجلى الله لي بيت المقدس حتى جعلت أنظر إليه دون دار عقيل وأنعته لهم. فقال: أما الصفة فقد أصاب [(١)]

وإن قريشا سألت عن الإناء والعير، فجاءهم الخبر على قول الرسول ﷺ!

المسألة الحادية عشرة: أثر الحجة وموجب المحجة

إن إقامة الحجة القاطعة أمر إيجابي، فمن بتصديق القوم إذا أرادوا، وبحيث ينقلهم إلى أمر إيجابي أيضا، يكون لهم، ويحسب لجانبهم، ومنه فتقديم دليلك على صدق منهجك، يكون أثبت لك، وادعى لحجاج قومك.

وقال الله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]. وإنما كان الإسراء رؤيا ابتداءً، إلا دربة على ما سوف يلقاه الرسول ﷺ عنتا من قريش! فقد عودتنا صلفا!

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ١٤٠. وقال الحافظ العماد: أخرجه أحمد في مسنده ١ / ٣٠٩ عن ابن عباس، وأبو نعيم وابن مردويه من طريق قابوس عن أبيه بسند صحيح. ونقله البيهقي في دلائله ج ٢ / ٣٦٣.

المسألة الثانية عشرة: إثبات النداء والتسليم لغير البشر!

وقول المَلَكِ جبريلَ عليه السلام: ألا تستحي يا براق مما تصنع، فو الله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم عليه منه. قال: فاستحيا حتى ارفض عرقا، ثم قر حتى ركبته"[١].

وفيه إمكان مخاطبة غير الإنس! لاسيما إذا كان دابة، ولأن البراق استحى من المَلَكِ جبريل عليه السلام! ولأن من ذلك رجفة الجبل به، حين قال له المَلَكُ جبريلُ عليه السلام أيضا: اثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان. ولأن" أن النبي ﷺ صعد أحدا، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم، فقال: اثبت أحد؛ فإنما عليك نبي، وصديق، وشهيدان. [٢]

ولأن الله تعالى أثبت نداء لأرضه، ولأنه تعالى أثبت نداء لسمائه، ولأنه سبحانه أثبت طاعة منهما لأمره تنجيزا، وحين قال سبحانه ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

ولأن الله تعالى أمر أرضه وسماءه، فلبتا وسلمتا تسليما! وذلك حين قال سبحانه ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وهذا ذئب يأتي مقعيا على ذنبه أمام رسول الله ﷺ! وهذا ذئب يكلم راعيا! وحين أخذ شاة من شياهه، وولما تبعه الراعي، وأخذها منه، وليوجه إليه الذئب عبارات العتاب، وحين يتعجب الراعي! فيزيده عجبا إلى عجبه! وحين أخبره برسول الله ﷺ، وإذ ها هو يسكن يثرب!

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٢٦٩
(٢) صحيح البخاري: ٣٦٧٥

فعن أبي سعيد الخدري قال: عن أبي سعيد الخدري قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه قال: ألا تتقي الله، تنزع مني رزقا ساقه الله إلي؟! فقال: يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بيثرب يخبر الناس ما قد سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأخبره، فأمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فنودي بـ: الصلاة جامعة. ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: صدق، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما حدث أهله بعده [١].

المسألة الثالثة عشرة: إثبات حياء الدابة البراق!

وإنما استحى البراق لبعد عهد الأنبياء ركوبه! وفيه تنويه بالبراق حامل الأنبياء، ولئن كان هذا حياء دابة! فحري أن يكون الحياء خلقا وأدبا ونظاما؛ لأنه باعث على كل حسن جميل، ولأنه ناه عن كل مذموم سقيم. ولأنه داع إلى كل نبيل شميل، والحياء دأب سامٍ عالٍ، حاث على كل خلق حميد، ويتأبى على كل شين دنيء!

(١) الصحيح المسند، الوادعي: ٤١٢

ولقد بلغ من قيمة الحياء أن الله تعالى قد وصف به؛ لأنه تعالى حيي يحب الحياء، ولحديث" إنَّ اللهَ تعالى حيِيٌّ كريمٌ، يستَحي إذا رفَع الرَّجلُ إليه يدَيهِ أن يردَّهُما صِفرًا خائبتَينِ"[١]

إن ضعف قيمة الحياء في النفوس، أو التحلل منها، يجعل صاحبه وكأنما هو ألعوبة في يد الشيطان يقلبه كيف يشاء! والحياء خلق سامق يمنح صاحبه علوا وارتفاعا وشموخا وعزة وكرامة وإباء.

إن وقوع المعاصي كلها، إنما كان راجعا في جله إلى ضعف خلق الحياء أو تحلل منه!

المسألة الرابعة عشرة: رؤيا الإسراء ابتداء توطئة

وقال الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. وإنما كان الإسراء رؤيا ابتداءً، إلا لأنه حدث، وكان له أثره العظيم في مراحل الدعوة التالية.

وإنما كان الإسراء رؤيا ابتداءً إلا تمهيدا بتسليته ﷺ: وأمام من سوف يقول: صدق؛ ولأن هذا يزيد المؤمنين إيمانا مع إيمانهم، أو من سوف يرميه كذبا، ولأن هذا داعية تثبيت وتمحيص معا.

وإنما كان الإسراء رؤيا ابتداءً إلا إعدادا وتهيئة له ﷺ، ولربما حصل له مثلما كان أول ابتداء الوحي به ﷺ، وذلك أخذه خوفه، وما دل عليه قوله، ﷺ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، وهو ربط لمراحل الدعوة بعضها بعضا، برباط التذكير، وكأنما هي ملحمة واحدة، يشد أحداثها بعضا ببعض، تقوية وتسلية وتسرية وتذكرة معا.

---

(١) صحيح الجامع، الألباني: ١٧٥٧

وإنما كان الإسراء رؤيا ابتداءً، توطئة لتحمله، وتمهيدا لتقبله.

وإنما كان تمهيدا له ﷺ، أن يريه ربه إسراءه مناما! كيما لايفجأه، حين وقع رأي العين، وبعد إذ قد رآه مناما! ولأن هذا حدث فوق ملكات التصور، ولأنه أمر أعلى من مقامات التحمل! ولولا إذ ثبته مولاه، ولولا إذ كان صلى الله تعالى عليه وآله وسلم به من الطاقات التي أمكنها تقبل ذلك وتحمله، ومن أمر الإسراء، ومرورا بأحداثه العظام، وكذا أمر المعراج ومرورا بمراحله الجسام، وإذ كل واحدة من هؤلاء لتمثل فصلا مستقلا من فصول هذه السيرة النبوية المباركة، وبمثلها وفصلا آخر من فصول هذه الدعوة المباركة أيضا.

وإنما كان توطئة لتحمله؛ لأنها كانت أحداثا، ليست كأحداث مرت، وليست كوقائع خلت، ومن ثم كانت مألوفة، أو معهودة، أو معروفة! ولأن الأمر كان ليس كذلك؛ فمنه كان التمهيد، ومنه كانت التوطئة!

المسألة الخامسة عشرة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾

وانظر عبرة في قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، ولما كانت لاحقة لقوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ طمأنة لنبينا محمد ﷺ، وتحريضا له " على إبلاغ رسالته، ومخبرا له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته، وتحت قهره وغلبته"[1] وفيه من الظن الحسن به تعالى؛ ولأن ما يأتي

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ج٥/٨٤

من عنده تعالى، فإنما هو خير، وإن تأبط ظاهرا ما يحسبه أحدنا دون ذلك!

المسألة السادسة عشرة: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾

وفيه إحاطة ربنا سبحانه بكل شئ، وفتنته للناس، وكل على وجهه اللائق به تعالى، والذي كان منه أنَّا به نؤمن، وأنَّا به نمرره، وأنَّا به لانكيفه، ولانمثله، ولانشبهه، ولانعطله. ولأن الله تعالى محيط، وبكل شيء، وكما قال تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

وإذ كان إمهاله تعالى لأولئك الذين كفروا وكذبوا، وإنما ليريهم من آياته، ومن آفاقه، وحتى يتبين لهم أنه الحق، وكما قال الله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. وسواء أذعنوا لذلك راضية نفوسهم، أو أنهم استكبروا وعتوا وبالغوا مناصبة عدائهم، لهذا النبي الأمي العربي القرشي الكريم ﷺ، ومن بعد ما رأوا الآيات!

وهذا بيان لطريق أولئك، وألا يستوحشن نبي طريقا سلكوه، ولأن أخاه يوسف عليه السلام كان قد بانت براءته، وبالآيات! وإلا أنهم حبسوه وسجنوه وآذوه! وكما قال الله تعالى ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

وهذا شأن كل معاند متكبر جبار، وإذ يرى الآيات ويعمى، وإذ يسمع الآيات ويبكم. وإذ يوقنها وعنها يتغافل، وماذا أنت قائل، وأمام قوله تعالى عنهم ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]؟!

إن قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ دلالة على أن الله تعالى مانع عبده، كما قد منع نبيه ﷺ، فليطمئن. وهو دليل قدرة، وبرهان عظمة، لله تعالى ربنا الرحمن!

وإنما كان الإسراء رؤيا ابتداءً إلا اختبارا لمدى تقبل الناس لما يرد إليهم من ربهم الحق سبحانه! وإنما كان الإسراء رؤيا عين، بعد أن كان رؤيا منام؛ ولأنه {في قوله تعالى: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} [الإسراء: ٦٠]، قال: هي رؤيا عين، أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، قال: {والشجرة الملعونة في القرآن} [الإسراء: ٦٠]، قال: هي شجرة الزقوم. "[١]

ومجيء قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ لاحقا لقوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ دليل قيومية قاهرة، وقدرة نافذة، وعزة غالبة.

ولكن عموم القول الكريم بفتنة الناس، وإذ يعد في حد ذاته برهانا على صدق البيان وإعجازه معا، وإلا فنحن أمام من افتتن، وعند من شك، ولدى من رابه ذلكم الأمر العظيم، وحين وضع عقله حاكما ضابطا!

وأقول مقسما: وإن العقل ليس يحيل شيئا من ذلكم، وحين يرد الأمر كله لله تعالى، ومعلنا الإسلام، وحائزا اليقين، وحينها ليجدن نفسه راضيا مرضيا، وأمام ثمرة هذا التسليم والإذعان لله تعالى ربنا الرحمن، وفي كل شيء، ومنه كان أمرا الإسراء والمعراج هذين!

---

(١) صحيح البخاري: ٣٨٨٨

المسألة السابعة عشرة: يقين النبي بربه الولي

وانظر كيف كان منع ربنا الرحمن لنبيه ﷺ، ومن قبلها تأمل كيف كان يقينه بربه تعالى، ذلكم المعدن النفيس، ولما قد توافر، فلا تسل عن خسار، ولا تسل عن عون ربك العزيز الغفار! وذلك "أن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أخبر: أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سمرة وعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: إن هذا اخترط عليَّ سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله، - ثلاثا - ولم يعاقبه وجلس." (١)

وشاهده قوله: فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله. فداعية الحق في حصن حصين، وقلعة أسوارها الرعاية الربانية الحافظة الحارسة لثغور دعاة الحق إليه تعالى، وهذا تحقيق لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وحين أعلمهم نبينا ﷺ بالعير، وكادت الشمس أن تغرب قبل قدومها، فدعا الله فحبسها حتى قدموا كما وصف لهم. وفيه دليل إقحام الخصم بكثرة الأدلة وتضافرها وتتابعها؛ وليكون فعلها فيه كالسيف مضاء، أو أشد فتكا!

وإخباره ﷺ بأحداث الرحلة كلها لا حدثا واحدا، إنما يعد علما من أعلام نبوته المتكررة المتتالية المتتابعة المتضافرة أبدا أبدا.

---

(١) صحيح البخاري: ٢٩١٠

وأنت خبير بأن أحدهم وحين يقوم برحلة ما أو سفرة ما، ونادرا ما يمكنه قص ما حدث كله، وعلى وجهه، وبه يبين الفارق، ومنه يستدل على عظمة الخالق، وحين أمكن نبيه ورسوله محمدا الله ﷺ أن يقصص ما رآه، وحين حكى ما صدقته عيناه، وكأنما هو يرويها بسندها المتصل، وكما قد وقعت تماما تماما!

وإحضار جبريل عليه السلام البراق، وإركاب نبينا ﷺ عليه، ومن ثم أحضر المعراج، ووضع نبينا ﷺ فيه، وأصعده إلى السماء! وهذه كلها من كرامات وتواضع الملك جبريل عليه السلام؛ ولأنه من صنف ملائكة كان من وصفهم أنهم ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وهو أيضا علامة فارقة في حياة الأمم، حين يكون أحدهم في موضع خدمة لإخوانه، وليُرفَع قدره، وحين يمنح بذلا لهم، من نفسه.

ومنه فإنه ليس يقلل من شأن أحدنا أن يكون خادما لإخوانه؛ ولأن هذا وضع جدير ذكره، ولأنه شرف يجب التنويه به، استدعاء لرفعته، واستشرافا لقيمته!

المسألة الثامنة عشرة: اختلاف الوسائل بتباين المراحل

ولأنه قد أسري بنبينا ﷺ بالبراق، وعرج به بالمعراج! فدل على أن لكل مرحلة وسائلها، والتي تميزها كل مرحلة عما سواها، وحسب مقتضيات الوضع الراهن لكلٍ، وهو أيضا مما يعد دليلا آخر منضافا إلى مرونة هذا الدين في مواجهة الوقائع والأحداث؛ ولأنه ليس جامدا يقف محله، ولأنه بهذه المرونة قد كتب الله تعالى له بقاء شاهدا حاكما ضابطا.

وإنما كان التنويع في وسائل تنقله ﷺ، تسلية؛ ولأن الرتابة في كل شيء لتعد من خروج به عن إلفه، ولتعتبر ذهابا به عن حركته الدائبة، والمفترض أنها من أخص خصائصه.

وإن الأمر كذلك ليعد ومن كونه ولكل مرحلة وسائلها المكافئة وعلاوة على ما أنف أيضا.

وهذا فن إداري ممتاز، وحين لا تراوح المنشأة مكانها قوالب جامدة، لا حراك فيها، أو قواعد ثابتة لا مرونة لها؛ ولأن ذلك يصيبها، ولأن ذلك يعوقها ويسوؤها.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لما فرغت مما كان في بيت المقدس، أتى المعراج، ولم أر شيئا قط أحسن منه. وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر، فأصعدني صاحبي فيه، حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء، يقال له: باب الحفظة، عليه ملك من الملائكة، يقال له: إسماعيل، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك، تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك [١]

وفيه التنويع في التسلية. كما أن فيه وصفا للمعراج، علاوة على أنه أيضا ينقل حركة هادرة للحدث؛ ليكون تأثيرها أعمق في المستقبِلِ، كما كان لها ذلكم الاثر الفعال في المرسِلِ، وهو هنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وحين أنبأ الناس بأمره هذا.

ودل أيضا على مرحلية الحركة، وكونها بالأهم فالمهم فالأقل أهمية، وهكذا في تدرج يفيد، لا عفوية تضر.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٢٧٣

المسألة التاسعة عشرة: عِظَمُ خلقِ المَلَكِ جبريل عليه السلام

ولئن كان الانبهار الحقيقي أمام قدرة خالق عظيم، كان من خلقه ملك شديد القوى، له ستمائة جناح كل منها يسد ما بين السماء والأرض! وهو ذلكم الملك جبريل عليه السلام! إلا أن الانبهار ليعاود عمله في القلوب والأفئدة، حين تصور أن مَلَكًا واحدا يعمل تحت إمرته اثنا عشر ألف ملك آخر! ولاندري من وصفهم إلا أنهم من جملة ما سبق وصفا لذلكم خلق من خلقه تعالى، بأنهم ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وهذا مؤذن بالإخبات والخشوع والخضوع لرب عظيم، كان هذا خلق من خلقه تعالى!

ولئن كان من وصف جبريل عليه السلام أن له ستمائة جناح، ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض! دلالةَ عظم خلق الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه! ويكأنه برهان عظمته سبحانه أيضا، وإلا أنه يبقى القول إن خالقا هذه قدرته، لم يكن إلا ليعبد وحده، دونما سواه معه أو من دونه، إكبارا وإعظاما وإفرادا وإخباتا أيضا، وذلكم هو حقه تعالى على العبيد، كما أنه أوجب وجوب له عليهم أيضا.

قال رسول الله ﷺ "إنما ذلك جبريل، وما رأيته في الصورة التي خلق فيها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض "![1]

وتدلي جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض! ليعطي انبهارا آخر أمام ذلكم الرب العزيز القهار، وهذا خلقه، وعلى هذه الصورة التي حكاها نبيه ﷺ، وعلى ما رأى رأي

---

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٢٣٦٢

عينه، لا وصفا من غيره، وهذا خلق واحد ممن خلق الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه!

قال الله تعالى ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٥-٩]. هذه خمس صفات للملك جبريل عليه السلام؛ ولتغمرك رهبة وإعظاما. فقوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ متضمن لكثرة قواه، وأن كلا من قواه العديدة شديد منفصلا؛ ليعطي كلا مجتمعا أكثر قوة، وأعظم نفاذا، وهذا يتضمن أيضا ثناء عليه، كما على نبينا محمد ﷺ، وأنه معلَّم من قَوِي؛ ليكون قويا تبعا، دينا وقولا وعملا، وهذه كلية قمنة درسا وعلما وإحاطة.

وقد جاء وصف الملك جبريل عليه السلام بالقوة، وأنه رسول، دلالة على قوته كما سلف، ودلالة على أنه مبلغ، فكان مجيء لفظ رسول قاطعا على أنه ليس للقول منشئا، وإنما كان دليلا على كونه عن ربه كان مبلغا، وهذا أمكن للتصديق، وهو نفي لداعية شك يحوم حول مسألة الوحي عموما، وأنه منه تعالى، إلى من كلفه بإيصالها عنه سبحانه إلى رسله، ومن ثم عن رسله عليهم الصلوات والتسليمات والتبريكات أبدا أبدا، إلى أقوامهم، كما قال تعالى في وصف جبريل عليه السلام ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]. وكما قال في شأن جنس الرسل عامة ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

و﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ يحتمل وجوها " أحدها: ذو قوة، وثانيها: ذو كمال في العقل والدين جميعا، ثالثها: ذو منظر وهيبة عظيمة، رابعها: ذو خلق حسن" [١].

المسألة العشرون: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾

وقال تعالى ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤]. وإنما سمي البيت المعمور بذلك؛ لأنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، وإذ كان من وصفهم أنهم يتعبدون فيه، صلاة وطوافا، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة!

إنه يحدونا القرآن العظيم مرة تلو أختها، واقفا بنا أمام خلق كثير من خلقه تعالى؛ لنعتبر، ونتذكر، ونخشع، ونوقن، ونعبد، ونوحد، ولا نشرك به شيئا!

المسألة الحادية والعشرون: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾

قال الله تعالى ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٤]. وهذا هو وصفها أيضا! وإذ " لما أسري برسول الله ﷺ، انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: { إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى } [النجم: ١٦]، قال: فراش من ذهب، قال:

---

(١) تفسير الرازي، الرازي: ج ٢٨ / ٢٨٥

فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا، المقحمات " [١]

وقلت: ولولا أن خلقها كأعظم، ولولا أن شأنها كأعجز، ولولا أن وصفها كأبهر، ما سميت سدرة المنتهى! لأن نهاية الشيء هي أعلاه!

المسألة الثانية والعشرون: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾

قال الله تعالى ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾[النجم: ١٥].وهذا تعريف بموضع جنة المأوى، وأنها عند سدرة المنتهى، ومما قيل في أوصافها إنها" جنة المبيت، وهي التي يصير إليها المتقون، وأنها الجنة التي يصير إليها أرواح الشهداء؛ قاله ابن عباس، وهي عن يمين العرش، وقيل: هي الجنة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها، وهي في السماء السابعة، وقيل: إن أرواح المؤمنين كلهم في جنة المأوى، وإنما قيل لها: جنة المأوى لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين، وهي تحت العرش، فيتنعمون بنعيمها، ويتنسمون بطيب ريحها، وقيل: لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها" [٢].

المسألة الثالثة والعشرون: دراسة القوى المؤثرة

وإن وقفة خاطفة ولو واحدة عند خلق واحد من خلقه تعالى، ومنه فلا عقد لمقارنة أو مشابهة، ولو من باب بيت، أو شباكه أو حتى مسمار واحد فيه، أمام خلق باهر معجز كهكذا!

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٣
(٢) تفسير القرطبي: ١٧ / ٩٦

وسبحان من قال قوله تعالى ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

هذا جناح ملك لا يبلى الدهر أبدا! وجناح طائرة عمره الافتراضي عدة سنوات! وهذا رب قدير تخر له الجباه خشعا سجدا!

ليس الإعجاز في أن تخلق طائرة يخفيها الرادار؛ لأنك قاصر عن خلق مادة الطائرة، أو الرادار، أو حتى مسمار واحد فيهما!

إذا عرف امرؤ قدره، لتغير أمره!

عند الوقوف مليا أمام دراسة القوى المؤثرة على جسم ككرة! يأخذنا ذهول إذ كيف يمكن دراسة قوى مؤثرة على جناح ملك يسد ما بين السماء والأرض!

إن فرض الصلاة من علٍ علو، وإن تركها سفل ودنو! ولعاقل أن يختار مجدا، ولغيره أن يختار ضعةً!

المسألة الرابعة والعشرون: وكفى بها فضلا!

ولو لم يكن في واقعة الإسراء والمعراج إلا هذه الثلاث لكفى! وذلك لأنه ﷺ أعطي فيها، الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، ويغفر لمن مات من أمته لا يشرك بالله شيئا المقحمات. وجامعها إعطاؤها من فوق السماء السابعة، وقاسمها منحها معا لتشكل كلا فألا حسنا، وظنا حسنا بالله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، أن وهبنا ذلكم العطاء كله، ومن فوق سمائه السابعة، ومشافهة مع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولتأطر أحدنا أطرا نحو آفاق الشكر والعرفان والحمد

والتسليم والإذعان والرضا بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبنبينا محمد ﷺ نبيا ورسولا.

وهذا هو الفارق في مسألة التلقي، وحين عبد يمهر فؤاده تسليما وانقيادا، فيرضى ويتابع، وبين آخر يأخذها مادة للثقافة، أو إرهاق العقل فيما لا طائل من ورائه، وسوى أن يبتليه ربه تعالى بالشك والريب، ليتيه ويمرغ، ويزدادا مرضا في قلبه، وحسرة ونكدا، وحين قال الله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

المسألة الخامسة والعشرون: من أسرار علو منزلة الصلاة

إن الميقات المكاني لفرض الصلاة داع بها أن تعلو فوق كل عال في حياتنا، ولأنها فرضت من فوق السماء السابعة!

وإنما فرضت الصلاة خمسا، وهي بأجر خمسين على الفرضة الأولى! لأن الحسنة بعشر أمثالها. و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

إن فرض الصلاة من علٍ علو، وإن تركها سفل ودنو! ولعاقل أن يختار مجدا، ولغيره أن يختار ضعةً!

وفرض الصلاة من علٍ قمن بها أن تعلو بصاحبها آفاق المجد والعزة والسؤدد والكرامة. فلينظر تاركها حال نفسه وسفلها، وحال أخلاقه ودنوها!

إن النظر في وجوه المصلين المخبتين العاملين، وإنما لتعلوها وضاءة ونضرة وبهاء وسرور وحبور، ليشي بشكر رب كريم وأن فرضها سبحانه!

إن النظر في وجوه تاركي الصلاة، وهم إذ تعلوهم شيبة، وما هم بشيبة! وهم إذ تكسوهم حسرة، وهم إذ تخيمهم كآبة من مصيرهم المحتوم، وإن لم يتوبوا، لموجب شفقة!

ولو لم يكن من معنى الصلاة إلا كونها صلة بين عبد ضعيف محتاج، إلى رب قوي غني، لكفي به معنى ساميا، ولكفي به شرحا وافيا!

إن النظر في وجوه المصلين باعث على الأمل والتفاؤل والانجبار؛ لأنهم علموا أنه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. دنياكم توفيقا، وأخراكم فوزا!

إنه لو لم يكن في الصلاة إلا أنها طاعة لمن بها أمر، لكفى بها قيمة عند مليك مقتدر! لأن الأصل وفرعه أنه تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

إن الصلاة أنفة وعزة وإباء، وإن تركها وإهمالها ذلة وخوار وخواء! وإنها لتكسب صاحبها من عزتها وإبائها، وبقدر ما حضر قلبه فيها. وإنه ليعلو تاركها حسرة وألم، وبقدر عدم تعظيمه بها أمرا، وبقدر تجاهلها بها راحة وسكينا وصلة سببا.

إن إقامة الصلاة زكاة نفس، وطهارة قلب، وإن تركها هفوت وضعف وخور ناخر في نخاع التاركين والمهملين، ويكأنك تراهم به ﴿سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ [الحج: ٢]!

وتعجيب من تارك الصلاة! لأنها نور، فلماذا يحرم نفسه عاقل نورا؟ ولماذا يستبدل به فطن ظلاما دامسا حالكا، يتيه به في ظلماته عن غد واعد مشرق؟!

إن طهورك شطر إيمانك، وصلاتك نورك، وصدقتك برهانك، وصبرك ضياؤك. والقرآن حجة لك، أو عليك، وكل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها!

عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال" الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك، أو عليك، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها، أو موبقها" [١].

إن الموحدين المصلين الذين يقيمون صلاتهم إنما هم يقدرون ربهم سبحانه حق قدره؛ وذلك لأنهم أسسوا بنيانهم على تقوى من الله تعالى ورضوان.

إن المصلين الذين يعلقون معاصيهم على شماعة صلاتهم إنما يقفون ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩]. لأنهم جعلوا الله تعالى أهون الناظرين إليهم. ألا فليدَّبَّر كل أمره؛ لأن مكره تعالى موجب خشية وحياء.

كلم نبينا ﷺ ربنا الجليل ليلة عرج به، وبخصوص الصلاة، فتحصل شرف التكليم، وشرف الصلاة!

إنه لا داعي للانبهار كثيرا أمام الثورة الصناعية الكبرى! لأنها إعادة تدوير لما خلق الله تعالى وحسب! مع عدم تقليل لقيمتها. ولأن كل ما خلقه تعالى إنما هو داعية تعمير، وإن كثيرا مما صنع الإنسان إنما هو داعية تدمير! والأصل أن يكون معمرا، لا مدمرا!

---

(١) صحيح مسلم: ٢٢٣

حين تنعقد أطراف علاقة، أولها ربنا، وثانيها نبينا، وثالثها ملك الوحي جبريل، فأنت أمام مشهد مهيب لتدبير أمر الناس! فكن على قدر هذا الاهتمام بك.

المسألة السادسة والعشرون: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

قال الله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقعت شبهة في عود ضمير ﴿بِعَبْدِهِ﴾؛ وظاهره أنه على الله تعالى؛ لأن السياق أن جبريل أوحى إلى عبده تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربه.

إن وجود شبهة عود ضمير ﴿بِعَبْدِهِ﴾ لا يخرجنا عن هالة إخبات لذلكم مشهد من مشاهد القرآن العظيم، حين كانت أطرافه ربنا ونبينا وجبريل عليه السلام!

إن اختلاف أهل العلم في إمامة النبي ﷺ بالأنبياء، هل هو في السماء، أم هو في بيت المقدس، لا يخرجنا عن مقصوده، وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان للمتقين إماما!

إن كلام الناس حول ماهية صلاتهم معا في البيت المسجد الأقصى، أو في السماء! وبإمامة النبي محمد ﷺ، ليس يخرجنا هذا عن الخلاف القائم، وعلى ذي همة وسبب، وسؤالا ماكرا حول ماهية هذه

الصلاة، وإذ كيف صلوا، ولم تكن قد فرضت بعد؟! وكأن هذا الرهط الأنبياء الكرام عليهم الصلوات والتسليمات والتبريكات، كانوا يعبثون، وحين تحنثوا لربهم، وكهيئة ليس لنا كثير كلام فيها، وإلا حرمنا من تدبر معانيها ومراميها، وإذ إنها في الابتداء وفي الانتهاء وقوف بين يدي الله تعالى الحليم المنان العزيز الجبار القهار سبحانه وتعالى!

المسألة السابعة والعشرون: نور أنَّى أراه؟

وقع الخلاف في رؤية النبي محمد ﷺ ربه تعالى، وتوجيهه أنَّا نمسك عنه، ونكتفي بحديث الإمام مسلم رحمه الله تعالى أنه نور أنَّى أراه؟

فعن عبد الله بن شقيق، قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت، فقال: رأيت نورا. [١]

قلت لأبي ذر لو أدركت النبي ﷺ لسألته فقال عم كنت تسأله قلت أسأله هل رأى محمد ربه فقال قد سألته فقال نور أنى أراه [٢].

إنه لتخيم هالات الخضعان حين علم العبد عن ربه أنه ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وإن الخلق كله ليعلوه إطباق وإخبات، حين يحيل رب كريم رؤيته على عبد، كنبي الله موسى عليه السلام! فما بالك بغير موسى عليه السلام، كأنا وأنت؟!

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٨
(٢) صحيح الترمذي: ٣٢٨٢

وإن الكون كله لتكسوه خشية، تند وصفا، وحين علمه أنه ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، ولما وقع اندكاك الجبل لتجليه تعالى له!

إن عبدا لتتملكه مشاعر الإخبات والخشعان لربه تعالى، وحين علم عنه تعالى أن (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)! [1]

كان من وصف ربنا (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام) بل كان من وصفه أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾! لاتأخذه سنة! ولو واحدة! فكان قيوما!

إن مصباحا خافتا، أو غير خافت، أو كان سراجا وهاجا، يجعلك تغمض عينيك غير مجتريء على النظر فيه! فما بالك برب كريم هو نور السماوات السبع، والأرضين السبع؟! ولله المثل الأعلى.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، وفي رواية أبي بكر: النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. [2]

إنه لينبغي الوقوف طويلا، عند قوله تعالى ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وتوجيهه في الدنيا؛ قطعا لخلاف دار، قد يفقد أحدنا حلاوة النص العظيم، وطلاوة النظم الكريم. وإنه له لظلالا، وإن معه ومنه لريا!

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٩
(٢) الرحيق المختوم، المباركفوري: ٦٦

إنه لو كان بحث في إمكان رؤية الله تعالى في الدنيا مفيدا، فما فائدة أن يعد عبد العدة المكينة طمعا في رؤية ربه تعالى في الفردوس الأعلى؟!

إذا كان من معاني التجلي أنه بدو وظهور، فلا ننسى أنه كان لجبل! ولا ننسى أنه اندك فصار رملا! فما بالك بلحم ودم، لو كان قد تجلى ربه تعالى له؟!

إن الوقوف على معنى التجلي اللغوي، في مقابلة إحالة الرؤية على نبي الله تعالى موسى عليه السلام، ليعد خروجا عن جمع ممكن بينهما!

إنه لا قياس على قانون الرب سبحانه حين كان الإسراء والمعراج مقصورا عليه تعالى؛ ولأنه هو الذي أسرى بعبده، فكان دليلا على انفراده تعالى بمطلق الإعجاز في هذا.

وإنما يقاس أمر أو وضع على قانون واضعه وحسب؛ لأنه هو الذي يملك دون غيره أبعاده كلها صنعة وإصلاحا.

وإن من أهلك نفسه، وحين تعرض لقياسات الظواهر والأحداث ذات الأسرار الخالية عن عقل آحادنا، ليزيده ذلك تيها وغرقا وغيا، ألا فليقف أحدنا عند علمه بقدرته المحدودة خاشعا، وأمام هذا الرب القدير القادر الجبار العزيز القهار ذي القدرة المطلقة!

وحين ذلكم فإننا أمام عطاء ربنا تعالى، وما قد أعده لنا من مغنم، وإذ كان بديلا ربانيا كريما، وعما أصاب متحجر، منتصب أمام الحق فيدمغه، وفوق ما يكتنفه ويصيبه، ويحل عليه من مغرم!

المسألة الثامنة والعشرون: ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

ولأن الإسراء أيضا كان دلالة على مطلق القدرة لله تعالى، ولأن من قدرته تعالى إمكان من لا يُرَى أن يُرَي، وهذا خلاف أحدنا لأننا لانملك من القدرة إلا ما منحناها الله تعالى ربنا الرحمن، فضلا منه وجودا.

وانظر قوله: وأوجز وأعظم ما ورد في تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]. (١).

وكل آية وردت في الإسراء والمعراج، كان من شأنها أنها آية حقا، وبرهانا ودليلا ودلالة؛ ولأنه لم يسبق أن جاءت من طريق آخر غير هذا القرآن العظيم! وكذا عن قول أمينه تعالى في أرضه نبينا ورسولنا وقرة أعيننا محمد ابن عبد الله النبي الأمي العربي الكريم ﷺ، وبأحاديث قد ثبتت، وإذ وليس يحوم حولها من قول! ولذا كان من شأنها أيضا أن تكون آيات كبرى، وكجزء من آيات الله تعالى الكبرى أيضا، عرفها أحدنا أو قد غابت عنه، ولتبقى دليلا آخر وبرهانا على أن مستودع القدرة معين عطاء ومنح وفضل أبدا!

المسألة التاسعة والعشرون: هل كان الإسراء بالبدن أو بالروح أو بهما معا؟

إن القول بجواز أن يكون الإسراء بالروح فقط، هو محاولة لتفريغ أحداثنا العظام من إعجازها، ليخفت نورها في قلوب الأشهاد، وهداية الحيارى!

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم الجوزية: ٣/٣٦

إنه قد أسرى الله بعبده بدنا وروحا، ولا فصل بينهما لأن الفصل يحيل الإعجاز في المسألة، وحدث كهذا لايخلو من إعجاز، بل كله إعجاز! كان أوله كونه روحا ومادة معا.

لو جارينا قول إن الإسراء كان بالروح فقط، لفقد الحدث كل معانيه! إذ كيف يمكن تصور براق ليركبه الرسول ﷺ، وهو روح فقط، بل ما لزوم البراق إذن؟! ومنه المعراج أيضا.

لو جارينا قول إن الإسراء والمعراج كانا بالروح فقط، لكنا سببا في تجرؤ القوم على الطعن في القرآن، إذ كيف كان عبدا بروح فقط؟!

لو كان القول إن الإسراء كان بالروح فقط، لكان التسبيح في آية الإسراء عبثا؛ لأن التسبيح لايكون إلا للأمور العظام! وهذا هو إعجاز القرآن! ولأن الرحلة كانت أحداثها متضافرة متتابعة متكاثفة متواترة أيضا، وهذان هما اللذان أكسباها هذا الزخم العريض عرضا عرضا، والطويل طولا طولا!

إن مقولة إن الإسراء كان بالروح فقط، يجعلنا في معزل عن صلاة، كان الرسول فيها لإخوانه الأنبياء إماما! وقول بغيره لا يمكن تخيله!

جاء النص على كون الإسراء ﴿بِعَبْدِهِ﴾؛ لأن أي عبد نراه هو مادة وروح معا! فلماذا يستثنى الرسول ﷺ إذن؟! وإن هذا إلا مكر للتوهين من شأنه، وما هم ببالغيه!

وقد نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا: إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده، ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك، ولكن ينبغى أن يعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناما وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم، وعائشة ومعاوية لم يقولا: كان مناما، وإنما قالا: أسري بروحه ولم يفقد جسده، وفرق بين

الأمرين فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض وروحه لم تصعد ولم تذهب وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال والذين قالوا: عرج برسول الله صلى الله عليه و سلم طائفتان: طائفة قالت: عرج بروحه وبدنه وطائفة قالت: عرج بروحه ولم يفقد بدنه وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناما وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسري بها وعرج بها حقيقة وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السماوات سماء سماء حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فتقف بين يدي الله عز و جل فيأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض والذي كان لرسول الله صلى الله عليه و سلم ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة. [١].

المسألة الثلاثون: إمامة الرجل في بيته

وإنما جعلت إمامة الرجل في بيته، شرعا ودينا، وله التنازل عنه، وبقرار منه؛ لأن الرجل راع، وهو راع ومسؤول في بيته! وهذا تكريم إسلامنا لأرباب البيوت! وتقديرا لشأنهم، وإعظاما لقدرهم، وتنويها بحقهم، واعترافا بسلطانهم في بيوتهم. وهذه أخلاق ديننا!

إنه جعل النبي ﷺ إماما لأهل بيت المقدس وبه أئمته! ومنه جواز إمامة الإمام الأعظم للرجل، ولو في بيته.

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم الجوزية: ٣/٣٦

المسألة الواحدة والثلاثون: من أسرار حدوث الإسراء والمعراج ليلا

جاء ذكر أن الإسراء كان ﴿لَيْلًا﴾ إشارة على أنه ليس من إمكاننا القول بأنه استغرق الليلة كلها أو بعضها؛ وهذا بحث ليس يفيد كثيرا، ولكنه الإمعان في الإعجاز، وتأكيدا لسلطان الله تعالى القاهر سبحانه!

إنه لا يخلو ذكر أن الإسراء كان ليلا من إعجاز! لأن الليل سكون وهدوء ولباس. ولذا جاء مقدما على النهار في القرآن العظيم.

إنه لايخلو أن الإسراء كان ليلا من موافقة رؤيا رآها نبينا صلى الله عليه وسلم، وكانت ليلا.

المسألة الثانية والثلاثون: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقوله ﷺ: سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم. ولأنه جاء التسليم في سورة النور مفعولا مطلقا مؤكِدا لفعله؛ إمعانا في مدى قبول عبد لأمر ربه غير مشفوع برد، بل ممهور بقبول فائق، لا شائبة فيه!

وجاء التسليم مفعولا مطلقا في سورة النور؛ دلالة على توكيد الانقياد والرضا حين صدوره من العبد.

وهذا تحقيق لقوله ﷺ: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

إن العبودية الحقة، وحين يكون القلب مسلما لما قضى الله تعالى وقدر، لأنه ثقة في أنه تعالى رؤوف رحيم.

إنه لا يكفي الرضا لأنه عمل قلبي، وعلامته الظاهرة هي التسليم والانقياد.

وقوله ﷺ: سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزت ناداني مناد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي. وهذا شأن ثمرة الحياء عطاءً ومنحا وفيضا!

وفيه اعتزاز الرسول ﷺ بربوبية ربه سبحانه؛ لأنها ملاذ كل عبد، وحين تتأخر الملاذات!

وقوله هذا لمناسبة فرض الصلاة وتخفيفه عن الأمة، لكن سؤاله تعالى كل حين قربة ودين.

وعود مرة أخرى إلى الحياء، وما أدراك ما الحياء؟ إنه خلق حميد، وإنه أدب مجيد.

وقوله ﷺ: فلما جاوزت ناداني مناد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي. فيه إمضاؤه تعالى الأمر وتخفيفه، رحمة بعباده ولأمة محمد ﷺ خاصة؛ وذلك لأنه ﷺ قال: أمتي هذه أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل [١]

إن هذا التخفيف كان منه تعالى، وقد وقع لإتمام النعمة، وإكمال الدين، أما بعده فليس لأحدنا بذلك؛ لأن الله تعالى قال ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

إن التغيير والتبديل والتعطيل والإضافة والحذف من أحكامه تعالى استدراك على الله تعالى، وليس يليق! ولأن ذلك يصير أحكامه

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٢٧٨

مفرغة من أسمائها ومعانيها وحكمتها، وعلة وسبب نزولها أساسا. والله تعالى بهذه الأحكام، وإنما بها أتم النعمة، وأكمل الدين! وحين تنزلت مرنة، وإذ تشي بحكمة التشريع الرباني وملاءمته لسائر الأزمان، وكافة الأحوال والأماكن أيضا.

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن مالك بن صعصعة الأنصاري: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به: بينما أنا في الحطيم -وربما قال: في الحجر- مضطجعا، إذ أتاني آت، فقدَّ [وفي رواية]: فشق ما بين هذه إلى هذه -فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته. وفي رواية: من قصه إلى شعرته- فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل، وفوق الحمار أبيض -فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم- يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به؛ فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به؛ فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى -وهما ابنا الخالة- قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا، ثم قالا: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به؛

فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به؛ فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إلى إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي، حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، قال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم رفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في

الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك، ثم فرضت علي الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بما أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأسلم، قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي.[١]

المبحث الثاني: انشقاق القمر

عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما.[٢]

سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين. وهكذا تتوالى الآيات، وتتضافر البينات، ولعل قلوبا تذعن، ولعل آذانا تسمع، ولعل أعينا تبصر.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٨٨٧
(٢) المرجع السابق: ٣٨٦٨

إنه حين انشق القمر كآية طلبوها، ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

وهكذا يترك القرآن الحكم إعجازا على صنف هذا وصفه، إشهاداً!

واكتفاء الفعل ﴿يُعْرِضُوا﴾ بفاعله دون ذكر مفعوله! كناية عن تمام الإعراض، ودلالة على تمام الإعراض عن كل ما هو حق! وإذ لابد أن يتبع التكذيب الإعراض عن الحق، وهذه منظومة اتباع للهوى! وكما حكاها القرآن المجيد. وإن شأن المكذب هو الإعراض عن كل آية. إمعانا في المخالفة، واتباعا للهوى! ومجرد الإعراض تكذيب! ولزوم اتباع الإعراض قولا يحسبونه حجة! وهكذا يتعمق القرآن داخل النفس البشرية.

وإذ يحسب كل جاهل أن هذيانه من بعد إعراضه خاف على أولي الألباب!

ويزداد الخطب، وحين يحسبون أن هذيانهم يخال على ربهم الحق سبحانه!

وهكذا بالضمير واو الجماعة كناية عن اقترافهم جميعهم لشين الشرك وإثمه!

وهكذا بواو الجماعة تأنفا عن ذكرهم! وذما لصنيعهم! وهذه بلاغة قرآننا!

وهكذا بأسلوب الشرط! الجازم! لأن الشرط أسلوب تركيبي مانح قوة وجزالة! ولأن الشرط الجازم مانح أدعى قوة، وموجب أعمق جزالة!

و﴿وَيَقُولُوا﴾! هكذا قول معرى عن دليل، وهكذا زعم مفرغ من برهان!

إنه لا أحد ألحن حجة على الله تعالى، فحذار من كمين ينصبه صاحبه لنفسه بنفسه!

وإذ نعى القرآن على المكذبين باستعمال الأزمنة الثلاثة ذما، وإعجازا، إذ كان يمكنهم التحلل من كذبهم، لو أعلنوا التصديق في المستقبل! ولو كذبا!

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٢و٣]! وهكذا اجتمع هنا الحال والاستقبال وجاء الماضي في ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ وكذا في ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧]! تحديا! وإذ ولو كانوا حذاقا لصدقوا! إبطالا لدلالة ﴿إن﴾، والمضارع الدال على الاستقبال!

﴿وَإِن يَرَوْا، يُعْرِضُوا، وَيَقُولُوا﴾! فجاء استعمال الفعل المضارع هنا لتضمنه الحال والاستقبال معا! كناية عن عمق القرآن حين تخلل نفوسهم؛ ليكشف عوارها، وليفضح افتراءها!

وإنما جاءت الدلالة على الاستقبال، وكأنهم سيعرضون أمام كل آية قادمة لاحقة أيضا! وقد حدث، وبه دل على إعجاز هذا الكتاب.

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾. جاء جواب الشرط خبرا بلا مبتدأ! فكأن فعله بمثابته! وهذا تفنن لغوي قرآني!

إن مقصود جملة الشرط هو جوابها، لكن مجيء فعله، إمعان في شمول الإعراض! وعن كل آية! لامجرد إعراض! فلربما سهُلَ!

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ لو كان المقصود بها انشقاق القمر، لجاءت معرفة(الآية) لكنه القرآن، وحين يغوص في دواخل نفوس المعرضين!

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾! هكذا نكرة! دلالة عموم! إذ سوف يعرضون عن كل آية! وما انشقاق القمر إلا واحدة منها! وهذه بلاغة وإعجاز القرآن وتحديه!

﴿وَإِن يَرَوْا﴾. الأصل في (إنْ) أنها للأحوال النادرة! فكأنه ندر أن يقع تكذيب لآية كمثل انشقاق القمر! إلا من هؤلاء! وهذا إعجاز القرآن!

وأنه وإذا كنتم تشكون في آياتنا، وإنما نحن نضعها أمامكم، وعلى يقين من تصديق آخرين من عبادنا المؤمنين!

وخطب حذيفة ابن اليمان رضي الله تعالى عنه فقال" اقتربت الساعة وانشق القمر " ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة.[1]. وهذه خطبة جمعة كافية، وهذا مرسل جيد، وهذا مستقبل جيدا أيضا.

إنه لايقف التأييد الرباني عند الرسول ﷺ، وإنما هو حلقة متصلة، ليقع حين تنعقد أسبابه. من صدع بالحق، وإخلاص فيه، معا، وبحكمة بالغة، وكلم طيب.

تمثل واقعة انشقاق القمر شقتين، واحدة على هذا الجبل! والأخرى على جبل آخر! دليلا تأييدا ربانيا للفئات المستضعفة. وكما أنها علم على نبوة نبينا محمد ﷺ.

حين انشق القمر فقالوا: سحرنا محمد! فقالوا: إن كان سحرنا؛ فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. وهذه بقية تقول الحق، حكمة بالغة. ولا يخلو منها زمان.

---

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ٤ /٢٨٠

إن واقعة انشقاق القمر آية، تأخذ بالألباب، ودلك عليه وقوعه مرتين؛ إمعانا في الإعجاز، ولعل قلوبا تهفو إلى الحق، وتسكن إليه!

طلبت يهود من الرسول ﷺ آية، فانشق القمر مرة أخرى! فقالوا (هذا سحر مفترى)! فالكفر كله على قلب رجل واحد، في شركه، لا اجتماعه؛ لأن قلوبهم شتى!

حين طلب القوم من الرسول شق القمر قال: إن فعلت تؤمنوا! يريدون تعجيزه لكنه بهتهم برده! ثقة بإجابة ربه! هذه وحدها كافية لإسلام القوم! وهذا يقين نبي بربه، أن يجيبه. ولنكن بيقين أنه تعالى لايرد يدا لاهثة رفعت إليه سبحانه.

وكان القمر آية قبل انشقاقه، فكان مؤتلفا! وحين انشقاقه فكان مختلفا! وبعد انشقاقه فصار مؤتلفا مرة أخرى!

وقال الله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وهذا نداء بتحدٍ لأهل الطبيعة: هذا القمر أمامكم فادعوه ينشق نصفين: نصفا على الصفا، ونصف، على المروة!

إن انشقاق القمر ليلا آية مبصرة، ومعجزة معبرة، ودلالة باهرة، على قدرته تعالى النافذة القادرة! وقال الله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]

كداعية خير وهدى، دع الناس لا يرون منك إلا الحسن فعلك وقولك، وهذا بحد ذاته دعوتك العملية، وآيتك الفعلية. لأنك لاتملك أن ينشق لك القمر!

إن اكتشاف العلم الحديث أن أثرا دل على انشقاق القمر مع بقاء وظائفه هكذا رأي العين بلا أثر هو إعجاز آخر تخر لله أمامه الجباه سجدا داخرين. ولعل هذه آية أخرى ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢].

إنه ستبقى معجزة انشقاق القمر عالقة بأذهان المؤمنين أبد الدهر، ولن يفت في عضدها زعم زاعم، أو قول قائل! لأن التاريخ شهدها ونقلها كما جاءت!

وقال الله تعالى ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. وهذا خلق ربي!

إن إسناد الآيات الباهرة إلى الطبيعة كبر ما هم ببالغيه! ولماذا لم تكن هذه الطبيعة هو(الله)سبحانه! وانتهى الأمر؟!إنه لجج الخصومة مع الله! وللتحلل من الأوامر ولاقتراف النواهي!

كل ما في الكون آيات، وعلى الذين يتذرعون أنها الطبيعة أن يحدثوا حدثا، ولو واحدا، لتغيير مجرى هذه التي يسمونها الطبيعة عن سننها!

لا داعي للوقوف كثيرا أمام أطوار القمر المختلفة لتفسيرها ماديا، لأنه تعالى قال ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]! ولأنه تعالى هو الذي قدر منازله!

فتح الله تعالى قلوبا كانت غلفا، وحين تبين لها أنه الحق؛ لأسباب رأوها أمامهم رأي العين، لا حكاية لتصدق أو تكذب! وشريط الإعجاز باق أبدا!

إن كل لحظة تمر على ابن آدم لا تخلو من آيات باهرة على عظيم خلقه تعالى وصنعه في الكون وفي الحياة وفي أنفسهم! فقط ﴿قُلِ انظُرُوا

مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقد " شاهد ملك ما جبار" مالابار" بالهند (جاكرواني فرماس) انشقاق القمر؛ الذي وقع لمحمد، وعلم عند استفساره عن انشقاق القمر بأن هناك نبوة عن مجيء رسول من جزيرة العرب، وحينها عين ابنه خليفة له، وانطلق لملاقاته. وقد اعتنق الإسلام على يد النبي، وعندما عاد إلى وطنه- بناء على توجيهات النبي- وتوفي في ميناء ظفار".[١]

عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا. [٢]. وفيه جواز الإشهاد.

حين زعمت قريش أن انشقاق القمر كان سحرا! واتفقوا على سؤال السفار(المسافرون) وقدموا من كل وجهة! فقالوا رأينا! آية أخرى!

بنى ملك الهند في القرن السابع الهجري قصراً مشيدا البناء مكتوبا عليه "بُني في ليلة أن شق القمر" آية أخرى، فالتاريخ لا يكذب.

---

(١) كتاب بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، عبد المجيد الزندانى: ٢٢٠
(٢) صحيح البخاري: ٤٨٦٤

المبحث الثالث: لا تبك يا بنية فإن الله مانع أباك!

لا تبك يا بنية فإن الله مانع أباك! وهذا يقين نبي بوعد ربه، ساندته لغة، في ثوب بلاغي، كاشف عن جوامع كلم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا تلطف نبي مع ابنته. وهذه شفقة ابنة على أبيها رحمة وبرا. وإنه من قيعان الأزمة تتشرق إشراقات الرحمة والشفقة والبر والخير والنصر والتمكين.

وهذا تحول للنهي من كونه أمرا في صورته؛ لأنه من أعلى إلى أدنى، وإلى كونه شفقة بلاغة، ند على لبيب حبكها وصنعها إلا نبينا ﷺ. وهذه لا الناهية مع تاء المضارع! لتنشئ نهيا يُراد به إرشاد وتهذيب! ولأن هذا نبي لم يتخل عن وظيفته وسط البلاء!

نداء يشي بالتلطف واللطف والشفقة! الإعجاز في أنه المبتلى بالأذى! لكنه يربت على ابنته شفقة ورحمة.

وتصدر النداء ب(يا)! وهي أم أدوات النداء، وأخفها نطقا، لخفة حركتها، وبكأنها صوت واحد، لانطلاق اللسان بها، دون أن يستأنف عملا!

لا تبك يا بنية! لماذا؟! لأن الله مانع أباك! وهذه مقدمة أفضت إلى نتيجة مسببة. وهذه جوامع كلم طيب، أمدنا بسيل صيِّب، مفعم بطاقته الخلابة وعطاءاته الجذابة.

الله! تذكير بأن المنع يعوزه سلطان! والسلطان ليس يكون إلا بالألوهية لا بالربوبية! وهذا تذكير بأن العون الحقيقي، إنما هو منه تعالى، وما عمه أبو طالب، إلا سبب منه تعالى أيضا!

ومانع! اسم فاعل! يشي باستمرار واقعة المنع! ما بقي الرسول ﷺ حيا، وما بقيت دعوة نابضة؛ لصلاح الناس وهداهم!

و(إن) لتفيد توكيدا، يمنح ثقته في المستقبل، كما قد غرس ثمرته في المرسل! و(الفاء) تعقيب؛ تؤذن بفرج قريب، فلا تستعجله؛ لأن فجره بزغ بضوئه. فقط ثق بوعد ربك مطمئنا!

وهذا نهي نبوي تحلى بملامح فنية فائقة، إرشادا وتهذيبا للأخلاق، نحو مستقبل رفيع يستشرفه من وسط الأذى!

و(بنية)نكرة مقصودة؛ لأنك تنادي بها شيئا معينا لا يشترك معه أحد، وهذا بسبب النداء! وهكذا كانت فاطمة بنت نبينا ﷺ!

و(بنية)نكرة مقصودة، غير موصوفة، لكنها صارت معرفة بتعيينها بأحد أحرف النداء. بلاغة نبي!

وفيه جواز حذف الضمير، مع كسر ما قبله، ولم يمكن هنا؛ لأجل بناء النكرة المقصودة في محل نصب، فكان أولى تقديما!

لم تحذف(يا)مع جوازه بدلا عن اختصار ياء المتكلم من (بنيتي)فيخل المعني لزيادة اختصار لايلزم بلاغةً!

والنداء ب(يا)أصل النداء، ولم يستعمل القرآن غيرها من أدواته فشاركه الرسول ﷺ.

إن حذف ياء المتكلم مع ضرورتها من (بنيتي) زاد المعنى بيانا وبهاء، وأكسبه جمالا أغنى عنه الإيجاز والتملح والتلطف.

تصغير(بنية)أفاد تلطفا وتملحا، أضفي على النص بهاءه وجماله الأخاذ.

قال أبو جهل: تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه. [1] وهذا علم أبي جهل بالعربية، فإن القول يتبعه عمل، وهو خلع الأنداد في صورها.

وقد كان هذا مناسبة قول نبينا ﷺ: يا عم: كلمة واحدة، تعطونها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم. فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات. وهذا شأن الباطل، يسمح بكل كلام، إلا كلمة التوحيد، سالبة السلطان من العبيد، وموقعة السلطان لرب العبيد.

إلا التوحيد! وما فارق، إلا صرفا عقابا! وإنه لاينبغي تقديم حب رياسة عن التوحيد، لأن العبد وإنما خلقه مولاه ليكون عبدا أولا! ومن ثم فإن التوحيد يكون سببا للملك، ولو تريدون ملكا، لكنه الصرف عنها حين كان الملك وحده هدفا.

المبحث الرابع: موت أبي طالب

عن المسيب بن حزن أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب! فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنه. فنزلت: { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [التوبة: ١١٣]، ونزلت: {إنك لا تهدي من أحببت} [القصص: ٥٦]. [2]

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ٢ / ٢٨٣
(٢) صحيح البخاري: ٣٨٨٤

وهذا فعل الآلة الإعلامية السلبي عظيم، دلالة فعلها في أبي طالب، ولما أوشك على التوحيد قبيل موته!

إن نصرة أبي طالب لنبينا ﷺ، مع كفره، وموته عليه، تجعل أحدنا مشفقا على نفسه كثيرا؛ خوفا فتنة على نفسه!

والنصرة وحدها ليست كافية؛ لنيل شرف العبودية، وإلا فما بلغ أحد نصرة مثلما بلغها أبو طالب مع ابن أخيه نبينا محمد ﷺ.

ولعله كان من الإعجاز موت أبي طالب على الكفر؛ كيما لا يتفنن متفنن أن النصرة وحدها كافية لنيل شرف العبودية لله تعالى!

والخلاف في موت أبي طالب مسلما أو كافرا لا يثنينا عن حقيقة أن الولاء والبراء إنما عماده العقيدة الصحيحة في الله وحسب!

وإذ إن الخلاف حول موت أبي طالب مسلما يحله حديث البخاري أنه مات على ملة عبد المطلب!

في موت أبي طالب كافرا دليل أن النصرة وحدها ليست بكافية، إلا أن تؤيدها متابعة لله ورسوله وعلى وجهها!

في موت أبي طالب عبرة، أن التعلق بغيره تعالى ذل وخزى وخسار، وأن التعلق بالله تعالى وحده عز وفلاح وفوز!

لاينبغي أن يكون أحد إمعة، تابعا لآلة إعلامية سلبية، همها فتنته هو أولا، ثم تنفض من حوله، وحين حاجته نصرتها، وليست ببالغتها!

إنه ينبغي التسلح بالعلم الشرعي؛ لأنه نور العبد في ظلام الفتنة الحالك، والذي يجعل الحليم معه حيرانا!

ولا يرعين عبد سمعه للآلة الإعلامية السلبية؛ ولأنها قد تفتنه عن غايته، ولأنها قد تضله عن سبيله، وليست بمغنية عنه من الله شيئا!

إن الآلة الإعلامية السلبية لا ترقب في أحد إلا ولا ذمة؛ لأنها تراقبه إلى مماته؛ فتنة. فليحذرها عبد سحرها فيه!

ولكن التاريخ سجل لأبي طالب قوله هذا: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا. [1] وشططا أي: ظلما كبيرا باطلا وزورا، ومنه جاءت شناعة كفرهم وفظاعة عدائهم.

وهذا الذي أغرى نبينا ﷺ قوله لعمه: أي عم فأنت قلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة. [2].

والنداء ب (أي) للقرب؛ استدعاء ولينا، فلعلها تعمل أثرها في عمه فيسلم. وهذه بلاغة وشفقة نبي! وفيه إثبات شفاعة نبينا محمد ﷺ.

حين مات أبو طالب مشركا، قال نبينا محمد ﷺ: لأستغفر لك مالم أُنهَ عنك! وفيه شفقة نبي؛ كان لجميل معروف عمه عليه أثره. وليكن أحدنا صاحب معروف أبدا!

ويشار إلى ضعف أثر أن أبا طالب مات مسلما؛ وقوة حديث البخاري أنه مات كافرا. (فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر ما كلمهم به: على ملة عبد المطلب).

وقال أبو طالب وهو على فراش موته: يا بن أخي والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٣ / ١٥٢

(٢) المرجع السابق: ج ٣ / ١٥٢

جزعا من الموت لقلتها. وهذا أثر آلة إعلام سلبي، وكذا فعل العصبية الشين! وحين تورد صاحبها المهالك.

حين تعددت سبل إسلام أبي طالب ولما لم تفلح قال الله(إنك لا تهدي من أحببت) دلالة على أن القلوب بين إصبعين من أصابعه تعالى.

كانت محاولات نبينا ﷺ لإسلام عمه كمحاولاته مع قومه بلاغا، بل أكثرها لأنه كان عونا له ونصيرا بلاغا أيضا.

ليس موت أبي طالب اختبارا ليقين نبي بربه لأن ذلكم أصل وإنما كيلا تتبقى بقية إلا متعلقة بربها وحده استمدادا لنصره واستمطارا لعطائه.

كان ابتلاء نبينا ﷺ بموت عمه كيما يكون تعلقه بربه وحده وما النصير إلا سببا قد يزول عنه ليبقى المسبب وحده وهو الله تعالى.

يتبقى أن موت أبي طالب كان علامة فارقة في تاريخ الدعوة كيما لايكون هناك تعلق إلا بالسماء وحدها زادا دائما ومعينا باقيا!

قال العباس: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ وقلت: إن الميزان هو إسلام الوجه لله تعالى وحسب ولأنه صلى الله عليه وسلم أعلنها أول مرة.

كانت وقفات أبي طالب مع نبينا محمد ﷺ زادا للدعاة العاملين المخلصين، أنهم ليسوا وحدهم، في ميدان الإرشاد، والصبر، والجلد، والمعاناة، والنصب، وإنما طاقات خلابة، من ورائهم، من بعده تعالى، وبإذنه!

كانت وقفات أبي طالب مع ابن أخيه درسا للناس أن يقفوا مع أبنائهم الدعاة ولو حمية! كما هو أبو طالب!

بيد أن محاولات نبينا ﷺ لإسلام عمه؛ موجب إحسان؛ جزاء الإحسان؛ لعموم نصرته، وخصوص مودته، لابن أخيه.

كان في علمه تعالى ألا يسلم أبو طالب لأنها حكمة بالغة أن درسا للدعاة حين يربتون كثيرا وحسب ثم(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات).

حين أحرج العباس نبينا ﷺ قال: هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار. وهذا إثبات أن النار دركات كما أن الجنة درجات.

امض قدما؛ لعلك تخفف وطأة المواجهة، وهو الَأْولَى.

إنك لاتهدي من أحببت. تأمل أولي أنك ستجابه بأعتى صنوف المقت والازدراء، وأنت في سبيلك إلى اهتداء من يعادونك! فلا تلتفت كثيرا، وامض واثقا.

إن رسالتك هي محبة الخير للناس، فلا يفتن في عضدك عداؤهم؛ لأنك طبيب حاذق، لاترعوي بصراخ طفل، تعطيه إبرة؛ ترياقا، وعلاجا!

وفيه إثبات محبة الدعاة الصالحين هدى الناس أجمعين، وإن رموهم بالأحجار، وإن غمروهم بالصَغَار !

وفيه معايرة العباس نبينا ﷺ حين لم يغن عن عمه شيئا دلالة جهل حط بأعشاشه على قوم لايحسنون فقها عنه تعالى أن القلوب بين إصبعيه! ويوم أسلم هذا العباس نفسه! ويوم أحسن إسلامه!

قال العباس: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ وقلت: قال ﷺ: يافاطمة بنت محمد اعملي لا أغني عنك من الله شيئا!

حين أحرج العباس نبينا ﷺ قال: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار. وهذا شأنه ﷺ عند ربه تعالى، فما هو شأن العباس، وهذه واقعة لسان حال.

وهذا مصير نصير فما بالك بغيره؟! وهذه فطنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ! وكما أنه فيه إثبات تفاوت العذاب بتفاوت الولاء و العداء والبراء.

وفيه إثبات شفاعة نبينا محمد ﷺ، والتذكير دائما بيوم القيامة، لعل راجفا يخشى. وكما أن فيه أدب وشفقة النبي محمد ﷺ ؛ إذ لم يذكر عمه اسما بل ضميرا غائبا.

وضحضاح النار: ما بلغ الكعبين، من أبي طالب، أو غيره.

وإذا كان هذا ضحضاحها، فما شأن قاعها؟! وما شأن قمتها؟!

وهذا من بشاعة وصف النار. أعاذنا اللطيف الغفار القهار.

وفيه تأخير شفاعته ﷺ إلى يوم القيامة. شملنا الله بها.

وهذا رجاء نبينا محمد ﷺ، لا يتألى على ربه تعالى.

وإذا غلى الدماغ من ضحضاح! فما هو فعلها بما هو أعلاه؟ فالتنبيه بالأعلى ليشمله الأدنى.

وإذا غلى الدماغ! فما هو فعلها بما هو أقرب إليها ؟!

وربط الضمائر بيوم القيامة، ضرورة ترهيب، تؤتي ثمارها.

والسياق كله بضمائر الغائب؛ تعظيما للرب، وشفقة على العبد!

وهذا فعل الضحضاح في مركز الجهاز العصبي! فما ظنك بجنده؟!

والدماغ: عضو يعمل كمركز للجهاز العصبي.

قال الإمام الشافعي- رحمه الله تعالى-: ولم أسمع مخالفا في أن الكعبين اللذين ذكر الله عز وجل في الوضوء الكعبان الناتئان وهما مجمع مفصل الساق والقدم وأن عليهما الغسل كأنه يذهب فيهما إلى اغسلوا أرجلكم حتى تغسلوا الكعبين" [١]

والكعبان: هما العظم الناتئ فوق ظهر القدم .

وفيه حدود شفاعة الشفيع فلا يتعداها. وهذا فقه نبوي كريم.

وأقول: ومالي أرى عبادا يتأخرون عن شفاعة تمنحهم أجرا، وشفاعته ﷺ زيادة فضل من الله تعالى على عباده سبحانه. وفيه إثبات شفاعة غيره ﷺ. ويكأن السياق كله بضمائر الغائب، أدب وبلاغة نبي.

والجُعْل: ما يجعل للإنسان على عمل يعمله! قلب للمعنى عن كونه أجرا إلى كونه عذابا! وهو ما يجعل للإنسان على عمل يعمله! لكن الاندهاش لقائم! وحين كان ما عنده الله تعالى لايذهب هدرا، بل أجرا أجرا، وحين كانت وقفة أبي طالب هكذا، مع نبينا محمد ﷺ. وإذ كان من موجب ذلك جعله أقل الناس عذابا، وليس من أقلهم!

فيجعل: وهذا ما لم يسم فاعله. ولأنه من أدب نبينا ﷺ مع ربه تعالى.

وضحضاح من النار يختلف بلاغة عن ضحضاح من نار؛ لأن الأول دال على قياسات حجوم، وإن قلت من النار! وفضلا على أن التعريف وحده كاف للدلالة على الشمول والإحاطة! أما الثاني فدال على قلته حجما وقدرا!

---

(١) كتاب الأم، الإمام الشافعي: ج ٤٢/١

إن كون أبي طالب في ضحضاح من نار بلاغة نبوية؛ لأنه فرق عن ضحضاخ من نار لأن الأول دال على نار جهنم، أما الثاني نكرة قد ينصرف إلى غيرها!

وهذا مصير لقيه أبو طالب، رغم مواقفه الإيجابية، وغير القابلة للحصر، يجعل أحدنا يضع يديه كلتيهما على صدره خوفا ووجلا!

عن العباس بن عبدالمطلب أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار. (١)

المبحث الخامس: أينع الثمار في فضل الاستغفار

إن مطلعا على أحوال الناس، وما أحيطوا به من ابتلاءات الذنوب، وإن مستكشفا لما وقعوا فيه من أوحال الخطيئات، جراء ما أغرقوا فيه، شهوات وملذات ومن مهلكات، وما قد فتنوا به من مدلهمات، لموجب خوفا وخشية وجلا، وإنه لسبب وجل ورعدة، تستدعي بذل الطاقات واستنفاذها؛ للوقوف سدا منيعا خشية الإغراق.

وبسبب أن الله تعالى قد فتح علينا معاشر البشر أبواب الفأل الحسن، والرجاء الإيجابي، فيما عنده من مغفرة وتوبة، جراء ظلم العبد نفسه، حين قد ضعفت نفسه ساعة، أو حين قد أغوته شياطينه لحظة أو هنيهة، لتجده وسرعان ما يعود إلى حظيرة إيمانه، طاهرا مطهرا، من رجس ذنب، أو من ظلمات خطيئة، وذلك لأنه قد عرف أن له ربا غفورا رحيما سبحانه. وصدق الله تعالى حين قال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ

---

(١) صحيح البخاري: ٣٨٨٣

ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أقول إن من سببه أن فتحت لنا السماء أبواب الرجاء مشرعة؛ كيما يدخل منها مستغفر راج، وكيما يلج منها كل مستعتب متعلق برحمة ربه تعالى وغفرانه وتجاوزه.

وانظر وحيا شأنه أمرا رشيدا، وانظر حديثا رأيت نبأه عظيما، آخذا بلجام فرسك إلى آفاق المغفرة والتوبة والرضا والقبول؛ لتعلم عن ربك تعالى ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

وأقول: ثم انظر وأعد النظر؛ لتطمئن إلى أن لك ربا يغفر الذنوب جميعا، لأنه تعالى قال ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وأقول: ثم حلق النظر ثالثة إلى حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه "عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال: أذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك، قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة: اعمل ما شئت."(١)

---

(١) صحيح مسلم: ٢٧٥٨

ومنه فكان أمر الناس يومهم الآني أجدر أن يستغفروا؛ لأن فتنا تهيم كقطع الليل المظلم بأنواع الابتلاءات، التي يقشعر منها الولدان، وتلك التي يزداد منها شيبا، أولئك الشيوخ والشيبان! أو كأنها تموج كموج البحر هائجا عاتيا، فيغمر كل سادر فيه، وحاله أنه ليس يدري ما هو مآله؛ وليس يدري إلى أين رواحه، وليس يعلم إلى أي شاطيء يؤدي به إليه، أو إلى غرق محقق في عواصف بحر قاصفة، كتلك التي يراها.

وقد تنزل الذكر الحكيم، القرآن المبين، في قدر كبير منه، إطراء حسنا بشأن الاستغفار، وذلك مجردا عن أحد من أنبيائه تعالى أو رسله، عليهم الصلاة والسلام، وإنما نزل القرآن أيضا بلسان أنبيائه تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهم يستغفرون، أو به يأمرون، ويكان عبادا كان شانهم الاستغفار رجاء ما عند ربهم الرحيم الغفار، وهم إذ يستغفرونه آناء الليل وأطراف النهار، وكل ذلك دلالة على كرم ربهم الحق سبحانه، وأن الاستغفار ليس يمنعه أن تكون وليا، بل لأنه لازم من لوازم ولاية العبد لربه سبحانه، ويكأنه حين كان عبدا، وإنما أصبح ميمونا باستغفاره، وإنما صار ملازما له؛ إنابة لمولاه، واعترافا بفضله، والتماسا لمظان عفوه ورضاه وصلاحه وهداه! كما أنه قد وقعت أحداث دلت باستقلالها سببا من أسباب إماطة أذى، أو وقاية أو علاجا لعلة من مرض، أو محوا لنائبة من ذنب، أو كشفا لداعية من كرب، وما كل ذلك إلا فضلا منه تعالى ورحمة، أن جعل لعباده متنفسا للانعتاق من ذنوبهم، وأن أكرمهم بنوافذ خير للانخلاع من آثامهم، وأن حباهم سبحانه مخرجا لانخلاعهم من كرباتهم، وطهارة قلوبهم، وإن هو لبقول لا فعل! وشتان أن يغمرك الله تعالى بمغفرته، ولما قلت وحسبك قولا: أستغفر الله وأتوب إليه لسانا، ومقولا لاعمل مُكَبِّدَا جهدا، ولا فعل باذلا طاقة، أو مكلفا عناءً، بيد أن الإخلاص شرطه، وغير أن اليقين ركنه!

وإنما تكون توبة أحدنا واستغفاره، إلا من ظلم نفسه! أو من ظلم غيره، وظلم إنما يكون بارتكاب ما حرم الرب الرحيم، وتعدٍ على حدود الخالق البارئ العظيم.

وسبل الاستغفار عموما مستوحاة من شرعنا، أمرا من ربنا، أو خبرا عنه، أو ثناء على متصف أو قائم به، وكذا أمرا من رسولنا، أو خبرا عنه أيضا.

ومن أمره تعالى قوله ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم﴾ [المزمل: ٢٠]. وقوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [النصر: ٣]. وقوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ١٠٦].

ومن خبره تعالى قوله ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

ومن خبره وثنائه تعالى معا قوله سبحانه ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]. وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومن خبره تعالى عن أنبيائه عليهم السلام المستغفرين ثناء وإطراء، ولما عرفوا توفيقا من ربهم الحق أنه غفار، وأنه رحمن رحيم، ومن قوله تعالى ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]. وقوله تعالى ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ

لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٣-٤].

وانظر كيف كان تطلع نبي إلى مغفرة ربه تشوفا، وانظر كيف كان يقينه به استشرافا، ومن مقتضى ما علموه عن الله تعالى ربنا وربهم الحق سبحانه غفورا رحيما، وليس يعد ذلك افتئاتا، ولو من طرف خفي! ولأنه جاء تعليلا أدبا وخضوعا، ولأنه جاء تسبيبا تواضعا وخشوعا! قال الله تعالى ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

بل وكان الشأن في العباد أنه عظيم، وذلك حين كان ظنهم بربهم حسنا وثيقا، وأنه ولما كان استشرافهم لغفرانه واسعا عميقا، كما قال تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومن أمر رسولنا ﷺ حين قال "يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَومِ إِلَيْهِ مِئَةَ مَرَّةٍ"(١).

ومن خبره حين قال ﷺ خبرا قَسَمَا " والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة "(٢).

بيد أن مغفرته تعالى جاءت سابقة على استغفار عبده، ومجردة عنه، جودا منه تعالى وكرما، وذلك عليه قوله تعالى ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

---

(١) صحيح مسلم: ٢٧٠٢
(٢) صحيح البخاري: ٦٣٠٧

لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. وإنما لم يعلق مغفرته تعالى على استغفار عبده، فدل على سعة رحمته، وهو من مقتضى قوله سبحانه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ودل على عظيم رأفته، كما قال الله تعالى ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. وكما قال تعالى ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧]. وكما قال الله تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠].

وانظر كيف كانت رأفته من رحمته، أو إن رحمته من رأفته! هكذا باندماج، وهكذا بتركيب أظهر تفاعلا، يند وصفا، ويحال نعتا، ويكأنه ذو معاني مدرارة، ويكأنه كقطرات مطر هطالة جرارة، وإذ وكأنما كانت غيثاً مغيثاً مباركا هنيئاً مريئاً غدقاً مجللاً سحاً طبقاً عاجلاً غير رائثٍ أو بطئ نافعاً غير ضار! ويكأنه قد قابل أرضا أشرف على الهلاك نباتها، وإذ به كان حياتها، لتنبت بالزرع والثمار وصبغ للآكلين.

والحاصل أنه سبحانه ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، هكذا كما جاءت، لافتة أنظارنا وأنظار غيرنا، كما أنها بهذا السياق الحاني لآخذة بألبابنا وألباب غيرنا أيضا، ولم يتبق إلا شكر وحمد وثناء، أن لنا ربا هذا وصفه، وأن لنا خالقا بارئا هذا نعته - سبحانه -!

ولطيفة يوقف عليها؛ ذلك أن الله تعالى حين أمر عبدا باستغفاره، وإنما قد منحة جائزة استغفاره غفرانا، ثم منحه جائزة أخرى، هي رحمته تعالى بذلكم عبد، قد حط رحاله أمام عتبة باب ربه، مؤتمرا بأمره، ووقافا عند خطابه، حين قال تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]. فأنت

تستغفر، وهذه واحدة! وربك يغفر ويرحم، وهاتان اثنتان! فصارتا اثنتين بواحدة! لأن ربك كريم أيما كرم، غفور أيما مغفرة، رحيم أيما رحمة! و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة : ٤].

ولأنه قد تأكد لديك أنه كان من جميل الاستغفار هو أمر ربك به، ولما كان الأمر كذلك، فأطع أمره فيك، وما خيره إلا لك، وما فضله إلا عليك.

إن من جميل الاستغفار أنه محو للكبائر حين كان لها ملازما، وإن من حسنه تكفيرها حين التوبة والاستغفار منها بعد اقترافها، ولأنه روي " أن رجلا قال لابن عباس: كم الكبائر أسبع هي؟ قال: إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار "[١] ونعم شرحهما توبة من كبيرة مع الاستغفار؛ ولأن الاستغفار مجردا من توبة كَلَا ثوبٍ يرتديه عاص، ولا كتوكل يزعمه متواكل! ومنه كان تحول صغيرة إلى كبيرة بالإصرار أيضا! ولأن" كثرة المزاولات تعطى الملكات فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة في الغي والمعاصي"[٢] ومنه كان وجوب الحذر، ومرة أخرى لأن المُزاولات تعطي الملكات، استغفارا أو إصرارا، والقول " على ظاهره لا كبيرة مع الاستغفار: مع التوبة يعني، ولا صغيرة مع الإصرار، إذا أصرَّ ولم يتب صارت كبيرة، نسأل الله العافية "[٣].

وإن من جميل الاستغفار أنه ذكر، وليس ذكرا وحسب، بل إنه ذكر أفرد له ثلث الليل الأخير منه! وكان من أفرده بذلكم هو الرب

---

(١) تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن: ج٤/٤٤
(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية: ١/٢٨٤
(٣) موقع الإمام ابن باز على الشبكة المعلوماتية

الرحمن الرحيم سبحانه بنفسه الكريمة المقدسة، برهانا على عموم لطفه ورحمته ومغفرته، وكم كان هذا الدين حانيا أقصى ما يكون معنى للحنو! رحيما كأقصى رحمة يبلغ بها معنى القاموس ومرادفات الألفاظ! رؤوفا كأبعد ما كان لها من معنى ضاف إلى الخلود والسكون إلى لطف رب هو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما سبحانه!

ومنه ولما كان اختياره للناس من ربهم حين نزوله في الثلث الأخير من الليل. فاتخذه وساما. ودلك عليه قول رسول الله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم "ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني، فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟؟"[١].

ودونك معنى آخر، بل معانٍ يجازيك بها الله تعالى، غنما لك، وهاك فيضا من جوده تعالى، يمنحك ربك بها غناك أيضا، وأنت إذ تقف على نهر من جنانه، وإنما كان من سببها استغفارك كثيرا، آناء الليل وأطراف النهار، ودلك عليه قوله ﷺ " طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا" [٢] ويكأن سلعة غالية هي الجنة، قد منحتها بقولك يسيرا يسيرا: أستغفر الله وأتوب إليه! والموفق من وفقه مولاه، لاحرمنا الله تعالى التوفيق لاستغفاره محوا لذنوبنا، وحَتًّا لآثامنا.

لكنك بين خوف مانع، ورجاء دافع؛ لأن رسول الله ﷺ قال" من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة " [٣]

---

(١) صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ١١٤٥
(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٣٠٩٣
(٣) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٤٥٠

حين مات أبو طالب عم رسول الله محمد ﷺ مشركا، قال النبي ﷺ: لأستغفر لك مالم أُنهَ عنك! فكان جميل اختيار هو الاستغفار، ودل على أنه كان نظاما للنبي ﷺ؛ لنجعله نظاما لنا. ولأنه " لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله ﷺ: والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين} وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء}" [١].

وشاهده قوله ﷺ (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك).

ولم يكن الإثم طارئا، ولو مجرده على الأنبياء، إلا أنهم اتخذوا الاستغفار نظاما؛ تعلقا بالله تعالى، وانطراحا بين يديه سبحانه ربا غفورا رحيما حليما لطيفا!

وانظر كيف وفق الله تعالى نبيه نوحا عليه السلام، ليكتب لنا لوحة استغفار، خماسية الأبعاد، لا بعدا واحدا، خماسية الثمار، لا ثمرة واحدة أيضا! وعز على غيره حبكها، وند على سواه نظمها، فجاءت كما قال تماما! تقريرا منه تعالى بصحتها وبصوابها! فقال تعالى ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ – ١٢].

---

(١) صحيح البخاري: ٤٦٧٥

انظر! غفَّارا: صيغة مبالغةٍ! مبالغةً في مغفرته لك! هذا استدعاء للطفه وللحياء منه معا! ومنه اللفظ الجامع لفيوضات الخير والمنح والعطاء، حين علم عبد أن له ربا يستغفره، ليدر عليه قطرا مطرا، كان من وصفه أنه ﴿مِدْرَارًا﴾! هكذا بتكرار الراء لتصبح راءين! ولست تكاد تشعر بتكرارها سلاسةَ تعبيرٍ، ويكأنها ناسبت أن يكون هطول القطر تكرارا! وكذا (تكرارا) ألف المد! بل وجعلها خاتمة اللفظ مفتوحا ليمتد الهطول! وحين كان اللفظ بها ممتدا! وعلى امتداده يكون الهطول! ويكأنك قد لامست أقوله لك: إن السياق موح بألا ثمة انقطاع، كناية عن جوده تعالى ومنه وفضله باستمرارا! وهذا هو القرآن بنظمه، وهذا هو الفرقان ببيانه وبلاغه ونصه وحسنه وحبكه وجرسه! ولا نملك إلا أن نقف عند اللفظ بهذا الإخبات، الذي خيم على جو الآية، المفعم بعطاء الرحمن، ولما كان عبد قد استغفره، وظل على ذلكم استغفار، ويكأنه عاض عليه بنواجذه، ولما كان هذا فضله! وليس لنا أن نتعداه، ونحن إذ ننظر، ونحن إذ نرمق مطرا مدرارا؛ ولئن قيل: وما سببه؟! قيل: إن الناس قد استغفروا ربهم استغفارا! وها هو ربهم قد طمأنهم أنهم أن لهم ربا ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]!

والاستغفار سبيلك إلى محو خطاياك، أولا بأول، فحذار إهماله، فتتراكم عليك الواجبات، فلا تجد وقتا لتدارك حلها!

ولولا وجود الاستغفار منحة من الله لعباده، لقنط قوم، ولهلك آخرون! من رين المعاصي، ومن آثار الذنوب!

ولا ذنب اقترفه نبينا محمد ﷺ، حتى يقوم عن مجلس واحد، وقد استغفر ربه فيه مائة مرة! إنه مطلق التعلق، ومطلق التعظيم، ومطلق القدوة الحسنة!

والاستغفار كطائر له جناحان، جناح قلع المعصية من جذورها! وجناح طاقة إيجابية تأطرك على الإقلاع عنها أطراً! فجمعت بين فضلين يجمل أحدهما بالآخر! وكان من حاصلهما تحليقك في السماء مرفرفا عاليا خفاقا، بمجد الطاعة وحلاوة الإيمان!

والاستغفار يمنحك طاقة هائلة، لتقدير ربك حق قدره، لتجد إقلاعا عن الذنب، تاليا له، تجد أثر حلاوته في قلبك، فواظب عليه أبدا!

واتخذ الأنبياء الاستغفار نظاما، وأمرونا به، حصانة كاسحة مانعة من كيد شيطان، يتربص بنا الدوائر!

واتخذ الأنبياء الاستغفار نظاما، في رسم علاقتهم مع ربهم سبحانه، رغم أنه منحهم جواز الدخول الأبدي الخالد إلى الجنة! فما بالك بنا نحن؟!

وجاء ثناؤه تعالى على المستغفرين بالأسحار، كما قال الله تعالى ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]. كناية عن أنه نظام لهم. فلماذا يقضي قوم يومهم كله في مقارفة الآثام ثم يقولون: نستغفر الله؟!

ينزل ربنا ثلث الليل الآخِر؛ ليجيب من دعاه، وليعطي من سأله، وليغفر لمن استغفره. مقدمات صحيحة أفضت إلى نتائج صحيحة.

وانظر حديثا عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما "إن كُنَّا لنَعُدَّ لرسولِ الله ﷺ في المجلسِ يقولُ: ربِّ اغفر لي وتُبْ عليَّ إنك أنتَ التوابُ الغفورُ مائةَ مرةً"[١]

إن الاستغفار والتوبة يحسنان من مناعة المستغفر التائب! قال تعالى ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ

---

(١) مسند أحمد، الأرناؤوط: ٦/٣٢٨

مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

فجاء قوله تعالى ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ إثر الاستغفار والتوبة؛ دليلا على صحة إنهما يرفعان مناعة، ويسكبان صحة وعافية سببا!

إن مقارعة الرب بذنب جدير لمراجعة العبد نفسه، وإذ كيف جعل الله تعالى أهون الناظرين إليه؟!

جاء ثناؤه تعالى على المستغفرين بالأسحار؛ دليلا على شرف الزمان فاجعله نظاما لك؛ ولأنه وقت تنزل الرحمن سبحانه.

وأما عن صيغته فالأمر واسع ولله الحمد، لكنه "كان رسول الله ﷺ، إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام. قال الوليد: فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله."[1].

وشاهده قوله: أستغفر الله، أستغفر الله، دلالة على صيغة الاستغفار.

وأما عن أحواله، فعلى كل حال من أمرك استغفرت فكان حسنا، بيد أن تحرى الأوقات والأماكن الفاضلة أدعى وأوقع وأجمل وأفضل، وليست بخافية، وإنما خشيت الإطالة غير هذا، ولأن المقصود بيان أهميته ولزومه وفضله وثماره، والله الموفق لكل خير.

وخاتمة مطافنا أنَّا نقول "قال الله تبارك وتعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن

---

(١) صحيح مسلم: ٥٩١

آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة "[1].

المبحث السادس: موت خديجة رضي الله تعالى عنها

قال الله تعالى ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

واعتراض الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى أنها ليست في أبي طالب لضمير(هم)، لايمنع اندراجه أو غيره؛ ليكون من جملتهم فيدخل في(هم).

وحيث قيل: إنها نزلت في أبي طالب، حيث كان ينهى الناس عن أذية الرسول ﷺ، وينأى هو عما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق.[2].

وقال الله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. هذا عن قوم فرعون، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وليدخل في نظم الآية كل نظير.

وقال الله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. دلالة معرفة الحق مع جحوده بألا يلتزم.

إن الجامع بين روايتي الإمام البخاري (ضحضاح من نار) والإمام مسلم (نعلان من نار) هو تخفيف العذاب عن أبي طالب شفاعة منه

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٥٤٠

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ١٥٥

ﷺ. ومنه فلا منافاة بين رواية الإمام البخاري أن أبا طالب في ضحضاح من نار ورواية الإمام مسلم أنه منتعل بنعلين من نار، لاحتمال ورود الروايتين.

فعن العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: نعم، هو في ضحضاح من نار، لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار. [١].

وعن النعمان بن بشير: إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغل المرجل، ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا. [٢].

إن ذكر خبر موت هذا وهذه كل حين يجعلنا في تذكر لهذا الحدث الجلل كل حين من أمرنا، ولعله أن يوقظ فينا فزعا موجبا لإحسان ظن من بعد عمل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، استدل بها ابن كثير بعدم دخول أبي طالب في هكذا ذم؛ لأنه نصر الرسول صلى الله عليه وسلم! وقد دخل النار! فأي مذمة أعظم؟!

إن موت أبي طالب وخديجة رضي الله تعالى عنها، وكانا ذراعي الإمداد والتموين المعنوي والمادي لهذا النبي ﷺ، يجعلنا مطمئنين إلى أن إمدادا معنويا آخر، أو ماديا، ومن نوع آخر يلوح أفقه في الزمان الممتد.

إن موت أبي طالب وخديجة رضي الله تعالى عنها متقاربين زمنا، موجب لوحشة بشرية، سرعان ما يبدلها الله تعالى أنسا، وبأسباب أخرى

---

(١) صحيح البخاري: ٦٢٠٨
(٢) صحيح مسلم: ٢١٣

مغايرة، وإن تفاوتت قدرا فلا تجزع. وإنه ليجعلنا نتسلى بأقدار الله تعالى إيجابا نحو استمطار عطائه وفيض عونه وإن هلكت أسباب ليرزقن غيرها. ويكأنه يجعلنا مطمئنين أنه قصف جبهة، أُعَدَّ له الرسول إعدادا ربانيا فائقا؛ ليكون عند مستوى الحدث، وإن كُلِمَ. ويكأنه يجعلنا مطمئنين غاية الاطمئنان أن الجبهة الداخلية لفؤاد نبينا كانت مهيأة لذلك أعظم إعداد، وإنه ليعد ابتلاء لصبر كان النبي ﷺ إمام المتقين فيه؛ لأنه كان أبو طالب عما عز وجوده، ولأنها كانت خديجة زوجة عز نظيرها أيضا.

وإذ كان من لطفه تعالى موت كل من أبي طالب وخديجة رضي الله تعالى عنها، بعد خروجه ﷺ من الشعب؛ دلالة على رحمته تعالى بعبده؛ كيما لايجتمع عليه البلاء دفعة واحدة. وهو من ثم برهان على إكلائه تعالى لرسوله ﷺ ورعايته سبحانه له سببا مقدورا.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. هذا هو قدره تعالى المحتوم على كل حي. فليعش الحدث أبدا؛ لأن به نقلة نوعية نحو آفاق الخير والهدى والصلاح.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ هكذا بضمير الخطاب، القاصف آمالا، والمبدد أحلاما! ﴿وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ هكذا بضميري الجمع(هم) و(واو) الجماعة! ولأنه ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

وحين جاءت إرهاصات موت خديجة رضي الله تعالى عنها وحين: أتى جبريل النبي ﷺ فقال بشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.[1].

---

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ١٦١٢/٧

ورواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى دون ذكر الملك جبريل عليه السلام.

فعن عبد الله بن أبي أوفى: اعتمر رسول الله ﷺ، واعتمرنا معه، فلما دخل مكة طاف وطفنا معه، وأتى الصفا والمروة وأتيناها معه، وكنا نستره من أهل مكة أن يرميه أحد. فقال له صاحب لي: أكان دخل الكعبة؟ قال: لا. قال: فحدثنا ما قال لخديجة؟ قال: بشروا خديجة ببيت من الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب. (١)

إن بشارة الملك جبريل عليه السلام لخديجة رضي الله تعالى عنها ببيت من قصب؛ تقريرا واهتماما لسبق زوجة في عون زوجها، حقا له، وواجبا عليها؛ لتظفر بسبقي الدنيا وفاء، والآخرة هناء. وهذا تقرير واهتمام بزوجة لاترفع صوتها، ولا يصخب منها بيتها! وإذ يكفي من الحديث أنه بشارة، كان لأحدنا بها الدنيا وما فيها، ولو كانت له!

ولكن هذا البيت من الجنة، لا يجعلنا نتخيل أن غير بيتها فيه صخب! لأن الصخب لا يُشتَهَى، والحال أن الجنة من وصفها قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

المبحث السابع: مسألة المفاضلة بين خديجة وعائشة رضي الله تعالى عنهما

عن عائشة أم المؤمنين: ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم

---

(١) صحيح البخاري: ١٧٩١

يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد. [١].

وإنما كانت هذه هي خديجة ولسبقها؛ فلتسبق إحداهن، وكذا ولعدم صخبها؛ فلا تصخب إحداهن.

إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد. وهذا كناية عن عظم فضلها رضي الله تعالى عنها، وكما أن ذلك وبتكرار عائشة للقول، فإنه يعد كناية عن شدة غيرتها الجبلية! ولا يلام عبد عن جبلته، وحيثما كانت في نطاقها، ولما لم تخرج عن آدابها. لكنها لم تذكرها بسوء! وهذه تربية مدرسة النبي ﷺ!

وهو كناية عن فضل الولد، وحين يكون صالحا بارا.

ونحن نسلم، ونوقن، بما يحمله ظاهر نص قوله ﷺ، وما قال علي بن أبي طالب: سمعت النبي ﷺ يقول: خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة. [٢] أي: خير زمانهما. ومنه فإنه وإذ كان هذا من فضل خديجة وإلا أننا نغبط عائشة وغيرها ممن هن من أمهات المؤمنين أيضا، ونريد أن نربأ عن أمر المفاضلة بينهما، ولعدم وجود نص صريح في ذلك، وليس يوجد!

وأما الحديث الذي نصه: حديث: خذوا شطر دينكم عن الحميراء، قال شيخنا في تخريج ابن الحاجب من إملائه: لا أعرف له إسنادا، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث إلا في النهاية لابن الأثير ذكره في مادة ح م ر. [٣].

---

(١) صحيح البخاري: ٣٨١٨
(٢) المرجع السابق: ٣٤٣٢
(٣) كتاب المقاصد الحسنة، السخاوي، شمس الدين: ٣٢١/١

إن الطرق كثيرا بمطرقة المفاضلة بين أمَّي المؤمنين سيخرج جيلا متصيدا، مما سيؤثر على نسيج أصل تعدد الزوجات.

إن استنباطات من أقواله ﷺ يبين منها لأصحابها مفاضلة بين أمَّي المؤمنين خديجة وعائشة لا ينتهض، لأنه زكى كلا منهما، حقا، وثناء، وفضلا، لكل منهما أيضا!

إن النبي ﷺ لم يخرج منه لفظ واحد، يبين مفاضلة بين خديجة وعائشة؛ لأنه رسول يعرف كيف يدير أمة، بل عالما بأكمله! فما بالك بإدارة أسرة؟!

ينبغي ألا يخرجنا الخلاف حول المفاضلة بين خديجة وعائشة عن أنهما من أمهات المؤمنين، وأن كل واحدة منهما قدمت للدعوة ما عز أن يتكرر.

عن عائشة أم المؤمنين كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها، فأحسن الثناء، قالت: فغرت يوما، فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله عز وجل بها خيرا منها، قال: ما أبدلني الله عز وجل خيرا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء. (١)

وإنه لينبغي الوقوف كثيرا أمام هذا؛ لأنها بحق كانت مثالا عز، ولأنها بصدق كانت قدوة ندرت!

وهذا جواب نبوي تعجز عن مثله مدارس التنمية البشرية، والعلاقات الأسرية؛ لأنه لم يقل: هي خير منك يا عائش! ولأنه إفحام سلبي! فكان أولى تقدمة!

---

(١) صحيح البخاري: ٣٨٢١

إنه لا عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين قالت كذبا أبدا؛ لأنهن خريجات مدرسة محمد ﷺ! ولأنه يمكن حمل قول عائشة: أبدلك الله خيرا منها، وعلى أنها كانت صغيرة وبكرا، وهذا لا كذب فيه؛ ولأنه حق، ولأن قولها هذا ليس يحمل على أنه من باب المفاضلة.

إن استنباط المفاضلة من غيرة عائشة ليس في محله؛ لأن الغيرة أمر فطري جبلّي، ومتسامح فيه، وهذا من سعة ديننا، ومراعاته لدواعي الفطرة!

إنه لا ينبغي الطرق كثيرا بمطرقة المفاضلة بين أمَّي المؤمنين خديجة وعائشة؛ لأن عائشة هي التي روت حديث بدء الوحي؛ وهو إطراء على خديجة!

وعن أبي موسى الأشعري: كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. [1]. زَكَّى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كلا، ولم يفضل!

لم يكن لعائشة أن يفهم عنها تزكية لنفسها، لأنها بذلك تكون قد خرجت عن نهي قال الله فيه ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]. وحاشاها.

كانت عائشة أعرف بقوله تعالى ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ ولذا؛ ينبغي ألا يفهم أنها كانت تفضل نفسها على غيرها، لأن الأصل أن بيت النبوة وقاف عند النص.

إن التفاضل بين الناس أمر حق؛ لأنه تعالى قال ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا

---

(١) صحيح البخاري: ٣٤١١

آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. لكن الطرق على وتره في باب الزيجات يحتاج إلى تأمل وحكمة وبصيرة!

أبلت خديجة بلاء حسنا مع نبينا ﷺ، وكانت عائشة له سندا وظهرا. وهذا باب واسع، يحسن تدريسه للأجيال، جيلا من بعد جيل آخر!

إن ذكر عائشة أن الله تعالى زَوَّجَهَا نبيه محمدا ﷺ من فوق سبع سماوات يدخل في دائرة الغيرة المسموح بها فطرة وشرعا، ولا ينبغي الزيادة على ذلك قيد أنملة.

عن عبد الله بن أبي أوفى: اعتمر رسول الله ﷺ، واعتمرنا معه، فلما دخل مكة طاف وطفنا معه، وأتى الصفا والمروة وأتيناها معه، وكنا نستره من أهل مكة أن يرميه أحد. فقال له صاحب لي: أكان دخل الكعبة؟ قال: لا. قال: فحدثنا ما قال لخديجة؟ قال: بشروا خديجة ببيت من الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب. [(١)].

سلَّم الله تعالى على خديجة، وبشرها ببيت في الجنة، وزوج الله نبينا ﷺ من عائشة من فوق سبع سماوات. وهذا جمع حسن! فلماذا نحشر أنفسنا في دائرة المفاضلة؟!

وقفت خديجة مع نبينا ﷺ في أول عهده بالدعوة، وما لاقى، ووقفت عائشة في خضم معاركه وغزواته ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

كثيرا ما يقف أحدنا حائرا أمام مائدة طعامه، بأيٍّ يبدأ أشهى طعاما؛ لأنه كله أشهى طعاما، ومنه مسألة المفاضلة. يعوزنا دراستها أسوة حسنة!

---

(١) المرجع السابق: ١٧٩١

إن دليل كمال خديجة وأسية ومريم لا ينتهض أمامه قول بتفضيل عائشة عليها، وإلا كان لعبا بالألفاظ، برئ منه نبينا صلى الله عليه وسلم؛ لأنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣].

ولعل اشتراكا بين آسية ومريم وخديجة في أن كلا منهن كفلت نبيا مرسلا، وأحسنت الصحبة في كفالتها وصدقته. فآسية: ربت نبي الله موسى عليه السلام، وأحسنت إليه وصدقته حين بعث. ومريم: كفلت ولدها نبي الله عيسى عليه السلام أتم كفالة وأعظمها وصدقته حين أرسل. وخديجة: رغبت في تزويج رسول الله ﷺ بها، وبذلت في ذلك أموالها كما تقدم وصدقته حين نزل عليه الوحي من الله عز وجل.

ويحمل قوله: " وفضل عائشة على النساء " أن يكون محفوظا فيعم النساء المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عاما فيما عداهن ويبقى الكلام فيها وفيهن موقوفا يحتمل التسوية بينهن، فيحتاج من رجح واحدة منهن على غيرها إلى دليل من خارج. والله أعلم. [١].

إنه ينبغي توجيه قوله ﷺ: وفضل عائشة على النساء، على أنه في باب وقته، فكلا قدم في وقته ما عز إلا في أمثال أولاء الجبال الرواسي خديجة وأسية ومريم!

جاء قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]. في معرض الذم، وكانت عائشة به أعلم من علم أحدنا علما لا يكاد يعدل مسمارا في باب علمها!

إنه ينبغي الوقوف طويلا أمام جهاد أمهات المؤمنين في مراحل الدعوة المختلفة؛ لإظهار القدوة الحسنة أمام نساء يعوزهن المثال الجميل عطاء وبذلا.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ٣/١٦٠

إن المفاضلة بين عائشة وخديجة باب يحسن عدم ولوجه؛ لأنه مظنة دخول فيما لا طائل تحته، ولا فائدة من غرسه.

إنه قد روت عائشة بصدر سليم أن الله تعالى بشر خديجة ببيت في الجنة على وصفه! وهذا هو التوجيه السليم لبنات بيت النبوة، وقول بغيره لا ينتهض!

وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام: الثريد وجبة غذائية صحية متكاملة سهلة الهضم. والثريد صحة لأنه يعالج السمنة جراء احتوائه على نسبة عالية من الماء فيشعر بالشبع

إنه لا ينبغي ألا تخرجنا المفاضلة عن جمال مائدة الثريد كلحم وخبز يصح البدن كثيرا!

إن الإقرار والاعتراف بأن الثريد على يومهم كان فاضلا، لكنه لا يخرجنا عن بقاء الإعجاز أبدا.

وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام: وهذا تشويق؛ لأنك منتظر وصفا بالغا، ثم تهدئة لأنك عرفت أنه ثريد! لا نبالغ كثيرا! وهذا كناية عن الرضا والتواضع لنبينا ﷺ؛ فإن الناس تفننوا، وإن الناس تبدَّعوا!

وذكر الثريد؛ هذا غاية التشبيه، فلا يحلق أحدنا كثيرا في الخيال وصفا وتشبيها!

وإنما أثنى نبينا ﷺ على الثريد، لكنه هو نفسه الذي كان يمر على بيته الهلال والهلالان، ولا يوقد فيه نار! وكان طعامهما الأسودان، التمر والماء!

عن عائشة قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال: اللهم هالة بنت خويلد فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرا منها. [1].

واستدلال أنها أفضل؛ دلالة سكوت النبي ﷺ لا ينتهض. دلالة أنه حلم منه، خاصة إذا روينا حديث الإمام أحمد رحمه الله تعالى "عن عائشة قالت: ذكر رسول الله ﷺ يوما خديجة، فأطنب في الثناء عليها، فأدركني ما يدرك النساء من الغيرة، فقلت: لقد أعقبك الله يا رسول الله من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين. قالت: فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرا لم أره تغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحي، أو عند المخيلة، حتى يعلم: رحمة، أو عذاب؟ [2]. وذلك لأنه دل على تمعر، كناية عن غير رضا منها مما قالت رضي الله تعالى عنهن.

ومرة أخرى: بشر الله تعالى خديجة ببيت في الجنة، وبرأ عائشة من فوق سبع سماوات، وزوج زينب من فوق سبع سماوات أيضا؛ مما يصعب معه الولوج في مسألة المفاضلة.

وخاتمة مسألتنا هذه: إنه ليس ينبغي محاكاة الناس كثيرا في هذه المسألة، ولأنه ولربما أفضى إلى الخروج بها عن سياقها، وحين اتخذها قوم آخرون مطية للطعن في عائشة؛ وبرهان ما رأوه تفضيلا لخديجة عليها، وهذا باب شائك حسن فقهه.

---

(١) صحيح مسلم: ٢٤٣٧

(٢) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ٢٥٢١٠، خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح على شرط مسلم

المبحث الثامن: زواجه ﷺ من عائشة

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ قال لها: «أريتك في المنام، مرتين أرى أنك في سرقة من حرير ويقول هذه امرأتك، فأكشف عنها فإذا هي أنت، فأقول إن كان هذا من عند الله يمضه». [١].

وقال ابن عباس لعائشة: لم ينكح النبي ﷺ بكرا غيرك. [٢]

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها قالت: قلت: يا رسول الله أرأيت لو نزلت واديا وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجرة لم يؤكل منها في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «في التي لم يرتع منها». [٣] تعني أن النبي ﷺ لم يتزوج بكرا غيرها.

وعن عروة بن الزبير: أن رسول الله ﷺ خطب عائشة إلى أبي بكر، فقال له أبو بكر: إنما أنا أخوك. فقال: «أنت أخي في دين الله وكتابه وهي لي حلال». [٤]. وعن عروة بن الزبير: توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين، فلبث سنتين أو قريبا من ذلك، ونكح عائشة وهي بنت ست سنين، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين. [٥].

وكان بناؤه بها عليه السلام في شوال من السنة الأولى من الهجرة، أو الثانية.

وعن عائشة أم المؤمنين قالت: تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمرق

---

(١) صحيح البخاري: ٤٧٩٠
(٢) صحيح البخاري باب: نكاح الأبكار
(٣) المرجع السابق: ٤٧٨٩
(٤) المرجع السابق: ٥٠٨١
(٥) المرجع السابق: ٣٨٩٦

شعري، فوفى جميمة، فأتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة، ومعي صواحب لي، فصرخت بي، فأتيتها لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين. [١].

ومن جملة هذه الأحاديث الصحيحة السالفة يتبين أمور، منها:

الأمر الأول: هو جواز العقد على المرأة وهي ابنة ست سنين من عمرها.

الأمر الثاني: دخول النبي بعائشة، وهي في سن التاسعة، وهذا عمر بنات البيئة، والبيئة هنا هي الضابطة في تحديد السن الشرعية لجواز الدخول، وحين صلاحية المرأة لذلك. والأمر بهكذا بساطة هو ذاك، والنعي أو التجني عليه ﷺ ليس من محله، ولا سيما أننا أمام ولي المؤمنين أجمعين، وهو ذلكم النبي ﷺ، وما كان ليفعل شيئا، وإلا كان صالحا، وهذا هو أبو بكر والدها، وولي أمرها، وقد رأى ذلك، ومنه فإن الاصطياد في هذا الماء العكر ليس يكاد يمسك سمكا!

الأمر الثالث: أنه ﷺ لم يتزوج بكرا غيرها.

الأمر الرابع: هو مشروعية تجهيز المرأة وتجميلها لزوجها.

الأمر الخامس: عظم شأن الأخوة في الله، وما أعظم أسلوبا عبر به البيان النبوي عن هذه الأخوة، وحين جاءت بلفظ الإسناد إلى ياء

---

(١) المرجع السابق: ٣٨٩٤

المتكلم، وكذا إسنادها إلى ضمير الخطاب معا، مما أضفى على الكلام حسنه وصدقه وحنوه وإلفه وجماله ونبله!

المبحث التاسع: إيذاء قريش للنبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب

وإذ قيض الله تعالى أبا طالب عونا لنبيه ﷺ، ورِدْءًا، وحافظا، وصادا أذى قريش.

وفيه برهان العناية الربانية لدعاة الحق، وأن يسخر الله تعالى لهم من يكون سببا في الذب عنهم، ودفع الأذى عنهم أبدا.

فعن هشام بن عروة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: "ما زالت قريش كاعَّةً حتى مات أبو طالب". (١) يريد أنه كان يحوط رسول الله ويذب عنه فكانت قريش تكيع وتجبن عن أذاه يقال كع الرجل عن الأمر إذا جبن وانقبض (٢)

وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محد، فقال ذلك فيما شئت،

---

(١) البداية والنهاية؛ ابن كثير: ٣ / ١٦٥
(٢) كتاب غريب الحديث للخطابي: ١٢٩/١

إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا. [١].

والأخشبان: هما الجبلان المحيطان بمكة. والأخشبان: جبلان يضافان تارة إلى مكة، وتارة إلى منى، وهما واحد، أحدهما: أبو قبيس، والآخر قعيقعان. [٢] والأَخْشَبُ من الجبال: الجبل الخشن العظيم الغليظ. [٣].

وفيه توزيع الأعمال والمهام، وكل حسب مواهبه وقدراته، وما أعده الله تعالى له وهيأه به. وإطباق الجبال من أعمال الملائكة؛ لأنها شداد فيصلحها الشداد. وهذا تعبير يشي بالاستعداد للقيام على القوم فعلا فيهم وأخذا. وهذه قوة الملائكة؛ لأنهم ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وهذه مشاهد تنبئ عن قدرة الله تعالى الباهرة، وعن إعجاز قوته القاهرة، ويكأنها، وإذ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨].

إنه حين عرض ملك الجبال أن يطبق عليهم الجبلين، قال صلى الله عليه وسلم: أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا. وهذا جيل كامل ينتظر أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا! وهكذا بعد نظر المصلحين، وصبرهم، وجلدهم، وعدم استعجالهم. وكما أن فيه استشراف الخير؛ لأنه قادم!

وهذا خلق نبوي حميدا! وهذا عفو نبي، وحلمه، وبعد نظره معا! وذلكم رغم ما أحاطه الناس من كيد، ولكن هذه الهموم ليست تصرفه، ولا توقفه، ولا تعوقه، وعن أن يكون على خلق وكما قد نعته ربه تعالى

---

(١) صحيح البخاري: ٣٢٣١
(٢) معجم البلدان، الحموي: ج ١ / ١٢٢
(٣) تاج العروس، الزبيدي: ج ١ / ٤٦١

فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. ومنه فلا يجعل عبد احتدام كربه مبررا لانتقامه!

المبحث العاشر: خبر عداس

علم نبوة ضاف!

ولكن هذا النبي ﷺ وكما أنف يقيض الله تعالى له أبدا، وكذا دعاة الحق أيضا، من يعينهم، ويكون سببا لرعايتهم، ولكن هذا وحيث كان من حدود التنفيس، لا الاتباع، ولربما كان محسوبا بقدر أيضا! وحين: رأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة ما لقي هذا النبي محمد ﷺ من قومه! فتحركت له رحمهما، فدعوا له غلاما لهما نصرانيا، يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب، وضعه في ذلك الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به، حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: بسم الله، ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة! قال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ قال أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى! قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟! قال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبيا، وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه ورجليه، قال يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك! فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟! قال يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل! لقد خبرني

بأمر لا يعلمه إلا نبي! فقالا ويحك يا عداس! لا يصرفنك عن دينك! فإن دينك خير من دينه. [1].

ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه: هذا شأن كل ناكص، لاحجة ولابرهان، بل لايجيد إلا كيدا! وليس بمغن عن الحق شيئا.

إن قول عداس: أن خبر يونس لايعرفه إلا نبي، يبقى حجة لصالح هذا الدين، ما بقيت السماوات والأرض!

إن إخبار نبينا ﷺ عداسا عن النبي يونس عليه السلام علم نبوة يتكرر كل حين لزومه؛ تأييدا من السماء. لكنك تذهل من صد قوم قد انبلج الحق أمامهم كفلق الصبح!

إن تقبيل عداس لنبينا ﷺ خلق ذو أثر ناهض؛ أن نعزره ونوقره ﷺ، على الأقل كعداس النصراني!

وإنما يكون توقيره ﷺ باتباعه شرعا، وبتصديقه خبرا، وبطاعته أمرا، عملا ونهيا زجرا.

إن شهادة عداس لصالح هذا النبي ﷺ حجة على النصارى أنفسهم أيضا؛ لأنه كان نصرانيا، وقد رأى من آيات ربه الكبرى!

إنه يبلغ ضعيف من الحجة والبرهان لصالح هذا الدين ما لم يبلغه قوي؛ لأن شهادة عداس يعتز بها، وكان مولى.

إن قول ابني ربيعة: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه. هذه نظرة الازدراء! وهي عامل القوم المشترك طول الزمان، وعموم المكان! وتسلية للدعاة على مر الزمان والمكان أيضا!

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٨١

وإنهم وإن علموا فكان جحودا وتكذيبا، وإن جهلوا فلا محل له من الإعراب! لأن نبينا أقام حجته، وبلغ رسالته.

وإن هذا قول يتردد كثيرا، وفي أزمنة وأماكن متباعدة، وكأن القوم مطبقون على سد آذانهم! وكأنهم سند متصل!

وإنه ليصاب عالم الناس بما هو كفيل أن يعيد النظر مليا في حاله مع الخالق البارئ المصور.

المبحث الحادي عشر: موقف أهل الطائف وأثر قراءة القرآن الكريم في المدعو!

إن ما لقيه نبينا ﷺ من أهل الطائف، وإذ هو لا يريد بهم إلا خيرا، منهاج تسلية، وإيناس لكل داع إلى الحق، عزيمة وصبرا واحتسابا.

قرأ نبينا ﷺ القرآن الكريم، عدة مرات، حين دعوته؛ لعلمه أن القرآن الكريم محدث أثرا زلزاليا في المستمع، وخاصة إذا كان من أهل العربية.

إن قراءة نبينا ﷺ سورة الطارق على أهل الطائف كاف دليلا على أهمية قراءة القرآن في الدعوة؛ لأنه ذو أثر فاعل فيمن فهمه، وفيمن جهله إعجازا!

حين قرأ نبينا قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. وإذ قالوا: حسبك! لأنهم يعرفون التاريخ جيدا! ومنه فإن تكلفة الإعراض عن الحق باهظة لايطيقها أحد!

إنه سيبقى استماع الجن للقرآن علامة فارقة على ما لهذا الكتاب من أثر بالغ على متلقيه حين كان قصده الاهتداء به لا تفتيشا على جدل عقيم فيه.

نزل قوله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. لبيان أن هذا هو موقف الجن مع القرآن استماعا بكليتهم، لا سمعا بآذانهم وانقضى الأمر!

نزل قوله ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، حين مرجعه ﷺ من الطائف؛ تسلية أخرى على معالم الطريق؛ لأن الله لم يكن ليذر عاملا له وحده!

إن صبره ﷺ على أذى أهل الطائف يجعل أحدنا وجلا؛ لأن عداء الحق على ساق، وهو ذو فراش وثير، ووسادة ناعمة!

إن صبره ﷺ على أذى أهل الطائف ليس مجرد تسلية وحسب، وإنما هو تعريف بواجب الدعاة، ألا يتخذوا وسائد الراحة والاستجمام. اجعل لنفسك تاريخا.

إن مجابهة نبينا ﷺ للقوم في سوق عكاظ دليل تبحره، وعلمه بشبهات، يمكن ورودها، وتضلعه بعلم الرد عليها بجرة قلم واحدة!

إن واجب الدعاة أن يتسلحوا بسلاح علمهم، ولأنه أشد مضاء من رصاصات القوم، وحين يبلغون عن ربهم بدرئهم الشبهات، ودفعهم الأباطيل والشهوات!

إن مواجهة الأدباء والشعراء في سوق عكاظ دليل وجوب أن يكون الداعية على مستوى الحدث تضلعا فيما نبغت فيه الأقوام؛ حتى لايحرج دينه!

كان نبينا ﷺ يطلع على القوم داعية خير وهدى على اختلافهم طبقات وأفرادا، ومنه سوق المجاز؛ تنويعا للدعوة، وعدم قصرها على فئة دون أخرى.

إنه حين التخلي عن رواسب النفس، سوف يعمل القرآن في القوم ما عمله في الجن: اهتداء به، وسيرا على صراطه المستقيم.

إنه ستبقى شهادة الجن على أن هذا القرآن يهدي إلى الرشد حجة على كل مبتغ خيرا فيما عداه.

إنه ستبقى شهادة الجن على أن هذا القرآن يهدي إلى الرشد حجة على كل غير مبتغ رشدا أبدا!

المبحث الثاني عشر: أصل مادة القول

إن مادة القول شاملة لقول اللسان، وكما أنها عامة في الفعال؛ ولأن القول إلزام بمقتضى ما تتلسن به الأفواه. وعليه فإن قول الشهادتين هو إلزام لمقتضاهما ولوازمهما معا.

قال عمر بن عبد العزيز: العروس تحتفل، وتقتال وتكتحل، وكل شيء تفتعل، غير أن لا تعصي الرجل. تقتال: تحتكم على زوجها. [١]

وشاهده قوله: تقتال، ولما كان من معناها هذا الاحتكام المفضي إلى القضاء.

---

(١) لسان العرب: ج ١١ / ٥٧٦

وفي الحديث: سبحان من تعطف العز، وقال به، وأصله من القيل ينفذ قوله فيما يريد.[1].

وقال ابن الأثير: الأقوال جمع قيل، وهو الملك النافذ القول والأمر. ومنه اشتمال القول لتنفيذ موجبه وهو أمره.

ومنه فإن قول (لا إله إلا الله) لا يقتصر على قول اللسان وحسب؛ لأن القول لغة هو قول اللسان والتزام بمقتضاه.

إن اكتفاء نبينا ﷺ بقوله: (قولوا لا إله إلا الله) دليل عدم الانجرار لبحث قضايا فرعية، فلا تضع وقتك فيها.

إن العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، وتطلقه على غير الكلام واللسان، فتقول قال بيده أي أخذ.[2]. هذا أصل قال!

إن اختصاص أمة الإسلام بالقرآن لهو تاج عزها، ومناط قوتها ووسام نهضتها وشعار أنفتها وعلو قامتها وارتفاع هامتها رفرافة أبية قانتة.

سوف يظل القرآن العظيم حصننا المنيع درءا لمفاسدنا، وجلبا لمصالحنا، حين نعود إليه، عزا وفخرا، أن حبانا به الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه.

إن اهتداء قوم كُثر حين سماعهم القرآن العظيم موجب لأن نعود إليه استمساكا؛ لأننا به نملك نواصي الخير كلها، ونذود به أرجاء الشر أجمعها!

---

(١) ابن الأثير، لسان العرب: ج ١١ / ٥٧٦
(٢) لسان العرب: ج ٥٧٧/١١

المبحث الثالث عشر: خبر سويد بن صامت الأنصاري

إن اهتداء سويد بن صامت الأنصاري؛ ولأنه سمع القرآن العظيم، دليل فارق عظيم بين قوم وقوم؛ لأن نبينا ﷺ جهر به، وأعلن، وأسر، وأخفى لقريش!!!

قرأ نبينا ﷺ القرآن على سويد بن صامت الأنصاري، فرق وأسلم. وبه فإن هذا القرآن هدى؛ لأن الله قال ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

في حلول الشهادة بسويد بن صامت الأنصاري، ولما لم يفعل خيرا قط، إلا أن خيرا آخر كان قد حازه بإسلامه وبشهادته معا، فنال الحسنيين: الإسلام والشهادة ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨].

وإنه ما لبث سويد بن صامت الأنصاري أن أسلم، حتى قتله الخزرج! ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

أخبر نبينا ﷺ سويدا بن صامت الأنصاري أن القرآن أفضل من حكمة لقمان؛ لأن الله قال ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال سويد بن صامت الأنصاري: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له نبينا: وما الذي معك؟ قال: حكمة لقمان. [١]. إن رصيدك من الحكمة زادك إلى الخير فتزود بها أبدا!

إن في استشهاد سويد بن صامت الأنصاري، ولما لم يفعل خيرا قط، دليل على عظم الإخلاص، حين يكون قائدا لصاحبه، فيأخذ بخطامه إلى منابع الخير وبواعث الهدى!

إن القرآن العظيم مجد أمتنا، ومجد كل من عمل تحت رايته، حتى ولو كان لايدين بالإسلام! لأن القرآن يحفظ حقوقا كانت مندرسة، ولأنه يعز أمما كانت أذلة!

سوف يقف التاريخ طويلا أمام سيرة قوم أسلموا، ولما سمعوا القرآن؛ ليقول التاريخ: ما الذي حواه هذا الكتاب؛ ليكون فعله في القلوب هكذا سائقا إلى الخير ودليلا؟!

إن الموت مصيرٌ حقٌ لكل حي! وموتة في سبيله تعالى ذخر لمن خصه الله تعالى بها، فليحرص عليها أحدنا فيمت عليه، ولو كان على فراشه! والفارق النية!

المبحث الرابع عشر: خبر إياس بن معاذ

روى ابن إسحاق بسند جيد عن محمود بن لبيد قال: لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع [مكة] - فيما ذكره ابن إسحاق، وبشر فيما ذكره الزبير بن بكار - في فتية من قومه بني عبد الأشهل يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم جلس

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ١٨٠

إليهم فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟). فقالوا له: وما ذاك؟ قال، (أنا رسول الله بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وأنزل علي الكتاب)، ثم ذكر لهم الاسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلاما حدثا: (أي قوم هذا والله خير مما جئتم له). فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة. وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومي عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلما، لقد كان استشعر الاسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع. [١].

حين سمع إياس بن معاذ القرآن - وكان غلاما حدثا - قال: يا قوم هذا والله خير مما جئتم له. وهذا قول غلام! إيقاظا لهمم، واستدعاءً لقمم!

لم يزل إياس بن معاذ يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات! كناية عن عظيم فرحه بإسلامه! ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وكما أنه حجة بالغة!

إن غلمانا كُثُر كان لهم تاريخ ناصع بياضه، ولما دخل الإيمان في قلوبهم كإياس بن معاذ، وحين عبر عن إسلامه تكبيرا وتحميدا وتهليلا!

---

(١) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٣ / ١٨٩

المبحث الخامس عشر: يوم بعاث

وموجز يوم بعاث هذا أنه كان بمثابة حرب أهلية طاحنة بين الأوس والخزرج، وإذ كان يعاون كل فريق معاونيه من اليهود وغيرهم.

وإلا أن هذه الحرب كانت مقدمة لمجيء نبينا محمد ﷺ إلى المدينة، وحين أرهقتهم الحروب، وإذ كانوا منه بحاجة إلى من يلملم عليهم أوراق السلم، وحتى وإن تعاهدوا من قبل هجرته على وضع الحروب بينهم، وإلا أن تاريخ هذه البقعة من الحرب كان هو نشوب الحرب بينهم ما بين الفينة والأخرى.

ولكن يوم بعاث هذا وإذ كان دلالة على اختيار رباني كريم؛ ولأن القوم وبهذه المثابة يكون لديهم الاستعداد للتلقي عن النبي الجديد، وإذ يمكن لهم منه أن يحل بينهم سلام قد أفل يومه عنهم.

وهذه إذًا من بركات السماء على هذا النبي ﷺ، وإذ كان يمثل هذا أيضا أرضية صلبة لأن يجد فصائل الناس من يثرب وإذ ها هي متلهفة لإقرار السلام، وبحلول يوم يحل عليهم فيه هذا النبي ﷺ.

وهذا أيضا يعد من المقادير الربانية الحكيمة، وإذ عد الجانب الاجتماعي هذا عاملا من عوامل استتباب الدعوة الجديدة، وحين لاقت أرضية خصبة للصلح والسلم والموادعة، وهو ما يمثل فتحا ضافيا آخر قام به هذا النبي محمد ﷺ.

وإذ كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ﷺ؛ لأنه قدم إلى المدينة، وقد افترق ملاؤهم، وقتل سراتهم. وإذ كان به إخلاء المدينة من رجسها، وتطهيرها من دنسها!

وإنه سيظل يوم بعاث دليل إمهاله تعالى لقوم، حتى إذا أبوا أخذهم الله تعالى ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢].

سيظل يوم بعاث دليل رهبة، وموجب رعدة من فعل الله تعالى بقوم وقفوا حجر عثرة في طريق الحق والهدى والصلاح والتقوى.

في يوم بعاث آية! ذلك لأنها كانت ولاتزال برهانا نابضا أن الله تعالى يمهد أرضا خصبة لدينه، بإماطة أذى الطريق عنها، فاطمئن كثيرا كثيرا!

في يوم بعاث حكمة بالغة! فقد أتى الله عليهم؛ لعلمه بمدى عداء مستحكم، ربما كانوا يبيتونه لرسوله ﷺ!

يتباين أخذه تعالى، حسب تباين القوم في ذنوبهم، فمرة يهلك الظالمين وحسب، وأخرى يدمرهم وقريتهم معا! ولطفه تعالى بنا أبدا أبدا.

حين يعلم الله تعالى من أحدنا إخلاصا، لسوف يزيل أشواكا عالقة في طريق دعوته كيوم بعاث! فليوطن داعية الحق قلبه، وليرع سمعه!

إن إمهاله تعالى لأحدنا فسحة ومنة، ألا فليغتنمها، رجوعا، وأوبة، وتوبة، قبل فوات قطارها، ولما لم يلحق به! فيعض أنامل الحسرة والندم!

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣]

الفصل الخامس: فصل جديد وعهد مجيد!

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الأنصار يقبلون الدعوة!

كان قبول الأنصار لدعوة نبينا محمد ﷺ دليلا آخر منضافا أن عهدا جديدا قد لاح أفقه بعد ثلاثة عشر عاما عملا دؤوبا لايدركه كلل!

وكشفا لعورة النسب، حين يتلحفه الجهل والخذلان؛ لأن قريشا أول من طاردت ولدها محمدا ﷺ!

وفتحا جديدا لآفاق الأرض الواسعة، دلنا على أن تربة جدباء هنا، وأن أرضا خصبة هنالك، وإذ بقي عليك البحث عنها توفيقا منه تعالى.

كان خروج نبينا ﷺ؛ دعوة إليه تعالى سببا في ملاقاة الأنصار، كفاتحة خير؛ لأن تربة قريش قد عشش فيها الخذلان، وهذا استشراف الخير في أرضه تعالى الواسعة.

كان خروج نبينا ﷺ في موسم عكاظ وغيره دأبا، يدلنا على مدى واجب ملقى على كاهل أحدنا دعوة إلى الله تعالى، واحتسابا، وهمة لايعتورها فتور.

ودليلا على أن الدعوة ذات مراحل، وأنه ولكل مرحلة زادها، وخصائصها، ومن ثم وجب التهيؤ لكل حدث بما يناسبه.

وإذ كان في لقاء الأنصار هذا فتحا جديدا آخر، لايقل أهمية عن فتح مكة؛ لأنه كان سببا وتوطئة له.

كان قبول الأنصار لدعوة نبينا ﷺ بعد حصار الطائف وتعذيبهم له ﷺ فتح باب أمل جديد؛ ليدلك على أن العسر قطعا سيتبعه يسران! لا يسر واحد!

ودليلا على أن الله تعالى ناصر دينه، ولو بعد حين، فلا تستعجل. فقط كن دؤوبا، حركة منضبطة، عاقلة، حكيمة.

ودليلا كاشفا على أن ليلا مدلهما وإن عثر فيه غير مرة، إلا وسيتبعه نهار؛ ليعود صلبا عودا، ورابطا جأشا.

إذا حدث حادث بين يهود والخزرج قالت يهود: إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم. وكانوا أول كافر به!

في كل مرة دعا فيها نبينا ﷺ إلى ربه إلا وتراه يقرأ القرآن! لأن هذا القرآن به عوامل تأثير وجذب لايملك حيالها الخصم إلا إذعانا وقبولا! وإذ رده كبره! وإذ صده صلفه!

سيظل خلقك الحسن الجميل ذا أثر، ولو بعد حين، فغض طرفا، وتجاوز، وأحسن أبدا.

ولأننا نفيد الخلق الحسن الحميد من نبينا ﷺ، ولما قال للخزرج: أفلا تجلسون أكلمكم؟ هكذا ب(ألا) عرضا مهذبا، وأسلوبا أريبا، وبيانا أديبا!

كانت الخزرج نواة إعداد لجيل جديد فريد في يثرب، فلهم منا السلام، والبركات، والتحيات، وقمن بك أن تكون نواة خير؛ يذكرك التاريخ بها، كما الخزرج!

وإذ قالت الخزرج: يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه. (١) هكذا فعله تعالى إذا أراد الله بقوم خيرا. لا تلعثم!

إن سلامة العقيد مسؤولية الدعاة، حين يكونون بها أولا؛ ليمكنهم بذل علم صحيح، وبثه في قلوب الناس.

إن دينا لله تعالى خالصا دعا إليه نبينا محمد ﷺ طيلة ثلاثة وعشرين عاما كاملة، يحال أن يجتزأ في وليمة، أو حفل إفطار، وإذ إنهم يغطون في طوافهم حول قبر، ليس يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فضلا عن أولاء المساكين!

إن المزج بين ضلعي الإحسان والبر، والتوحيد الخالص لله تعالى، هو عمل الأنبياء، ولا انفكاك بينهما.

لا يبلغ إحسانك بالقوم مبلغه إلا أن تأخذ بأيديهم إلى آفاق الهدى والتوحيد الخالص لله، بعد أن تتوج به فؤادك أولا!

إن دينا دعا إليه نبينا ﷺ طيلة بعثته ثلاثة وعشرين عاما يحال إلا أن يكون دين مواجهة لعقائد فاسدة، قد عشعشت في أدمغة قوم لاتجرهم شطيرة!

إن إجابة الخزرج، ولأول مرة دليل على أن الناس كالتربة! منها الأجادب والقيعان والخصب! وكما قال نبينا ﷺ: مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٢٩٢

في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به. [١].

تكونت قاعدة الأنصار طيلة عام كامل! باثني عشر رجلا! لا تستقل؛ لأن واحدا منهم كان ذا شأن! وهكذا قواعد بيتك اثنتا عشرة! مقابل آلاف الحجارة!

أحدث الستة النفر أنصاري دويا في المدينة، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر نبينا ﷺ. هكذا وعي نفر قليل.

حين رجع الستة النفر إلى يثرب، أرسلوا إلى نبينا ﷺ إرسال من يعلمهم القرآن والدين، فأرسل مصعب بن عمير. وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

كانت نواة الأنصار ستة أنفارا! هكذا الحق نواته قليل عددهم، عظيم أثرهم. إن الجري وراء الجماهير العريضة مضيعة لوقت، يحسن ألا يفوتك قطار خيره!

إن الإسلام دين رحمة، وألفة، وتوحيد قلوب. هذا ما ظنته الخزرج، حين استشرفوا أن نبينا ﷺ سيكون سبب إزالة ما فسد بين قومهم من ركام هائل.

لم يذكر نبينا ﷺ صلته بإبراهيم عليه السلام على لسانه، بل خبرا عن ربه وقرآنه؛ لأن سلطان الألوهية أدعى أثرا، وما أنت إلا مبلغ عنه تعالى صدقا وعدلا.

---

(١) صحيح البخاري: ٧٩

إن ربطا لنبينا ﷺ بينه وبين النبي إبراهيم عليه السلام فطنة؛ ذلك لأن أثر ملته ظل باقيا، وعلى مدار التاريخ كله، وإن خفت بعضا. ومنه فإن السلف مؤثر في الخلف.

قرأ نبينا ﷺ قوله تعالى على الاثني عشر رجلا قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]. ربطا بين أصول الحنيفية الواحدة. ولأنه تعالى قال أيضا ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

كان القعقاع بن عمرو رضي الله عنه؛ رجلا يساوي ألفا من الرجال. لبلائه الحسن في معركة القادسية.

لم يعرف التاريخ رجلا يساوي ألفا من الرجال إلا القعقاع بن عمرو رضي الله عنه؛ وكان ذلك في معركة القادسية عندما طلب سعد بن أبي وقاص من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يبعث له مددا من الجند في مواجهة جيش فارس الذي فاقهم عددا وعدة، فأرسل الخليفة عمر القعقاع بن عمرو، وهو رجل بألف رجل، وقد قيل جيش فيه القعقاع بن عمرو لا يهزم. [١].

المبحث الثاني: بيعة العقبة الأولى

ورد حديثان في شأن بيعة العقبة الأولى، وكلاهما محتمل. ومن سبيلنا في هذه السيرة المباركة تتبع الحدث ودلالاته.

---

(١) تجارب الأمم، أبو علي مسكويه: ٣٣٢/١

فعن عبادة بن الصامت: أن رسول الله ﷺ قال، وحوله عصابة من أصحابه: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك. (١).

وعند الإمام البخاري رحمه الله تعالى أيضا: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، قلنا: أصلحك الله، حدث بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبي ﷺ، قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان. (٢).

وعن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- قال: كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلا، فبايعنا رسول الله -ﷺ- على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب: على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله، إن شاء عذب، وإن شاء غفر. (٣).

كانت بيعة العقبة الأولى برهانا على أن الناس سئموا الاسترقاق للهوى، أو لعبد مثلهم تماما، ولا فرق يوجب الاسترقاق.

---

(١) صحيح البخاري: ١٨
(٢) صحيح البخاري: ٧٠٥٥
(٣) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٣ / ١٩٧

كانت بيعة العقبة الأولى إنجازا تاريخيا؛ لأنها خلعت عن الإنسان رق العبودية إلا لله تعالى وحده.

كانت بنود بيعة العقبة ستة بنود: بايعنا على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولانأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. (١)

كانت بيعة العقبة الأولى ببنودها الستة إعلانا عاما لتحرير الإنسان من العبودية إلا لله وحده لا شريك له.

من عجب أن نبينا ﷺ ظل يدعو أهل مكة سنوات عشر أو تزيد، وفي كل مرة يزدادون عداء! أما الأنصار فخلال سنة واحدة لم يبق بيت إلا عرف هذا الإسلام الحنيف الخالد!

كانت بيعة العقبة الأولى برهانا أن أولى مستندات الحصول على شهادة الانتماء هي معرفة الشرك ونبذه كله؛ لأنه ﷺ بدأ أول ما بدأ به، ومن قوله ﷺ: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ومنه فإن هذه هي نقطة الانطلاق الأولى، نحو عبودية رحبة لله تعالى العلي الأعلى سبحانه، ومن ثم ومن بعدها يكون ما تلاها أيسر، ويتحصل من بعدها أسهل، ويكون العباد عليه أوفر.

كانت بيعة العقبة الأولى برهانا على دعوة إيجابية قام بها الستة النفر، ومعهم مصعب بن عمير، حتى وإن أفرزت فقط مثلها! لأن رجلا واحدا يمكن أن يعدل ألفا!

كانت بيعة العقبة الأولى برهانا على إجماع أهل يثرب على الحق غلبةً؛ لأن الاثني عشر كانوا موزعين على رؤوسهم، وبايعوا عنهم وأنفسهم معا.

---

(١) الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ابن الصباغ: ج ١ / ٢٨١

كانت بيعة العقبة برهانا على أن بيئة يثرب تختلف عن بيئة مكة؛ لأن التاريخ لم يترك لنا أثرا نعرف منه اعتراضهم على التكلم عنهم!

كانت بيعة العقبة الأولى دليلا على أن قوما باعوا نفوسهم رخيصة في ذات الله تعالى؛ لأنهم حين بايعوا كانوا يعرفون الثمن جيدا!

كانت بيعة العقبة الأولى برهانا على إمكان التغيير من الباطل إلى الحق، ولو كان بفئة قليلة.

تضمنت بيعة العقبة الأولى أسلوب ذكر العام بعد الخاص؛ دلالة على شمول هذا الدين، وأنه يحطم أغلالا تجعل الإنسان عبدا لغير خالقه. والله تعالى يريد أن يخلع الناس عنه كاهلهم الأنداد؛ وكيما يصبوا إلى آفاق عزتهم وكرامتهم، وحين يكونون جميعا مؤتلفا، وحول غاية واحدة، هي عبادة هذا الرب الكريم وحده بلا شريك.

يجب على العالم أن يُوْدِعَ وثيقة بيعة العقبة الأولى في مضابطه، ويدرسها للأجيال جيلا من بعد جيل آخر يليه؛ لأنها تربي القامات، وترفع الهامات!

يجب على العالم أن يبني على وثيقة بيعة العقبة الأولى، حين ندائه بحقوق الإنسان؛ لأنها وضعت أساسا لبناء القيم العليا، والمثل السامقة.

إن المنادين بحقوق الإنسان مطلقة من كل قيد، إنما يعيدون عبودية هذا العالم لغيره تعالى، وإن اختلفت صورة الرق، محلاة كخضراء الدمن!

كانت بيعة العقبة الأولى برهانا عاما على إعلان عام لحقوق الإنسان، حسن أن تعلق في كل مكان من أرض الرحمن؛ حفاوة بدين أعز الإنسان وأكرمه.

إن قول: بايعنا الرسول ﷺ بيعة النساء، يبينه أن بيعة النساء خلت من الجهاد والقتال قاعدة وفرعا، عكس بيعة الرجال فإنها ضمنته أساسا وأصلا.ولكن ذهابهم إلى ساحته جودا وكرما، لا إصرا وأطرا! وفيما يناسب خلقتهن، لا أكثر منه، ولا تعديا عليه!

إن قول: بايعنا الرسول ﷺ بيعة النساء يوضحه قوله ﷺ: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم".

إنه إذا كانت المبايعة في العقبة الأولى على السمع والطاعة في العسر واليسر، وفي المنشط والمكره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول الحق، وأن لا يخافوا في الله لومة لائم، وعلى الولاء والنصرة لرسول الله ﷺ إذا قدم عليهم المدينة، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم، وأولادهم. فإن هذا ليس ينفي تضمنها لإقرار أصل الأصول وفرع الفروع، وهو النداء الأسمى بالتوحيد ونبذ الشرك وأهله؛ ولأنه هذه هي دعوته ﷺ، ومن أول وهلة، وليس يمكننا تصور أن تخلو من هذا الأصل الكريم! ويكأنهم وإنما جاؤوا إلى مبايعته ﷺ على هذا الدين ونظامه ابتداءً!

وأما المبايعة على مثل بيعة النساء فقد كانت بعد ذلك، على وفق ما نزلت عليه آية بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية، وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة، وليس هذا بعجيب، فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في غير ما موطن كما بيناه في سيرته، وفي التفسير. [١].

إن بيعة العقبة الأولى كانت على بيعة النساء، ولأن المقصود ببيعة النساء ما حكاه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ١٨٠

يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الممتحنة:١٢].

وليس ينفي هذا أن المبايعة في العقبة الأولى كانت على السمع والطاعة في العسر واليسر، وفي المنشط والمكره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول الحق، وأن لا يخافوا في الله لومة لائم، وعلى الولاء والنصرة لرسول الله -ﷺ- إذا قدم عليهم المدينة، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم، وأولادهم، وأما المبايعة على مثل بيعة النساء فقد كانت بعد ذلك.

إن الله تعالى حين حرم الشرك، فإنما كان مقصوده عَدْلًا ألايشرك به شيئا، ثم إنه كرامة لخلقه تعالى؛ كيما لا ترفع رأس على رأس امتهانا وسلبا.

إن الله تعالى حينما حرم الشرك فكان الإنسان أول من يفيده؛ لأنه فك له من ربقة عبوديته لإنسان غيره مساوٍ له في الحقوق والواجبات.

ولا نعصيه في معروف؛ لأنه لا طاعة المخلوق في معصية الخالق. هذا انقلاب على عيبة التسلط على العبيد، وبغير سلطان موجب، ودون سند مبرر!

ولا نعصيه في معروف. هذا هو السياج الذي يمنع تسلطا، ويضع حدا لامتهان قيم المروءة، والكرامة، والعزة، والإباء، والشرف، والشكيمة، والنبل.

إن تشبيه نبينا ﷺ النساء بالقوارير، يشي بمراجعة مناداة بخوضهن ميادين الوغى؛ لأن القارورة من أمرها كونها شفافة رقراقة! تحكي خارجها وما بداخلها! والحديد خلافه!

إن تميز النساء بوصفن قوارير، تشبيها بالزجاج، مانع من كسرهن في ساحات الوغى، ولا يصلح لها إلا الحديد!

إن الرجال ليسوا من القلة التي تبرر مناداة لخوض النساء ميادين القتال نائبة عنهم!

إن المناداة بخروج المرأة للقتال هو خروج بها عن أصل واجبها راعية، وحاضنة لبيت يخرج أجيالا صالحين للقتال!

إن خلو بيعتي العقبة من تكليف النساء بالقتال مبدأ عسكري ممتاز، وفي درجته الأولى؛ لأن قولا به يوافق خلقتهن ضعيفات مكرمات.

إن مزاحمة النساء الرجال في ميادين التضحية، هو ملاحقة لهم في قواهم الفتية، حتى وهم يذودون عن دينهم المجيد، وأوطانهم الأبية!

إن مزاحمة النساء لميادين القتال هو كسر لهيبة الرجال، وكأنهم غير صالحين لأداء مهام التضحية، وهم بلا شك أهل لها. المراجعةَ المراجعةَ.

إن محاولات جر المرأة إلى عالم الخشونة بالقتال، هو خروج بها عن سمت أبهاها ربها به، فكفى ظلما لها، ولمجتمع هي فيه حصنه، ومخرجة أجياله.

لم يكف القوم جر المرأة إلى ميدان التمثيل والغناء، وإنما أكبروا جرها إلى ميدان قتال، يفترض فيه عزة وجلدا لا ميوعة فيه!

يقولون حقوق المرأة! ثم ها هم يقذفونها في ساحات الوغى؛ انتقاما منها؛ لأنها في زعمهم، ويكأنها كانت سبب غواية أبينا آدم عليه السلام!

إن غشيان النساء مجامع الرجال هو جر بها إلى خروجها عن أصل الحشمة. واسألوا ميادين غشيتها كانت هي أول من بكت نفسها فيها!

إن عمل النساء كمداويات لجرحى الحروب، وبقدره، وعلى مكانه، وشرطه، واستثنائه، وعدم وجود من يسده رجالا ضرورة، والضرورة بقدرها.

إن استدلالا بولوج المرأة ساحات الوغى، هو قول في غير محله؛ لأنهن لم يلجنه، ولم يدخلنه، بل كن في أطرافه مداويات، بعيدات عن معامع السيوف!

إن الاستدلال بعمل النساء في القتال بأعداد يحال بلوغها أصابع اليد الواحدة هو من قاعدة إلى استثناء، ومن أصل إلى فرع، ومن ضرورة إلى ضدها.

بايع الأنصار نبينا محمدا ﷺ في العقبة الأولى على بيعة النساء، أي على وفق ما ستؤول إليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية، وهذه فراستهم كما شأن عمر رضي الله تعالى عنه، حين وافق القرآن مذهبه في غير موضع!

المبحث الثالث: إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ

عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، وعبد الله بن المغيرة بن معيقيب قال: بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير مع النفر الاثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى إلى المدينة يفقه أهلها، ويقرئهم القرآن قال: وكان عبد الله بن أبي بكر يقول: ما أدري ما العقبة الأولى؟ قال ابن إسحاق: بلى لعمري، لقد كانت عقبة وعقبة قالا: وكان منزله على أسعد بن زرارة، وكان إنما يسمى بالمدينة المقرئ، فخرج به يوما أسعد بن زرارة إلى دار بني عبد الأشهل فدخل به حائطا من حوائط بني ظفر، وهي قرية لبني ظفر دون قرية بني عبد الأشهل - وكانا ابني عم - يقال لها بئر مرق فسمع بهما سعد بن معاذ وكان ابن خالته أسعد بن زرارة، فقال لأسيد بن حضير: ائت أسعد بن زرارة فازدجره عنا فليكف عنا ما نكره، فإنه قد بلغني أنه قد جاء بهذا الرجل الغريب معه يتسفه به سفهاؤنا وضعفاؤنا، فإنه لولا ما بيني وبينه من القرابة كفيتك ذلك. فأخذ أسيد بن حضير الحربة، ثم خرج حتى أتاهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا والله سيد قومه، قد جاءك فأبل الله فيه بلاء حسنا. قال: إن يقعد أكلمه، فوقف عليهما متشتما فقال: يا أسعد ما لنا ولك تأتينا بهذا الرجل الغريب يسفه به سفهاؤنا وضعفاؤنا، فقال: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره. فقال: قد أنصفتم، ثم ركز الحربة، وجلس، فكلمه مصعب بن عمير، وعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، فوالله لعرفنا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم لتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! وكيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، وتطهر ثيابك، وتشهد شهادة الحق، وتصلي ركعتين، ففعل. ثم قال لهما: إن ورائي رجلا من قومي إن تابعكما لم يخالفكما أحد بعده. ثم خرج حتى أتى سعد بن معاذ،

فلما رآه سعد بن معاذ مقبلا قال: أحلف بالله لقد رجع عليكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به، ماذا صنعت؟ قال: قد ازدجرتهما، وقد بلغني أن بني حارثة يريدون أسعد بن زرارة ليقتلوه ليخفروك فيه، لأنه ابن خالتك، فقام إليه سعد مغضبا فأخذ الحربة من يده قال: والله ما أراك أغنيت شيئا، ثم خرج فلما نظر إليه أسعد بن زرارة قد طلع عليهما قال لمصعب: هذا والله سيد من وراءه من قومه، إن هو تابعك لم يخالفك أحد من قومه، فاصدق الله فيه، فقال مصعب بن عمير: إن يسمع مني أكلمه. فلما وقف عليهما قال: يا أسعد ما دعاك إلى أن تغشاني بما أكره - وهو متشتم - أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما طمعت في هذا مني، فقال له: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته أعفيت مما تكره. قال: أنصفتماني، ثم ركز الحربة، وجلس فكلمه مصعب، وعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، فوالله لعرفنا فيه الإسلام قبل أن يتكلم لتسهل وجهه. ثم قال: ما أحسن هذا! وكيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ فقالا له: تغتسل، وتطهر ثيابك وتشهد شهادة الحق، وتركع ركعتين، فقام ففعل، ثم أخذ الحربة وانصرف عنهما إلى قومه. فلما رآه رجال بني عبد الأشهل، قالوا: نقسم بالله، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل: أي رجل تعلموني فيكم؟ قالوا: نعلمك والله خيرنا وأفضلنا فينا رأيا. قال: فإن كلام نسائكم ورجالكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وحده، وتصدقوا بمحمد ﷺ، فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما، ثم انصرف مصعب بن عمير إلى منزل أسعد بن زرارة. كذا قال يونس في روايته: فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة

ووائل وواقف، ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وروينا عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب الزهري: أن مصعب بن عمير كان أول من جمع الجمعة بالمدينة للمسلمين قبل أن يقدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم.[1].

إن اشتهار مصعب على ما كان يسمى بالمدينة المقرئ. دلالة على حسن سيرة، وأسوة حسنة، ويربأ أحدنا بنفسه ألا يسمى إلا بشريف الأسماء وحسن الألقاب، وألا ينادى إلا بجميل شهرة!

إن نقلة نوعية لأسيد بن حضير، حين أقدم على قتل مصعب بن عمير، ولما قال له: أو تجلس، فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟[2]. دلالة على حسن صنيع حميد الخلق الكريم. ولأنه قال: قد أنصفت، وجلس يستمع!

إن تعامل مصعب بن عمير مع نبأ قدوم أسيد بن حضير لقتله، هو تعامل العزة والإباء، وذلك حين قال: إن يجلس أكلمه. فأنت داعية خير، وإن عزتك من عزة ما تدعو إليه.

حين جلس أسيد بن حضير إلى مصعب بن عمير، وأسمعه مصعب الإسلام والقرآن، رق، وأسلم، بعد أن جاء شاتما، متوعدا! وهذا فعل القرآن في المستقبل والمرسل معا!

حين سأل أسيد بن حضير مصعب بن عمير كيف يسلم وأخبره أن "تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي" هذه مدخلات امرئ في ديننا، لا تعميد، ولا طقوس، بل يسر، وتيسير؛ لأن هذا الدين يسر كله!

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي: ٧٠٢
(٢) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ٢ / ١٧٠

ومنه فإن طهارة البدن والثوب والبقعة مقدمات لطهارة القلب من رجس الشرك.

وتقديم الشهادة على ما سواها تصريح دخول إلى الإسلام. وحسن بدء بها، لأنها تزيل ركاما هائلا علق بالقلوب طيلة دهر طويل!

إن تقديم الشهادة على ما سواها دين لله تعالى، جاء به الإسلام؛ لإخراج العباد من عباد العباد إلى عبادة رب العباد. تكريما وحفاوة بهم.

وقوله: ثم تصلي، دلالة على أهمية الصلاة؛ سببا لتكفير الذنوب، وإماطة الخطيئات، ورفع الدرجات، ورضا رب البريات، واتصالا برب السماوات، زادا، ورقيا، وطهارة، ورفعة، وعلوا!

حين رأى سعد بن معاذ أسيد بن حضير قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. هذا فعل الإسلام بالوجوه فما بالك بالقلوب؟!

إن فعل الإسلام بالوجه دليل على فعله في القلب، لأن الوجه مصداق القلب!

قال أسيد بن حضير لسعد بن معاذ: وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك! هذه حيلة ذكية منه، طمع أن تكون سببا لقدومه على مصعب وأسعد ليسمع منهما! فالدعوة فقه!

حين قدم سعد بن معاذ على مصعب وأسعد، ووجدهما مطمئنين، عرف أن أسيدا إنما أراد أن يسمع منهما! وهذه فطنة أسيد؛ لأنه أثاره بخبر عزمهم على قتل ابن خالته سعدا! وهذه واحدة. وفقهه، وهذه ثانية؛ لأنك إن لم تستطع البلاغ على وجهه، فانتخب له من هو أهله!

حين راح كل من أسيد بن حضير وسعد بن معاذ إلى مصعب وأسعد بن زرارة وقفا متشتمين! دلالة سوء خلق المشرك عادة. ولم يرد مصعب بسوء! دلالة حسن خلق المسلم عادة، وأن حسن الخلق داع إلى قبول القوم، وقمن تزين أحدنا به. تثقيلا لميزانه، ورفعة لدرجته.

قال أسعد لمصعب: جاءك والله سيد مَنْ ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. من فقه الدعوة محاولة كسب سيد قوم إلى صفها، إن إسلاما، وإن محبة، وإن دفع عداوة، وكلٌ خيرٌ!

قال مصعب لأسيد: أو تقعد، فتسمع، فإن رضيت أمرا رغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ وهذا فقه آخر، وحسن خلق آخر، وهذا مقتض حجب حواجز بين الدعوة والدعاة لإبلاغ دين ربهم، ومن ثم نقول ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٦].

عرض مصعب الإسلام على أسيد بن حضير، وأسمعه القرآن من سورة الزخرف. وبه ضرورة التذكير بالقرآن أبدا؛ لأن له فعلا في القلوب والأبدان عظيما.

حين تطهر سعد بن معاذ، وأسلم، وصلى ركتين، رجع إلى قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم! إن الإسلام ذو أثر معجز في القلوب، ولما كانت الأبدان رسلها.

ولكن القوم يحلفون بالله! وهم به مشركون! فلا يغرنك!

قال سعد بن معاذ: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فو الله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة. وفيه جواز قبول الإسلام ظاهرا ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وهذه مرحلية الدعوات.

المبحث الرابع: خبر أبي قيس بن الأسلت

وقف أبو قيس بن الأسلت بالأوس عن الإسلام، وصدهم عنه، حتى كان بعد الخندق. فكان عليه وزرهم! وأسلم بنو عبد الأشهل على يديه. فكان له أجرهم، و ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

قال أبو قيس صرمة بن أبي أنس شعرا، يذكر قريشا بمنته تعالى عليهم، ويعظم فيها الحرمة، وينهاهم فيها عن الحرب، ويذكر فضلهم وأحلامهم، ويذكرهم بلاء الله عندهم، ودفعه عنهم الفيل وكيده، ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ. اتخذ سبل الحكمة لتخفيف الصراع!

كانت حرب داحس والغبراء مثالا على مدى فعل الجاهلية في القوم، وتغلغل الجهل أوردتهم ودماءهم، ولما أن جاءهم الإسلام نزع كل عرق جاهلي، قد كان متملكا فيهم، فحولهم إلى خير أمة أخرجت للناس. وهكذا الإسلام طهارة وزكاء وفضل ونقاء.

إن عبادة أبي قيس ربه تعالى على دين إبراهيم عليه السلام، دلالة على أن الحق باق كل زمان ومكان، وبقيت صحة بحث عنه حجة بالغة.

فارق أبو قيس الأوثان، واتخذ مسجدا له في بيته، وعبد الله على ملة إبراهيم عليه السلام، حتى قدم نبينا ﷺ فأسلم، وكان قوّالا بالحق، معظما لله تعالى. وهذه قمم، وتلك همم.

إن عبارة: (لقد رجع بوجه غير الذي راح به) تكررت غيرة مرة؛ كناية على مدى صبغة الإسلام قلبا وقالبا، ولا عجب! لأن الإسلام نور يهدي في الظلمات.

قال أبو قيس:

يا بني الأرحام لا تقطعوها وصِلُوها قصيرة من طوال
واتقوا الله في ضعاف اليتامى وبما يستحلّ غير الحلال
سبحوا الله شرقَ كل صباح طلعت شمسُه وكلِّ هلال
عالم السر والبيان جميعا ليس ما قال ربنا بضلال.
فأوصيكم بالله والبر والتقى وأعراضِكم والبرِّ بالله أول
وإن قومُكم سادوا فلا تحسدنهم وإن كنتم أهل الرئاسة فاعدلوا.

المبحث الخامس: فضل أبي أمامة أسعد بن زرارة

فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الاسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة: مصعب، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس، أبي أمامة.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنه كان يصلى بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض. أول جمعة أقيمت بالمدينة قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه أبي أمامة عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي، كعب ابن مالك، حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الاذان بها صلى على أبي أمامة، أسعد بن زرارة. قال: فمكث حينا على ذلك: لا يسمع الاذان للجمعة إلا صلى عليه واستغفر له، قال: فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لعجز ألا أسأله ماله إذا سمع الأذان للجمعة صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة؟ قال: فخرجت به في

يوم جمعة كما كنت أخرج، فلما سمع الأذان للجمعة صلى عليه واستغفر له، قال: فقلت له: يا أبت، مالك إذا سمعت الاذان الجمعة صليت على أبى أمامة؟ قال: فقال: أي بنى، كان أول من جمع بنا بالمدينة في هزم النبيت، من حرة بنى بياضة، يقال له: نقيع الخضمات، قال: قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلا. [١].

يا أبت مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبي أمامة؟ فقال: كان أول من جمع بنا بالمدينة. إن الإسلام يؤلف بين قلوب كانت مختلفة.

وهذا فضل أبي أمامة؛ لأنه أكرم وفادة مصعب. ولأنه أول من جمَّع بالمدينة!

كنت قائد أبي، حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة، فسمع الأذان بها، صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة. وهذا بر الوالدين.

مر ديننا بمراحل عديدة، وفي كل واحدة منها كان يفرز لنا أفرادا أناروا التاريخ بسيرتهم المجيدة الفريدة. وليكن أحدنا سراجا مثلهم، أو قريبا!

مر ديننا بمراحل عديدة، وكل مرحلة تتميز بأمصال أدواء، تصيب الناس في معاشهم، ومعادهم. وبقي فقط حسن استقبالها؛ لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

حين حث الإسلام على قول الحق، فإنما كان يرجو خيرا، لراع ورعية معا، لأن العشوائية موجبة لانهيار الهرم من قمته إلى قاعدته!

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٢٩٦

إن مصارحة بالحق النافع للكافة دين في عنق كل قادر عليه؛ لأن فيه نجاة المجتمع بأسره؛ ولأنه ليس أحدنا محيطا بخير مطلق، أو بشر مطلق!

إن التصفيق الحاد للباطل نذير شؤم؛ لأنه مؤد حتما إلى صعود الكافة إلى الهاوية، فهلك وهلكوا جميعا!

المبحث السادس: خبر البراء بن معرور

إن صلاة البراء بن معرور وحده إلى الكعبة! ووسط القوم! وإذ كان الناس قاطبة يصلون على بيت المقدس! برهان على أنه: لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أو يقول بحق أو يذكر بعظيم. [١].

وهذا برهان على أن الحق يمكن أن يعرفه واحد فقط من الأمة! ولأن القرآن وافقه من بعد!

وهذا دليل على أن الحق يدفع صاحبه دفعا، وإنه ليمنحه قوة إضافية، ضافية، تسوقه إليه سوقا!

وهذا يفيد أن قول الحق مكفول في الإسلام، ومصون صاحبه، وبكل كرامة، ولأن نبينا ﷺ لم يعنفه بل جاء النص على وفقه!

اختار البراء بن معرور أن يصلي إلى الكعبة وإن صلى الباقون إلى الشام! وهذه إرهاصات تغيير اتجاه القبلة، ومن فرد كان لله حنيفا! وكم وافق الحق رجالا أبرارا في هذا الدين!

---

(١) السلسلة الصحيحة، الألباني: ١/٣٢٤

حين حكم الناس نبينا ﷺ في صلاة البراء إلى الكعبة قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها. لا تعنيف، ولا مصادرة، بل حلم، وتصبر وتصبير! وكما أن فيه استشراف نبينا محمد ﷺ القبلة إلى البيت الحرام!

إن تحكيم نبينا ﷺ في صلاة البراء إلى الكعبة، انقياد بالناس إلى الحق، وشغفهم به، بمن فيهم البراء بن معرور؛ ولأنه سمع، ورجع؛ ريثما يأذن الله تعالى به، وقد أذن بعد! وكما قال الله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وهذا استشرافه نفسه ﷺ، إلى فعل البراء، لكنه ليس وقته!

إن صلاة البراء بن معرور إلى الكعبة، خلافهم إلى الشام؛ دليل موافقة، وبعد نظر لنبينا ﷺ حين قلب وجهه في السماء، ولما لم يكن أمر المرحلة.

إن مخالفة البراء بن معرور لقومه حين صلى إلى الكعبة، وهم يصلون إلى الشام صيحة مدوية أن: اسمعوا ولو من عبد حبشي كأن رأسه زبيبة!

لقد خلد القرآن الكريم ذكرا لأولاء نفر سطروا قول الحق بأفواههم؛ دليلا على تميز الحق، وكانوا قد تمايزوا به، حتى كان به مجتمع عال، رفيع، سامق.

إن تصرف البراء بن معرور رغم صحته في استشراف القبلة الجديدة، إلا أنه يعد خروجا على ولي الأمر وجماعة المسلمين؛ لأنه ولئن كان حقا، لكنه ليس وقته. وقد يرى القائد ما لا يراه المقود.

إن اعتراض الأمة على البراء بن معرور حين صلى إلى الكعبة، رغم موافقة القرآن بعدُ، دليل وجوب تعلم فقه أولويات الدعوة، فلا يؤتى الدين من ثغر أحدنا!

المبحث السابع: بيعة العقبة الثانية

أحداث ودلالات

هذا فصل مجيد من فصول هذه السيرة النبوية المباركة، ومن حقيقة أنه يعد فيصلا في تاريخ هذه الدعوة الإسلامية بأسرها؛ ولأنه كان نقطة انطلاق فاصلة حاسمة فيها، ويوم أن شكلت هذه البيعة نواة الانتقال من مجتمع الشرك في مكة المكرمة، وإلى أرض سهلة، وجداول عطاء، وغدير نماء في هذه البقعة الشريفة من بقاع أرض الله تعالى الحكيم الخبير القدير، يثرب.

ولكن هذا الفصل فيصل في مسيرة العالم قاطبة! ولأنه كان مفترق الطرق بين باطل زهوق، قد أبطل، وأسقط، وحطمت، قيوده، وكسرت أغلاله، وبين حق مجيد، قد استلهم قوته، ومن كونه حقا، ولا أكثر من هذا! ولأن الحق يحمل من بين سطوره نورا فالجا بالجا، يسطع في الكون كله، فينير درب السالكين، ويوقع بتواقيعه الخالدة منارات السبيل، وسبل العارفين!

وأعالجه في ثلاث عشرة مسألة:

المسألة الأولى: خبر عبد الله بن عمرو بن حرام

قال كعب بن مالك: ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ فيها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من سادتنا أخذناه، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من سادتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا. ثم دعوناه إلى الاسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة. قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبا. (١)

إن تنصيب عبد الله بن عمرو بن حرام نقيبا في العقبة الثانية فقه؛ لأنهم أنزلوا الناس منازلهم؛ وهو فقه دعوة يخبو كثيرا؛ ولأن هذا عمل من أعمال النقباء! وإذ همو به يتميزون، وإذ همو عليه قائمون، وبه متلبسون، فينفرون إليه نفرة واحدة، ويتعاهدون عليه عزيمة نافذة!

إن إسلام عبد الله بن عمرو بن حرام وحضوره بيعة العقبة الثانية؛ دليل توفيق رباني لأولاء عصبة مؤمنة، أحسنت دعوتها إلى الله تعالى، ولما كان وقتا روحانيا ملائما. ومنه فإن اختيار أزمنة استشراف الخير من النفوس واجب شرعي، وكما أنه موجب توفيق إلهي!

إن افتقاد حكمة الدعوة؛ جهلا بالدين، أو بأولوياته، أو بآدابه، وأخلاقه، تنتج ثمارا صبرا مرا! ومجتمعا هشا تذروه الرياح، حين هبت خفيفة لاعاتية!

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ١٩٤

إن حكمة اتبعت في دعوة عبد الله بن عمرو بن حرام كانت سببا في استمالته، وكانت سبيلا لإفاقته. لا تكن حجرة عثرة باسم الإسلام حين دعوتك.

يا أبا جابر: إنك سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا. وهذا ترغيب رشيد، ولأنه سيد من ساداتهم، ولأنه شريف من أشرافهم، وهذا ترهيب سديد؛ ولأنهم أرعبوه، وأرعدوه، وأوعدوه من أن يكون حطبا للنار غدا! وهذا الذي يقولونه: العلاج بالصدمة؛ إفاقة من غفلة!

المسألة الثانية: نخوة الأنصار ومروءة الأبرار

إن ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين قلة قليلة، قياسا على أعداد الناس يومهم ذاك، وبرغمه فتح الله تعالى بسببهم قلوبا كانت غلفا، وأسمع بهم آذانا كانت صما، وأرى بهم أعينا كانت عميا!

تكونت قاعدة الأنصار خلال سنتين كاملتين، وكان قوامها ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين. إن قلة مؤمنة واعية فتح الله بسببها آفاق الأرض كلها! ومن عمل دؤوب، وخلال عامين اثنين! كانا من عمر الزمان أمدا قصيرا!

وهذا فن تعبوي مجيد، ومنه تتأسس قاعدة الانطلاق الأولى، وعلى جاهزية علمية، عملية، دعوية، باهرة؛ ولتكون هي المكون لدعوة الجماهير العريضة، من ثم، ومن بعد.

ألم تر أن الله تعالى قال أيضا ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟! هذا قول الأنصار! وبعد سنتين وحسب! ولم يسمع مثله من قبل من قريش ذوي رحمه! وبعد عشر سنين دأبا ذاقوا ابنهم فيها أشد العذاب!

وإذ كان أولى أن تتحرك في قريش نخوة القربى، وصلة الرحم! ولكن أولاء الأنصار وها هم وقد شهد لهم التاريخ أنهم وإن كانوا ليسوا أولي قربى، وإذ همو أبعد أثرا رحما، وإلا أنهم أقوم قيلا، وأقرب بذلا، من أولئك أولي القربى! ولنعلم أنه تعالى يقيض من عبيده من ينصر دينه بنا، أو بغيرنا؛ ولأن من تصدى للحق، ووهب نفسه له، فإن له بذلك زاد الشرف، والسؤدد، والإلهام، والتوفيق، والرشاد!

إن عشر سنين دأبا كانت كافية لإقامة الحجة على أهل مكة، حين يمكن أن يقولوا: تركنا وراح يدعو قوما آخرين!

إن مكوث نبينا ﷺ عشر سنين بمكة، داعيا إلى الله تعالى، ولما لم يجيبوه، كان سببا في تحويل الطريق إلى بيئة خصبة، ومن ثم ليعود ﷺ إلى مكة فاتحا.

لا تقف محلك سر! بل سر حيث وجدت أرضا خصبة لنماء زرعك، وفلاح غرسك!

مكث نبينا ﷺ بمكة عشر سنين يقول: من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة. فلا يجد أحدا يؤويه، ولا ينصره. وهذه رحم مزقتها الجاهلية!

إن إيفاء الأنصار ببيعتهم يوم العقبة الثانية كان أجره الجنة، وهو شرف يرنو إليه أحدنا، ولو كان بمثل فعل الأنصار!

المسألة الثالثة: النقباء نواب يثرب أجمعها

تنوع أهل العقبة الثانية: ما بين ذوي الأسنان، والشباب، والنساء، نيابة، وكناية، عن معاضدة مجتمع يثرب كله للدعوة الجديدة.

اجتمع أهل العقبة الثانية في الشعب عند العقبة، وهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، وإذ كانت من نسائهم: نسيبة بنت كعب أم عمارة، وأسماء ابنة عمرو وهي: أم منيع. دلالة عمل المرأة العالي السامق الرفيع في ديننا، وحين كانت حليفة الرجال في البيعة، ولما أضحت ذراعهم اليمنى في المشاركة، وعلى شرطه. ولأن المرأة المسلمة درة مكنونة، وياقوتة مصونة، وأينما حلت، أو حيثما غدت.

تسلل أهل العقبة الثانية مستخفين ليلا؛ للقاء رسول الله ﷺ. ولأن الاستخفاء وقت الاستضعاف حكمة؛ محافظة على نواة تأسيس لدولة فاتحة العالم بعدُ! وهذا فن تعبوي ممتاز.

أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم. ([١] إن النقباء حلقة وصل بين القائد ورعيته. يتكلمون بلسانهم، ويرعون مصالحهم، أمانةً، وعهدا، ودينا، وميثاقا غليظا!

إن تأسيس قاعدة عريضة -أو غير عريضة- تكون نواة التأييد، والعون، والمساعدة، والمؤازرة، سنن نبوي كريم، نفيده من أولاء الرهط الكرام، أهل العقبة الأولى والثانية، ولهم منا كل تحية، ومحبة، وثناء؛ ولوقفتهم جانب نبينا ونبيهم ﷺ، وحين جاءهم ليخرجهم من ظلمات الكفر وغياهبه، وإلى نور الإسلام وبواعثه، وخواطره، وشمائله!

كان موجز بيعة العقبة الثانية أنها على الإسلام والنصرة والمنعة.

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ١٩٨

المسألة الرابعة: العباس يحضر بيعة العقبة الثانية

يبقى القول: إن أهل مكة لم يطبقوا جميعهم على عداء نبينا حميةً؛ -ويوم حصار الشعب كان برهانا، ولما أسفت له طائفة، ورغم كفرها أيضا-! ولأنهم حاولوا قتله ﷺ بتسليم أحدهم مقابله، وكان رفض عمه أبي طالب بوصفه نائبهم. وإنه ولئن كان فردا واحدا، وإلا أن وقفته كانت تعدل وقفة أمة بأكملها، وحين كان حائطا، سدا، منيعا، حصينا لهذا النبي ﷺ، تسخيرا ربانيا كريما، قبل وبعد أي شيء آخر!

رغم أن العباس كان لا يزال مشركا ليلة العقبة، إلا أنه حضرها؛ كناية عن بقية خير، ولو في قلة من عصبة نبينا ﷺ.

حضر العباس عم نبينا ﷺ معه ليلة العقبة الثانية؛ توثيقا لعهد جديد، يقوده ابن أخيه، مؤتمرا بأمر ربه تعالى، بلاغا، ودعوة، وفتحا.

كان سماح نبينا ﷺ بحضور عمه العباس ليلة العقبة الثانية حكمة، نصيرا، وكسبا، وأنه لم يتخل عن آله! وإن تخلوا هم عنه! وهذه من أخلاق النجباء، الكرام، الأفذاذ.

كان حضور العباس ليلة العقبة الثانية دليلا على كم كان أثر الإسلام فيه! ولما أسلم يوما، مناصرا، ومنافحا، توبة، وأوبة، ونصرة، وفلاحا، وصدقا.

كان اختيار الله تعالى أن يحضر العباس ليلة العقبة الثانية؛ ولأمر يعلمه تعالى، فلربما تركت في نفسه أثرا ليسلم من بعدها!

كان حضور العباس ليلة العقبة شاهدا على عزة تبوأها ابن أخيه محمد ﷺ، ولما لم يكن لهم قصب السبق فيها. وها هو إذ يراها بأم عيني رأسه! وليس نقلا خبرا عن أحد!

كان حضور العباس ليلة العقبة شاهدا على نصرة الأنصار لابن أخيه، حرمت سبقها، وشرفها، وفضلها، قريش! وربما لم يدر في خلده أنه سيعود إليها يوما فاتحا.

إنه كان سماح نبينا ﷺ بحضور عمه العباس ليلة العقبة الثانية؛ ولعله يرق فيسلم. ولأن سماع الخير غير مرة لربما أحدث في القلوب زلزلة فتفيق! وهذا أمر مشاهد!

كان حضور العباس ليلة العقبة الثانية برهانا على حرص نبينا ﷺ على إسلام قومه، حتى وإن ناصره غيرهم؛ ولأن المسلم له منظار كاشف للعالم كله.

المسألة الخامسة: وقال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

أي: كفيلا كفلوا عليهم بالوفاء لله بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه[١].

جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنبيه إبراهيم عليه السلام: قد أجبت دعاءك في إسماعيل، وباركت عليه وكثرته وعظمته جدا جدا،

---

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٦ / ٢٠٣

وسيلد اثني عشر عظيما، وأجعله لأمة عظيمة [١] وهذا خبر آخر يبين سرا في اختيار العدد اثني عشر!

وهذا قول نبينا محمد ﷺ: يكون اثنا عشر أميرا، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال: كلهم من قريش. [٢]

قيل في حكمة الاثني عشر نقيبا: لأن عدد قبائل الأنصار اثنا عشر.

لكنه سيبقى السؤال قائما: ولم في الاثني عشر خليفة؟! ولم في نبي الله موسى عليه السلام، ولم في قوله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام؟! ولم اثنا عشر خليفة، وكلهم من قريش؟! ولم اثنتا عشرة عينا؟! ولم اثنا عشر شهرا؟!

إن ذكر العدد اثني عشر نقيبا، أو ما سواه في غير ما موضع، وعلى اختلاف المصادر التاريخية الموثقة، ليقف بنا عاجزين قانتين، أن وراء كل ذي علم عليم، وليعرف أحدنا قدره أمام عظمة رب قد أحاط بكل شيء علما!

لا يزال هذا الدين عزيزا منيعا لاثني عشر خليفة. واثني عشر نقيبا في العقبة الثانية، واثني عشر نقيبا في قصة موسى عليه السلام، واثني عشر عظيما من ذرية إسماعيل عليه السلام! و ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]. هذه حكم نقف عندها!

---

(١) العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح السادس عشر. وإمتاع الأسماع، المقريزي: ج ٣ /٣٨٣

(٢) صحيح البخاري: ٧٢٢٢

إن العدد اثني عشر له أمده، وسره، ومعناه، وغايته، وسبيله، وحين وقع اختياره، عملا ربانيا كريما، نقف أمامه منبهرين، مشدوهين؛ من هكذا قدرة رب قدير قادر سبحانه!

إن مسألة الأعداد في هذا الكتاب العظيم الكريم الخالد لتمثل إعجازا! نقف أمامه مطأطئين رأسا، ولسنا أمامه نرمش رمشا، وأمام هذا الإعجاز الباهر لهذا القرآن الكريم الخالد أيضا.

وهذه مسألة لها بحث آخر أعمق، وغايته أنه إعجاز، وإن كنا لسنا نملك حياله من تفسير أو تأويل، وهذا هو عين الإعجاز أيضا!

وهذا هو عين التعبد، والتسليم، والانقياد، والإسلاس أيضا أيضا.

المسألة السادسة: عمل النقباء

إن النقباء نواب ناصحون للراعي والرعية. ويفقدون ثقة الراعي، قبل الرعية، وحين جاؤوا، وكأنما ليصفقوا، بدل أن يشيروا مشورة صدق ونصح وإرشاد.

إن حيود النقباء غش للراعي، حين يمال بهم عن سبيلهم، أو لما يحاد بهم عن طريقهم، وهم إذ يعلمون ميلا عن حق، أو جورا محققا؛ لأنه يريد أن يسمع قول: لا، إذا حاد؛ ولتصحيح مساره، فلا يخرج عن جادته، ولا يعاق عن مسيرته!

النقباء نواب الأمة، ينقلون إلى الراعي أحلامها، ويبثون إليه أوجاعها. وهم ليسوا بمصفقين؛ لأنهم ولدوا من رحم أمة استأمنتهم على مصالحها.

النقباء نواب صدق، يكونون سراج نور مضيء في ظلام الناس الحالك، يوم أن يكونوا صنوانا للحق، وصمام أمان، وحراس عقيدة لأمتهم.

النقباء نواب مؤتمنون على إيصال نبض الأمة إلى واليها؛ رعاية لمصالح الأمة فردا فردا، وهم وكلاء ضامنون عدله، وهم مفوضو رعيتهم، يضمنون لهم عدله، ويكفونهم ظلمه، وميله، وحيدته.

كان للنقباء دورهم الإيجابي على مدار التاريخ كله، ومع نبينا ﷺ، ليلة العقبة، ومع نبيه موسى، ومع نبيه عيسى-عليهم السلام- وهم أمناء لقومهم، ناصحون لراعيهم.

إنه حين يقوم النقباء بدورهم المنشود، ناصحين بالحق، وبه يعدلون، سيلقون حتما آذانا صاغية؛ ولأنهم ينبضون بنبض قومهم، ولأنهم يعرفون معروفا، وينكرون منكرا؛ كانا أصلين من أصول بيعتهم، وائتمانهم على مصالح الرعية.

الراعي الواعي بشر، يسري عليه قانون الخطأ، والسهو، والنسيان، ويريد نقباء يقوِّمون اعوجاجه، ويثمنون صلاحه، فهم وسط حين ينصحونه، أو يؤيدونه، أو يعارضونه!

ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. أرأيت وظيفة النقباء النواب؟! فحسبهم أنهم يستنون بسنته، وحسبهم أنهم يقتدون بطريقته، وهذا مقتضى عبوديتهم لربهم، وقافون، لا يميلون عن الوحي ميلة واحدة!

ولأنهم وحين كان هذا وصفهم، فإنما هم به أصحاب أبهة! وإنما تحمل هذه الصحبة معاني الدلال، ووشائج القربى، وأواصر الرحمة؛

وإنما هم به حواريون! وإنما هم بها ينعمون في ظلال العبودية الوارفة! وهذه نعوت خصوصية تشي بفضلهم وعزهم وعبوديتهم.

وإنما هم أولاء الحواريون، بعض من أمته، وليس كل رعيته؛ دلالة على اختصاصهم من فضل، وبرهانا على اجتبائهم من استنان، واحتذاء، واقتداء!

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل. [١]

إن البحث في عمل النقباء الاثني عشر بوصفهم نوابا وكفلاء أقوم سبيلا من البحث عن حكمة عددهم هذا الاثني عشر!

لكننا نؤكد ونعيد التأكيد على أن هذا خارج طاقاتنا؛ وليبقى برهانا ضافيا على أنه تعالى له طلاقة القدرة النافذة والعلم اللامحدود!

أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي أي: المسلمين. [٢]هذه كفالة النقباء على قومهم، وهذه كفالة النبي ﷺ على كل المسلمين! ولأنه ﷺ أمين من في السماء على من في الأرض، ويأتيه خبر السماء صباحا ومساء، ومنه فصارت كفالة مركبة! وهذه رعاية مصالح الشعب رعاية كاملة!

---

(١) صحيح مسلم: ٥٠

(٢) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٣ / ٦٠٢

إن ادعاء الشيعة في الاثني عشر أنهم منهم يخالف نص الإمامين البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى أنهم من قريش. وهو قوله صلى الله عليه وسلم: كلهم من قريش.

لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش. [١]. وهذا علم نبوة ضاف آخر!

المسألة السابعة: من أصول الحكم في الإسلام

أطيعوني ما أطعت الله فيكم: هذا قول راع، كان من همته طاعة مولاه، وابتغاء هداه، وبمثله ترقى أمم، وتعلو قمم!

وطاعة له واجبة، وقابلها واجب عليه آخر، هو طاعة مولاه، واتباع رسول الله، وإذ معنى ذلك هو الانسلاخ من مرادات النفس وهواها كلية، وهذه واحدة، ومن ثم الانتظام في سلك الطاعة وفلكها وطريقها وسبيلها، بالكلية أيضا!

وهذا هو الذي يقولون عنه: إن تحقق الشرط متوقف على تحقق المشروط.

ولما كانت الطاعة في المعروف كله، لا بعضه، ولا جزئه؛ ولأن العبد المسلم ما كان له الخيرة، ليأخذ ما شاء من حاجة، ولا أن يترك ما أراد من هوى أيضا.

وقال نبينا ﷺ: لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف. [٢]

وهذه كليات شرعية، وهذه أوليات ملية، وإذ ليس يملك أحد حيالها من تبرم، أو تردد، أو تغيير، أو تعديل، أو تأجيل، أو تأويل غير سائغ!

---

(١) صحيح مسلم: ١٨٢٢
(٢) صحيح البخاري: ٧٢٥٧

وقال الله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

فإن وجدتم فيَّ اعوجاجا فقوموني: هذا قول راعٍ، يرجو رفعة قومه، ومن بعد إقامة دينه؛ لأنه يعلم أن هذه هي وظيفته التي بايعه الناس عليها، ولأن هذه هي مهمته التي تبوأها، تكليفا ربانيا حميدا، وحين كان عن ربه إماما للمتقين، يقيم ساحة العدل، ويفسح سوق الرحمة، ويوطد ساحات المجد، والعلا، والرقي، والسؤددا!

ولأنه يضع نصب عينيه قول الله تعالى ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ولأنه يحسب حسابا لما قد تنزل على نبينا محمد ﷺ، وحين قال الله تعالى أيضا ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناك بالسيف: هذا قول أمة ترنو حقا، وتبتغي هدى، بهما ترفع رايتها عالية خفاقة، لا أن تتدلى رايتها منكسة مكسورا خواطرها!

لم يذكر التاريخ أن قائله أُوخذ به؛ لأنهم يعلمون ابتغاءه الصلاح لكلٍ. بل كان رده: الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بالسيف!

الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بالسيف: سجل التاريخ هذا القول لقائله، وكفاه أن يقابل ربه به! ولأنه وضع به نظاما للحكم، وأسس به سبيلا للولاية والرعاية، قائمين على

المؤاخذة والاستنطاق والاستجواب والمساءلة! وقبل الاحتفاء والتعظيم والتقدير والإطراء والثناء والتصفيق والمباجلة!

الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بالسيف. هذا قول لا يعز وجوده، حين يعلم الناس واجباتهم، قبل أن يعرفوا حقوقهم!

الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بالسيف. هذا قول يعزه وجوده، ويندر تحاكيه! ولأنه فن تقاد به الجماهير العريضة من الأمة، وحين أطلق لها عنانها، ولما أمر بالمعروف رعيتها، وحين نهى عن المنكر أفرادها، وحين سمع به رعاتها، ولما رأف ولطف بها أولياؤها!!

ومنه فأنتجت أمة وثيقة صلتها بمولاها، فأنعم عليها ربها، فتبوأت مقعد صدق عند مليك مقتدر، وتوشحت وشاح العدل والقسطاس، حتى ألفها التاريخ وألفاها، مثال خير وهدى وصلاح؛ وليسير على دربها كل باغ للخير فيقبل، وكل مريد لسواه فيدبر! ولأنه لا مكان في هذا النظام للمقعدين والمثبطين والمترهلين والمبطلين ولا الغالين!

المسألة الثامنة: المتحدث الرسمي باسم العقبة الثانية

انطلق رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال: ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة فإن عليكم من المشركين عينا، وإن يعلموا بكم يفضحوكم. فقلنا: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الاسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم

وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم فوالله الذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر. [١].

هذا مشهد من مشاهد هذه السيرة النبوية المباركة، ويوم هذه العقبة الثانية، تاريخا حافلا مجيدا، ومنه نقف على كم كان فناء هذا الرعيل الصالح المتوقد عطاء، وبذلا، وفداء، وفناء في ربه تعالى، وحين أطلقوا لرسول الله ﷺ العنان، أن يقول قولا، أو أن يطلب طلبا، وبلا سقف طلبات، محدد سلفا؛ ولأنهم أهل الحرب، والمكيدة، والحماية لهذا النبي ﷺ، والذين آمنوا معه، وللدعوة الجديدة، والتي هي بحاجة إلى هكذا صنف من الرعاة، الحماة لهذا الدين، وبما يحمله من مشاعل النور، والخير، والهدى، والصلاح للناس أجمعين.

ويفيد قوله ﷺ: ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة: أنه إذا تكلمت فأوجز! ولأنه كان خير الكلام ما قل ودل. وإذ ليس يقول من يقول إلا حقا يفيد الناس من قوله، ويحتذون من بيانه ولسانه.

قال أبو أمامة: سل يا محمد لربك ما شئت، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت. ويكأني بهم يقولون: يا نبي الله: لا سقف لطلباتك، فنحن رعاتها!

وهذا تمييز صائب، دقيق، رقيق، سميق، عال، حان، لطيف، وحين فرقوا بين ما يمكن أن يكون لله تعالى، أو أن يكون لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٣ /٢٠٣و ٢٠٤

وحين قام النبي ﷺ على إجابة القوم، موجزا رسالته، وأن الذي لله تعالى وإذ ليس هو إلا أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن الذي له ﷺ هو نصرته وإيواؤه ومؤازرته.

وهذا بعث للطمأنينة آفاقها في خلد هذا النبي الأمي العربي القرشي الحاشر العاقب الماحي ﷺ.

وقال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠]: وهذا الذي رأيناه من هذا الرعيل الكريم الفريد، وحين كانوا على المنعة، ولما كانوا على النصرة.

وها هم يوفون، وكأعظم ما سجل قاموس الإيفاء يوما! يوم أول وقعة، وإذ كان من حبكها وسمتها وسمقها وجيدها، ما به غُيِّر مجرى التاريخ البشري كله، ويوم بدر العظمى، وحين انتدب سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله تعالى عنه متحدثا رسميا عن معاشر الأنصار فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا! [١].

وهذا يوم الأحزاب، وهذا يوم جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، ويوم أن أوفى، وكما أوفى أبوه يوم العقبة الثانية هذا، ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤].

وإذ ها هو هذا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، يشاركهم حفرهم، ويذود عن نبيهم ﷺ، ويحمل عن إخوانه، فناء منقطعا نظيره، وبذلا ند مثيله!

وإذ ها هو يجود بصاع واحد من شعير، وهو إذ كان هذا هو الذي في بيته! ولم يحدثنا التاريخ أن كانت لديه بدائل من بر أو أذرة أو أرزا!

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٧٩

أخبرته بها زوجه الكريمة الأبية الوفية الباذلة المعطاءة سهيمة بنت مسعود الانصارية، رضي الله تعالى عنها، ولم يحمل ولم تحمل هم يومهما الثاني! بل بقية يومهما هذا! ولعقدهما الفريد، في ربهما المجيد، وحين تولى رزق العباد، القائم منهم والباد!

وهذا يوم الأحزاب، وحين قال الله تعالى عنه أيضا ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

تاريخا هكذا كان! تتناقله الأجيال، جيلا من بعد جيل آخر، أن ههنا كان قوم هم المسلمون، وإذ كان هذا فناؤهم في ربهم، حتى أسلموا الأمانة، وعلى خير وجه كان هذا التسليم، لأجيال أخر، تَلَتْهُم وجاءت من بعدهم، وإذ هموكهمو! نبلا وبذلا وعطاء وذودا وفناء.

وإذ ها هو ليلها كنهارها، بيضاء شفافة رقراقة، يبدو منها الفلاح، وينز من جنباتها الصلاح! ويتقاطر ويتغازر من حواليها العفاف الهدى، ويتهامر ويتهاطل من بينها الغنى والتقى!

ويفيد قوله ﷺ: فإن عليكم من المشركين عينا، وإن يعلموا بكم يفضحوكم. شفقة النبي ﷺ على أتباعه. وكما أنه يفيد وجوب أخذ الحيطة والحذر.

وهذا نظام وعمل جهاز الاستخبارات، ذي العين الساهرة، اليقظة، الحذرة، الواعية، العاملة، الدائبة!

وهذا نظام المتحدث الرسمي، سبقا لنبينا ﷺ!

ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة فإن عليكم من المشركين عينا، وإن يعلموا بكم يفضحوكم. لاتطل بقاءك في مكانك! وهذا مفهوم عسكري مجيد جديد سبق به ديننا! ويشي بسرعة التحرك، والانتقال،

والتخفي، وعدم ملازمة بقعة واحدة؛ وكيما لا يدع الفرصة لاقتناص عدوه له، وكما أن فيه إرباك الخصم، وإفشال مخططاته وقراراته أبدا، وإذ لا تقر له عين، وإذ لا ينام له جفن فيفقد التوازن والسيطرة!

ومنه فلا يملك الخصم زمام المبادرة، بل تتحول إلى أصحاب الحق الذي به يقولون، ومنه يعدلون.

كان يمكن لنبينا ﷺ، أو غيره من الدعاة العاملين إيثار السلامة، ولم يدع إلى التوحيد، ونبذ الشرك، وعندها لم يكن بحاجة إلى بيعة على نصرة أو إيواء، لكنها الأمانة الملقاة على عواتق الدعاة، الحماة، الحراس، العاملين، الواعين، المحتسبين، المكلفين، وأنه هذا عَهْدٌ عَهِدَ به الله تعالى إليهم، وليكونوا على مستوى مسؤولياتهم تجاهه؛ ولأنه تعالى قال ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧].

المسألة التاسعة: المسألة كلها لله!

أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم.

المسألة كلها لله، ولأنه كان منه ﷺ البدء بالتوحيد. وليس يكون توحيد وإلا أن يعبد الله تعالى وحده، وأن يكفر بما يعبد من دونه تعالى، وهذان هما أصلا العبودية، وهذان هما ركنا التوحيد الخالص لله تعالى العلي الأعلى سبحانه. وهذا وضوح رؤية موجزة. وحين كان منه التوحيد

والموجب للنصرة؛ ولأن هذه النصرة هي المقياس العملي لرابطتي الولاء والبراء في الله تعالى.

أتسمع أي عدو الله؟ أما والله لأتفرغن لك. ثم قال ﷺ: ارفضوا إلى رحالكم. [1]وهكذا فض الاجتماع عند حضوره إبليسا! ولأنه صلى الله عليه وسلم وحين عقد بيعة العقبة الثانية صرخ أزب، وهو إبليس، قائلا: يا أهل الجباجب - والجباجب المنازل - هل لكم في مذمم والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب العقبة، هذا ابن أزيب». [2]. وكيما لا تترك الساحة لإعلام سلبي. وليتخذ العبد ربه عونا، وحاكما، ودليلا، ومعينا.

خطب نبينا في الأنصار طالبا منهم عبادته تعالى وحده، وأن ينصروه، ولهم الجنة، فقال الشعبي: فما سمع الشيب والشبان خطبة مثلها! قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «لكم الجنة». قالوا: فلك ذلك [3]. وطالما أن الجنة هي الثمن، فكل يهون أمامها! ولو كان فيه الهلكة! وهؤلاء قوم قمم.

إن من الحكمة أن يدعى الناس إلى ما فتنوا به أولا، وأوله هذا الشرك الذي قد وحلوا به، وتوحيد قد أماطوا عليه الركام! ولأن هذا هو فعله ﷺ.

بل الدم الدم والهدم الهدم: أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم

هذا وفاء النبوة، وهو حق النصرة، وهو موجب رد المعروف، وهذا عمل إيجابي، تفيد منه البشرية المتلاطمة المتناحرة، وحين تعرف

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٢٠٥
(٢) المرجع السابق: ج ٢ / ٢٠٤
(٣) المرجع السابق: ج ٢ / ٢٠٣

أن قد سبق رجل كان نبيا، وإذ ترك إرث المناصرة، وموجب المعاقدة، وبرهان المعاهدة.

عن كعب بن مالك: نمنا تلك الليلة – ليلة العقبة – مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا، نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو بن عدي. فلما اجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له، فلما جلس كان أول متكلم، قال: يا معشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك!! وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده . . . قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك وربك ما أحببت، فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال كعب: فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: نعم، فوالذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن – والله - أبناء الحروب، ورثناها كابرا عن كابر، فاعترض هذا القول – والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال – يعني اليهود – حبالا وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا قال : فتبسم

رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . . . وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم النقباء، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. (١)

إنه حين يسقط امريء نفسه في وحل نكران المعروف، ولو كان قليلا، فإنما قد أسقط نفسه أول ما يسقطها أمامها هي! ليبدو ضعيفا منكسرا قدامها! وما باله إذًا أمام غيرها؟!

في رده ﷺ على أبي الهيثم: الدم الدم، إعلان عام أن المسلم ليس هو ذلكم الذي ينسى معروفا، أو يدير له ظهره؛ ولأن ذلك من أوائل خوارم المروءة!

ولأن التنكر للمعروف موحش! وهو عمل سلبي مهين، فقد كرر فيه الإسلام، وأطنب، وأسهب، وأعاد، وكرر! حتى جعل المعروف من الصدقات الجارية؛ استدعاء لمعناه باقيا في النفوس مؤثرا!

المعروف هو مائدة الإسلام الأولى، وسط مجتمعات ناكرة له، وقد كان أستاذ ذلك ومعلمه هو نبينا محمد ﷺ.

حين خشي بعض الأنصار ألا يناصرهم نبينا ﷺ ضد يهود إذا انقلبوا عليهم! وكان رده بل الدم الدم؛ ولأنه ليس نبينا ﷺ بالذي يدير ظهره لمعروف قدم إليه!

إن الحفاظ على قيم المروءة وأخلاق القمم سبيل رقي الأفراد، وطريق علو الجماعات؛ لتنهض عاملة أبية، ولأن عزيز القوم هو ذاك الذي ترفع بآدابه، وعلا بقيمه، وسما بأخلاقه!

---

(١) فقه السيرة، الألباني: ١٤٩. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

منقبة كعب بن مالك: قال كعب بن مالك: خرجنا إلى الحج وواعدنا الرسول العقبة، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا. وها هم كانوا يحجون وهم مشركون! ولكن هذا التكتم عمل ماهر، وسلوك باهر، وهما من موجبات التخطيط السليم؛ وللخروج بأفضل مخرجات ممكنة.

إن فضلا أُثِرَ أن كعب بن مالك كان من أهل بيعة العقبة الثانية لَيشي بوقوعه تحت لحظة ضعف بشري، حين تخلف عن غزوة تبوك؛ ولأن له سبقا هكذا رأيناه له فريدا!

إنني لأعجب حين أرى أنامل تكتب، وأخرى تسطر، بعيدا سحيقا عن النصوص! وأمامهم نبينا ﷺ لم يختر نقباء العقبة بل جبريل!

إن كثيرا مما أصاب المسلمين هو من نتاج الاستحسان العقلي، حتى وإن كان في معزل عن روح الدين الإسلام الحنيف الخالد، ونصوص الشريعة السمحة الغراء؛ ولأن هذه جرأة بغيضة على هذا الدين العظيم الكريم! والذي ما جاء من أساس إلا لإعظام أتباعه وإكرامهم، وحين كانوا على مقتضى رسمه ونهجه!

المسألة العاشرة: جبريل يختار الاثني عشر نقيبا!

إن قيام جبريل عليه السلام على اختيار النقباء ليلة العقبة دليل على أن هذا الدين يحارب البدعة، وفي أي زي ظهرت فيه. وبرهان على أن هذا الدين قائم على الاتباع، مما يجعله دينا خالصا من هوى الرهبان أو الأحبار، وأن هذا الدين كان - ولا يزال- مؤيدا من السماء لحظة بلحظة، مما أخرجه بحق دينا قيما.

كان جبريل عليه السلام يشير على نبينا ﷺ فيمن يجعله نقيبا ليلة العقبة. هذا دين قائم على الاتباع، ولا أحد يخرج عن رسمه شبرا بمن فيهم نبينا ﷺ.

وهذا دليل على أن عقول آحادنا قد يكون لها دائرة عمل بعيدا عن النص تماما!

وهذا برهان على أن أحدنا لايعاب، بل يمتاز، حين يتجرد للنص؛ لأن هذا هو موجب عقد العبودية مع الله.

وهذا دليل على أمانة الكلمة، وأنها لك حين توافق نصا، وأنها عليك حين تخالف شرعا! وأنت حصيف لما ينفعك.

إن اختيار نقباء العقبة من السماء، برهان على أن عقولنا غير محيطة، وقد كفينا، فلماذا بحث ليس مغنيا عنا، بل هو إضافة إلى ركام ذنوبنا، ويثقل كاهلنا، ولسنا نكاد نقوم أو ننتصب من حمله، ولسنا نشرع ننهض أو نثب من ثقله؟!

وعلى أنه لا حجر على عقل إلا في دائرة لا يحسن له ولوجها؛ لأنه لن يحسنها ابتداء وانتهاء.

ودليل على أن عقولنا لها دائرة تروح فيها وتغدو، وبعيدا عما كفيته شرعا، ونصا، ودينا.

وبرهان على أننا أمة مرحومة بالدليل، وكفانا ربنا شرودا هنا، أو رواحا هناك؛ رحمة بعقولنا المحدودة.

وتسلية لنا حين أخرنا النص! ألا طاقة لنا بالبدعة؛ لأنها إثم علينا مضاعف، تضاعُفَ من اتبعَنا فيه!

وبرهان على تخلية العقل لدوائر، ومساحات، ونطاقات نافعة، كالنظر فيما أبدع ربنا؛ شحنا لطاقاتنا الخلابة نحو التأمل، والتفكر، والنظر، والاعتبار، والاستذكار، والاستبصار!

إن اختيار السماء أهل العقبة الثانية موجبٌ خشيةً، وخضوعا، وخشوعا لهذا الرب القدير اللطيف الحليم الخبير، وحين كان ولم يزل قيوما على شؤون العبيد، هكذا شيئا شيئا، وهكذا قدرا قدرا!

يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا؟ فقال: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم. [١] أرأيت اتباع أتباع نبيك لنبيهم ﷺ؟! ورأيت بذلهم؟! وأرأيت حكمة نبيك ﷺ، وكيف أن مراحل الدعوات مرسومة قدرا مقدورا؟!

وقال الله تعالى ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]! وهذا كناية عما لانهاية لما فيهما! وحصر الأمر فيهما! فلم نغوص فيما لا نحسن السباحة فيه؟!

إن دوائر التفكر لتتأبى حصرا، وإن ساحات التدبر والاعتبار وإن هي إلا غدقا! فلم نبتعد عنها، ونحرم أنفسنا الطلة بعد الأخرى، بل معها، رغبا إلى الله تعالى ورهبا؟! ونشغل أنفسنا بما كفيناه، ورغما عنا، فلن نسبر غوره يوما، ولأنه خارج إمكاناتنا أيضا! ونكلف أنفسنا كلاما لايزيدنا إلا رهقا، وحين كان بعيدا عن نور النص وبهائه؟!

إننا لو خلينا عقولنا للتأمل والتفكر لانجذبت قلوبنا إلى الأفق الأعلى، خاشعة لخالق عظيم، كان من خلقه ما أبهر عقولنا، وأولها من أنفسنا، وحين نبصرا! وبل لحصلنا على نتائج تسوقنا سوقا إلى مشارف

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٣٠٧

العطاء، والنماء، والفلاح، والصلاح، والتعمير! بدل أن نشغل هذه العقول فيما لم تكلفه، وفيما لا طاقة لها به؛ ولأنه من وراء أعماق البحار!

المسألة الحادية عشرة: إظهار الأنصار إسلامهم بعد بيعة العقبة الثانية

حين رجع الأنصار أظهروا إسلامهم في يثرب، وكان لعمرو بن الجموح صنم من خشب، يدعى مناة، فألقوه في القاذورات! وهذه فئة خرجت من جهلها إلى نور ربها ونورها! وهذه فئة رجعت عازمة على دحر جحور الباطل، وإسدال الستار على عهود الظلام أبدا! وقد لاح فجر نورهم وفلاحهم!

وهكذا يرجع الناس، وحين أسلموا، وبوجوه غير تلك التي كانوا قد راحوا بها! وإنه لمرسوم على وجناتهم صبغة هذا الدين القيم، ولما كان من سيماه هو ذلكم الإعداد الجيد لقلوب تتلقى منهج ربها، وإذ هي مخلاة من ماض عتيد، عتيق، سحيق، كان قد أذلها، وحين كان قد أخرجها شيطانها ومن النور إلى الظلمات، وإذ ها هي الآن تعود شكيمة وعزة وإباء.

أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم [١].

وهذا هو أسيد بن حضير، وحين جاء إلى قومه، ومن مجلسه مع سفير الإسلام الموفق، مصب بن عمير رضي الله تعالى، وحين بدت عليه علامات إسلامه، وقبل أن يدلي ولو ببنت شفة! وحين جاء: فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٢٩٨

الوجه الذي ذهب به من عندكم. والله لعرفنا في وجهه الاسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتسهله! [1].

بل إن أسيد بن حضير هذا كان قد ظهرت عليه بوادر خير، وملامح هدى، وإشراقات صلاح، وها هو إذ يقدم ومجرد قدوم!

وبل إن كلا من مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة رضي الله تعالى عنهما وها هما اللذان يلمحان هذه الإشراقات!

قال مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة معا: والله لعرفنا في وجهه الاسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتسهله! .

وما هذا الرابط يا ترى بين هذه القلوب، وحين تراسلت ومن غير رسالة؟! وحتى يعرف كل من مصعب وأسعد رسالة إسلام أسيد، ومن قبل إدلائه بها؟!

وما هذا الرابط الإيماني القلبي بين كل من سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وحتى بدت سعد هذا علامات إسلام أسيد هذا، ومن بعد إسلامه، وحتى قال قوله هذا: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم؟!

لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!

وإذ ليس كان هذا خاصا بمن أسلم وحسب، بل قد كان عاما فيمن سمع الذكر صافيا غير عكر ولا نكد!

عن محمد بن كعب قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة كان سيدا حليما قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكلمه أمورا، لعله أن يقبل

---

(١) المرجع السابق: ج ٢ / ٢٩٧

بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ و ذلك حين أسلم حمزة بن عبد المطلب، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم فكلمه، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال: يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة و المكان والنسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاستمع مني، أعرض عليك أمورا، تنظر فيها، لعلك أن تقبل منها بعضها، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: قل يا أبا الوليد أسمع فقال: يا بن أخي إن جئت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد شرفا شرفناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، و إن كنت تريد ملكا ملكناك، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه، ولا تستطيع أن ترده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل، حتى يداوى منه، و لعل هذا الذي يأتي به شعر، جاش به صدرك، فإنكم لعمري يا بني عبد المطلب تقدرون منه على ما لا يقدر عليه أحد، حتى إذا فرغ عتبة، و رسول الله ﷺ يستمع منه، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم قال: فاستمع مني، قال أفعل، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: { بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا } فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت له، و ألقى بيده خلف ظهره، معتمدا عليها، يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة، فسجد فيها، ثم قال قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض يحلف بالله: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي أني والله قد سمعت قولا، ما سمعت لمثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا الكهانة. يا معشر قريش أطيعوني، واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ! فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، كنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه فقال: هذا رأي لكم فاصنعوا ما بدا لكم.[1].

وشاهده قول قريش بعضهم بعضا: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!

معمل علم النفس الإسلامي

وكم قد نادينا قبل أن تعقد معامل علم النفس أعمالها؛ ولتنظر في تأثير المناخ النفسي المحيط على قناعات الفرد، وما يمكن أن نفيده من وراء ذلك، وفي كافة أوجه النشاط البشري عموما، وهل يمكن اعتبار ذلك كمعمل جنائي في البحث عن الجرائم ومرتكبيها، أو غير ذلك، ومن تأثير المناخ المحيط على سريرة العبد، وما يمكن أن نفيده في إنشاء جو محيط حول المرضى عموما، أو المحبطين، أو غيرهم؛ للتفاعل مع هذا المناخ الجديد، ومن ثم يستروحون، ويسعدون، ويشفون، وكذا وما عداه أيضا!

وهذه هي الصبغة الربانية التي يصطبغ بها عباد الله تعالى، وحين يأخذون على ذوات أنفسهم بأنفسهم، متوكلين على الله تعالى ربهم، وأن يأخذ هو سبحانه أيديهم إلى حيث الهدى والتقى والعفاف والغنى

---

(١) سيرة ابن إسحاق: ١/١٨٧

والرضا والقبول والسلامة والأمن والإيمان والسكينة والأمن والطمأنينة، ورغد العيش أيضا، ولو كان كفافا! ولأن الغنى غنى النفس، فترى نفسا مؤمنة راضية مرضية بقسمة ربها، ولو كان زادها الأسودان التمر والماء! وحين كان يمر على هذا النبي الهلال والهلالان والثلاثة الأهلة! ولا يوقد في بيته نارا!

وإنما كان طعامهم الأسودين: التمر والماء!

فعن عائشة أم المؤمنين: ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين؛ وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار، فقلت: يا خالة، ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم، فيسقينا.[١].

وحين علموا أيضا أن الحق لله تعالى وحده، فبه ينعمون، وعنه يذودون، وإليه يدعون، وفي ظلاله يرفلون.

كانت وقفة الأنصار آية يذكرها التاريخ، يوم أن آووا نبينا ﷺ، وصدقوه، حتى لم يبق بيت فيهم إلا وفيه رهط من المسلمين يظهرون الإسلام.

كانت العرب تقول: احذر غلام قريش لا يفتنك! وهذا استكبار قوم عن الحق؛ ولأنه يمثله نبينا ﷺ ولذا؛ جثوا على ركبهم يوم جاء مكة فاتحا رحيما!

---

(١) صحيح البخاري: ٢٥٦٧

كم حكى لنا التاريخ أن الاعتماد على الكثرة كان سببا لانهيار البناء كله؛ ومن أعلاه وإلى أدناه! وبسبب فتنة قلبٍ، كان الأصل فيه ألا يتعلق إلا بمولاه الحق.

ستة بنود كانت هي بيعة العقبة الثانية، وكفيل بها أن تدرس للأجيال جيلا من بعد جيل آخر، وليعلم الناس كم كان بذل الأنصار؛ نصرة لدين ربهم سبحانه.

فعن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ لبث عشر سنين يتبع الحاج في منازلهم في الموسم وبمجنة وبعكاظ، وبمنازلهم بمنى يقول: من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة؟ فلا يجد أحدا ينصره ويؤويه، حتى إن الرجل يرحل من مضر، أو من اليمن، إلى ذي رحمه، فيأتيه قومه، فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله عز وجل له من يثرب، فيأتيه الرجل فيؤمن به، فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم بعثنا الله عز وجل، فأتمرنا، واجتمعنا سبعون رجلا منا، فقلنا: حتى متى نذر رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة، ويخاف، فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فقال عمه العباس: يا ابن أخي، إني لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب، فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس في وجوهنا، قال: هؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث، فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت

يثرب، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة، فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو أصغر السبعين، فقال: رويدا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على السيوف إذا مستكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب كافة، فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر عند الله، قالوا: يا أسعد بن زرارة أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها، فقمنا إليه رجلا رجلا يأخذ علينا بشرطة العباس، ويعطينا على ذلك الجنة. [١].

المسألة الثانية عشرة: صحوة من سهوة!

إن تحطيم صنم من خشب كان يعبده عمرو بن الجموح دليل على أن أدغال الشرك يبدأ بهم أولا؛ لأنهم فتنة للأغيار، ولأن لهم سلطانا فيهم.

وهذا دليل على مدى صنع الإسلام في أهله، حين لايخافون في الله لومة لائم. ولأن هذا الذي بايعوا عليه أولا.

قال عمرو بن الجموح مخاطبا صنمه: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع! هذا السيف معك! [٢] أرأيت كيف أدى الجهل بصاحبه؟! ولكنك رأيت، وحين يقظة من سبات، وبكأنك ثم رأيت، وكيف صنع الحق في الأدمغة، والقلوب، والعقول، وحين تتحول معه إلى شخوص غير التي كانت!

---

(١) تخريج المسند شعيب الأرناؤوط: ١٤٦٥٣. خلاصة حكم المحدث: صحيح
(٢) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٣ / ٢٢٢

ولكن فعل الأنصار هذا كان قد ضرب عقيدة عمرو بن الجموح هذا أيضا، وحين أحدثوا فيه هذه الصدمة، ولما لم يجد بعدها إلا أن يسلم وجهه لله تعالى وهو محسن.

وهذا هو الذي ندين الله تعالى به، فإن مصارحة الناس بما هم عليه، ولربما كان موجب يقظتهم، وبدل أن نروح بهم ذات اليمين مرة وذات الشمال مرة أخرى، ولعلهم يرشدون، ودون أن نقدم إليهم ديننا، وكما قد فعل نبيهم ﷺ، وكما قد علم أولاء الأنصار، وحين راحوا أول ما راحوا إلى تحطيم أصنام قومهم!

ثارت ثائرة قريش حين شاع شأن العقبة، وجرُّوا سعد بن عبادة من شعره! ولم يفكه إلا من صنع لهم معروفا في يثرب. ومنه فإن المعروف نافع في وقته. فلا يحقرن أحد من المعروف شيئا، ولو أن يلقى أخاه بوجه طلق.

فعن أبي ذر الغفاري: لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق. [١]

ومنه غيظ قلوب الذين كفروا، وحين يبصرون قناديل التوحيد تتنسم عبير العقد الفريد في الله تعالى ربها الحق المبين.

ومنه حنق أفئدة الذين أشركوا، وحين يرون مشاعل الهدى تتوقد، حاملة معها مصابيح الصلاح في دجى الظلمات الحالك!

إن تحطيم أصنام الشرك إفاقة للمشرك نفسه، ولما قال عمرو: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع! هذا السيف معك!

---

(١) صحيح مسلم: ٢٦٢٦

إن تحطيم وسائل الشرك تطهير لمجتمع غلبت عليه شعوذة سفهاء! كانوا عظماء في قومهم! وما هم بعظماء؛ لأنهم اتخذوا صنما من خشب يعبدونه!

إن تحطيم الأنصار لأصنام الشرك دليل على أنهم عرفوا من مقتضى إيمانهم أن الكفر بما يعبد من دون الله تعالى هو أصل في معنى الشهادة.

إن تحطيم أصنام الشرك دليل عملي على أن قلبا قد تخلص من ربقة الخوف إلا من الله تعالى؛ ولأنه لا يفعله إلا لله أيضا.

إن تحطيم صنم من خشب كان يعبده عمرو بن الجموح دليل على فعل ذاتي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين يخلص قلب لمولاه!

إن أهراما كثيرة لتعج بالخروج عن الجادة، ومن قمتها إلى قاعدتها، وحان وقت الرجوع والأوبة، سعادة وفلاحا لكلٍ.

إن مرارة العبودية لغيره تعالى تتمثل في عمل كمثل عمرو بن الجموح، ولما اتخذ صنما من خشب! والأصنام لا تنحصر في خشب، بل هي كثيرة!

إن تحطيم أصنام الشرك موجب أن يشكر من ابتلي به، لا أن يحارب ويؤذي من نهاه؛ ولأنه يريده عزيزا أبيا، ليس عبدا إلا لمن خلقه وحده سبحانه.

سيبقى إسلام عمرو بن الجموح درسا عالقا بالأذهان، ودليلا على انفتاح قلب نحو آفاق الهدى، ولما يرد الله ذلك؛ ولأنه كان غارقا في تيه شركه من قبل.

المسألة الثالثة عشرة: المسلم أستاذ الجيل!

لم يرض نبينا ﷺ دنية في دينه يوما، ويوم أن كان مطاردا، ولما جاءت الأنصار لبيعته، فوضع ميثاق العزة والإباء؛ ولأن الاستضعاف لا يبرر تنازلا عن القيم! ولو كان شيئا!

ولأن المسلم أستاذ الأجيال، حيثما حل، أو حيثما ارتحل!

ولأنني رأيت سجالا بين نبينا ﷺ، وبين أبي جهل، وحين كان من شأنه: إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها. قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم! (١).

ولأنني رأيت مصعب بن عمير يتأبى وإلا أن يكون عزيزا! وحين كلموه شأن أسيد بن حضير، فقال: إن يجلس أكلمه! (٢).

ولأنني رأيت عمر الفاروق عزيزا، ويوم قال يوم الحديبية: ففيم نعطي الدنيَّةَ في ديننا؟! (٣) ورأيته قال لأبي سفيان يوم أحد: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك. (٤)

ولأنني رأيت نبينا ﷺ يوم أحد، وحين قال أبو سفيان: أُعْلُ هُبَل. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله أعلى

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٣٣٣
(٢) تاريخ الطبري، ج ٢ / ٨٩
(٣) صحيح مسلم: ١٧٨٥
(٤) صحيح البخاري: ٣٨١٧

وأجل». قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. قال النبي ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم». (١)

ولأنني رأيت سعد بن معاذ يوم الأحزاب يقول: أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم! (٢).

ولأنني رأيت أبا بكر يقول: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. (٣)

ولأنني رأيت ربعي بن عامر يقول: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لتدعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله. (٤).

ومنه فإن قولا بالعمل من دائرة الممكن والمتاح! وهذا وإن كان حقا، وإلا أنه قد يتلبس بمسوح، يخشى أن يترك من أجله الأهم، والعمل في دائرة الأقل أهمية! وهذه قاعدة قمنة درسا، وعلما، وفقها، ودربة، ودراية!

ولكن هذه الأستاذية وإذ هي العزة، ولكنني ألبستها ثوبها هذا القشيب؛ ولأن المسلم ومن كونه أستاذا، وإنما يحمل بين جنباته هم

---

(١) المرجع السابق: ٣٨١٧
(٢) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: ١٤٦٥٣. خلاصة حكم المحدث: صحيح.
(٣) صحيح البخاري: ١٣٩٩
(٤) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٤ /٣٩

دعوته تكليفا منه تعالى، وإذ كان له بذلك شرف إعلان هذا التكليف، ومن تواضع ولين جانب منقطعين.

ولأن هذه الأستاذية، وإنما جاءت من بنات استنباطات قوله ﷺ: فضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم، إن الله عز وجل وملائكته، وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير. (١).

وأقول أيضا: إن هذه الأستاذية ليست تعني كبرا، بل تواضعا، وإنها ليست تعني جهلا، بل حلما، ولأنها ليست تعني جفاء، بل لينا ورفقا.

فعن عبد الله بن مسعود: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس. (٢).

وهكذا كان نبينا محمد ﷺ معلما للخير، وإذ كان هينا، لينا، رفيقا، حليما، متواضعا، رقيقا، حنيا، لطيفا، حييا.

ولكن هذه الأستاذية وإذ هي العزة، وهذا الذي ندور حوله، ولعله أن يبلغ رشده، فيصل إلى مستقبل كريم، وكما قد رأيناه أثرا من آثار هذه العقيدة الصلبة في الله تعالى، ولما قد عملت في عبيده تعالى عملها هذا، وحين صاروا به أعزاء.

وهذا أيضا عامل نفسي، حسن الوقوف حوله، ودراسته ومن حيث أثر العامل الإيماني في اصطباغ صاحبة بصبغة العزة والإباء

---

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٤٢١٣
(٢) صحيح مسلم: ٩١

والكرامة، والتي من بعدها تراها أسعد ما يكون، وحين يقدم عبد مهجه لله تعالى! وراضيا مرضيا، بل ينشط من أجلها، ويبحث عن سبلها. ولايترك بابا لولوج الفناء إلا بذله، متطلبا إياه، صادقا فيه مسعاه!

وها أنت قد رأيت كيف كان فعل عبد الله بن عمر يوم أحد، وحين رده النبي الله ﷺ؛ لصغر سنه، وها هو يعود باكيا! ولما قد بلغ الخامسة عشرة يوم الخندق فقبله الله ﷺ؛ ومن عزيمة عبد الله بن عمر هذا نفسه، وإلا كان قد توارى؛ وفرصة أنه رده النبي الله صلى الله عليه وسلم!

فما هو الدافع إذًا، والذي كان من وراء بذل هذا الشبل ويومه هذا، وإلا أن تكون هذه العقيدة الصلبة في الله تعالى، وحين يأخذها العبد من مصدرها، حق أخذها، وحين يرعاها أيضا حق رعايتها؟!

فعن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة، فلم يجزني، ثم عرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة، فأجازني. قال نافع: فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة، فحدثته هذا الحديث، فقال: إن هذا لحد بين الصغير والكبير، وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة. [١].

حين أخذت الأنصار شفقة بنبينا ﷺ، بايعوه بيعة العقبة الثانية، سمعا، وطاعة، ومنعة، وإنفاقا، وأمرا، ونهيا، ونصرة، وألا يخافوا في الله تعالى لومة لائم.

---

(١) صحيح البخاري: ٢٦٦٤

لطائف ذات صلة

إن كثيرا من الأحداث التي مر بها ديننا، جدير بالوقوف أمامها طويلا؛ لتلقي درس من بعد درس آخر، ومنه بيعة العقبة الثانية؛ لأنها يوم مجد للإسلام عظيم.

إنه لو كان في الإسلام عيد إضافي غير الفطر والأضحى، لنادينا أن يكون يوم العقبة الثانية عيدا! ولأنه يوم تلويح لفجر جديد لدعوة نبينا ﷺ.

قال نبينا ﷺ للنقباء من الأنصار: تؤوني وتمنعوني؟ قالوا: نعم. قالوا: فما لنا؟ قال: الجنة. هذا قول حدثاء عهد بالإسلام، وهو تطلع لرحمته تعالى.

والجنة غاية شمر لأجلها المشمرون، ومن قبل كان استحقاقه تعالى أن يكون معبودا وحده وبلا شريك، ولأنه لم يشاركه أحد في خلقِهِ خلقَهُ! وليس أحد على ذلكم بقادر من شيء! وإلا الله تعالى وحده.

إن عظائم الأمور سبيل رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه رجالا أو نساءً. لأن العقبة الثانية تقدمها امرأتان بايعتا على مثل ما بايع الرجال.

إن الضغط الإعلامي السلبي على المرأة المسلمة، العزيزة، الكريمة، الأبية؛ لتحويل اهتمامها عن أصل الاهتمام الأول، هو ضرب للمجتمع كله؛ لأنها أساس تربيته وحاضنته!

كان وجود امرأتين مع الثلاثة والسبعين رجلا في العقبة الثانية دليلا على أن المرأة المسلمة لها اهتمام لايقل عن الرجال قيد أنملة! ولكنه لكل حقله الذي يبدع الزرع والغراس فيه!

إن تجشم الثلاثة والسبعين رجلا وامرأتين في العقبة الثانية، وها هم يجابهون عالما ضج كفرا، لموجب حياء أحدنا، وحين يكون همه أدنى من ذلك بكثير.

إن أخذ ميثاق العقبة الثانية، وبهذه الصورة دليل على أن الاستضعاف يمكن أن يخرج من رحمه قوما ذوي قوة وأنفة، لايقبلون ضيما!

إن النظر في بنود العقبة الستة يقول: إن هؤلاء قوم صدقوا حقا؛ ولأن كل بند فيها موجب ألا ينام ليلة واحدة في بيته آمنا!

رأيت تشويها للقدوات الحسنة في تاريخنا وبأيدينا! ولايفيد منه إلا أعداء ديننا. وهذا نداء أبوي حانٍ.

إن غض الطرف عن امتثال القدوة الحسنة، وما أكثرها في ديننا! لسوف يخرج أجيالا وبالا على أنفسهم، قبل دين ربهم، ثم أوطانهم. وهذا نداء أبوي حانٍ.

إن إظهار غير القدوة قدوة خرج أجيالا، لا تصلح أن تعيش حياة الكرماء الأعزاء، فضلا عن تقود أمما.

إن نظرة في اهتمامات أهل العقبة الثانية، واهتمامات عصور أُخَرَ ليجعل المرء مشدوها؛ من هكذا فارق أكثر مما بين السماء والأرض!

إن نساءنا ورجالنا بخير، حين رفع الكيد الإعلامي السلبي عن كاهلهم؛ كيما يفيقوا إلى رسالتهم المنشودة، وإلى تاريخهم الناصع الأبيض النبيل، وعندها سنرى مجتمعا ناهضا، سامقا، عاليا، خفاقا، وها قد أتى أكله من كل صوب وحدب جميل أصيل!

عن جابر قال: كان العباس آخذا بيد رسول الله ﷺ ورسول الله يواثقنا، فلما فرغنا قال رسول الله ﷺ: «أخذت وأعطيت». [1]. أخذ البيعة، وأُعطِيَ الجنة.

إذا حكينا مجد الثلاثة والسبعين رجلا وامرأتين لأبنائنا وبناتنا، لنبهروا! أننا أغمضنا طرفا عنهم، مقابل تزيين ما لا يصلح أن يكون قدوة!

إن اطلاعا على كثير مما ينشر، أو يكتب، أو يمثل، لدليل على مدى اهتمامات الناس، وهو اهتمام لايرقى أن يخرج جيلا يتبوأ الصدارة في عالمنا، الواسع، الممتد، المترامي، الفسيح!

يحسن ألا نخرج عن قواعد الإنصاف، حين نرى تشويها لتاريخنا، وبأيدي أبنائه، ولو بغير قصد؛ لأن النتيجة أننا شركاء في هدم صرح بناه الأمجاد!

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ /١٩٦

الفصل السادس

الهجرة إلى المدينة

وفيه مباحث:

المبحث الأول: موجب الهجرة

قالت عائشة زوج نبينا ﷺ: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار: بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجرا قبل الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة، وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي، قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يخرج؛ فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك، فارتحل ابن الدغنة، فرجع مع أبي بكر، فطاف في أشراف كفار قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟! فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وآمنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر، فليعبد ربه في داره، فليصل، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به؛ فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة، ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء، لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة،

فقدم عليهم فقالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك، فابتنى مسجدا بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فأته، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك؛ فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر، فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي؛ فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له، قال أبو بكر: إني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله. ورسول الله ﷺ يومئذ بمكة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أريت دار هجرتكم؛ رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين». وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة، وتجهز أبو بكر مهاجرا، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك؛ فإني أرجو أن يؤذن لي»، قال أبو بكر: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر. [١].

وهكذا كان نبينا ﷺ لايتحرك حركة ولايسكن سكنة إلا بوحي، وكان منه الرؤيا الصالحة. وهو لنا قدوة حسنة؛ نترسم خطاها، ونهتدي بهداها.

إن نبينا لم يقم بعمل واحد إلا بهدي، وكان منه الرؤيا الصالحة، توطئة وتمهيدا لأعمال دعوته في مراحلها المتلاحقة المتسارعة. ومنه الهجرة.

---

(١) صحيح البخاري: ٢٢٩٧

إن قوله تعالى ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]. برهان على أنه إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم مقيدا بالوحي فما بالك بغيره؟ ولأنه كفاية عن عقولنا حين تسرح كثيرا.

إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها. ثلاثة مقومات: الإخوان الناصرون، ودار فيها تنصرون، وأمن به تأمنون.

هذا بيان أن الأمر كله لله، وليس لأحد فيه شيء، وإنما يعمل ﷺ بهدي ربه أسوة حسنة.

إن الله أوحى إليَّ أي هؤلاء البلاد الثلاثة نزلت فهي دار هجرتك، المدينة أو البحرين أو قنسرين، فعزم له يثرب؛ ولأنه كانت بها قاعدة الأنصار.

حين روى نبينا ﷺ رؤيا هجرته فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين. لأن الناس يسيرون بهدي!

إن إسناد الأمر كله لله تعالى هو بيان عام أن ذلك من مقتضى إيماننا بأنه تعالى ربنا وحده.

إنه وحين يعلم امرؤ أن الجعل منه تعالى، ولأنه يمنحه رضا وقبولا واطمئنانا وإقداما غير راجف.

دارت مادة جعل حول الخلق، والصنع. والوضع. والتعيين والإقامة. هكذا معان خمس! وهذه بلاغة اختيار!

إنه حين دارت مادة جعل على خمسة معان، فدل على دقة اختياره ﷺ للفظ؛ ليؤدي معناه دائرا عليها أيضا؛ ولأن شرف الاسم من تعدد مسماه.

إن مسيرة المسلم كلها بهدي، لا يخرج عنه قيد شيء؛ ولأن هذا هو دليل العبودية والتسليم له تعالى.

هذا درس هام في التنمية البشرية؛ لأنك به باعث أملا واطمئنانا في منشأتك؛ استدعاء لقيم البذل.

إنه حين كان الجعل منه تعالى فإنما كان دليلا على إعماله ﷺ لدالة التعلق به تعالى وحده.

إنه حين يكون الجعل منه تعالى وعنده، ولأنه ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

إن إسناد الأمر كله لله تعالى هو بيان عام أن ذلك من مقتضى إيماننا بأنه تعالى ربنا وحده.

إنه وحين يعلم امرؤ أن الجعل منه تعالى، ولأنه يمنحه رضا وقبولا واطمئنانا وإقداما غير راجف!

إنه حين تضيق بعبد سبل دعوته، فإن أرضه تعالى واسعة فيهاجر فيها، ولأن القصد العام، هو أن يعيش العبد مقيما لدينه، وفي أية بقعة كانت صالحة لذلك، ولأنه تعالى قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

حين أذن الله تعالى بالهجرة توجه الناس إليها أرسالا مطمئنين إلى وعد ربهم، وأنه لن يضيعهم، وحين كان قد أبدلهم دارا خيرا من دارهم.

إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها: إن تصدير الكلام ب(إن)، ليس توكيدا فحسب، وإنما هو داعية أن الخيرة دائما له تعالى وحده؛ وذلك طمأنة للعباد، وحين علموا عن ربهم حلما عليهم، ولطفا بهم.

إن توجيه الخطاب هكذا دليل اختصاص وعناية، وأن القوم سيهاجرون، وحيث كان الاختيار منه تعالى.

المبحث الثاني: هجرة أم سلمة

قال ابن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة، زوج النبي ﷺ قالت:

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد؟ رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكى، حتى أمسى سنة أو قريبا منها، حتى مر بي رجل من بنى

عمى، أحد بنى المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة، ألا تخرجون هذه المسكينة! فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله، قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بنى عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبنى هذا. قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوى بي، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عنى، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عنى إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عنى، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم نزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة نازلا بها - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعا إلى مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الاسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة. [١].

كان من أمر أبي سلمة أنه عزم على الهجرة مصطحبا معه زوجه أم سلمة وولديهما معه، إلا أنه أيضا، وحين عزمت أم سلمة على مرافقته في الهجرة، وكان من أمر أهلها أنهم منعوها وابنها، وفرقوا بينها

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ /٣٢٢و ٣٢٣

وبين زوجها، بيد أنها صبرت، واحتسبت، وجلدت، ولم ترجع عن دينها مترخصة بإكراه!

إن درسا تعلمنا إياه أم سلمة، حين صابرت فيه تعالى، أن طريق الجنة ليس ممهدا بالورود، وإنما هو طريق محفوف بالمخاطر، ولأن سلعة الله غالية!

إن درسا في الصبر كانت أم سلمة قدوتنا فيه، ولما جلست عاما كاملا وحدها وابنها، تنتظر فرجه تعالى، وبفأل حسن، ولأنها علمت قوله تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]!

إن دينا جعل من تضحيات الصحابة كمثل أم سلمة، وهي امرأة، يجعلنا في شق من ألم، ونحن ننتظر مدد السماء ونحن ههنا قاعدون!

المبحث الثالث: خبر عثمان بن طلحة بن أبي طلحة مع أم سلمة

حسن الوقوف مليا أمام موقف عثمان بن طلحة بن أبي طلحة مع أم سلمة؛ دليلا للأجيال، أن رجلا رافق امرأة في رحلة قوامها أربعمائة وخمسين كيلو مترا ليل نهار، ولم يمسها بسوء، وإنما قدم مروءة وشهامة وحسن خلق وعفة يندهش أمامها كل ذي لب، وكل ذي عقل رشيد، ورأي سديد، وإنما كان ذلك في ثلاثة أيام بلياليها!

إن موقف عثمان بن طلحة بن أبي طلحة مع أم سلمة دليل على أن الله تعالى لم يكن ليذر المؤمنين، ولو طرفة عين، وإنما هو طريق التمحيص والرعاية معا.

قال: أو ما معكِ أحد؟ قلت: ما معي أحد إلا الله وبني هذا. إن ربنا خير معي، ولنكن عند مستوى حدث أم سلمة، يقينا به تعالى، وحين سخر من وداها آمنة.

إن عملا قامت به أم سلمة، وحين أرادت الهجرة مع زوجها وولدها، إلى دار جديدة، لا مأوى لهم فيها ولا قرار، إنما هو عنوان على دالة اليقين بالله تعالى، وأنه لن يضيع عبدا اختار سبيله على كل سبيل آخر.

إن فعل أم سلمة مع زوجها، وحين خرجت ماشية لتتبع أثره، حسنٌ به أن يسجل بمداد غير مداد الناس هذا! وليبقى أسوةَ وفاءٍ للنساء وللرجال معا!

إن درسا في المروءة والشهامة نتلقاه على يد عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، حين رافق أم سلمة إلى المدينة؛ ليسلمها إلى زوجها، ثم يعود إلى مكة ثانية!

عند الحكم على مروءة عثمان بن طلحة بن أبي طلحة مع أم سلمة، نستحضر مسافة قوامها أربعمائة وخمسين كيلو مترا، كانت تقطع في ثلاثة أيام، ولا تقاس على زمننا، وإذ تقطع في أربع ساعات! أو حتى ساعة واحدة، أو جزء ساعة!

أم سلمة: فو الله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه؛ لأن عثمان صنع من مكارم الأخلاق ما عز وصفا حين أحاطها برعايته وكفالته!

ليس يكفي أن نسطر أمجاد جيل فريد، هو جيل الصحابة البررة الأبرار الأخيار، بقدر أن نكون على شيء من مستوى الحدث، اقتداء وترسما؛ كيما ننير طريقا حالكا للناس تبعا، ولأنفسنا معهم سبقا!

إن المثل العليا إنما سطرها صحابة نبينا ﷺ نساء ورجالا، وهي التي صنعت تاريخا مجيدا، نحن نعيش على سلواه، حينا من بعد حين آخر!

إن دينا جعل من تضحيات الصحابة كمثل أم سلمة - وهي امرأة - يجعلنا في شق من ألم، ونحن ننتظر مدد السماء وبعضٌ ﴿هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]!

المبحث الرابع: خبر عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص

قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدما المدينة ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرقَّ لها. قال: فقال: أبرّ قسم أمي ولي هنالك مال فآخذه. قال: قلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك. قلت: أما إذ فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من أمر القوم ريب فانج عليها. فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا بن أخي والله لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى. فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه رباطا، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

قال عمر: فكنا نقول: لا يقبل الله ممن افتتن توبة. فقلت له: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فو الله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. [1].

إن تتبع أبي جهلٍ بنِ هشامٍ وأخيه الحارثِ عياشا، من مكة إلى المدينة! ليفتنوه، قد دل على أن الإعلام السلبي نفسه عميق، ولأن المسافات لديه لا اعتبار كثيرا لها! وليكن نفس أحدنا أعمق لدرئه!

حين كذب أبو جهل بن هشام، وأخوه الحارث على عياش، حتى أوثقاه، ففتن، فدل أنك لا تأمن إلا لمن تبع دينك، وتسأله تعالى الثبات، فالأشواك كثيرة.

إن فتنة تعرضت لعياش بن أبي ربيعة، ولما هاجر مخلصا، تجعل أحدنا مشفقا متعلقا بباب ربه، سائله ثباتا على الطريق؛ لأن فخاخا كثيرة نصبت له.

قال عمر لعياش: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما! هذا عمل الحب في الله. إيثار بنصف ماله! خشية أن يفتن!

ولعل أوقافا إسلامية توقف لأغراض كثيرة، وليكن منها مثل هذا الغرض؛ فكاكا للأسرى، وإفراجا عن المحبوسين، ومعاونة المضطهدين والمعوزين.

حين هاجر عياش بن ربيعة، فأخبروه أن أمه حرمت مشط شعرها، أو استظلالا بظل، إلا أن يرجع إلى مكة - مشركا -، وظلوا به حتى فتنوه. وهو دال على مدي ما للجواذب الأرضية من أثر! فحذار منه تبعا.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٣٢٦

حين فتن عياش قال عمر: لا يقبل الله ممن افتتن توبة. فنزل قوله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وذلك استشرافا للتوبة، حين كان ممكنا ألا يوصد لها باب، ومن حيث لم يغرغر، ومن حيث لم تطلع الشمس من مغربها، وهو دال أيضا على مدى ما اتصف الله تعالى به من رحمة، ومن لطف، ومن مغفرة.

المبحث الخامس: مقارنة بين فعل عياش بن ربيعة وفعل سعد بن أبي وقاص

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: قال: نزلت يعني: قوله تعالى ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥]. فيَّ خاصة، كنت رجلا بارا بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد! ما هذا الذي أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب، ولا يعلني سقف حتى أموت فتعير في فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أماه فإني لا أترك ديني هذا، فمكثت يوما وليلة لا تأكل، فلما أصبحت جهدت ومكثت يوما آخر وليلة كذلك، فلما رأيت ذلك منها، قلت: تعلمين والله يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا، فكلي إن شئت أو لا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت"[١].

وعن سعد بن أبي وقاص أنه نزلت فيه آيات من القرآن؛ قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال:

---

(١) عمدة القاري، العيني: ج ٢٢ / ٨١

مكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له: عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۚ [العنكبوت: ٨]، وفيها {وصاحبهما في الدنيا معروفا} [لقمان: ١٥]. قال: وأصاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة، فإذا فيها سيف فأخذته، فأتيت به الرسول ﷺ، فقلت: نفلني هذا السيف؛ فأنا من قد علمت حاله، فقال: رده من حيث أخذته، فانطلقت، حتى إذا أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي، فرجعت إليه، فقلت: أعطنيه، قال: فشد لي صوته: رده من حيث أخذته. قال: فأنزل الله عز وجل: {يسألونك عن الأنفال} [الأنفال: ١]. قال: ومرضت فأرسلت إلى النبي ﷺ، فأتاني، فقلت: دعني أقسم مالي حيث شئت، قال: فأبى، قلت: فالنصف، قال: فأبى، قلت: فالثلث، قال: فسكت، فكان بعد الثلث جائزا. قال: وأتيت على نفر من الأنصار والمهاجرين، فقالوا: تعال نطعمك ونسقك خمرا، وذلك قبل أن تحرم الخمر، قال: فأتيتهم في حش -والحش البستان- فإذا رأس جزور مشوي عندهم، وزق من خمر. قال: فأكلت وشربت معهم، قال: فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم. فقلت: المهاجرون خير من الأنصار. قال: فأخذ رجل أحد لحيي الرأس، فضربني به، فجرح بأنفي، فأتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فأنزل الله عز وجل في -يعني نفسه- شأن الخمر: {إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان} [المائدة: ٩٠]. وفي رواية: أنه قال: أنزلت في أربع آيات، وساق الحديث بمعناه. وزاد في رواية: قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصا، ثم أوجروها. وفي حديثه أيضا: فضرب به أنف سعد، ففزره، وكان أنف سعد مفزورا.[١].

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٤٨

قال سعد بن أبي وقاص: والله يا أمي لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا. وفتن عياش بأمه فارتد! هاتان صورتان ترتعد أمامهما الفرائص؛ خوفا، ورعبا، وحذرا. ولأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

ولأن المسلم عليه أن يتخذ من الأسباب والوسائل المعينة على الثبات، ما أمكنه ذلك؛ ولأن عثرات الطريق كثيرة، وليكن أول ذلك اعتصامه بحبل ربه تعالى صراطا مستقيما.

هددت أم سعد بن أبي وقاص ألا تأكل ولا تشرب حتى يكفر بمحمد ﷺ، وحين أبى أكلت، مصداقا لنصح عمر عياشا! وإنه قد ثبت سعد فنجا، وأما عياش ففتن! وأما عمر فهذه فراسته أبدا!

نصح عمر عياشا ألا ينساق وراء تهديد أمه؛ لأنه إن أكلها القمل مشطت، وإن سفعها الحر استظلت! ومنه فأخذ نصح أخ لأخيه محمل الجد، ثقة به، فهو ناصح أمين.

إن موقف عمر مع عياش، وهو إذ يحاول إثناءه عن قرار العود إلى مكة، دل على أن أخا لك في الله لتعض عليه بالنواجذ؛ ولأنه سبب حام لك من رجس الفتنة.

إن من حكمته تعالى تعلما من فتنة عياش أنه تعالى يغفر، وحين قد رجع إليه عبده تائبا منيبا، استشرافا لطاقة إيجابية نحو الحق مودعة فيه.

المبحث السادس: هجرة صهيب الرومي

بلغني أن صُهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم! قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب». [(١)].

كان من نبأ هجرة صهيب أن قريشا خيروه بين ماله فيتركه وبين منعه فاختار الأول، فقال نبينا: ربح صهيب، ربح صهيب. ولأن الله تعالى قال ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

إن من رحمته تعالى أن أبقى باب توبته مفتوحا أبدا، وإلا لقنط قوم آخرون، ذلك و ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

المبحث السابع: خبر هشام بن العاص

كان هشام بن العاص ممن فتن ورجع، فأرسل إليه عمر الفاروق قوله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. فاستغلق عليه فهمها، فدعا ربه تعالى، ففهمها، فتاب، وهاجر ثانية!

ما أعظم حلم الله تعالى حين يفتح باب توبته أبدا: هل من تائب فأتوب عليه؟! ولو كان شركا! لحديث" ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة

---

(١) عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن عبد الله بن يحي ابن سيد الناس: ٢٣٠/١

إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني، فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟"[١].

غير أنك لا تله، بل تعلق بحبله تعالى أبدا أيضا. ولأنه لايؤمَنُ مكره تعالى؛ ولأنه تعالى قال ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. ولأن الموت بغتة بلا إعلان مسبق! غير إعلان عام سبق، من مرض أو موت قريب أو جار أو غيرهما!

المبحث الثامن: علم نبوة ضاف

حين أنزل الله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]. فدعا به نبينا فهاجر به. وإنه لا حركة ولا سكنة إلا بهدي منه تعالى؛ وليسير عليه عبده ورسوله محمد ﷺ!

وهكذا يستن الحنفاء بسنة نبيهم ﷺ، وحين لا يخطون خطوا إلا من هدي، ولما لا يؤخرون قدما إلا من قدوة.

{ وقل رب أدخلني مدخل صدق (المدينة) وأخرجني مخرج صدق (الهجرة من مكة)واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا(كتاب الله وفرائضه وحدوده). و" ذلك أمر من الله تعالى نبيّه بالرغبة إليه في أن يؤتيه سلطانا نصيرا له على من بغاه وكاده، وحاول منعه من إقامته فرائض الله في نفسه وعباده"[٢].

---

(١) صحيح البخاري، ١١٤٥
(٢) جامع البيان، بن جرير الطبري: ج ١٥ / ١٨٨

إنه لتأخذ أحدنا إشادة وهيبة، حين يطالع إخوانه الأنصار، وهم يفتحون منازلهم لإخوانهم المهاجرين، ضيوفا عليهم؛ ولأنه من فعل دينهم بهم!

حين قدم بعضهم من مكة فنزلوا العصبة، وكان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة؛ لأنه كان أكثرهم قرآنا. ومنه يقدم الأكثر قرآنا في الإمامة. ولو كان عبدا! وهذا ديننا.

حين قال نبينا ﷺ: ربح صهيب، ربح صهيب. قال صهيب: يا رسول الله: ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبرائيل عليه السلام. وهذا علم نبوة آخر!

المبحث التاسع: انعقاد مجلس الأمن القومي لقريش!

إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس: {يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم} إلى قوله: {فأغشيناهم فهم لا يبصرون - ١ و ٩ من سورة يس} حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هاهنا؟

قالوا: محمدا، قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا. [١].

بينما ينعقد مجلس الأمن القومي في دار الندوة؛ لتبادل الآراء حول قتل نبينا ﷺ، أو إخراجه، أو حبسه، ليأتيه جبريل: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه! [٢]! وإنه؛ ولأنه قضي الأمر! وهكذا أمر ربك، وحين يحل، وبه تفشل مخططات الخصوم المعاندين.

حين رأت قريش هجرة نبينا ﷺ، حذروا أنه سيعود إليهم فاتحا! وكفى به مغصا لبطونهم، أن يعيشوا على هكذا إحساس، ولما لم يقع، والله أعلم متى سيقع!

كان أبو بكر يستأذن نبينا في ﷺ الهجرة، فيقول له: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا. فيطمع أن يكون. وقد كان، إن استشرافك الخير فأل حسن بقدومه لك.

حين دعا نبينا ﷺ ربه بمدخل صدق، أدخله المدينة، ليجدها قرارا، وليحيط به أهلها أنصارا. إن دعاءك هو سلاحك المضاء، فلا تتخل عنه طرفة عين أبدا!

خرج نبينا ﷺ من بين أيديهم، وعلى مرأى منهم؛ إعجازا! ولو كانت فيهم مسحة عقل لآمنوا توا؛ لما رأوا خلوصه سالما، وكان يمكنهم الإجهاز عليه!

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٣٣٣
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٣٣٣

إنه لا يُنسَى قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]. وحري بعبد تقلدها عقدا فريدا في قلبه، ووساما مجيدا على صدره!

حين رأى نبينا ﷺ مجلسهم قد تحول إلى بيته محاصرا لقتله، أمر عليا بن أبي طالب أن ينام في فراشه، ووعده ألا يمسوه بسوء! وهذا يقين نبيّ، وهذا علم نبوة ضاف، وهذا يقين عليّ، وقد كان!

إنه ليربأ بمناوئي الحق أن يربعوا على أنفسهم؛ لأن الله أبى إلا أن يتم نوره، وقد أفشل خططهم جميعا، حين كادوا لنبيه ﷺ، فخرج من بينهم سالما!

أبى الشيطان إلا أن يتلبس بصورة إنسي لحضور مجلسهم في دار الندوة، مشيرا بقتله ﷺ، ويأبى الله إلا أن يخزيه؛ نصرا لدينه، وإعزازا لنبيه.

إن قراءة نبينا ﷺ أوائل سورة يس، حين خروجه، دليل على أنه تعالى يجعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. ومنه فإن هذا القرآن حقا حجاب، يستتر به أولياؤه، ويجابَه به أعداؤه. ولأنه الله تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

لو كان قصر منعة نبينا ﷺ عليه لكان قوله ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ مفرغا من معناه! وحاشاه!

لايجوز قصر منعة الرسول ﷺ، حين خرج من بين أيديهم! وعلى مرآهم! عليه وحده؛ ولأنه قد حدثت معجزات من ذلك لعباد أبرار، وعلى مرور الزمان أيضا! ولأنه قول بغير ذلكم، يجعل هذا القرآن

محصورا على أولاء الذين نزل فيهم، وها نحن نعاين بركاته على الناس كافة!

سيظل خروجه ﷺ من بين أيديهم، ولما لم ينفذوا إليه آية أخرى، على أن الله تعالى مانع عبدا اصطفاه، ولئن اجتمعت عليه الإنس والجن، وليطمئن!

قال أبو جهل: يزعم محمد أنكم إن تابعتموه ملكتم، وإن أبيتم فالنار مثواكم! فخرج نبينا ﷺ، فأخذ حفنة من تراب، وقال: نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم!

إن أحاديث فضل سورة يس كلها إما ضعيفة أو موضوعة وإنما قرأ نبينا ﷺ أولها؛ دلالة على الحفظ بعموم القرآن الكريم، لا اختصاصا بسورة ما.

إن التعرض لمكره تعالى خيبة مركبة؛ ذلك لأن مكرا للعبد لايرقى أن يكيد إلا لنفسه، ولأن مكرا لله تعالى يحيط بعبد حتى يفقده كل قوة فيه!

وقال الله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وهذه خياراتهم الثلاث! ولا خيار واحدا منها حققوه! فقد حيل بينهم وبينه! ولأنه في حفظ ورعاية وكلأ ربه تعالى ولما قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

دائما ما يلفت القرآن الأنظار إلى أن قدرة نافذة هي التي يسير على هديها نبينا ﷺ، وذلك تعليقا للقلوب به تعالى، كذلك الذي حدث يوم الهجرة.

خرج نبينا ﷺ إلى هجرته، ووضع ترابا على رأس كل منهم، إمعانا في الإعجاز، ولربما رأوا آية ليسلموا، ولأن هدفا أسمى أبدا، هو إسلامهم لاعداؤهم!

إنه لو كانت قريش تعي ولو قليلا لأسلمت حين وجدت ترابا على رؤوسها! وقد خرج نبينا ﷺ سالما من بين أيديهم سالكا سبيله إلى يثرب مهاجره!

كان يمكن للهجرة أن تكون على هيئة الإسراء والمعراج؛ لإتمامها في غضون وقت أقل منه، ودون مخاطر لسبب البراق، ولسبب المعراج، ولكنه الأخذ بالأسباب حين يحل سببه؛ وكيما يقف الناس على كم بذل، وجاهد، وصبر، واحتسب هذا النبي العربي الأمي القرشي لربه تعالى؛ وإعلاء لكلمته سبحانه، ولو كان في ذلك ما كان من نصب قد أصابه، أو من تعب قد أحاطه، أو من تجمهر ضده قد ألم به! وهذا سنن وهدي واحتذاء واقتداء! وإذ ليس زادا ثقافيا نمليه، ولا ترفا فكريا نرتئيه!

كانت هجرة نبينا تاريخا أرخ به للإسلام نيابة عن أنها كانت فصلا مجيدا من فصول دعوة غيرت وجه التاريخ كله وحولت بوصلته من ظلام دامس حالك إلى نور منبلج منفلج.

إن خطرا محدقا، يحلق حوالي عبد، رأى من نفسه مكرا، يمكن أن يواجه به مكرا لخالقه! ليندك به دكا، فيخور، ويزبد برغاء؛ إذلالا، وإثخانا!

وقال الله تعالى ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١]. هذا إنكاء آخر، وحين يعجرف أحدهم! ويتناسى أن مكره بوار، وأن تربصه خسار، وإن حملق، وإن أزبد، وإن أرعد!

﴿لِيُثْبِتُوكَ، أَوْ يَقْتُلُوكَ، أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، وهذه ثلاث قاضيات، لكنها هشة كلها! مجتمعة! أو منفردة! أمام مكر من لا يغفل ولا ينام سبحانه!

إن خروج نبينا ﷺ سالما، ومن بين أيديهم جهرة، دليل على أن إحاطته تعالى وقدرته على إحباط مكر لعبد زين له سوء عمله، أنه بالغه، وما هو ببالغه!

إن اجتماع قريش؛ لينالوا من نبينا ﷺ، وقد خرج وحده من بين أيديهم سالما، دليل على أنه ليس نصرا له فحسب، وإنما كيد لهم جميعا! وهذا هو المكر حقا!

إن انتكاسات تصيب العاملين في حقل الدعوة، من حين إلى آخر، توجب مراجعة صادقة، حول المنهج، ولأن نبينا ﷺ أسس دولة متكاملة البنيان، خلال عشر سنوات!

إن تأسيس دولة الإسلام خلال عشر سنوات، هي في عمر الزمان قليلة، يشي بأن خططا كانت تجابه عدوا لله، ليس يخوضها قوم همهم كلام كثير، ليس هذا وقته!

بُعث النبي ﷺ لأربعين سنة، فمكث في مكة ثلاث عشرة سنة، يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر ومكث في يثرب عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة، هذا ملخص حياة نبينا ﷺ.

سيظل حديث الهجرة عالقا بأذهان المسلمين أجمعهم؛ ولأنه تاريخ نهضة شاملة، كانت سببا في اتقاد مشاعل الخير والهدى للناس أجمعين.

إن توفيقا حالف عمر الفاروق، حين أرّخ للإسلام من هجرة نبينا ﷺ، نيابة عن أن هذا الرجل كان يسير بهدى ونور من ربه.

إن قول نبينا ﷺ لصاحبه: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. دليل آخر أن هذا النبي ﷺ لم يتحرك حركة، ولم يسكن سكنة، إلا بهدي ونور من ربه.

التأكيد على عدم عجلة نبينا ﷺ في أمر الهجرة؛ دلالة ومرة أخرى على أنه كان يعمل بهدي من ربه؛ ضمانا للتوفيق، وإحرازا للهدف، لاخبط عشواء.

كان أبو بكر كلما طلب الإذن بالهجرة، ونبينا يقول له: لاتعجل، لعل الله يجعل لك صاحبا، فاشترى راحلتين من ماله؛ استعدادا، وهذا دليل الولاء، وبرهان الوفاء، وموجب الفناء.

ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ونبئ يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين. وهذه خصوصية يوم الاثنين!

لا يعول كثيرا على تذرع باختلاف سبل مواجهة عدو لله؛ ليبرر انتكاساتنا من حين إلى آخر؛ ولأن كل وقت كانت له أدواته المناسبة للمرحلة.

المبحث العاشر: اتخاذ قرار العزم على الهجرة

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: أخرج عني من عندك، فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي وأمي! فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال: الصحبة قال: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا. فاستأجرا عبد الله بن أقط - رجلا من بنى الدئل ابن بكر، وكانت أمه امرأة من بنى سهم بن عمرو، وكان مشركا - يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

قال ابن إسحاق: ولم يعلم، فيما بلغني، بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد، حين خرج، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر.[1].

جواز ائتمان المشرك الأمين: إن ائتمان نبينا ﷺ لعبد الله بن أريقط؛ لهدايتهما الطريق، وكان مشركا، دليل على أن في الكفار من هو ذو مروءة وأمانة عالية.

إنه حين بكى أبو بكر؛ فرحا لهجرته مع نبينا ﷺ لدليل صدق وبذل وفداء؛ ولأنه يعلم مخاطر قد تكون محدقة بهما معا! وكيف يفرح أحدنا رغم علمه بمخاطر محدقة، تحيط به من كل صوب؟!

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ /٣٣٤ و٣٣٥

قال عائشة أم المؤمنين: فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذٍ يبكي. هذا وصف بنية صدقا لأبيها، ولما ربيت في بيت صدق.

تضحية وفداء: قال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله ﷺ؟ هذا استفهام كاشف عن عرض، لا مجرد الاستفهام! ويؤكد حق الصحبة، وقد حان أوان اختبار صدقها بذلا!

لا عمل إلا بشرع! إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. يجب الوقوف كثيرا أمام هذا النص، قيدا، ولربما راجعنا أنفسنا حين أطلقنا لاستحساننا عنانه! ولأنه ﷺ لم يخرج إلا بإذن من ربه تعالى!

رد الودائع مصداق أمانته ﷺ ولو كانوا أعداءه! إن وجود ودائع للكفار عند نبينا ﷺ لأمر محير! ذلك؛ ولأنهم حين كذبوه في رسالته، إلا أنهم ظلوا على عهدهم في اعتبار أمانته!

إن إبقاء نبينا ﷺ لعلي في فراشه؛ ولرد الودائع، علاوة على التمويه، دليل على أن هذا الدين يحترم حقوق الآخرين، ولو كانوا أعداء!

التمويه فن عسكري: وكما أنه تعمية، أمر ذو بال، في إحكام خطط التمويه على العدو، كمفهوم عسكري هام.

الكتمان الكتمان: لم يعلم بأمر الهجرة غير بيت أبي بكر وعلي؛ ولأن هذا وقت قضاء الحوائج بالكتمان.

تناقض قريش: ما كان لعاقل أن يصدق مع البشر، ويكذب على رب البشر! وحين رموا نبينا ﷺ كذبا في رسالته، وهم يقولون عنه: الصادق الأمين! هذا خلل في ترتيب جيناتهم الفكرية.

إنه كان لا أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عند نبينا صلى الله عليه وسلم؛ لما يعلم من صدقه وأمانته! وما قولهم حين زعموا كذبه في رسالته؟!

إذا كان نبينا ﷺ كاذبا كما زعموا، لسقط جناح صدقه، مما لا أثر له، حين أبقوا جناحه الآخر، وهو الأمانة، فدل على كذبهم؛ ولأن الطائر لازال مرفرفا!

الصدق والأمانة وأثرهما: إن اشتهار نبينا ﷺ بالصادق الأمين عند قومه كطائر جناحاه الصدق والأمانة، ولو كانوا صادقين حين كذبوه رسالته، لوقع الطائر، ولم يأتمنوه!

خطة التمويه: كان التمويه عمل علي بن أبي طالب، حين نام في فراش النبي ﷺ، علاوة على تسليمه ودائع كانت لأهل مكة عند نبينا ﷺ.

كان عمل أسماء بنت أبي بكر تجهيز الطعام وتسليمه لوالدها والنبي ﷺ ليلا.

كان عمل عامر بن فهيرة طمس آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر بغنم لأبي بكر كان يرعاها حتى لايدرك هو أو والده أو النبي ﷺ.

كان عمل عبد الله بن أبي بكر مخابراتيا، يجمع أخبار ما قيل في شأن الهجرة نهارا، ويرسلها لأبيه والنبي ﷺ ليلا في غار ثور.

وهذا توزيع الأدوار، وهذا إيكال المهام، وكل بحسبه، ولا نحسب أن كان هذا ارتجاليا، وبقدر ما إنه كان تخطيطا محكما مدروسا من قبل، وعلى الخطط، والخطط البديلة، وحال لم تستطع هذه أو تلك القيام بمهامها؛ ولسبب معروف يمكن تداركه، أو لسبب آخر غير معروف،

وطالما كان التخطيط مبرما سلفا، وعلى افتراض ما يمكن أن يحدث، وكيفية مجابهته، ولإنفاذ الخطة، وعلى وجهها المرسوم سلفا.

لما خرج نبينا ﷺ من مكة مهاجرا إلى الله يريد المدينة قال: «الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئا، اللهم أعني على هول الدنيا ..."الحديث لايصح.

أخذ أبو بكر ماله كله حين الهجرة؛ واستعدادا لطارئ قد يطرأ، ولما كان واثقا موقنا بوعد ربه أنه لن يضيع أسرته!

راح أبو جهل يسأل أسماء بنت أبي بكر عن والدها فلطمها! وهذا شأن الضعاف، حين يستقوون على امرأة! والأصل هو حمايتها والذود عنها وإكرامها!

وهكذا نفيد تقسيما للأدوار في حديث الهجرة، وبحيث لا تتداخل، ولا تتعارض، وبحيث يسند كل عمل لمن هو أهل للقيام به، وعلى وجهه اتقانا.

كان عمل الأنصار في الهجرة هو الاستعداد لاستقبال فاتح جديد سوف يكون لمجيئه شأن في لملمة ما بعثرته الحمية الجاهلية بين أقوامهم!

كان عمل نبينا ﷺ في الهجرة هو جهاد في الله تعالى حق جهاده؛ لتأسيس كيان جديد، يكون منطلقا لتحرير العالم كله من ربق العبودية لغيره تعالى!

كان عمل أبي بكر هو البذل بماله وأسرته أجمعين! عملا أشبه بالبطولة! بل إن البطولة جزء منه! وبقيته عمل يسمو فوقها بمراتب عالية!

يبقى أن عمر وأبا بكر صحابيان، وأن كلا منهما جاهد في الله حق جهاده، لكن أبا بكر كان له سبق فريد، ناسب المرحلة، ومثله كان عمر، وكل بحسبه.

بلغ عمر أن نفرا يفضلونه على أبي بكر فقال: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر. [١] يقصد ليلة الهجرة.

حديث أن أبا بكر ألقم رجله حجرا في الغار دفعا عن نبينا صلى الله عليه وسلم مرسل، أي: سقط من إسناده الراوي الذي بعد التابعي، وهو الصحابي. وله شواهد.

كان أبو بكر يسير خلف نبينا ﷺ مرة، ومن أمامه أخرى؛ اتقاءً لشر قد يناله، أو يعرض له! وهذا تصريح بمقام ذلكم صاحب ندر وجود مثله وعز!

دخل أبو بكر قبل نبينا ﷺ، فلمس الغار؛ لينظر أفيه سبع أو حية، ليقِيَ رسول الله ﷺ بنفسه، هذا حديث منقطع أي: ليس متصل السند.

حديث أن الصديق لما دخل الغار سدد الأجحرة وبقي واحد، فألقمه كعبه فجعلت الأفاعي تنهشه ودموعه تسيل. منكر أي: رواه الضعيف مخالفا للثقة. وغريب أي: جاء من طريق واحدة.

سيذكر التاريخ فعل عمر حين هاجر علانية، ولم يخف فيه تعالى لومة لائم، وكل صنع للإسلام ما لا يكفيه إلا نترضى عنهم؛ كما قد رضي ربهم عنهم!

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٢٣٧

إنه ولئن كان أبو بكر أسبق إسلاما، وأعظم بذلا، إلا أن ثناء عمر عليه لهو من إنكار ذات نتعلمه، وثناء أخ على أخيه نترسمه!

استبرأ أبو بكر الغار، واستبرأ الحجرة! ولهذا قال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر!

س: يا أبا بكر لو كان شيء لأحببتَ أن يكون بك دوني؟ [١]. وهذا سؤال النبي لأبي بكر يستطلع خبر صاحبه، لا لكي يتوثقه، فهو أوثق عنده، وإنما كيما يرينا نحن كم كانت صحبة أولاء الجيل بعضهم بعضا، هديا وسننا حسنا!

ج: والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من ملمة إلا أحببت أن تكون لي دونك! [٢]. وهذا جواب أبي بكر! وبه قضي الأمر!

إن صلاة نبينا ﷺ في الغار دليل آخر أنه إذا أحزنك أمر فاهرع إلى الصلاة؛ لأنك حينها قد اتصلت بحليم، يعرف غمك فيزيله، ويعلم همك فيكشفه.

كانت قريش إذا رأت على باب الغار نسج العنكبوت قالت: لم يدخل أحد! وكان النبي ﷺ قائما يصلي، وأبو بكر يرتقب. وهذه منظومة حماية ربانية، ولا تقل دفاعا جويا، أو رادارا أرضيا! ومنه فتعرف إلى مولاك كل حين من أمرك. وهو الحافظ الكريم، ولحديث: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن

(١) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج ٣ / ٦
(٢) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ج ٣ / ٦

يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف [١].

في كل لحظة كانت تمر بحادث الهجرة آيات، ودلالات، ومعجزات باهرات؛ تسلية لنبينا ﷺ، وتسرية، وطمأنة، أنه في رعاية من لا تأخذه سنة ولا نوم، سبحانه!

كان نسج العنكبوت على الغار آية أخرى للنبي ﷺ؛ تثبيتا، ولأبي بكر؛ ليزداد يقينا، وللمشركين؛ تحديا، وإعجازا، كما قد خرج من بين أيديهم سالما من قبل!

اتخذت قريش سراقة بن مالك؛ لاقتفاء أثر نبينا ﷺ وصحبه، لكنه الآخر غشي عليه! لأن الله بالغ أمره! ولو أتوا بأمثال سراقة عددا عددا! أو كرز بن علقمة مثلا مثلا!

إنه قد رويت عجائب كثيرة في باب الهجرة، ومن مثل الحمامتين، وشجرة أتت بظلها على الغار، ومن نسج عنكبوت، ومن نظرهم الغار، وقد غشيت أبصارهم!

إنك حين تواجه الباطل مستمسكا بحبله تعالى؛ ولتعلم أنك في حفظه، ورعايته، ولما قد قامت عليك قيامة الدنيا كلها؛ ولأن الله تعالى قال ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤٢]. ولو شيئا واحدا!

إن أمة تستقوي بأجمعها على طلب فرد واحد أعزل! هو دليل خزيها، وضعفها، ووهنها؛ لأن فردا واحدا لا يجيش له هذا العدد الغفير من الناس، بل واحدا!!!

---

(١) سنن الترمذي: ٢٥١٦. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

إن أمة تستقوي بأجمعها على طلب فرد واحد أعزل! هو برهان على أن الفرد الواحد يكون أمة وحده في مواجهتهم، ولطالما كان بحبله تعالى مستعصما!

إن نبينا ﷺ كان فردا واحدا مطلوبا، وكان يكفيه ولو عددا قليلا لطلبه، لكنه الإذلال، وحين خرجوا غفيرا ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]!

إنه ليندهش أحدنا! وحين يعلم أن قريشا كلها خرجت؛ طلبا لنبينا ﷺ، وقد أعجزهم ذلك؛ دلالة على أنك في حفظه ربك، ومن حيث كنت بأمره قائما!

جاء ذكر المهاجرين حفاوة؛ ولأنهم انخلعوا من جواذب أموالهم وديارهم وأهليهم؛ إعلاء لقيم الإسلام العالية السامقة، تلك التي أطرتهم ولا خيار!

جاء وصف المهاجرين بأنهم الفقراء شحذا لهمم إخوانهم الأنصار أن يكفلوهم وهو تعبير قرآني رضي يستدعي ما في النفوس من قيم بذل وعن رضا تام.

كان وصف المهاجرين بأنهم فقراء وكأول وصف كانت له الصدارة في الكلام برهانا على كونه كان صفة لصيقة بهم وحين خرجوا من ديارهم وأموالهم.

جاء وصف المهاجرين أنهم فقراء! دلالة على أن فقرا كان منقبة في أوسع أبوابه ولأن الفقر الحقيقي هو فقر القلب عن اتصاله بمولاه تعالى!

حين قام الأنصار بإكرام إخوانهم المهاجرين، وكان جزاؤهم هو قوله تعالى ﴿فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. هكذا باسم الإشارة؛ كناية عن قرب، والضمير البارز؛ دلالة على حفاوة!

إن الإيثار ليبلغ منتهاه، لاحين يكون عن كفاء واستغناء، وإنما حين كان عن خصاصة، وحاجة، بل عن حاجة ملحة، وهذا ما نعت به الأنصار!

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾! [الحشر: ٩]. هذا وصف القرآن للأنصار، وهو كما ترى خال عن ذكر مفعوله؛ دلالة على العموم، واهتماما بفعل قاموا به، وشحذا لهمم أخر.

إنه حين آثر الأنصار إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، فدل ذلك على ولاء، ونصرة، تامين، كاملين، وبرهانا على صدق محبة، أنبأ عنها القرآن العظيم.

وقال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾! [الحشر: ٩].

إنه لسوف يكون فضل تأسيس أمة قامت على التقوى والإيثار عائدا إلى نبينا ﷺ، وعلامة ضافية على توفيق منه تعالى، أن أخرجت أمة كان هذا نعتها وأفرادها!

وقال الله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]!

إنه ليس يكون كافيا لأن نتلو وصفا للمهاجرين، أو نعتا للأنصار؛ كيما نحرز أجرا عشر حسنات لكل حرف، وهذا فضل، وإنما اقتداء وأسوة حسنة معا!

حين جاء إطراء وصف المهاجرين، بذلكم حشد هائل، من نعوت الفضل والكمال؛ فدل على استدعاء قيمه في النفوس؛ ولأنه درب أوصلهم إلى عالم الرفعة و السمو!

جاءت صفات الصادقين على أنهم: الفقراء-المهاجرون-أخرجوا من ديارهم-وأموالهم-يبتغون فضلا من ربهم-ورضوانا-ينصرون الله ورسوله-وأولئك هم الصادقون!

وقال الله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

جاء وصف المهاجرين حشدا حشدا، وبحيث احتفت الآية بهم، وعن آخرهم، فلم تتبق بقية ذكر لغيرهم؛ كناية عن فضل قد تمايزوه، وبرهان قمتهم الرفيعة العالية!

لم يرد ذكر الأنصار صراحة، بل ضمنا؛ كناية عن مكنون ما في نفوسهم من بذل، ناسبه عدم ذكرهم صراحة؛ ولأن خبيئة القلوب أعظم أثرا وأقوم دليلا!

حين يعلم الله تعالى منا صدقنا ويقيننا لسوف يمنحنا من الزاد ما به ترجح كفتنا! وإن قل عددنا! وإن قل عتادنا! وانظر نبيك وقريشا كلها تطلبه! وها هو قد خرج من بين أيديهم سالما غانما، ولأنه تعالى قال ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

جعلت قريش مائة من الإبل لمن يأتي إليهم بنبينا ﷺ، أو صاحبه، أو كليهما معا. ولم يعلموا أن حمايته تعالى لنبيه خارج الحسابات!

القائد العسكري الماهر هو الذي يحسن كرا إذا وجب، ويتقن فرا إذا لزم، ويجيد تخفيا حين ناسب أمرا بائنا عن قرب، مطمئنا لقراره بمعطيات مناسبة.

حين أقام نبينا ﷺ، وصاحبه في الغار ثلاثة أيام؛ وليسكن الطلب عنهما؛ دلالة على إحكام خطط التخفي من العدو، وبمهارة تناسب مستوى الحدث.

قال سراقة بن مالك: هذا الحجر ثم لا أدري أين وضع رجله؟![1]. أخفى ربنا عنهم أثر خطوه ﷺ، وأبقى أثرا على الحجر! آية أخرى تحديا وإعجازا!

قال الصديق: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا؟ هذا ليس شكا أو حواليه، وإنما هو يقين جازم بأنه تعالى سيعمي أبصارهم حتى لو نظروا!

قال الصديق: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا؟ فقال نبينا ﷺ: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما. وهذان صاحبان يتبادلان درسا في تعليمنا اليقين!

قال أبو بكر: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه؟ وما هو بناظر صرفا! ولئن نظر فلا يبصر قدرا! هنا تتحقق عناية رب تامة تامة.

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٢٢٢

عن أبي بكر الصديق: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟![1].

ولكن هذا هو عين اليقين بعون رب العالمين، وحفظ الله تعالى الرحمن الرحيم. والتوكل على خير الحافظين سبحانه. ولأنه تعالى قال ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

ليس حسنا من قول يمكن وروده: إن عنايته تعالى خاصة برسوله ﷺ! ومن حيث قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُواۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]. عموم الذين آمنوا، وحين آمنوا وما أدراك ما آمنوا! وليدخل فيهم نبينا وأبو بكر الصديق.

ولكن الله تعالى عاصم نبيه ﷺ من الناس كل الناس أيضا، وهذه عصمة خاصة به ﷺ، وحين قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

إن مجيء نبينا ﷺ إلى بيت صاحبه أبي بكر يوم الهجرة بعد الظهيرة، إما استثناء من نهي الزيارة بعد صلاة الظهر، أو قبل نزول هذا النهي، أو للضرورة كالهجرة وبقدرها، أو للجميع معا. ويبين هذا قول عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وكما أنف: فبينا نحن يوما جلوس في بيتنا في نحر الظهيرة، فقال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مقبلا متقنعا. في ساعة لم يكن يأتينا فيها، قال أبو بكر: فدا لك أبي

(١) صحيح البخاري: ٣٦٥٣

وأمي، والله إن جاء به في هذه الساعة إلا لأمر، فجاء النبي ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل. [١]

وقال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨].

قال أبو بكر: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا. وقال صلى الله عليه وسلم: لوجاءنا من ههنا لذهبنا من هنا! وهذا تعديل الخطط العسكرية بسلطة تقديرية من قائد الميدان.

ولسنا ننسى قول أبي بكر: فخذ أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. فقال نبينا ﷺ بالثمن! [٢]. وهذا صحابي يعرض بذلا، وهذا نبي يعرض عوضا، وهذه موجبات السمو الخلقي من كلٍّ منهما.

إعلان حالة الطوارئ في بيت أبي بكر! وحين قال عائشة: فجهزناهما- الراحلتان-، فقطعت أسماء قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فلذلك سميت ذات النطاقين.

إن قيام أسماء وأختها عائشة بتجهيز راحلتي الهجرة، وهو عمل تسخر له أجهزة، وعلى أعلى المستويات، يجعلنا نعظم عملهما، ونكبر شخصيهما معا.

وهذا من عمل المرأة المسلمة راضية محتسبة، وإن لكل من آل بيتها عمله وحسبته أيضا.

---

(١) صحيح البخاري: ٥٨٠٧
(٢) صحيح البخاري: ٥٨٠٧

إن قيام عبد الله بن أبي بكر بنقل الأخبار في الهجرة؛ دليل أهمية جهاز المخابرات، ومن جهة اتخاذ القرار بشكل موضوعي؛ للمصلحة العامة للأمة.

المبحث الحادي عشر: النسائم الرقراقة في خبر سراقة

قال سراقة بن مالك رضي الله تعالى عنه: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما؛ من قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنفا أسودة بالساحل، أراها محمدا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت، فحططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرب بي، حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات؛ ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت

عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني، إلا أن قال: أخف عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ.[1].

هذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، يحكي لنا خبرًا صادقًا عن سراقة بن مالك، وما أحدثه خبره ذلك من عمل فيه، وإذ رأيناه قد كان سببًا في انتقاله من عدو جاء محاربًا إلى انتقاله وليًّا لله تعالى ولنبيه ﷺ مؤيدًا ونصيرًا وحاميًا، وذلك قبل أن يحدث أثرًا آخر مماثلًا في كل مطلع عليه اعتبارًا وتأثرًا وانجذابًا.

ولقد كان مَن تجرُّؤِ سراقة بن مالك على اللحاق بالصاحبَيْنِ إمساكًا لهما أو أحدهما، ومن ثم التسليم إلى قريش طمعًا في جائزتها، برهانًا على وجود ضعاف نفوس في كل أمة أثبت التاريخ خذلانهم أبدًا!!

إن تعثر راحلة سراقة غير مرة، وهو في طريقه طمعًا في مس الصاحبَيْن بسوء، أو نيلًا منهما بأذى، إنما هو تأكيد على أنه تعالى مخزي الكافرين، وآية اعتبار لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شكورًا!

وقول سراقة: فأهْوَيْتُ يَدِي إلى كِنانَتِي، فاسْتَخْرَجْتُ مِنْها الأزْلامَ فاسْتَقْسَمْتُ بها: أضُرُّهُمْ أمْ لا، فَخَرَجَ الذي أكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي، وعَصَيْتُ الأزْلامَ، إن هذا ما جاء الإسلام ليطهر منه سراقة، وحين كان عبد الدرهم، وليأخذ درسًا لا ينساه أن أحدًا ليس يملك لأحد نفعًا ولا ضرًّا، إلا بإذنه تعالى وقدرته، وإلا بإرادته سبحانه ومشيئته؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

---

[1] صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٣٩٠٦

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

إن خروج سهم أزلام سراقة لصالح الصاحبين، ليس دليلًا على علمها شيئًا غيبًا، بقدر ما هو برهان خزي له، ولأن صنمًا كان يعبده!

والأزلام: "سهام صغيرة كان أهل الجاهلية يكتبون على بعضها (افعل)، وعلى بعضها (لا تفعل)، ثم يضعونها في كيس أو نحوه، فإذا أراد المرء حاجة توجه إليها يستقسمها بإدخال يده في الكيس وإخراج واحد منها، فإن كان قد كتب عليه (افعل)، مضى لحاجته، وإن كتب عليه (لا تفعل)، أحجم عنها". [١].

وإنما جاء الإسلام ليطهر مجتمعًا أوحى الشيطان فيه لسراقة وأمثاله أنه بيده أن يحول مجرى القدر ذي العجلة الكاسحة لمثل هكذا أوهام وأساطير!

وهو شأن باعث على الإزكام، وحين كان من شأنه أن أزلامه كانت في جيب درعه! أرأيت ضعة في تفكير كمثل ذلك؟!

وحين خَرَجَ الذي يكْرَهُ سراقة، وهو ما لا يشك أحدنا في هزيمته واندحاره لقاء كفره يومه هذا؟!

إن عالَمًا يرزح تحت نير البلاء وظلماته، كان قمنٌ به أن يرفع لواء الأوبة إلى بارئه تعالى، مثلما كان من فعل سراقة، حين أناب، ولَما كان هذا العالم غارقًا في بلواه، إعثارًا ومن بعد إعثار، غير أنك تراه من وحل وإلى وحل آخر، جزاءً وفاقًا!

---

(١) كتاب معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي: ٥٦.

إن ما حدث لسراقة ولَما لم يعد متمالكًا من فرط التحدي، كان أثرًا من آثار توبة، أرادها ربه له، وحين طلب من نبينا نهوض راحلته، وعلى ألا يمسه بسوء! ولقوله: "فناديتهما بالأمان، فوقفا لي وركبت" (١)

إن ما حدث لسراقة حين عثرت راحلته غير مرة، برهان على أنه تعالى يريد بعبد خيرًا، وحين لا يتم على يديه ضررًا على المسلمين، ألا فليتحلل كلٌّ!

إن انكفاء عبد عن إلحاق ضرر بأخيه، إن هو إلا رحمة منه تعالى، أرادها له؛ كيلا يكون منه سنة سيئة، فيكون عليه وزرُها ووزرُ مَن عمِل بها إلى يوم القيامة، وأفيده من رده تعالى لسراقة أن ينال أذى من الصاحبين، رحمة به نفسه، ولَما عاد إلى الهدى، ولما كفت يداه عنهما، ولما كان قد ترك فيه الموقف كله أثرًا عميقًا، ما كان ليملك حياله من مهرب، وما كان له في مواجهته من طاقة!

إن لغة التشفي لا يعرفها قلب متصل بمولاه، ولما علم من نفسه ضعفًا، حين أدرك إنْ أصلُه إلا نطفةٌ في شنه، أو قطرةٌ في قِرْبَة! وأفيده من مثل ما أنف، وأن سراقة حين أنعم عليه الله تعالى ربنا الرحمن أن يؤوب، ولَما كان من أوبته رقة قلب، ألفناها من عمل عثرات في فرسه، مرة من بعد أخرى، ومن قراءة نبينا ﷺ القرآن، ومن حيث كان سبب رده عنهما! بل كفه عنهما! ولما لم يصر على إراقة ماء وجهه أكثر من هذا، وحين كان يمكنه أن ينخزل أمام شيطانه تشفيًا وإعراضًا وجحودًا وإنكارًا!

وإذ كانت راحلته تُقَرِّبُه إليهما وإذ كان نبينا ﷺ لا يَلْتَفِتُ، وأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفاتَ، وهذا يقين نبي، وحين لم يلتفت، وحين قد تحصن

---

(١) تاريخ الإسلام، الذهبي، ج١/ ٣٢٦.

بمولاه الكريم، وحين قد تدرع بالقرآن العظيم! وهذا حرص صحابي! وحين قد تلفت مرة أو سواها، ليرد كيدًا محتملًا عن صاحب المقام المحمود نبينا محمد ﷺ، حقًّا لنبي على أمته، وحين كان من بيعتهم أن يمنعوه، كما يمنعون نساءهم وأولادهم، وكان واجبًا أيضًا على صاحب لصحبته، لا سيما إن كان أبا بكر! وما أدراك ما أبو بكر!

وإذ سَمِعَ سراقة قِراءَةَ نبينا ﷺ، وكان منه أن القرآن حجاب حاجز، وأنه ستر مانع، وأنه دثار حافظ، ودلك عليه قوله تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

ومن حيث ظلت أزلام سراقة توكسه حينا من بعد حين آخر، حتى فقد ثقته فيها تمامًا! وعاد يطلب من نبينا ﷺ إنقاذه، وقد كان! ومنه فليكن أحدنا نافذة خير وبر للآخرين!

حين انغرست قدما فرس سراقة، طلب من نبينا ﷺ أن يدعو الله؛ لينجيه على أن يرجع عنهم، ويعمي عنهم الطلب، فدعا له، فأجابه مولاه تعالى، ولأنه ﷺ أيقن قول ربه الرحمن سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، وحينها أوفى سراقة بن مالك، وصار من بعدها رِدْءًا مصدقًا لرسول الله ﷺ!

ومن قول سراقة: (ووَقَعَ في نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ ما لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عنْهمْ، أنْ سَيَظْهَرُ أمْرُ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ)! ومنه فإن السماء حين تتدخل لتؤدب نفرا كان من شأنه أنه يمكنه زعما محادَّة الله تعالى ورسوله ﷺ، وإذ به يخور! وحين خارت كل قواه من قبل! إمعانًا في أن القوة لله جميعًا!

وكثيرًا ما يحدث لذلكم أثره، تبعةَ أن الله تعالى قد أراد بعبد خيرًا، وحين استشرف هداه مما قد أحاط به، أو ألم به، وإلا فإن قومًا آخرين يرون من الإعجاز ما يبهر! وإلا أن نفرًا يدركهم من التحدي ما يقهر! إلا أن قلوبهم قاسية!

إن انكفاء سراقة غير مرة، وأمام أزلامه! بل وأمام نفسه التي بين جنبيه، قد أحدث له صدمة عنيفة، أقلقت أركانه، وأقضت مضاجعه، وزلزلت لبه وفؤاده، حتى نسي من إثرها مائة الناقة! ذلكم المتاع الزهيد، والذي يحول صاحبه إلى عبد لدرهمه، ليورثه ذل العبودية لدرهم أو دينار كان من سببه تعاسته وشقاؤه وألمه، وذلكم بدل أن يكون عبدًا ذليلًا لمولاه وحده وحسبه، فيمنحه به عزًّا تتحطم أمامه وعلى صخرته كل القيود وسائر الأغلال.

إنه حين رجع سراقة جعل لا يلقى أحدًا طلب نبينا ﷺ إلا ردَّه وقال: كفيتم هذا الوجه! وذلك لما رأى بعيني رأسه ما أوجب إعجازًا فوق التحدي!

حين تأكد لسراقة صدق رسالة نبينا ﷺ، ولما رأى ما رأى، أخذ يقصص ما رآه على ملأ قريش، فخشيت قريش أن يسلم قوم بسببه، وأخذوا يبثون دعاياتهم لدرء خطر الإسلام القادم، ولأن سراقة قد رأى بعيني رأسه، لا خبرًا منقولًا، قد يضعف تأثيره حين نقله مرة من بعد مرة أخرى، وهذا هو فعل الإعلام، والإعلام المضاد.

ودلك عليه قول أبي جهل:

بني مدلج إني أخاف سفيهكم   سراقة مستغوٍ لنصر محمد
عليكم به ألا يفرق جمعكم   فيُصبح شتى بعد عزٍ وسؤدد

وقال سراقة بن مالك ردًّا عليه:

أبا حكم والله لو كنت شاهدًا — لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
عجيب ولم تشكك بأن محمدًا — رسول وبرهان فمن ذا يقاومه
عليك فكف القوم عنه فإنني — أخال لنا يوما ستبدو معالمه
بأمر تودُّ النصر فيه فإنهم — وإن جميع الناس طرًّا مسالمه

وقد أبى الله تعالى إلا أن يحدث صدمة في كل مناوئ للإسلام، إن أسلم وهو المراد، وإن ذل حين العناد!

إن ما كان يحدث من معجزات للأنبياء، وإن ما يحدث من كرامات للأولياء، على مر السنين وتصرُّم الأعوام، ومدى الدهر وسائر الأزمان، سيبقى سننًا ماضيًا أن الله تعالى مع المؤمنين، وما كان الله ليذرهم، وما كان الله ليضيع إيمانهم! وهذا هو مقتضى رأفته، وهو من لوازم رحمته سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

إنه حين أخبر الصديق صاحبه رسول الله محمدًا ﷺ، بإدراك سراقة لهما، وما كان من طمأنته لصاحبه، دليلًا آخر أن معيته تعالى لعبده، إنما تسيخ أمامها قدرات لعدو مارق، قد تأتي له شيطانه أنه ماسٌّ به أذى، أو ملحق به شرًّا، وإذ به يندك ليصير وكأنما زبدًا أو هباءً منثورًا، ولا أثر له إلا كما أثر خط آحادهم على الماء!

قال سراقة: (يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فو الله لأعمينَّ على من ورائي من الطلب وهذه كنانتي (كيس سهامي)، فخُذ منها سهمًا، فإنك ستمر على إبلي وغنمي في مكان كذا وكذا، فخُذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: لا حاجة لنا في إبلك) (١)

---

(١) شرح مشكل الآثار، الطحاوي: ١٠ /٢٦٥، وقال: صحيح.

ودعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعًا إلى أصحابه! وهذا كناية عن ضعف سراقة وهزاله، وحين دعا عليه نبينا محمد ﷺ.

إنه لو كان نبينا ﷺ قد قبل من سراقة عطاءه، فلربما قال سراقة: قد اشتريتُه ذمتَه بمالي! لكنها عفة وطهارة نبي، وتوفيق وإلهام رباني! وإذ إنه لا تشترى ذممُ ذوي الهمم والقيم والشيم! فضلًا عن أن يكون رسولًا نبيًا!

حين عرض سراقة أُعطياته على نبينا ﷺ، قال: لا حاجة لنا في إبلك! وهذا ترفع أَلْمَعِي اِسْتِثْنائِي، وهذا عفاف ذَكِي عَبْقَرِي! وما هو قول بغير هذا في حق رسول نبي؟!

حين أدرك سراقة الصاحبين بكى الصديق لا على نفسه، وإنما على نبينا ﷺ! وهذه أحاسيس قد تمالكته، حتى كان منها بكاؤه، لا على نفسه الشهم الأغر الولي الأبي، بل النبي ﷺ، وما ذاك إلا لأنهم كانوا على مثل ما علمهم رسولهم ﷺ، وحين قال: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إلَيْهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ". (١)

إن بكاء الصديق على نبينا محمد ﷺ، إنما تُمليه طبيعة الأوفياء، فضلًا أن إدراك سراقة له ﷺ فيه فوات للدين، وهو أعظم الضررين! وأما أبو بكر ففوات نفسه، وهو أقل الضررين.

إنه حين رقَّ نبينا ﷺ لبكاء أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فدعا على سراقة، فسلخت قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صلد! ولا غرو! فإن هذه سهام دعوة المظلوم، وليس بينها وبين الله تعالى حجاب!

---

(١) صحيح البخاري: ١٥.

المبحث الثاني عشر: لا تحزن إن الله معنا

حين قال نبينا ﷺ لصاحبه الصديق ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. أنزلها ربنا تعالى كما هي! برهانا على صدق قوله ﷺ، ودلالة على حقيقة توكله ويقينه بربه تعالى، وأنه تعالى مع المؤمنين أبدا.

سيظل قوله ﷺ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ هداية للسائرين نحو ربهم الحق، مطمئنين إلى معيته تعالى لهم، وإن قلب العالمون أجمعون لهم رأس المجن!

إنه حين يستشعر مسلم أن الله تعالى معه فما أخطأ حين قال: ومن عليّ؟! وإنه حين كان الله تعالى على أحد فما أخطأ حين قال: ومن معك؟!

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ هذا باب العقيدة في الله تعالى كلها! وهو استشعار عبد بمدى معيته تعالى له، ودون سند، إلا دليلا واحدا هو علمه عن ربه ذلك!

وهكذا يكون اتصال بالملكوت الأعلى، وحينها لا تمثل الأرض والطين شيئا مذكورا، حين كانت عوائق وأشواكا لدى قوم آخرين!

وهكذا كانوا حتى استوت أمامهم الدنيا مدرها وذهبها، فلم يبق شيء إذن يرجون بقاءه! ولم يبق شيء إذن يهابون فواته! إلا رضاه سبحانه.

إن معيته تعالى تعني إحاطته بما دق أو جل في كونه سبحانه، وحينها علم عبد منيب مقتضى قوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

إن معيته تعالى لسائر من خلق إحاطة وعلما، غير معيته تعالى لأوليائه تأييدا ونصرا، وهذا فارق قمن بالدرس؛ ليعلم الناس أن ربهم مع المؤمنين.

إن معيته تعالى وبمعنى الإحاطة قائمة أبدا، وإلا لاختل نظام كون قائم على ذلكم إبداع مدهش، كما نراه بأم أعيننا، ماثلا أمامنا! مدهشا، مبهرا، معجزا موجبا لقنوت، وخضوع، وخشوع، وفناء في الله تعالى الحق المبين سبحانه.

إن معيته تعالى سائرة جنبا إلى جنب مع قوله ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

جاء قوله تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]. بعثا لروح الأمل والرجاء في الله تعالى؛ ولأن نفرا قد يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ خاصة برسوله ﷺ وصاحبه!

جاءت معيته تعالى على وجه الإفراد لا الجمع؛ كناية عن مدى حلمه ولطفه، وحين أحاط ما خلق برعايته، ومذ كان أولا، وإلى منتهاه؛ حفظا وإكلاءً.

جاء قوله تعالى ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. بعد قوله ﴿لَا تَخَافَا﴾ ليس نهيا ونفيا لخوف وحسب! وإنما محوا له من خريطة الأبجديات، وحين كانت معيته لعبده قائمة! وإنها لقائمة!

جاء قوله تعالى ﴿لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ نهيا عن خوف؛ ولأنه طبيعة جبلية، عز أن يفلت من ناموسها أحد، إلا حين أيقن معيته تعالى له!

المبحث الثالث عشر: قصة أم معبد وزوجها

عن هشام بن حبيش بن خويلد: أن رسول الله ﷺ خرج من مكة مهاجرا إلى المدينة، وأبو بكر رضي الله عنه، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، ودليلهما الليثي عبد الله بن أريقط مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة، ثم تسقي وتطعم، فسألوها لحما وتمرا ليشتروا منها، فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك، وكان القوم مرملين مسنتين، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: هل بها من لبن ؟ قالت: هي أجهد من ذلك، قال: أتأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت: بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبا فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ، فمسح بيده ضرعها، وسمى الله تعالى، ودعا لها في شاتها، فتفاجت عليه ودرت، فاجترت فدعا بإناء يربض الرهط فحلب فيه ثجا حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم حتى أراضوا، ثم حلب فيه الثانية على هدة حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، ثم بايعها وارتحلوا عنها، فقال ما لبثت حتى جاءها زوجها أبو معبد ليسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزالا مخهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن أعجبه، قال: من أين لك هذا يا أم معبد والشاء عازب حائل، ولا حلوب في البيت ؟ قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال: صفيه لي يا أم معبد، قالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تزريه صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صهل، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد،

وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق فصلا، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم، يتحدرن ربعة لا تشنأه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم، قدرا له رفقاء يحفون به، إن قال: سمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود لا عابس ولا مفند، قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا، وأصبح صوت بمكة عاليا يسمعون الصوت، ولا يدرون من صاحبه وهو يقول: جزى الله رب الناس خير جزائه . . . رفيقين حلا خيمتي أم معبد هما نزلاها بالهدى واهتدت به . . . فقد فاز من أمسى رفيق محمد فيال قصي ما زوى الله عنكم . . . به من فعال لا تجازى وسؤدد ليهن أبا بكر سعادة جده . . . بصحبته من يسعد الله يسعد وليهن بني كعب مقام فتاتهم . . . ومقعدها للمؤمنين بمرصد سلوا أختكم عن شاتها وإنائها . . . فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد دعاها بشاة حائل فتحلبت . . . عليه صريحا ضرة الشاة مزبد فغادره رهنا لديها لحالب . . . يرددها في مصدر بعد مورد . فلما سمع حسان الهاتف بذلك، شبب يجاوب الهاتف، فقال: لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم . . . وقدس من يسري إليهم ويغتدي ترحل عن قوم فضلت عقولهم . . . وحل على قوم بنور مجدد هداهم به بعد الضلالة ربهم . . . فأرشدهم من يتبع الحث يرشد وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا . . . عمى وهداة يهتدون بمهتد وقد نزلت منه على أهل يثرب . . . ركاب هدى حلت عليهم بأسعد نبي يرى ما لا يرى الناس حوله . . . ويتلو كتاب الله في كل مشهد وإن قال في يوم مقالة غائب . . . فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد. (١) .

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم: ٥٤٣/٣. خلاصة حكم المحدث: صحيح الإسناد.

مر نبينا ﷺ حين هجرته على إبل من أسلم فقال لصاحبه: سلمت فسأل راعيها عن اسمه قال مسعود فقال لصاحبه سعدت إن شاء الله. وهذه تربية نبينا ﷺ على الفأل الحسن.

استغرقت رحلة هجرة نبينا ﷺ خمسة عشر يوما، يعالج فيها تضاريس متباينة، وجبالا، وأودية، وسهولا، وجوعا، وعطشا، وجهدا، وتعبا مضنيا، وإذ هان عليه كله؛ لأنه كله لله.

مر نبينا ﷺ على أم معبد طريقه، وحين حلب من أغنامها، ولم يك بها لبن! فسقى لها، وسقي ومن معه! لا تسل كيف؟! فأنت أمام قدرة قدير، وهذا نبي لله تعالى كان مهاجرًا!

حين حل نبينا ﷺ على أم معبد وأرادوا القرى. فقالت: والله ما عندنا طعام ولا لنا منحة ولا لنا شاة إلا حائل! وهذه أسرة تعيش شظف عيشها، وفي قيظ الصحراء؛ وليحمد أحدنا ربه على منه وعطائه وفضله، وليصبر أحدنا على ابتلائه، وكما كانت هذه حال أم معبد الخزاعية، وكانت مشركة راضية بالقسمة!

دعا نبينا ﷺ ببعض غنم أم معبد، فمسح ضرعها بيده ودعا الله، وحلب حتى أرغى، وقال: اشربي يا أم معبد. وهذا من قوله تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]. وكان كلٌ مضطرا!

قال نبينا ﷺ: «اشربي يا أم معبد»! وهكذا يقدم صاحبة فضل غنمها؛ وجبرا لخاطرها، وإكراما لصنيعها، وهكذا نعيش أدبه، وهكذا نترسم خلقه ﷺ!

وهذا النداء بالكُنية، وحين كان أقوم نبلا، وأعظم خلقا، وأدعى إلفا، وأدنى حلما.

قالت أم معبد: اشرب؛ فأنت أحق به، فرده عليها فشربت. هكذا فعل المروءات! فهذه تؤثر؛ ولأنه كان سبب الإغداق، ونبينا ﷺ يرده؛ ولأنها كانت سبب فضل الغنم.

سألت قريش أم معبد عنه ﷺ. فقالت: ما أدري ما تقولون، قدمنا فتى حالب الحائل! هذا وصف في جزالة، ونعت في بلاغة! وحين حلت بركته، وحين أجيبت دعوته.

قالت أم معبد: قدمنا فتى حالب الحائل. قالت قريش: فذاك الذي نريد! يعرفون أنه مبارك ويطلبونه! أرأيت موجب اندهاش كأعظم؟! أو سبب انبهار كأكبر؟!

حين تبدو دهشة لطلب قريش رجلا يعرفون بركته؛ ليدرك تماما، كيف كانت غلظة أكبادهم، وكيف كانت خفة عقولهم، وحين وجب أن يقلد أمثاله مقاليد الفاتحين!

سيظل قول قريش: فذاك الذي نريد. محفورا في ذاكرة التاريخ، أنهم طالبوا رجلا حل مشكلتهم الاقتصادية بدعاء! وحين وصفته أم معبد: فتى حالب الحائل.

حين حل نبينا ﷺ على أم معبد، أرسلت صغيرها بسكين وشاة، فأبى ﷺ ذبحها؛ ولما علم شظفها! وهذه عفة ورحمة نبي، وهذا كرم بدوية، تنتظر مطر السماء؛ لترعى غنمها!

إن حالا علمه أحدنا عن أم معبد يجعله في لباس حياء، يغمره من ربه، ولما كان رافلا رغد عيش، ولو قوت يومه، ذاك الذي حرمته أم معبد!

إن شظف عيش نعتته أم معبد، يجعل أحدنا منوطا به شكر ربه أبدا؛ ولما ملك قوت يومه، وكان آمنا في سربه، وكان معافى في بدنه،

وكأنما حاز الدنيا. ولحديث: من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا. [١].

أسمت أم معبد نبينا ﷺ ب(المبارك)؛ ولأنها استسقت حليبا من ضرع قد جف! ولأن غنمها كثرت حتى جلبت جلبا إلى المدينة! لتتجر، وبعدما كانت معدمة!

رأى ابن أم معبد أبا بكر في السوق، فأخبرها أنه الذي كان مع المبارك! فطلبت لقاءه! فرد ﷺ جميلها: فأطعمها، وأعطاها، وكساها! وهذا نبي البر والوفاء ﷺ!

كانت أم معبد امرأة برزة جلدة تحتبي وتجلس بفناء الخيمة فتطعم وتسقي. هذا عمل بيئة قاسية في امرأة تجلدت وبرزت واحتبت، فتقوى ولا ترهل.

سقى نبينا ﷺ أصحابه فشربوا عللا بعد نهل، حتى إذا رووا شرب ﷺ آخرهم، وقال: ساقي القوم آخرهم. ولو كان نبيا؟ نعم! ولو كان الرزق بسببه؟ نعم! خلق عظيم! وهذا من قوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

قدِمَ أبو معبد وروته حليبا، وتساءل عجبا! وحكت حكايتها، قال: فو الله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلب! وهذه حجة الله تعالى على قوم طالبوا رجلا مباركا فيهم.

---

(١) صحيح الترمذي، الألباني: ٢٣٤٦

المبحث الرابع عشر: أوصاف نبينا كما روتها أم معبد!

أم معبد: رأيت رجلا، ظاهر الوضاءة، حسن الخلق، مليح الوجه، لم تعبه ثجلة، ولم تزر به صعلة، قسيم، وسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل.

نبينا ﷺ: إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما، وعلاه البهاء، حلو المنطق، فصل، لا نزر، ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن.

نبينا ﷺ: أحول، أكحل، أزج، أقرن، في عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة.

نبينا ﷺ: ربعة، لا تنساه عين من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدا.

نبينا ﷺ: له رفقاء يحفون به: إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، محفود، محشود، لا عابس، ولا معتد.

المبحث الخامس عشر: علم نبوة ضاف!

حين حلب نبينا ﷺ شاة جفافا، قال الراعي: بالله من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك قط. وهكذا يطلع أهل الرشد بسناهم، وهكذا يشرق أهل الحق بضياهم!

رأى راعي غنم أم معبد كرامات نبينا ﷺ فقال: فإني أشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك. وهذا عبد خلي من شوائب الشهوات، وكدر الشبهات! ولأنهما تستحكمان في العبد وحتى يصير من بين أنيابهما، ويكأنهما وحش كاسر!

حين أسلم راعي غنم أبي معبد، وأراد متابعة نبينا ﷺ، قال له نبينا ﷺ: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا! فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا. وهذه نبوءة ظهور، وهذا حرص نبينا ﷺ على الأتباع.

عرف لصان في طريق هجرته ﷺ، فدعاهما، فأسلما، وسأل عن اسميهما، فقالا: نحن المهانان! فقال: أنتما المكرمان! إن الإسلام يرفع رؤوسا طأطأها كفرها. وكما أن هذا هديه ﷺ في تغيير الأسماء إلى الأحسن منها معنى ومبنى.

المبحث السادس عشر: وصول النبي ﷺ إلى يثرب

سيذكر التاريخ أن نبينا ﷺ وصل المدينة ظهرا حَرًّا، وكانوا لا يعرفونه، لا من لباس تميز به، ولا من صولجان تفرد به، وإلى أن ظلله صاحبه بردائه.

لا نقف كثيرا حول وصول نبينا ﷺ إلى يثرب، ودون مراسم تصنع، ودون حشود تؤجر، سوى أنهم خرجوا طواعية، فرحين أن أتاهم رسول من ربهم مبين!

في تتبع لعمل أبي بكر في حديث الهجرة فقط، كان كافيا للحكم على هكذا رجل، أن عملا قام به فيها، كان كافيا لأن يذكر في صحائف أمجاد خاصة به.

طفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ نبينا ﷺ يُحَيِّ أبا بكر! أرأيت كيف كان نبينا ﷺ غير مميز في زي أو هالة، حتى كان لا يعرف من بين جلسائه؟

حين بركت راحلة نبينا ﷺ في مربد للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين قال: هذا إن شاء الله المنزل. وهذا تقديم مشيئته تعالى، لأنه

يخلق ما يشاء ويختار. لكن فيه كيف نظر إلى هذه المشيئة القديرة الحكيمة البليغة، وحين بركت ناقته ﷺ أمام منزل غلامين يتيمين!

وهكذا كان نبينا ﷺ يسير، ولا يسير إلا بهدى، وعلى نور من ربه؛ ولأنه ليس له من الأمر من شيء.

ولأن راحلة بهماء قد بركت! ولعل أمرا من ربها لها! وإنه الوقوف عند حدوده تعالى وأوامره! وأول ما يقف به هو نبينا ﷺ.

عرض نبينا ﷺ أن يشتري المربد من صاحبيه الغلامين، وليتخذه مسجدا، وقد عرضاه هبة له، وإلا أنه أصر على دفع ثمنه. وفيه جواز نزع ملكية خاصة لمنفعة عامة وبعوض عادل.

كان يمكن لنبينا ﷺ أن يأخذ المربد هبة؛ على عرض صاحبيه، لكن متأولا قد يأتي فيخرجه عن هبته، ليستحل أموال الناس بغير حقها! وهذا سد للذرائع، ولمثل هكذا باب قد يفتح.

ولكن هذا النبي أخذ ينقل اللبن ويساعد ويعمل ويعاون في بناء المسجد! وهذا برهان أهمية المسجد في هذا الدين.

قال نبينا ﷺ: اليوم يوم وفاء وبر، أدنه. ولأنه حين علمنا التوحيد، فإنما علمنا الوفاء والبر، وهكذا في خطين متوازيين، لاينفك أحدهما عن الآخر، ولو قيدا واحدا!

وهذا يوم وفاء وبر، أدنه، وكلاهما عملا خير، موجبان اعترافا بالفضل، وهو من أعمال النفوس الكريمة، وحين تشيع وفاء وبرا، كانا حقا لمن أسداه، وواجبا على من أسدي إليه رده، ولو بكلام طيب، يطيب به الخاطر، وهكذا فعل نبينا ﷺ.

وهذا هو وحين تمتزج معاني البر والوفاء مع نسمات الهواء العليل، فإنما تثمر مجتمعا صحيا ذا مناعة كاسحة لألغام الأمراض الفتاكة!

إنه حين يكون جحود لبر ووفاء، فإنما ينتج ثمارا مرة حنظلة، يذوق جاحده أول ما يذوق مرارتها؛ معاملة له، وبمقصوده!

إن حمل النفوس على البر والوفاء، إنما تكون بصنعك المعروف فى أهله، وفي غير أهله؛ ولأنهم سوف لايجحدونه يوما، وإن طال زمانه!

إن نكران آحاد بالبر والوفاء، إنما هو زادك، أن تزداد بهم برا، ولأن نفسا زكية هي التي تصنع المعروف في أهله وفي غير أهله معا!

إن ضعف حديث: اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله فإن أصبت أهله فهو أهله. وإن لم تصب أهله فأنت أهله؛ ولأنك أهله أبدا، فلا يحملنك على قهقري! ولأن معناه صحيح، فلا يخرجنك عن معروف أنت صانعه في أهله أو في غير أهله!

عن عبد الله بن عمر وعلي بن أبي طالب: اصنع المعروف في أهله وغير أهله، فإن أصبت أهله فهم أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله. (١)

إنه لا يحملك بطر آحاد يديرون ظهورهم لبر أنت صانعه؛ ولأنك تبتغي الأجر من الله تعالى، ولأن نفسك عالية أبية زكية.

قال يهودي وحين رأى نبينا ﷺ، وقد وصل يثرب: يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون! وهذا علم نبوة ضاف! وما بال يهود أولاء كانوا أول كافر به؟!

---

(١) ضعيف الجامع، الألباني: ٨٩٤

إنه حين اشترى نبينا ﷺ المربد من الغلامين اليتيمين، وقد بناه مسجدا. ودلالة على أهمية المسجد في هذا الدين، ولما كان مئذنة حق، وعدل، وتوحيد.

فطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه. إن مشاركته ﷺ في بناء مسجد المدينة برهان على تواضعه، وحين شارك بيديه الكريمتين في بنائه.

إن مشاركة القائد أعمالهم فيه مزية تحفيزهم، وشد أزرهم، وأنه لم يكن ليميز عنهم في شيء.

وهذا هديه ﷺ أبدا، وكان منه ولما يأت لا حقا مشاركته في حفر الخندق، وغير ذلك من مشاركاته صحبه الكرام.

حين تنازع القوم أيهم ينزل عليه. قال نبينا ﷺ: أَنزلُ الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب لأكرمهم بذلك! وهذا نبي لم ينس أو يقطع رحما أخرجته!

لكن تنازع القوم أيهم ينزل عليه نبينا ﷺ، كان ينم عن ولاء منقطع، وحب محيط، أكسبهم كلهم ذلكم التسارع الإيجابي؛ لتزداد سرعته بزيادة زمنه!

حين بات ﷺ ليلته، وقد عزم النزول على بني النجار، إلا أنه أُمِرَ حيث بركت راحلته، وكان فيه ألفة للأنصار، فلربما قد داخلهم شيء أول أمرهم!

المبحث السابع عشر: حكمة قلة عدد المهاجرين

قيل إن عدد المهاجرين كان ثلاثة وثمانين رجلا وإحدى عشرة امرأة، وهذا عدا المستضعفين، وذلك خلال ثلاث عشرة سنة هي عمله ﷺ في مكة.

إن عددا قوامه أربعة وتسعون، هو مجموع من هاجر، ليبين منه كم جاهد نبينا ﷺ في الله حق جهاده في مكة، وكم كانت أرضا صعبة الغراس حينها!

عند النظر إلى عدد المهاجرين، وكم كانوا قلة؟! ليشفق على نبي صابر، وصبر، واصطبر، على لأواء دعوة قوم ظفر منهم بأربعة وتسعين مهاجرا!

ولعل حكمة نرتئيها أن قلة مؤمنة ولما كانت على الجادة خير من كثرة ولما كانت على غير الجادة!

إن قلة عدد المهاجرين لا يجعلنا في عجب كثير، وحين علمنا قوله ﷺ: عرضت عليَّ الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد!

فعن عبد الله بن عباس: لا رقية إلا من عين أو حمة. فذكرته لسعيد بن جبير، فقال: حدثنا ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: عرضت عليَّ الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد، حتى رفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: بل هذا موسى وقومه، قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر هاهنا وهاهنا في آفاق السماء، فإذا سواد قد ملأ الأفق، قيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب. ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم، وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله،

فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام؛ فإنا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النبي ﷺ فخرج، فقال: هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون، فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: نعم، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال: سبقك بها عكاشة.[١].

إن نبيا يأتي يوم القيامة وليس معه أحد إنما هو برهان على أن هذا الدين جد لا هزل فيه، وإنما هو أوامر ونواه؛ ولصالح من آمن أول مرة!

كم كان التاريخ واعيا منصفا! وحين ترك لنا إرثا غنيا، نستطلع منه أن الفئة المؤمنة القليلة هي التي حملت رايات الهدى والنور لأقوامها.

ولكنك تطمئن قلبا وتهدأ قالبا وحين تعلم أنه ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

كم كان التاريخ حصيفا! وحين علمنا أن اغترارا بالكثرة كان سرابا؛ ولأنها تخذل حين طلبت، إلا أن تكون مرباة على مائدة الهدى والنور والحبور.

إن ديننا إنما جاء ليفتح الله به كل قلب ساكبا فيه نور الهدى ودين الحق. لكنها على أسس العبودية لله تعالى وحده، ونبذا لشائبة شرك ولو شيئا.

---

(١) صحيح البخاري: ٥٧٠٥

المبحث الثامن عشر: الله أكبر!

الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله [١]

هذا ما صح خبره عند استقبال الأنصار لنبينا ﷺ يوم تشرفت به وبقدومه المدينة النبوية! أما قول الناس: طلع البدر علينا. فلا أصل لها!

إن رواية (طلع البدر علينا) قال عنها الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وهو سند معضل. [٢].

إن استقباله ﷺ بالتكبير كان اختيارا موفقا؛ ولأنهم حين أسلموا فإنما كان الله أكبر من كلٍ، وفي ضمائرهم، لا أن ينشدوا (طلع البدر علينا)!

إن استقبال نبينا ﷺ بالتكبير؛ وحفاوة بشخصه؛ برهان أن أمة كبرت ربها، وأعظمت رسولها، فلا خوف عليها، وإنما هي أمة مؤيدة بربها، وحين أكبرته.

إن التكبير شعيرة من شعائره تعالى، وفي غير ما مناسبة؛ دلالة على مدى ما يجب في حقه تعالى، وحين كان الله أكبر مما سواه، تعظيما، وإكبارا، وتنزيها.

إن اختيار التكبير كذكر من أذكار ما بعد الصلوات الخمس؛ إيذان بالتذكير أبدا أنه الله تعالى يجب أن يكون أكبر، وفي عقد كل مسلم، وخشية نسيان، أو سهو، أو تكاسل، وإنما تحمل النفس على ذلك أبدا أبدا.

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٢٦٩

(٢) فتح الباري: ٧/٢٦٢. أي: سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالي.

إن التكبير من الباقيات الصالحات؛ ليشي بتعلق قلب بخالقه أبدا، ائتمارا بأمره، وانتهاء عن نهيه، وهذا هو معناه، كحلقة اتصال بين لسانٍ قائلٍ، وقلبٍ عاقلٍ. وقال الله تعالى ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وعن أبي هريرة: خذوا جنتكم من النار؛ قولوا: سبحان الله، و الحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات ومعقبات ومجنبات، وهن الباقيات الصالحات. [١]

وعن عبد الله بن عمر بينما نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، فقال رسول الله ﷺ: من القائل كلمة كذا وكذا؟ قال رجل من القوم: أنا، يا رسول الله، قال: عجبت لها، فتحت لها أبواب السماء قال ابن عمر: فما تركتهن منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك. [٢].

إن التكبير كان شعيرة الأذان الأولى، وحين قد كان بدؤه به؛ إيذانا أن الله تعالى أكبر، وحين يتخلص العبد من كل شيء آخر، وإذ ها هو مقبل على مولاه تعالى بكليته، وإذ ها هو تغمره آيات التكبير ودلالات التعظيم، وحين سمع، أو حين قال، أو حين ردد: الله أكبر!

إن لو لم يكن من التكبير إلا أنه شعيرة الصلاة، أثناءها، ومن بعدها، لكفى به برهانا على مدى استحقاق ما يعنيه، وحين كان الله تعالى أكبر.

---

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٣٢١٤
(٢) صحيح مسلم: ٦٠١

كان التكبير من شعائر الله العظمي، وفي مناسبات عظمى أيضا؛ برهانا على وجوب ما يقتضيه من تعظيم لمن نقول إنه (أكبر) سبحانه.

وانظر كيف اختص التكبير شعيرة يومي العيدين؟!

إن تدريب اللسان على التكبير وغيره من لطائف الذكر، إنما هو محاولة ناجحة لرد كيد الشيطان، وتمرين على اتصال الفؤاد بمولاه، ولما كان لسانه رطبا بذكر الله أبدا؛ ولأن القلوب وما بين الفينة والأخرى يعوزها هذا الذكر؛ طهارة، وتذكيرا، وتقلبا في حناياه وعطاءاته، ولطائفه، وثماره.

" وجاء التكبير مكرَّرا في الأذان في أوله وفي آخره، والأذان هو الذِّكر الرفيع، وفي أثناء الصلاة، وهو حال الرفع والخفض والقيام إليها كما قال: "تَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ "، وروى أن التكبير يطفيء الحريق، فالتكبير شُرِع أيضا لدفع العدو من شياطين الإنس والجن، والنار التي هي عدوّ لنا، وهذا كله يبين أن التكبير مشروع في المواضع الكبار لكثرة الجَمْع، أو لعظمة الفعل، أو لقوة الحال، أو نحو ذلك من الأمور الكبيرة؛ ليبين أن الله أكبر وتستولي كبرياؤه في القلوب على كبرياء تلك الأمور الكبار فيكون الدين كله لله، ويكون العباد له مكبّرون؛ فيحصل لهم مقصودان: مقصود العبادة بتكبير قلوبهم لله، ومقصود الاستعانة بانقياد سائر المطالب لكبريائه؛ ولهذا شرع التكبير على الهداية والرزق والنصر؛ لأن هذه الثلاث أكبر ما يطلُبه العبدُ، وهي جِماعُ مصالِحه". [١].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. جاء تعليل التكبير بعد قوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. نيابة أن يسرا

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: ٢٢٩/٢٤

أراده مولانا بنا قمن أن نكبره، وأن عسرا لم يرده ربنا سبحانه لنا، موجب تكبيرنا وإعظامنا، وهذه كلية وجب درسها وفقهها أبدا!

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وما ظنك بصلاة عيد، وخطبتها، كان عمادهما التكبير، إعلاء لقيمة الألوهية في النفوس، بحيث تكون مقدمة على كل شيء آخر؟!

إن صيحات عباده تعالى بالتكبير، من غروب الثلاثين من رمضان، وإلى صلاة العيد، برهان إشهاد ملائكته تعالى، أن قوما يكبرون ربهم، ومنه يقدمون أمره على كل أمر، ويجتنبون نهيه، كأعظم ما يكون اجتناب، خضوعا لربهم، وذلة لبارئهم، رصيد عزة وأنفة، وحين يجيء وقتها في حياة، كان ملؤها الكد والنصب والتعب!

إن تكبير الله تعالى يوم الحج الأكبر، ومن أول ذي الحجة، وإلى نهاية أيام التشريق، واصطفاءه للعبيد دون غيره من سائر الأذكار، برهان ما لهذا التكبير من قيمة، وحين كان الله تعالى أكبر، عقدا فريدا، وسلوكا مجيدا.

وهو أيضا من قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]

إن صيحات التكبير، وهي إذ ترتج بها الطرقات والأسواق والمساجد والمنابر، برهان إرغام للشيطان، وليولي وله ضراط، وحين تلبس عباده تعالى بلباس التوقير لربهم، وحين استكبر وولى وأدبر، وحين خلع عن نفسه سلطانا لله خالقه عليه، وقت أن تسربل المؤمنون سربال عبوديتهم لربهم، وحين علموا أن سلطان رب الناس في قلوبهم أكبر.

كان مشهد المكبرين، في الأقصى، خزيا ليهود، وهكذا يحفرون لأنفسهم قبور خزيهم، كل مرة، ولو عقلوها ما فعلوها! يوم عيدنا! ولأن تكبيرنا صاعق بهم، ومزلزل أقدامهم، حتى ولوا مدبرين، ومالهم من الله تعالى من عاصم!

تميزت صلاة عيدنا، تضمنها اثنتي عشرة تكبيرة، إحصاءً، عَدَا تكبيرات الانتقال، برهان فعل التكبير في القلوب أكثر، ودلالة اختيار رباني أقوم.

إننا وإذ لا نقف كثيرا عند إعجاز العدد اثنتي عشرة تكبيرة، في صلاة العيد؛ كيما لا ينسينا إعجازا أكبر، هو اختيار التكبير عما عداه، ومن صنوف ذكر عز حصرها! تعظيما لمقام ربنا.

كان التكبير سرا في صلاتنا، عَدَا إمامنا، إلا تكبيرات العيد، فإنها جهرا لكلٍ، حفاوة بعيدنا، ومباهاة بديننا، وتعظيما لربنا، أن ألهمنا أنه أكبر.

إن إعجازا بينا في قوله ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وأنه برهان عموم الذكر والتكبير في الحج، وبينا أيضا في قوله ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ختام صيامنا، برهان تخصيص للتكبير فيهما!

كانت صلاة العيدين، بعد صيام وحج، إفرادا لأهمية ركنين في ديننا، تضمنا كثرة كاثرة من شعائره تعالى، عما سواهما، فكان التكبير إشعارا لذلكم فضل الله تعالى.

كان ملفتا تكبير امرأة عجوز وراء تكبير الإمام، إلا أن تكبيرها كان أشد تأثيرا، وكأنها تقارع إمامنا تكبيرها! وحين أعظمت ربها، فكان برهانها.

جاء قوله ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وحكمة التكبير من ههنا؛ ولأنه تعالى هدانا لصيام رمضان وقيامه، ولأنه داع عظيم لخلق الشكر لله تعالى العلي الأعلى، أن علمنا ديننا، وأن هدانا سبلنا، وأنه لم يتركنا هملا؛ لنخبط خبط عشواء، إلى هذا الجدار مرة! أو إلى هذا الركن كرة أخرى، فلا نكاد حينها لنعرف معروفا، أو لننكر منكرا!

إذا كان تكبيره تعالى، حين هدانا لصيام رمضان، وقيامه، فكان داعيا قرآنيا، أن يكون هديا، وأن يصير سمتا، وحين يوفق الله تعالى لعمل بر آخر، وأخذا بعموم النص، ذلك وأنه يمكن حيال ذلك أن يكون التكبير سبيلا، وحين يمن علينا ربنا، قياما بعمل آخر، كان عبادة لله تعالى مولانا الحق المبين!

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تضمن فعل التكبير مفعوله(الله)، وغاب عن فعل الشكر، إطلاقا لعنانه خفاقا، برهان ألا حد له، وبحيث يكون الشكر نهجنا للناس، وان يكون الشكر عملنا مع رب الناس أيضا.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهكذا تتفاعل منظومات التكبير والهدى والشكر! لتعمل عملها صنعا لكائن! وصفه أنه مخبت قانت سائح لربه راكع وساجد أبدا!

المبحث التاسع عشر: خبر سهل بن حنيف

وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده، ثم لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كلثوم بن الهدم. فكان علي بن أبي طالب إنما كانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين.

يقول: كانت بقباء امرأة لا زوج لها مسلمة، فرأيت إنسانا يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئا معه فتأخذه، فاستربت بشأنه فقلت لها: يا أمة الله من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئا لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟

قالت: هذا سهل بن حنيف، وقد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها فقال: احتطبي بهذا، فكان عليٌّ رضي الله عنه يأثر ذلك من شأن سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق. [١].

بقي علي في مكة ثلاث ليال وأيامها حتى أكمل تسليم ودائع أهلها للصادق الأمين نبينا ﷺ، ثم هاجر. ولأن رد الأمانات إلى أهلها دين.

إن ديننا يعظم شأن الأمانة، ودلك عليه تفويت هجرة عليٍّ؛ لشأنها، وريثما ينتهي منها!

كان سهل بن حنيف يكسر الأصنام سرا، ويمنح خشبها لامرأة مسكينة تحتطب به! هذه بصمة سهل في الإسلام. أنه يكسر صنما، ويهب خشبه. عملان صالحان.

إن تعسس العوزة والمحتاجين دين قام به صالحون من قبل، وإنما كان عملهم سرا؛ خشية أن يخالط قلوبهم رين يفسده، وهذا كان عمل سهل بن حنيف.

عند النظر في فقه سهل بن حنيف وأنه كان يكسر الأصنام أولا ثم يتصدق بخشبها ثانيا، برهانا على تقديم أعمال التوحيد على ما عداها.

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٣٤٢

إن امرأة كان يساق إليها سهل بن حنيف كل ليلة بصدقة هي خشب صنم كان يكسره، برهان على أنه تعالى يأتي برزق معوزة رغدا. ومنه فليطمئن عبيده تعالى إلى تمام رزقهم أبدا ولحديث: إن روح القدس نفث في روعي، أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته([1]).

إن عملا قام به سهل بن حنيف وحده؛ ليكسر صنما، وكل ليلة، برهان على عمل التوحيد في قلبه، وأنه وجب تحطيم كل صنم أولا!

إن عمل سهل بن حنيف وحين حطم أصناما كانت أغلالا في قلوب قومها، برهان على أن عبدا واحدا يمكن أن يكون أمة وحده، وحين قام بواجب التوحيد؛ دعوة إليه، وذبا عنه.

إن قيام سهل بن حنيف بتكسير الأصنام وحده، برهان على أنه حطمها في فؤاده أولا، ومن ثم ليسهل تحطيمها صورة ثانيا!

إن تكسير سهل بن حنيف لأصنام قومه مرة وتلو أختها؛ دلالة جواز ذلك، شرط القدرة، وأخذا لأسباب النجاة، وحينما كان سرا ليلا! وهذه حكمة الدعوة، وهذا حسن تصرف القائم بها، وتوفيقا منه تعالى له، من قبل ومن بعد!

إن قيام سهل بن حنيف بتحطيم الأصنام في يثرب، برهان على جوازه، ولاسيما أنه كان بين ظهراني نبينا ﷺ؛ ولأنه أمر لا مجال للاجتهاد فيه.

([1]) صحيح الترغيب والترهيب، الألباني: ١٧٠٢

إن قيام سهل بن حنيف بتهشيم أصنام قومه، إنما هو لإعلامهم أن الركن الركين هو الله تعالى، ألا فهلموا إليه وحده، خشية لله، وشفقة على المخالفين، وحبا لإسلامهم.

إن عملا قام به سهل بن حنيف، وأنه كان يتصدق على امرأة معوزة؛ برهان على أننا أمة كافلة لذوي الحاجات، ولو كان بخشب يحتطب!

إن تصدق سهل بن حنيف على امرأة معوزة؛ برهان على رقة نفس وقلب معا، ولحديث: ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبيه.[١].

إن عملا قام به سهل بن حنيف، هو تكسير أصنام القوم سرا ليلا جنبا إلى جنب، بل وسابقا على تصدقه؛ برهان على أن التوحيد أولا!

إن تأخير بيان التوحيد أو إهماله خارج عن سنن القرآن المبين، وهدي خير المرسلين ﷺ؛ ولأنه وجب دعوة إليه لمن جهل، أو تذكير به لمن نسي.

إذا كان الأصل في الناس هو التوحيد حقا لاريب فيه، لكنك رأيت بمقلتيك كم هي مسافة بائنة بينه وبينهم، وجب حيالها تعليمه، وترسيخه، قبل وبعد، وفي كل حين!

---

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٥٣٨٢

المبحث العشرون: من فضائل الآثار في مناقب الأنصار

الأثر في اللغة هو: بقية الشيء، وهو العلامة الفرعية التي تدل على أصل الشيء وحقيقته، مثل أثر الرجل في الطين، فهو فرع للأصل الحقيقي الذي هو القدم، أو هو أثر للمؤثر الحقيقي وهو القدم، فالأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فلو وجدت بعراً في طريق فإنك تعرف أنه قد مر من هذا الطريق بعير.

وأما في الاصطلاح فقد اختلف أهل العلم اختلافاً عظيماً، فمنهم من يقول: الأثر اسم مفعول بمعنى المأثور، وكل مأثور يطلق عليه اصطلاحاً أثر، وهذا المأثور إما أن يكون مرفوعاً إلى النبي ﷺ أو موقوفاً على الصحابي، أو مقطوعاً على التابعي. وهذا قول المحدثين. وهو بهذا المعنى مرادف للحديث والسنة؛ لأن جمهور المحدثين يرون أن السنة والأثر والحديث بمعنى واحد. [١] .

عن أبي أسيد رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو الحرث بن خزرج ثم بنو ساعدة وفي كل دور الأنصار خير فقال سعد ما أرى النبي ﷺ الا قد فضل علينا فقيل قد فضلكم على كثير. [٢] وهذا وحي حسن توجيهه كوحي!

إن خيرية أبانها نبينا ﷺ لقوم على قوم آخرين، هو ما يتماهى مع بيان القرآن الحكيم، وحين قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. هذا هو مقياس ديننا لا أبعد منه!

---

(١) كتاب دورة تدريبية في مصطلح الحديث، حسن أبو الأشبال الزهيري: ج٣/٣

(٢) صحيح البخاري: ج ٤ / ٢٢٤

وعن أبي هريرة: سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم لله. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. [١].

وأنت واقف على سر التفاضل؛ ولما كان من فقه، وأنت صادر على أصل التآثر؛ ولما كان من تقوى؛ ولما أنف أيضا.

ويحسن توجيه هذه الأفضلية على وجهها هذا، وليس على أي وجه آخر.

لكن الناس ولا يزالون يعطون شأنا لعلم الأنساب، وإنما أوصى نبينا ﷺ بتعلمه؛ ولأثره الحسن في هذه الصلات للأرحام.

وإنما كان التفضيل للعمل، لا للجنس!

فعن أبي هريرة: تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر. [٢].

إن أفعل التفضيل لبعض الناس على بعض، لا ينفي أنهم كلهم خير، ولأنه ﷺ قال: وفي كل دور الأنصار خير.

سيبقى وحي أن الأنصار كل خير؛ برهانا على سبقهم، ولا غرو، فقد فتحوا أفئدتهم قبل بيوتهم لنبيهم ﷺ؛ وبرهانا آخر على عمل لم يسبقهم إليه أحد من قبل!

---

(١) صحيح البخاري: ٣٣٨٣

(٢) تخريج مشكاة المصابيح، الألباني: ٤٨٦٢. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

قال سعد بن عبادة: ما أرى النبي ﷺ إلا قد فضل علينا. فقيل: قد فضلكم على كثير. قضاء على فتنة في مهدها، وقبل انتشار شررها! وهذا نبل اجتماعي، وهذا تفرد نفسي.

عند النظر إلى مفاضلة، أو سبق، فإنما يكون على أساس التقوى، لا أن يكون على أي أساس آخر!

رغم أن التقوى يعمها عمل صالح، إلا أنه خلا منها، حين كانت المفاضلة إلا بها! ولأن قوما ينافحون كثيرا لإثبات أن كذا وكذا عمل صالح!

وفي كل دور الأنصار خير! حسبي أن هذا وحي؛ ولأنه ﷺ ربما لم يقف على دورهم دارا دارا، يعدهم عدا، وليفرزهم فرزا، ولينقب عن قلوبهم قلبا قلبا!

وإنما كان الأنصار قد بثوا من بينهم نقباء اثني عشر، وقد مثلوا سائرهم؛ ومنه فإن هذا يشي بسيرة عنهم حسنة أيضا.

يا رسول الله خيرت دور الأنصار فجعلتنا آخرا؟ ولعله من باب المسارعة في الخيرات، وليقف على وحي بنقصهم فيعالجوه! ولأنها أمة تسابق الخيرات، لا أن الخيرات تسابقها!

لولا الهجرة لكنت امرؤًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، والأنصار شعار والناس دثار. هذا لسبقهم نصرا لنبيهم، وفي مواطن كثيرة، ويوم حنين قريبا شاهدا!

عن أنس بن مالك: إن الأنصار كرشي وعيبتي، وإن الناس سيكثرون ويقلون، فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم. (١).

---

(١) صحيح مسلم: ٢٥١٠

ويقلون! فاقبلوا من محسنهم! واعفوا عن مسيئهم! وهذا علم نبوة ضاف! ولأن الأنصار قد قلوا! ولأن الناس قد زادوا!

وما أجمل قبولا من محسن! وما أجمل عفوا عن مسيء!

إن القبول من محسن إحسانه، وإن العفو عن مسيء إساءته، ينشِّئ مجتمعا إيجابيا، تضمحل فيه غوايات الشيطان، ولأن فيه قبولا وعفوا حسنا.

أنا سلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم. هذا حديث ورد في شأن الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وهما سبطا رسول الله ﷺ، فيه كلام، لكنه حسن على قول الشيخ الألباني رحمه الله تعالى، ووعلى فرض صحته، فإنما يوجه على باب الولاء والبراء لا أكثر، وبه يحل إشكاله.

وإن هذا ليس من باب حمية، أو عصبية، ولأنه ﷺ مقتها، وعابها، وإنما هو نصرة واجبة لمن كان على الملة عدلا.

ولكن حديث الباب عن الأنصار، فإنما هو من باب إحسان الظن بهم، وإنه لا يكون منهم إلا ما وافق شرعا! ولأن سابقتهم أثبتت ذلك تماما. وإن هذا علم نبوة ضاف، وكما قد أنف!

ومثله قول أبي بكر رضي الله تعالى عنه: إن كان قالها فقد صدق! ولأن إحسان الظن بأمتنا مقدم، ولأن الأصل هو براءة الذمة. مالم يثبت عكسه، وبدليل قاطع وببرهان ساطع! كيما لا يخال عبد شكا في ذمم، وكيما لا يحسب طعنا في قمم، وإنما على أوهام وأساطير، تحسب دليلا وحجة دامغة! وإن هي من حقيقتها إلا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا [النور: ٣٩]. وهذا الذي يجعل من العلائق مشرذمة، وهذا الذي يحل بالولاءات فيذرها مفرقة مفتتة!

عن البراء بن عازب: الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله. [١]. ولأنهم أسسوا في سنة ما فات قريشا في ثلاث عشرة سنة!

المبحث الواحد والعشرون: فضل المدينة

إن النظر إلى المدينة كدار هجرة؛ ولأنها كانت عنوانا على ضرورة بحث عن دار يمكن فيها إقامة المسلم دينه؛ ولأن الأرض لله يورثها من يشاء.

إن ما استقبل به نبينا ﷺ في المدينة كان عنوانا على أن جواذب الطين يجب الإفلات منها، كعجلة الجاذبية! أو أشد! ولأنه يمكن التحرر من هكذا قيود مثقلة. ولما كانت معيقة، بل صادة، بل رادة عبدا أن يكون يسلم وجهه لله، وهو محسن!

إن هجرة نبينا ﷺ من أحب البقاع مكة، كان دليلا على أن الأصل هو إقامة الدين، لا عمل جواذب الطين. ثم عود إليها فاتحا مرة أخرى عزيزا مرفوعا.

إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها. [٢]. ولهذا كانت مهاجره ﷺ، كأول من شرفت به نورا، وهدى للناس.

أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد. [٣]. برهان أنه ﷺ ما فعل فعلا إلا بوحي من ربه.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٧٨٣
(٢) صحيح البخاري: ١٨٧٦
(٣) صحيح البخاري: ١٨٧١

اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إليَّ فاسكني أحب البلاد إليك. هذا حديث غريب؛ ولأن مكة هي أحب البقاع إليه تعالى، وبقطع النظر عن ساكنيها.

ولهذا كان اختياره ﷺ، وحين قال لمكة: والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وقال: إنك لأحب البلادِ إلي. [١].

رأيت رسول الله ﷺ واقفا على الحزورة فقال: والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت.[٢].

ويبين منه فضل مكة على ما عداها. وإن حدث من أهلها ما حدث!

ولكن هذا حديث باطل: اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إلي فأسكني في أحب البقاع إليك. [٣].

ليس يخرج مكة كونها أحب البقاع إليه تعالى أن أهلها كانوا أغلظ أكبادا؛ ولأنه يمكن لأصحاب الدعوات أن يعودوا إليها فاتحين مرفوعي الهامة.

ذكر المؤرخون أن مكة رغم جحود أهلها، إلا أنها كانت أنسب من ديار الهند مثلا؛ ولأنها كانت ولازالت تعج بأخلاق نابية نائية!

إن النظر إلى مكة، وقد كان فيها دين وثني واحد، يشفعه بقايا دين إبراهيمي حنيفي كريم، يجعلها أنسب بقعة لإقامة الدين الجديد، خلافا للهند وبها مائة دين أرضي!

---

(١) مجموع الفتاوى ابن تيمية: ٣٧٨/١٨. حكم المحدث: ثابت.
(٢) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٩٢٥
(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: ٣٧٨/١٨. خلاصة حكم المحدث: باطل.

إنه لو كانت أرض مكة ممهدة لاستقبال الدين الجديد، فما كانت له حلاوته التي عاينها الأصحاب، وحين أتوا إليها فاتحين مرة أخرى.

إن ديننا يقوم أول ما يقوم على حركة دائبة، لا يعتريها ركود، ولو لحظة واحدة، ومنه كانت الهجرة، ومنه كان الفتح المبين، لمكة أم القرى ومن حولها.

المبحث الثاني والعشرون: التأريخ للأمة

إنه كان توفيقا منه تعالى للفاروق عمر أن يجعل من مهاجره ﷺ تاريخا للمسلمين؛ وليظل محفورا في الذاكرة أبدا أن هذا تاريخ كان قد أعز الله به دينه.

يجب الربط بين كون المدينة كانت مهاجرا لنبينا ﷺ ، وبين كون الهجرة تاريخا؛ لتظل أصداء مفاصلة الكفر عالقة بالأذهان، لا مجرد انتقال من مكان إلى مكان.

دار بحث بين الصحابة لاختيار تاريخ لنا، وعما إذا كان من مولده، أو من مبعثه، أو من مهاجره، أو من وفاته ﷺ، فوقع الاختيار على المهاجر. ولكونه كان حدثا فصلا في تاريخ البشرية كلها لا جزيرة العرب وحدها!

وقف الأولون عند كل صغير وكبير في حياة نبينا ﷺ، ولم يجعلوا لأي منه عيدا؛ فهم أمة عاملة، لا وقت عندها للتريض في الأعياد، بل عيدين اثنين!

إن رفض الصحابة للتأريخ على نظام الفرس أو الروم أو من عداهم يجعلنا في عزة من أمرنا، وحين نتأبى تاريخا غير ما اختاروه نورا وهدى وتوفيقا.

إن اتخاذ الهجرة تاريخا لنا هو عزة لنا، وسير على هدي من قبلنا؛ لأنهم عايشوا من هم أكثر عددا، ولم يفتنهم تاريخهم كما قد فعل غيرهم!

استشار الفاروق عمر في التاريخ، فأجمعوا على الهجرة. وإن خرق إجماعهم هذا بحاجة إلى مراجعة؛ لأنهم أهل القرون الثلاثة المفضلة الأولى، والخيرية فيهم وسننهم. ولحديث: أتينا العرباض بن سارية، وهو ممن نزل فيه ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه فسلمنا، وقلنا: أتيناك؛ زائرين، وعائدين، ومقتبسين. فقال العرباض: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. [١].

حين اتفقوا على مهاجره ﷺ لهذه الأمة المرحومة، تشاوروا، أي شهر منه، وكان المحرم؛ لأنه شهر الله المحرم، ومنصرف الناس من حجهم! أرأيت كيف كان اهتمامهم وتأثرهم بأحداثهم.

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٤٦٠٧

وقال الله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١و٢]. وقال ابن عباس: هو المحرم فجر السنة. وهكذا كان اختيارهم له بدء تاريخنا! وهذا ربط بالقرآن بإحكام! ولعمله فيهم، منهج حياة.

عن سهل بن سعد الساعدي: ما عدوا من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولا من وفاته، ما عدوا إلا من مقدمه المدينة. [١].

إنه إذا كان أهل الكتاب يأخذون من كل حدث فيهم عيدا! ولأنهم أقاموا دينهم على البدعة! فما نحن منهم في شيء، وإن جعلوا كل يوم عيدا!

إن كثرة الأعياد علاوة على أنها ليست من ديننا، إلا أنها تورث في النفوس ترهلا ودعة تنافي خلق الأمم العاملة الناصبة.

ضحكوا علينا حين ابتلونا بكثرة الأعياد! وهاهم أولاء يعملون، ويخترعون، ويكتشفون، ونحن أولاء ههنا قاعدون! نرمق مددهم! ونقتات فتاتهم!

لماذا لا نأخذ منهم كدهم، ونصبهم، وعملهم، وابتكارهم، وبدل ان نأخذ منهم أعيادهم وبدعهم؟!

إن مسلما تأخذه حسرته، وحين يرى من أمته هوانا! وهي إذ تملك من أسباب العزة ما لا تملكه صانعة المرسيدس، ومخترعة الرافال، ومبتكرة بي٥٢!

إن ربطا بين الهجرة، وبين كونه عيدا، وعلى بدعته، ليس صوابا؛ ولأن الهجرة كانت في ربيع الأول، لا شهر الله المحرم، وهذا فخ آخر!

---

(١) صحيح البخاري: ٣٩٣٤

حين توافق الصحابة على جعل المحرم تاريخا، وكان موافقا لعمل العرب أولا، فدل على أن ديننا يبقي على الخير، ولا ينسخه، بيد أنه يوجهه تعبدا.

من حسن ديننا أنه يبقي على الحسن لحسنه، ويبطل الباطل لبطلانه، ويعدل الممكن لإمكانه، وكل ذلك بعد صبغته بالتعبد به لله تعالى أولا وآخرا.

قرن إسرافيل برسول الله ﷺ ثلاث سنين، يلقي إليه الكلمة والشيء، يسمع حسه ولا يرى شخصه، ثم كان بعد ذلك جبريل. [١]. وهذا نبي صنع على عين ربه تعالى! وماذا يكون شأنه؟! وماذا يكون شأن دين أتى به؟!

---

(١) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ١ / ٣٨٠

الفصل السابع

من أعمال السنة الأولى للهجرة

وفيه مباحث:

المبحث الأول: تأسيس مسجد قباء

أسس نبينا ﷺ مسجد قباء في يوم واحد كأقل تقدير، وعشرين يوما على أكثره، دليلا على بساطة ديننا، وأنه ليس يثقل كواهل المصلين باسم تعمير المساجد!

استدل السهيلي رحمه الله على أن مسجد قباء قد أسس في يوم واحد لقوله تعالى ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

المبحث الثاني: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾!

أثنى الله تعالى على المصلين في مسجد قباء، وبأنهم ليس يتطهرون فحسب، وإنما قد حببت إليهم الطهارة؛ ولأن ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾!

جاء الثناء على محبة أهل قباء الطهارة، وبالمصدر المؤول؛ دلالة على استمرار محبتهم للطهارة، وأنها سارية فيهم ما جرت فيهم عروقهم!

حين كانت محبة أهل مسجد قباء للطهارة، فكافأهم ربهم أنه يحبهم، ولأنه تعالى قال ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ وفرق بين محبة عبد ومحبة رب العبد!

إن الطهارة سماحة نفس، وعنوان فضيلة، ودرء رذيلة، وداعية أمن وسلام، وموجب شفاء من الأسقام. ولذا أحبها رب الأنام!

كشف قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ ليس عن محبته لأهلها فحسب، وإنما عن محبته للطهارة أيضا.

الطهارة طهارتان:

طهارة بدن: وهي التي يسمونها الطهارة الحسية.

وطهارة نفس: وهي التي يسمونها الطهارة المعنوية.

وكلتاهما متآلفتان معا!

إن الطهارة بمعنييها الحسية والمعنوية سبب موجب لسعادة الإنسان. فتجلب له أمنا، وتدفع عنه خوفا، وتكسبه نفعا، وتكشف عنه ضرا.

إن الطهارة الحسية إنما تكون في ثلاث: طهارة البدن، وطهارة الملبس، وطهارة البقعة التي تعيش عليها. وحرصك على ذلك موجب لمحبة ربك الرحمن سبحانه.

وإنما تكون الطهارة الحسية بالماء: وضوءً، واغتسالا، واستحماما ؛ ولأنها تزيل درنا مؤذيا، ولأنها تستدعي رضا مؤنسا!

ولكي تعلم عمل الطهارة الحسية: انظر إلى طفل لايزال في مهده، وعن بكائه وصراخه، ولا يكاد يسكت، ولا تهدأ ثورته، إلا حين تسارع أمه الحنون لطهارته!

إن نداء واجبا بحرص على طهارة البدن، ولأنها داعية لطهارة الأرواح، وزكاء الأنفس، وشفاء الأسقام، وطرد الأوهام، ومحبة رب الأنام.

وتكون الطهارة المعنوية من تخليص الإنسان نفسه من بوائق الشركيات، ومن أدواء الخطيئات، ومن دواعي الخصومات، ولأن ذلك من موانع الراحات.

إن سعادة الإنسان مشروطة بطهارته، وموقوفة على عدالته، ومنوطة بسماحته، ومرتهنة بسلامة عقيدته!

حين سأل نبينا ﷺ أصحابه، عن سر ثناء ربهم عليهم، وحين تطهروا، وكان جوابهم أنهم يغسلون أدبارهم بالماء من الغائط، كما علمهم يهودا! أرأيت فعل الماء؟!

رأيت قوما في إحدى البلاد يغسلون غائطهم جماعتهم في بركة ماء غير جارية! ولا أدري أهم يتطهرون به، أم هم ينجسونه، فتصير نجاستهم مركبة؟!

إن شرط تأسيس المسجد ولينال ثناء الرحمن، أن يكون على التقوى، ومن أول يوم تأسيسه، نية مصاحبة في جميع مراحله، ولأن النية الصالحة هي أساس كل عمل.

جاءت كلمة التقوى أساسا في بناء المساجد؛ ولأن نفوسا تغويها الشياطين، فألهمها ربها شرطه؛ كيما تصحح أمرها، وفقا لمراد ربها.

جاءت كلمة التقوى كأساس في بناء المساجد، وإنما يفسرها قوله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]. ولتؤخذا معا، ولا يفترقا أبدا.

إن المساجد وحين كان يوم تأسيسها وأنها على التقوى، ومن أول يوم كان ذاك! فإنما يحرص روادها ألا يدعى فيها سواه، وألا يشرك معه أحد.

المبحث الثالث: حرمة الصلاة في مسجد فيه قبر

إن دفاعا مستميتا؛ لتبرير قبور صالحين، أو طالحين، في المساجد، يعد تبريرا، لا طائل من ورائه؛ لأنه رجوع إلى ما تأباه عقول، فضلا عن رب العقول!

إن نقاشا كنا في غنى عنه، يوم أن جعلوا من وجود قبر داخل مسجد، أو حواليه، مادة للأخذ والرد؛ وحين قد ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۦ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

إن وجود قبر داخل مسجد، أو حواليه، مناف لقوله تعالى ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۦ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾. فلماذا راحوا فيها وجاؤوا هكذا؟!

إن القرون الثلاثة المفضلة الأولى ما عهد فيها مثل ما عهد من بعدها نقاشا حول قبر داخل مسجد أو حواليه؛ ولأنهم كانوا أهل توحيد وفتوحات معا، وما كان وقت عندهم لهذا!

إن العجب ليستغرقنا حين تعقد حلقة في مسجد فيه قبر أو حواليه؛ ولتبرير شرعيته، والناس خارج قد سئموا هكذا منهج، وما هو من المنهج في شيء!

نحن أمة جاءها دين ليطهرها من رجس شيطان مريد، فلماذا نأبى إلا أن نناقش قبرا في مسجد أو حواليه، كان صاحبه أول بريء منه؟!

إن الإصرار على إجازة قبر داخل مسجد أو حواليه، هو مشابهة لقوم نحن ننعتهم بعبادة الصور والتماثيل والصلبان!

حين ترى أحدهم وقد امتطى جواد سفره إلى حيث مسجد به قبر أو حواليه؛ لتدرك وقتها أنه ما جاء إلا لجناب ميت؛ ليدفع عنه ضرا، أو يريد به نفعا! وما درى المسكين أنه ما يملك لنفسه من قطمير! وفضلا عن غيره أولى!

إن مسؤولية تصحيح عقائد الناس عظيمة، وتقع على كل وبحسبه؛ ولكيلا يقولوا ﴿رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

المبحث الرابع: فضل الصلاة في مسجد قباء

الصلاة في مسجد قباء كعُمرة. [١]. شرط عدم شد الرحال، بل التطهر في بيته.

ولحديث سهل بن حنيف: من تطهر في بيته، ثم أتى مسجد قباء، فصلى فيهِ صلاة، كان له كأجر عمرة. [٢]. ذكر البيت؛ وحتى لا يقال: يجوز شد الرحال.

ربط العماد ابن كثير رحمه الله تعالى بين مسجد قباء كأول مسجد لله تعالى في يثرب بعد الهجرة، وبين مسجد أبي بكر كأول مسجد

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٣٨٧٢
(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١١٦٨

لله تعالى في مكة أيضا؛ ولأن الأول كان لعموم الأمة، والثاني كان لخاصتها فافترقا.

نزهت المساجد الثلاثة عن البدع تماما؛ وحماية لجناب التوحيد، غير أنك تشمئز من جعل مساجد أخر مزارات، وكأنما هي الفتح المبين!

لو جاز عمل المساجد مزارات، لكانت المساجد الثلاثة ومسجد قباء أولى بها! ولأن لكل تاريخا في الإسلام عظيما، بخلاف الأخرى فكلام حولها كثير.

إن نداء حانيا بإغلاق باب جعل المساجد مزارات، وتوفير نذورها على دافعيها، فهم بها أحق؛ ولأن بعضهم ربما باع قوت يومه؛ لأجلها جهلا!

المبحث الخامس: إسلام عبد الله بن سلام

عن أنس بن مالك: أن عبد الله بن سلام، بلغه مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني به جبريل آنفا قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، قال: أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال يا رسول الله: إن اليهود قوم بهت فاسألهم عني، قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاءت اليهود فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن

خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال النبي ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام قالوا: أعاذه الله من ذلك، فأعاد عليهم، فقالوا: مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، قالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقصوه، قال: هذا كنت أخاف يا رسول الله" [١].

وعن أنس بن مالك: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي؛ قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: خبرني بهن آنفا جبريل، قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها. قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود، ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه." [٢].

---

(١) صحيح البخاري: ٣٩٣٨
(٢) صحيح البخاري: ٣٣٢٩

قال عبد الله بن سلام: فلما تبينت وجهه ﷺ عرفت أنه ليس بوجه كذاب! أرأيت كيف تُصنَعُ ملامح الوجه من رسائل يحملها القلب، وليبدو قمرا منيرا؟!

إن الكذاب وحين أخفي كذبه، إلا أن الله تعالى يهتك ستره، ومن حيث لا يحتسب! ولأن رسائل يحملها قلبه، فترتسم على وجهه تقول: هذا كذاب!

إن الصادق، وحين يعلم الله تعالى صدقه، وإنما ترتسم على محياه علامات، يعرفها أولو الفراسة! ليقولوا وكما قالت الظعينة: لا تلاوموا؛ فقد رأيت وجه رجل ما كان ليخفركم -ليحقركم-، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه. [١] وسيأتي لاحقا عن شاء الله تعالى.

عن عبد الله بن سلام لما قدم النبي ﷺ المدينة، انجفل الناس قبله، وقيل: قد قدم رسول الله ﷺ، قد قدم رسول الله، قد قدم رسول الله ثلاثا، فجئت في الناس، لأنظر، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته تكلم به، أن قال: يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل، والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام. [٢].

أربع ضامنات للموحد بالجنة: أفشوا السلام، على معروف وسواه، وأطعموا الطعام، على حبه، وصلوا الأرحام، بلا قطيعة، وصلوا بالليل والناس نيام، صلة بالله، تدخلوا الجنة بسلام.

هذا أول هدي سمعه عبد الله بن سلام منه ﷺ.

---

(١) صحيح دلائل النبوة، الوادعي: ٦٧
(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٢٦٤٨

حين جاء عبد الله بن سلام مسلما، فأراد أن يستشهد على يهود بصدقه فيهم، وقبل إعلامهم بإسلامه، ولأنهم سوف يقلبون رأس المجن!

وقوله ﷺ: يا معشر اليهود ويلكم، اتقوا الله: جواز مجابهة خصم عرف عنه لجج في خصومته، وجدل في دعوته، وإمعان في جهالته. وهذا عرف عنه ﷺ في مواقف أخر.

وقوله ﷺ: فو الله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقا، وأني جئتكم بحق فأسلموا. قالوا: ما نعلم هذا. هذه مؤكدات سبعة؛ تناسب قوما نعتهم كيهود.

سأل نبينا ﷺ يهود عن عبد الله بن سلام، فأخبروه بأنه سيدهم، وابن سيدهم، وأعلمهم، وابن أعلمهم، وحين أخبروا بأنه أسلم قالوا: كذبت! فصحت نبوءته!

أسلم بن سلام بعد أن أجابه ﷺ عن ثلاث لا يعلمها إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟

نزل جبريل بإجابات الأسئلة الثلاثة، وفور إلقائها ابن سلام على مسامعه ﷺ. وهذا نبي مؤيد بالوحي، وهذا نبي لا يقول إلا علما، وليس يخبر عن الله صدقا.

اتهم ابن سلام جبريل أنه عدو الله، فأخذه ﷺ بلطف؛ لإشارات بدا وضوحها، وأنه مؤذنة لإسلامه! فأسمعه ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

أسئلة عبد الله وأجوبة نبي الله!

س١- ما أول أشراط الساعة؟

ج١- أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق تسوقهم إلى المغرب. من الأشراط الكبرى.

س٢- وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟

ج٢- وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت. وهي القطعة المنفردة المتعلقة في الكبد، وهي أطيبها.

فائدة علاجية: من فوائد زيادة كبد الحوت: تخفيض نسبة الكولسترول في الدم، وتخفيف آلام المفاصل، غني بفيتامين (د). خافض للضغط، تنظيم الجهاز المناعي.

س٣: ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟

ج٣: وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها. قال: أشهد أنك رسول الله.

حين سمع ابن سلام بنبينا ﷺ كبَّر! فسألته عمته: أهو الذي كنا نخبر أنه يبعث؟ قال: نعم! قالت: فذاك إذاً! ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

يا رسول الله: إن اليهود قوم بهت. هذا وصف عبد الله بن سلام ليهود! وكان سيدهم! وأعرف بهم!

والبهت والبهيتة: الكذب. وفي حديث الغيبة: وإن لم يكن فيه ما نقول، فقد بهته أي كذبت وافتريت عليه. وفي حديث ابن سلام في ذكر اليهود: أنهم قوم بهت، قال ابن الأثير: هو جمع بهوت، من بناء المبالغة في البهت، مثل صبور وصبر، ثم يسكن تخفيفا.

والبهت: الانقطاع والحيرة. رأى شيئا فبهت: ينظر نظر المتعجب. [١].

قالت صفية: سمعت عمي يقول: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: تعرفه بنعته وصفته؟ قال نعم والله! قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت! وقال قوله هذا ورغم الآيات والنذر ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قال ياسر بن أخطب: يا قوم أطيعونِ، فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرون، فاتبعوه ولا تخالفوه. وكان أول كافر به صلى الله عليه وسلم!

تضافرت يهود على صدق نبينا ﷺ، وما جاء به، إلا أن منهم من أسلم، كعبد الله بن سلام، ومنهم من كفر كحيي بن أخطب. و ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

المبحث السادس: أول صلاة جمعة بالمدينة

حين ارتحل نبينا ﷺ من دار بني عوف، وأدركته صلاة الجمعة، عند الزوال، فصلى بهم، وكانت أول جمعة. ولما لم يكن عليها قادرا في مكة؛ لصعوبة الاجتماع.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ٢ / ١٣

وفيه جواز ترك الجمعة والجماعات؛ حين الفتنة؛ ولأن نبينا ﷺ ما صلى الجمعة إلا بعد قراره بالمدينة.

أخذ بعضهم جواز الصلاة في البيوت؛ حين الفتنة، ومن فعله ﷺ، ومن قوله تعالى ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧].

عن مجاهد، قال: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم. قال: ثنا عبد الله، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي مالك: واجعلوا بيوتكم قبلة قال: كانت بنو إسرائيل تخاف فرعون، فأمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد يصلون فيها. [(١)].

تضمنت أول خطبة لنبينا ﷺ: حث الناس على التوحيد، والاستعداد للموت وما بعده، والمحبة فيما بينهم، وترك ما يوجب شحناء نفس أو تباعد قلب.

المبحث السابع: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾

كان نبينا ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة. ولأن ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]. ولأنه ﷺ أمر بالصلاة على وقتها وكان فعله كذلك.

فعن عبد الله بن مسعود سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين، قال:

---

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ١١ /١٩٩و٢٠٠

ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني. [١].

إن إقامة الصلاة على وقتها هو من إقامتها على سنته وهديه ﷺ، وأما تأخيرها عن وقتها فعلى غيرهما.

إن انتظار الصلاة بعد الصلاة هو هدي سيد المرسلين ﷺ، وصلة برب العالمين، حينا من بعد حين، طهرة للمؤمنين، وزادا للمتقين، ومعينا ودربا للسائرين.

فعن أبي هريرة الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه، ما لم يحدث: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة. [٢].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أيضا: ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط. وليس في حديث شعبة ذكر الرباط. وفي حديث مالك ثنتين فذلكم الرباط، فذلكم الرباط. [٣].

لا يقال: تأخير الصلاة لعذر هو خروج بها عن وقتها؛ لأن وقتها هو هذا ولأنه ﷺ قال: إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم. [٤].

كان ﷺ يصلي في مرابض الغنم ولا يصلي في أَعطان الإبلِ ولا الأرض المغصوبة). ولأنه قال: إن لم تجدوا إلا مرابض الغنم وأعطان

---

(١) صحيح البخاري: ٥٢٧
(٢) المرجع السابق: ٦٥.
(٣) صحيح مسلم: ٢٥١
(٤) المرجع السابق: ٥٣

الإبل، فصلوا في مرابض الغنم، ولا تصلوا في أعطان الإبل؛ فإنها خلقت من الشياطين. [(١)].

واما أعطان الإبل فإنها من الشياطين. وأما عن مرابض الغنم فإنها بركة: فعن البراء بن عازب: سئل رسول الله ﷺ عن الصلاة في مبارك الإبل، فقال: لا تصلوا في مبارك الإبل؛ فإنها من الشياطين، وسئل عن الصلاة في مرابض الغنم، فقال: صلوا فيها؛ فإنها بركة. [(٢)].

المبحث الثامن: دلائل النبوة وفضيلة عمار

عن عكرمة، قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا من حديثه، فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ فينفض التراب عنه، ويقول: ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار. قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن. [(٣)].

وعن أم سلمة أم المؤمنين قالت: لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون المسجد جعل أصحاب النبي ﷺ يحمل كل واحد لبنة لبنة وعمار يحمل لبنتين لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ فمسح ظهره وقال ابن سمية للناس أجر ولك أجران وآخر زادك شربة من لبن وتقتلك الفئة الباغية. [(٤)].

---

(١) صحيح الجامع، الألباني: ١٤٣٩
(٢) سنن أبي داود، أبو داود: ٤٩٣
(٣) صحيح البخاري: ٤٤٧
(٤) البداية والنهاية: ٣/٢١٥. خلاصة حكم المحدث: إسناده على شرط الصحيحين.

وهذه ثلاثة أعلام نبوة أخر، منضافة إلى غيرها، ومن محالها؛ ولأنه ﷺ أخبر عمارا بأنه له أجران، ولعل ذلك؛ ولأنه كان يحمل لبنة عنه وأخرى عن نبينا ﷺ، ويوم بناء مسجد النبي ﷺ، ويكأن عمارا فاز، وحين زيد مع الأجر شربة من لبن! وهذا كناية عن مزيد فضل له.

ولكن العلم الثالث، وحين أخبر ﷺ أن عمارا هذا سوف تقتله الفئة الباغية، وهذا الذي حمل فريقا أن يقول بأن الحق كان مع علي؛ ولأن الذي قتل عمارا فإنه فريق معاوية، ورضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وفيه دليل جواز إعلام العبد بقتله، وعلى شدته؛ ولأنها مصلحة أدني مقابلة بمصلحة أعلى هي أعلام النبوة! ولأن فيه شحذا لهمم الناس أن يرتقوا، ولأن فيه شحنا لهم أن يتقوا!

ويكأننا ننظر إلى هكذا جانب من جوانب رحمته ﷺ برعيته، وحين كان قوله هذا؛ وليربت على صدر عمار، وحين أبلى هذا البلاء الحسن.

المبحث التاسع: جانب حول مقاتلة جرت بين معاوية وعلي رضي الله عنهما

ليس في إخباره ﷺ عمارا أنه ستقتله الفئة الباغية دليل على أن معاوية هو الذي قتله، فقد يعمل جندي تلقاء نفسه عملا، لم يأمر به قائده.

قول إن جيش معاوية كان هو الفئة الباغية؛ لأنهم قتلوا عمارا، إلا أنها فئة مؤمنة، ولا يخرجها بغيها عن الإيمان ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

قول: إن فئة معاوية رضي الله تعالى عنه كانت هي الباغية؛ ولأنهم قتلوا عمارا، لا يخرجه عن دائرة تأويل واجتهاد له فيه أجر. وهذا هو مطلق حسن الظن بالمسلمين.

وإن أمامنا قول معاوية، والذي ربما وضع في دائرة الاجتهاد والتأويل! وحين قال: إنك شيخ أخرق، أَوَ نحن قتلنا عمارًا، إنما قتل عمارًا من جاء به. [١].

وعلى كل حال فلسنا الآن بصدد هذا، ولعل الله تعالى أن يأذن بيوم تشرح في الصدور، وتكتب فيه السطور، بيانا لهذه الأمور، والله تعالى هو المعين على كل مقدور.

ابني الحسن هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين. هذا دليل حسن إسلام فئتي على ومعاوية، لأن الحسن أصلح بينهم، ولأنه ﷺ أسماهم المسلمين، ولا نزيد عليه.

كان معاوية ولي دم عثمان، وكان يطالب بالقصاص من قتلته الذين التحقوا بجيش عليٍّ رضي الله عنه. فلم يكن قصده قتال عليٍّ بدرجته الأولى. وهذا حسن ظن به.

جاء نفر إلى معاوية، وقالوا: أنت تنازع عليا، أم أنت مثله؟ فقال: لا والله، إني لأعلم أنه أفضل مني، وأحق بالأمر مني! [٢].

---

(١) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٤ / ٢٩

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٤٠

كان عذر معاوية أن قتلة عثمان بين جيش عليٍّ، وهذا تأويله، وكان عذر علي وجوب دخول معاوية تحت طاعة الأمير، وإلا قوتل، وهذا تأويله. وعفا الله عنهما.

حديث: إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، استحلالا، ولم يستحلا، بل تأولا، ويقابله قوله ﷺ: تقتلك الفئة الباغية. أي المؤمنة؛ ومن ظاهر نظم الآية تأويلا. فبرئت ساحتاهما.

لم يتقاتل جيشا علي ومعاوية استحلالا، وإنما تأويلا، ولأنهما فئتان مؤمنتان، وغايته أنه ﴿بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾.

لسبب التباس حدث عند الأصحاب؛ فقد اعتزل كثير منهم فتنة المواجهة بين معاوية وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

كان الأصحاب قريبا من عشرة آلاف يوم الفتنة، ولم يحضر القتال سوى مائة كأكثر تقدير، وثلاثين كأقل تقدير، برهانا على اعتزالهم الفتنة.

إنه لا يخرجنا أمر الفتنة بين الصحابيين عن إعجاز الخبر النبوي أن عمارا سيقتل! ولأنه علم نبوة كريم، في مواجهة الخصوم، ولأنه قد حدث حقا!

في قوله ﷺ: ويحك ابن سمية تقتلك الفئة الباغية. جواز نداء المرء باسم أمه.

على أن عمارا بن ياسر رضي الله تعالى عنه، وها هو قد أبلى في الله تعالى هذا البلاء الحسن، وها هو يقتل، وحين ناهز التسعين من

عمره، أجلا مديدا، ومصاحبا لعمل حسن، واستشرافا لقوله ﷺ: خيركم من طال عمره، وحسن عمله.[1]. أشار في المقدمة إلى صحته.

واستشرافا أيضا لقوله ﷺ: إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علي، وعمار، وسلمان.[2]

حديث ضعيف: لما بنى النبي ﷺ المسجد وضع حجرا ثم قال ليضع أبو بكر حجرا إلى جنب حجري ثم قال ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكر ثم قال ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر ثم قال هؤلاء الخلفاء من بعدي.[3].

المبحث العاشر: حديث من دلائل نبوته ﷺ؛ لحدوثه

الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك[4].

كانت خلافة أبي بكر سنتين وكانت خلافة عمر عشر سنين، وكانت خلافة عثمان اثني عشر عاما، وكانت خلافة علي ست سنوات، فهذه ثلاثون تطبيقا لقوله ﷺ آنفا.

لا يسوغ ركون إلى أن ملكا عضوضا يبرره سكوت؛ لأنه جنبا إلى جنب مع : أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر – أو أمير جائر[5].

أصابت امرأة وأخطأ عمر. فيه رسالة أن الصواب ربما كان حليفا لمن تتدناه رقاب عالية! ولأن أخذا على يد المجتمع آمرا ومأمورا فيه نجاته كله، ومن طوفان يجرف الجميع، وحين لم يؤخذ على يد ظالم!

---

(١) التفسير، أحمد شاكر: ١/١٣٩
(٢) ضعيف الترمذي، الألباني: ٣٧٩٧
(٣) العلل المتناهية، ابن الجوزي: ١/٢١٠. خلاصة حكم المحدث: لا يصح.
(٤) سنن الترمذي، الترمذي: ٢٢٢٦، خلاصة حكم المحدث: حسن.
(٥) صحيح أبي داود، الألباني : ٤٣٤٤

المبحث الحادي عشر: فضيلة أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه

لا يفوتنا صنيع أبي أيوب مع نبينا ﷺ، وكان مثال بذل وعطاء، وكان روعة تفان ووفاء، وحين حط عنده الرحال، وحين أكرم الوفادة، وحين أغدق الرفادة.

إن عمل أبي أيوب مع نبينا ﷺ كان مثالا لأنصاري فتح قلبه للمهاجرين قبل بيته؛ لأنهم ضربوا أروع مثال، فسطر التاريخ أمجادهم وأشاد عملهم.

المبحث الثاني عشر: هديه ﷺ في بناء مسجده

عن أنس بن مالك: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، نزل في علو المدينة، في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، قال: فجاؤوا متقلدي سيوفهم، قال: وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، قال: فكان يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، قال: ثم إنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤوا، فقال: يا بني النجار ثامنوني حائطكم هذا فقالوا لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، قال: فكان فيه ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، قال فصفوا النخل قبلة المسجد، قال: وجعلوا عضادتيه حجارة، قال:

قال جعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم، يقولون: اللهم إنه لا خير إلا خير الآخره، فانصر الأنصار والمهاجره.[1].

إن نداء نبينا ﷺ على بني النجار أن يثامنوه أرضا، سيقام عليها مسجد لله؛ برهان أن الإسلام يحفظ الملكية الخاصة ويصونها، فلا غصب ولا تعدٍ.

وكما وأنه برهان على جواز نزع الملكية الخاصة؛ للمنفعة العامة، ولقاء جعل عادل.

ولكن مجيء لفظ يثامنوه برهان على لطف العبارة، ودليل على حنو الإشارة.

إن قسم بني النجار أن يتبرعوا بأرض سيقام عليها مسجد؛ برهان أن أمتنا كالسيل لايدرى خيره أوله أو آخره، وأن نظرهم إلى الآخرة أبعد، وإلى فوزهم أقرب.

وفيه جواز نبش قبور المشركين، وتسوية الخرب، وقطع النخيل ولمقتضيات المصلحة العامة.

وفيه جواز الارتجاز؛ لشحذ الهمم.

إن النظر إلى مسجد بناه نبينا ﷺ عريشا! داع لشفقة، وحين يكون تعمير المساجد على وجه التبذير، بزعم أنها أولى، وحاله أشبه بتسابق بنيان.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٩٣٢

المبحث الثالث عشر: فضائل مسجد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

وقال الله تعالى ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

أسس مسجد نبينا ﷺ على التقوى، ولأنها عماد ديننا، وأساس ملتنا، وحين كان النظر أن كل عمل إنما هو لله تعالى، يتقدمه اعتقاد صحيح فيه تعالى.

لا يمكن أن يكون المسجد مؤسسا على التقوى إلا إذا كان ينادى فيه أبدا أن كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

مع كل تقدير للدعاة إلا أن ما عمت به البلوى مقدم في الدعوة على ما سواه، فليس حسنا. نداء بالصلاة على النبي ﷺ، ليل نهار، مع ضرورته، واستغفروا الله آناء الليل وأطراف النهار، مع إحسانه، وشرعه تعالى مؤخرا!

ولأن الأهم فالأقل أهمية مقدم على سواه، وحين عمت البلوى بتصرم الناس عن المنهج، وكان أولى حثهم على المنهج، ومن ثم معه، أو من إثره تكون حملات الصلوات والتسليمات والتبريكات على نبينا محمد ﷺ!

ولسنا نريد أن يفهم الناس أن دين ربهم سبحانه مختزل في هكذا صلاة على النبي ﷺ، أو كثرة حوقلة، أو مداومة على استغفار، وها هم أولاء لموازينهم يطففون! وها هم أولاء للصلاة تاركون، وللرحم قاطعون، وبشرع غير شرع ربهم يحكمون!

كان من فضائل مسجد نبينا ﷺ أنه أسس على التقوى، ومن أول يوم، ومنه كان موجب أنه أحق أن يقوم فيه ﷺ.

كان من فضائل مسجد نبينا ﷺ، كونه قد شمل رجالا، كانت الطهارة إلفا لهم، ومحبة، وسننا حسنا، ومنه جاء الثناء عليهم من السماء، وحين قال الله تعالى ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

كان من فضائل مسجد نبينا ﷺ جواز شد الرحال إليه؛ استحضارا لعمل قام فيه، إعلانا عاما أنه لا معبود بحق إلا الله تعالى، وأنه لا يشرك أحد معه.

كان من فضائل مسجد نبينا ﷺ أنه: صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام. [١]. استدعاء لقيم التوحيد الخالص لله تعالى.

كان من فضائل مسجد نبينا ﷺ أنه: عن النبي ﷺ، قال: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي. [٢]. استدعاء لجهد بذل فيه لإقامة التوحيد ودحر الشرك. ﷺ.

وردت أخبار ضعيفة كثيرة في شأن بناء مسجد النبي ﷺ نعرض عنها، وفي الصحيح غنية، والحمد لله غير أن جامع الصحيح هو مشاركته ﷺ في البناء. وهذا عمل يقتدى، وهذا سبيل يحتذى؛ ولأنه وحين يسبق القائد المقود، فتراه نشيطا دأبا حراكا أبدا.

---

(١) صحيح البخاري: ١١٩٠

(٢) المرجع السابق: ١٨٨٨

المبحث الرابع عشر: فضائل المسجد الحرام

كان وجه لا ينتهض لقول مالك رحمه الله أن مسجد نبينا محمد ﷺ أفضل من المسجد الحرام؛ ولأنه أفضل من أبيه إبراهيم الذي أسسه! وإذ لايزال المسجد الحرام هو البيت المحرم، وأنه منارة التوحيد، ونبذ الشرك، وأنه شرف إبراهيم وإسماعيل برفع قواعده، وشرف نبينا محمد ﷺ توحيده تعالى فيه.

لا يمكن موافقة الإمام مالك رحمه الله تعالى أن مسجد نبينا ﷺ أفضل من المسجد الحرام، ولأنه تمايز عنه بأنه بيته تعالى المحرم اختصاصا وفضلا.

المسجد الحرام هو قبلتنا، ومطافنا، وسعينا، وحجنا، ومثابتنا، وأمننا، وحرم قتال فيه، وصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه. ولذا يفضل الكل، ولا شيء يعدله فضلا عن أن يفضله أبدا.

ولعل الإمام مالكا قد استوحى نبأه هذا، ومن كون أن المسجد النبوي كان قد أسس على التقوى! ومن أول يوم؛ ولذا كان أحق أن يقوم فيه النبي محمد ﷺ، وهو قول لا ينتهض؛ ولأن البيت الحرام هذا أساسه، ومن يوم أذن الله تعالى به، أن يكون المسجد الحرام، وبهذه المثابة!

وكفى بالمسجد الحرام مزية وحين قال الله تعالى فيه ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥و٩٦].

ولكن حديثا جاءنا عن نبينا محمد ﷺ، وإذ كانت الصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه، وهذا ضامن

بالمفاضلة، وحين موازاته بخبره ﷺ أن الصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة!

فعن جابر بن عبد الله: صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه. [١]

وعن أبي هريرة: صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام. [٢].

ولكن وقفة حول الخلاف في المقصود بقوله تعالى ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾. وهل هو المسجد النبوي أم هو مسجد قباء!

وتمت معالجة ذلك، في حينه، من هذه السيرة النبوية المباركة.

إن هالة من الخضعان، والخشعان، والراحة، والسكن، والأمن، والطمأنينة لتخيم على أحدنا، ولمجرد أنه رأى المسجد الحرام! ولما يدخله ويقيم الصلاة أو الطواف أو السعي أو الذكر فيه كان أشد عمقا!

---

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١١٦٣
(٢) صحيح البخاري: ١١٩٠

المبحث الخامس عشر: حجرات نبينا محمد ﷺ

كانت حجر نبينا ﷺ قصيرة البناء قريبة الفناء، وكان الحسن بن أبي الحسن ينال أطول سقف منها بيده! ولايبرره أن الحسن كان طويلا!

إنه لتأخذك هالة من الخضعان وأنت إذ تعرف أن أملاك نبينا محمد ﷺ وهي غرفه وحسب قد ألحقت بمسجده دلالة على أن هذا النبي ﷺ ما ترك له شيئا في الدنيا!

وكانت حجره من شعر مربوطة بخشب من عرعر. قال وفي تاريخ البخاري أن بابه عليه السلام كان يقرع بالأظافير، فدل على أنه لم يكن لأبوابه حلق. [1]. هذا بيت يشعرك بعدم الخلود وأنت إذ تنظر إلى قدام!

حين هجرة عائشة رضي الله تعالى عنها وأمها أم رومان إلى المدينة، فشرد الجمل، فسمعت قائلا يقول: أرسلي خطامه، فأرسلت خطامه فوقف بإذن الله وسلمهما ربهما. احفظ الله يحفظك.

وانظر كيف كان صنيعه تعالى مع عائشة وأمها، وحين هجرتهما من مكة إلى المدينة، وقد شرد بها جملها ويكأن هذه أمها، وإذ تقول: وا عروساه وا بنتاه! وإذ يهيئ الله تعالى لها سبيل حفظها، وموجب رعايتها؛ ولأن هذه أمة هاجرت لله تعالى، وتاركة ديارها وأموالها له تعالى، وحفظه تعالى لكهذا أمة حادث، وحال، وحاصل.

وقد شرد بعائشة وأمها أم رومان الجمل في أثناء الطريق فجعلت أم رومان تقول: وا عروساه، وا بنتاه! قالت عائشة: فسمعت قائلا

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٢٦٨

يقول: أرسلي خطامه، فأرسلت خطامه فوقف بإذن الله وسلمنا الله عز وجل. [١].

المبحث السادس عشر: حُمَّى المدينة

عن عائشة أم المؤمنين: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول: كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول: ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل وهل أردن يوما مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل قال: اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدنا، وصححها لنا، وانقل حماها إلى الجحفة. قالت: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، قالت: فكان بطحان يجري نجلا. تعني ماء آجنا. [٢].

كانت وعكة ببعض المهاجرين؛ ابتلاء منه تعالى، وليعلم الناس أن قدره تعالى سابق، إن في المدينة، وإن في مكة، وإن فيما سواهما، ووضعها في ذلكم سياق، هو من مطلق الإيمان.

ويبدو أن هذه الحمى التي حلت بالمدينة كانت قبل حلول المهاجرين؛ بدلالة قول عائشة: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله وكان بطحان يجري نجلا (ماء آجنا).

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٢٦٨
(٢) صحيح البخاري: ١٨٨٩

وبطحان: وادي جنوب المدينة، وإذ كان يجري ماء آجنا أي: متغيرا عفنا، فتنشأ بسببه الأمراض والأوبئة.

على أي حال كان أمر حمى المدينة، فإنه في حس المسلم وعقيدته لا يخرج عن كونه ابتلاء، وأيا ما كان مكان حلوله، اختبارا لإيمان أحدنا وتقواه.

اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعها وفي مدها وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة. هذه أربع أدعية نبوية، كريمة، مجابة؛ طمأنة منه ﷺ، ولآله، ولأصحابه، وبعثا لعامل الأمل والرجاء فيهم.

كان عدم حلول حمي المدينة بنبينا ﷺ ولأصحابه وبعث ابتلاء آخر، واختبارا لثبات جأش المؤمنين، وحين استقبله الناس منه تعالى قدرا مقدورا، وليعلم الله الذين صدقوا، وليعلم الصابرين.

ولكن هذا بلالا يدعو على نفر من الكفار؛ ولما كانوا سببا في إخراجهم من مكة، وبه دل على جواز الدعاء على الكفار، ولا سيما أنه كان عن علم نبينا وحضرته، ولم ينكر بل إنه ﷺ فعل ذلك يوما.

فعن عبد الله بن مسعود: أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبي ﷺ، وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئا، لو كان لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره، فرفع رسول الله ﷺ رأسه ثم قال: اللهم عليك بقريش. ثلاث مرات، فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا

يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط - وعد السابع فلم يحفظ -، قال: فوالذي نفسي بيده، لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى، في القليب قليب بدر.[1]

ولكن هذا دعاء نبينا ﷺ ربه تعالى أن يصحح لهم المدينة، وأن ينقل حماها إلى الجحفة، وقد فعل ربنا تعالى!

ولكن اختصاص الجحفة بالذكر؛ ولأن قومها كانوا كفارا، وبه دل على ما أنف، دعاء على الكفار؛ وكيما يفعل البلاء فيهم فعله، فيؤوبوا.

وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب: قالت- عائشة-: فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك.[2]

ما معنى الحجاب إذا لم يكن سترا كاملا إذن؟! وما فائدة كلامها رضي الله تعالى عنها، وإذا لم يكن يحمل الحجاب معنى الستر؟

إن قول عائشة: وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، برهان أن هذه أمة خير كأبعد ما كان خير؛ ولأنها تستمد فعلها أو تركها من وحي ربها، وبدلالة قولها: يُضرَبُ!

---

(١) صحيح البخاري: ٢٤٠
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٤٢٦

علم نبوة ضاف: عن عبد الله بن عمر في رؤيا النبي ﷺ في المدينة: رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس، خرجت من المدينة حتى نزلت بمهيعة، فتأولتها أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة. وهي الجحفة. [١].

وهذه بركة دعاء نبينا ﷺ، وفأل حسن بحلول رسولنا ﷺ على المدينة وأهلها!

كان من دلائل نبوته ﷺ، وأمارات حلول بركته على المدينة، أن أماط عنهم أذى حُمَّاها. ومنه فلا يستعجل العباد النتائج، وليتفاءلوا خيرا أبدا.

كان من نقل حمى المدينة إلى مهيعة، وهي الجحفة برهان على أنه: احفظ الله يحفظك؛ ولأن قوما مؤمنين حلوا إليها، فكان سبب كنس لوبائها عنهم جميعا

المسلمون مباركون، ولا عجب؛ لأن الله تعالى أكرم المدينة بنقل وباء كان مشهورا فيها، ولما حل فيها نبينا ﷺ وصحبه الكرام رضي الله عنهم!

قدم نبينا ﷺ لعمرة القضاء سنة سبع هجرية، فتحدث المشركون أنهم منهكون من حمى أصابتهم، فأمرهم ﷺ أن يرملوا الثلاثة الأشواط الأُوَلَ! وهذه دالة حكمة نبينا ﷺ.

لعل أثر الحمى مازال باقيا، جمعا بين حمى كانت أول عهدهم بالمدينة، وقول المشركين إنهم محمومون في عمرة القضاء سنة سبع، أو أنه زعم مجرد. برهان أنه لم يرد ما ينفي أو يؤكد؛ ردا على هذا الزعم، وغايته أمره ﷺ لهم بالرمل.

---

(١) صحيح البخاري: ٧٠٣٩

صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم: عن عبد الله بن عمرو ابن العاصي: أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هو وأصحابه أصابتهم حمى المدينة، حتى جهدوا مرضا، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ، حتى كانوا ما يصلون إلا وهم قعود، قال: فخرج عليهم رسول الله ﷺ وهم يصلون كذلك، فقال لهم: اعلموا أن صلاة القاعدة على النصف من صلاة القائم. قال: فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماس الفضل. [١].

كان من دلالة شدة الحمي أنهم حتى كانوا يصلون وهم قعود. فأخبرهم نبينا ﷺ أن صلاتهم قعودا على نصف الأجر من صلاتهم قياما.

حين أخبرهم نبينا ﷺ أن أجر صلاتهم قعودا نصف، فتجشموا الصلاة قياما، على أجرهم كاملا حرصا ونشاطا! وفيه استدعاء همة، وقطعا لدابر وهن!

وعن عبد الله بن عمرو: حدثت أن رسول الله ﷺ قال: صلاة الرجل قاعدا نصف الصلاة، قال: فأتيته، فوجدته يصلي جالسا، فوضعت يدي على رأسه، فقال: ما لك يا عبد الله بن عمرو؟ قلت: حدثت -يا رسول الله- أنك قلت: صلاة الرجل قاعدا على نصف الصلاة، وأنت تصلي قاعدا، قال: أجل، ولكني لست كأحد منكم. [٢].

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٤٢٧
(٢) صحيح مسلم: ٧٣٥

المبحث السابع عشر: المؤاخاة، عقد اجتماعي فريد

كان من فضله تعالى على أهل المدينة تلك المؤاخاة التي جمعتهم من بعد فرقة، والتي ألفت بينهم من بعد شحناء، كانت قد فرقت قلوبهم، ومن قبل أن شتت شملهم.

كم كان أمر فرقاء المدينة الخمس عجبا، وهم الأوس والخزرج وبنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة بمشاربهم وعاداتهم المتفاوتة، وحين أقضت مضاجعه!

كان من شأن تاريخ فرقاء المدينة، وأنه ورد إليها كل من صوبه، ما كان سببا في تنوع اجتماعي، أطحن بعضهم بعضا، وكان للإسلام فضله في جمعهم.

جاء نبينا ﷺ، ليجد الأنصار، وهم ينظرون إلى يهود أعلى منهم درجة؛ لأن لديهم علما بالكتاب، وكان لهذا صداه في وجود طبقية محاها الإسلام. ومن بعد فعلها شائنا كان فيهم.

جاءت يهود من بيت المقدس، بعد فعل بخت نصر بهم ما فعل، فكانوا بسببه بمثابة غرباء على يثرب، أمكنهم فيها عملهم، إلا أنه بقيت فيهم نعراتهم.

وهذا فعله تعالى فيهم أبدا، وحين كان من سننه سبحانه عليهم ذلكم التفرق والتشرذم والتفتت والتيه! وكما قال الله تعالى ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

قدم الأوس والخزرج من بلاد اليمن، وبعد فعل سيل العرم بهم ما فعل، وكانوا بمثابة يهود، مهاجرين، فكان سببا في اختلاف المشارب والبيئات معا.

ودلك على عدم التماسك الاجتماعى بين فرقاء المدينة، أنهم من كل صوب قد أتوا، وليس يجمعهم جامع عقدي أو بيئي أو اجتماعي، فكان الإسلام رابطهم ومنظمهم ومجمعهم. لا على أساس، إلا أساس واحد، وهو هذا الدين، ولأنه الزمام الأوحد، والذي به يمكن أن يجمع بين شتات الأرض، وفرقاء القوم، وكهكذا وضع رأيناه!

إن الإسلام وحده هو الدين الذي بيده جمع المختلفين، وتوحيد المتفرقين، ولأن نظرته إلى الناس أجمعين واحدة، والكل أمامه على مسافة واحدة أيضا.

كان فعل الإسلام بالأنصار أوسا وخزرجا أن جمع فرقتهم، ولم شملهم، بل وجمع قلوبهم على دينهم الواحد، حتى فعلوا فعلا كان منه بذلهم في ربهم.

عند البحث عن أرضية مشتركة لجمع شتات قوم متفرقين، يحسن بحث عن منهج سامٍ، سامق في نظرته إلى الإنسان، وحين لا تفرقة إلا بالتقوى، فكان الإسلام. ولأنه الدين الأوحد الذي علن هذا البيان علانية وامام الناس كافة وحين قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذه نظرية العقد الاجتماعي في ديننا.

هدى الله الأنصار أوسا وخزرجا؛ لتواضهم، وكان من ابتلائه وحكمته أن تكفر يهود؛ ولاستكبارهم، ودلك على حميد تواضع سببا لأن يهدي صاحبه، ودلك على ذميم كبر كان موجبا لأن يضل متأبطه!

كتب نبينا ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقلهم أي أن يدفعوا الدية بينهم، وأن يفدوا عانيهم أي أسيرهم، بالمعروف، والإصلاح بين المسلمين.

وهكذا كانت أسس التحالف بين المهاجرين والأنصار قائمة على دفع دية قتيل، وافتداء أسير، وصلح بين المسلمين؛ لإطفاء شرارة قد تطّاير يوما.

ما أجمل أن يكون الإسلام سبيل صلح، كما هو سبيل صلاح، وما أفضل أن يكون الإسلام هو أرضية تآلف لا تنافر، وموجب تلاق لا اختلاف ولا تباعد.

ذابت فوارق كانت بين الأوس والخزرج، حتى كانوا من بعدها يطلق عليهم جميعا الأنصار! وحتى كان تحالف بينهم جميعا وبين المهاجرين جميعا.

ويكأنك تنظر إلى هذا الحدث، وكما هو بين، وحين كان من فترة وجيزة لا طويلة! وحين كان قائما على تآلف القلوب، قبل أن يكون اجتماعا ظاهريا للكلمة! والذي سرعان ما يتفرق الجمع، ويولون الدبر، وعند أول صيحة بينهم! وهذا الذي رأيناه مجتمعا متماسكا، ومن يوم الهجرة النبوية، وإلى يوم الناس هذا!

كانت يثرب تموج بحروب طاحنة بين الأوس وحلفائها من جانب وبين الخزرج وحلفائها من جانب آخر، وكان آخرها يوم بعاث، وحتى جاء الإسلام فجمعهم وألف بينهم.

حالف الخزرج أشجع وجهينة، وحالف الأوس مزينة وبني قريظة وبني النضير وغيرهم. ووسط هذا الغيم جاء الإسلام ليجمع ما افترق وليؤلف ما اختلف.

جاء الإسلام وكانت بطون الخزرج عشرين بطنا! وكانت بطون الأوس ثلاث عشرة بطنا! وكان مجموعهم ثلاثة وثلاثين بطنا! ولم يك دين يجمعهم سواه!

وها أنت قد رأيت هذا الكم الهائل من القبائل والبطون! وما يعنيه اختلاف مشاربهم ومآكلهم ومذاهبهم، وإذ كانوا به فرقاء شتى!

ولما أن يأتي دين ليجمعهم جمعة قلب، قبل كلمة ظاهرية، فدلك على كم هو فعل هذا الدين، وحين كان الصمام الاجتماعي الأوحد؛ لربط الناس بينهم البين برباط التقوى ذلك خير!

كانت بطون يهود المدينة نيفا وعشرين، فإذا انضاف إليها الثلاثة والثلاثون بطنا هي مجموع بطون الأوس والخزرج؛ ليكون المجموع حوالي خمسة وخمسين بطنا! ووحد الإسلام نظامها!

فدلك هذا عند البحث عن رابط اجتماعي يرتبط به الناس، وبحيث يكونون لحمة واحدة، فدونك دونك هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد!

كانت الأرضية سبخة! وفوق التصور! وحين كان ركام هائل بين أهل يثرب جميعا، حتى جاء الإسلام لينظم ويرتب أوضاعا جديدة لا عهد لهم بها من قبل!

بلغت بنود دستور المدينة سبعة وأربعين بندا، يجمعها الموالاة في الله تعالى، والعداوة فيه، وأن المؤمنين أمة واحدة، وهم يد على من سواهم، وألا يؤاوى محدث.

كتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم. [١].

إن اعتراض ثلة كريمة من أولي العلم على صحة هذه الوثيقة ليس يخرجنا عن موافقتها لهكذا منهج سديد جاء به هذا الدين، ململما لأوراق كانت قد بعثرت بين يدي القوم!

ولكن هكذا جمع لما افترق، ولهذه البطون الغفيرة في يثرب، وإنما كان حكمة نبوية؛ ولأنه لابد من ضبط العقد الاجتماعي أولا؛ وكيما تسهل إدارة هكذا مجتمع! وعلى أساس صحيح واحد، وهو هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، وكما أنف.

ولكنه، وعند النظر إلى نجاح نبينا ﷺ في تجميع هذه الفصائل، وكما يقال في عرف الناس يومهم هذا، وإنما دلك على توفيق رباني كريم؛ ولأن هذه البطون قد كانت مشحونة، وأيما شحن بعيبات جاهلية، وإذ كان يمكن بها أن تقام دائرة الحرب بينهم، ولسبب، ولربما ولا سبب موجب لذلكم!

وإذا انضاف المهاجرون من مكة إلى هكذا مجتمع، لأوقفنا على كم كانت حكمة وتوفيقا ربانيين لهذا النبي العربي القرشي الأمي الكريم نبينا محمد ﷺ؛ ولأنه أولاء المهاجرون بحاجة إلى صهرهم في هكذا مجتمع جديد عليهم، ومن كل جانب يكون الاتجاه فيه!

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٣٤٨

المبحث الثامن عشر: دستور المدينة

وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو ابن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو البيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثم، أو

عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا، وإن المؤمنين يئ بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بن عوف، وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف، وإن البر دون

الاثم، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإن ما كان بين أهل الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن اليهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. (١).

وهذا ما قدمه ديننا للناس أمة واحدة ومنهج واحد ومساواة ولا تفاضل إلا من أساس ما حباه الله تعالى كل امرئ من عطاء وهبة ومنح.

ولكن التفاضل لا على أساس اللون أو العرق أو اللون، وإنما على أساس التقوى، ولا شيء غير ذلك، ولأنه الناس جميعا لآدم وآدم خلق من تراب.

ولكن هذا الذي قدمه الإسلام في تعريف الدولة، وحين حدد لها نطاقها الإقليمي، وأشار إلى الشعب، والسلطة الحاكمة فيه، وفي بيان

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ /٣٤٨ – ٣٥١

عام لسبق هذا الدين في أصول الحكم والقانون الدستوري، وما تضمنه من بيان حقوق وواجبات الحاكم والمحكومين، وحين كان كل ذلك مستمدا من الشرع الحكيم، ومستندا إلى الدين، من نصوص القرآن الحكيم، ومن كلام سيد المرسلين.

المبحث التاسع عشر: نسخ توريث المتآخين

قال الله تعالى ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣]. وهذا بجعل الميراث لحق المؤاخاة، ومنضافا إلى كونه مع النسب والمصاهرة.

جعل الله تعالى للمهاجرين نصيبا في ميراث إخوانهم الأنصار أول الأمر، برهانا على ما لعقد أخوة الدين من حق، ودليلا على مالها من سمو يعلو بها مرفرفا.

كان ميراث المهاجر لأخيه الأنصاري أول الأمر، ثم نسخ، وجعل وصية؛ تراحما لا إرثا؛ مراعاة لحق ذوي القربى من نسب ومصاهرة.

جعل إرث المهاجري من الأنصاري بقوله تعالى ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ موالي أي: ورثة. لكنها نسخت إرثا، وبقيت وصية.

جعلت وصية للأنصاري في مال المهاجري من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ نصرا ورفادة ونصحا وإيصاءًا.

دلك نظر إلى قوافل المتآخين فيه تعالى بين المهاجرين والأنصار على ما يفعله هذا الدين في القلوب، وحين يسمو بأخوة الإيمان عالية خفاقة.

إنه لتقوم لهذا الدين قائمته، حين انخلاع من ذات نفس، محبا، مؤاخيًا لأخ الإسلام والعقيدة، عاليا بها مع أخوة نسب وقربى حفظ الإسلام حقها أيضا.

إن أخوة عقدت بين المهاجرين من مكة وبين الأنصار في المدينة وبينهما مئات الأميال توجب شفقة حين تكون أخوة محلة واحدة محكا لإبليس الرجيم.

هل آخى النبي ﷺ بينه وبين عليٍّ؟ كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومنه فقد ضعف بعضهم رواية مؤاخاة بينه ﷺ وبين علي بن أبي طالب؛ لأنهما كانا من مكة مهاجرَيْن.

ويمكن حمل رواية المؤاخاة بين نبينا ﷺ وبين عليٍّ رضي الله تعالى عنه استثناء؛ ولأن عليا كان مكفولا منه ﷺ في مكة، وأراد ﷺ إكرامه بها في المدينة، وإعزازا وإكراما.

المبحث العشرون: العمل ركيزة من ركائز الاقتصاد الإسلامي

عمل عبد الرحمن بن عوف نموذج

عن حميد سمعت أنسا قال لما قدموا المدينة نزل المهاجرون على الأنصار فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع فقال أقاسمك مالي وانزل لك عن إحدى امرأتي قال بارك الله لك في أهلك

ومالك فخرج إلى السوق فباع واشترى فأصاب شيئا من أقط وسمن فتزوج فقال النبي ﷺ أولم ولو بشاة.[1].

آخى نبينا ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وحين آثره نصف ماله وأهله، فدعا له بالبركة تعززا، وطلب أن يدله على السوق فربح كثيرا.

حسن وقوف تأملي اقتدائي عند فعل عبد الرحمن بن عوف، وحين استعفّ عن مال سعد بن الربيع وأهله، وآثر أن يبيع ويشتري، ثم كان من أغنى أهل المدينة بعدها.

كان من فعل عبد الرحمن بن عوف وحين تعزز عن عرض أخيه سعد بن الربيع مناصفته ماله وأهله؛ برهانا على أن عزيمة الأمر أجمل، وعلى أن عزة النفس أقوم.

كان ذهاب عبد الرحمن بن عوف إلى السوق برهانا على أن السوق يظل محل البيع والشراء متاجرة وربحا؛ أخذا بالسبب، وتوكلا على خالق السبب سبحانه.

بارك الله لك في مالك وأهلك ولكن دلني على السوق. هذا قول عبد الرحمن بن عوف لأخيه سعد بن الربيع؛ ثقة منه بأنه تعالى سوف يفتح له أبواب رزقه، ومن حيث لا يحتسب، ومن بعد صدق توكله على مولاه تعالى.

كان تجشم عبد الرحمن بن عوف الذهاب إلى السوق دون رأسمال برهانا على حسن التوكل، وإنما كان السبب هو الذهاب إلى السوق وحسب!

---

(١) صحيح البخاري: ج ٦ / ١٤٢

لم يذكر التاريخ أن عبد الرحمن بن عوف راح إلى السوق مكبلا بدين ربوي يتاجر فيه، ليبدأ حياته مكبلا بربا أضعافا مضاعفة، يثقله، وكاهله معا!

ذكر التاريخ أن عبد الرحمن بن عوف ذهب إلى السوق بجيب خال من المال الربوي، أو الأصلي! وإنما كان دافعه هو حسن توكل على مولاه بأنه سيجبره.

اشترى عبد الرحمن بن عوف ناقة بخطامها، وباعها بغير خطامها هذا، فكان خطامها ربحها! وهكذا دواليك بلا عجلة، وهكذا دواليك؛ ليدور رأس ماله سريعا سريعا.

أخذ عبد الرحمن بن عوف على عاتقه أن يتجر شيئا فشيئا، حتى صار من أغنياء المدينة، ورأس ماله كان خطام ناقة! وهذه رسالة إلى المتعجلين أمرهم.

إنه حين يحسن توكل امرئ على مولاه، فلرب كان كما عبد الرحمن بن عوف، حين قال: فلقد رأيتني ولو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب ذهبا وفضة!

لم يبدأ عبد الرحمن بن عوف تجارته من ربا؛ لأنه كان عاقلا يعرف أنه محق لبركة ماله كله، ليصير من بعده صفر اليدين!

إن الحذاق هم الذين يستنيرون بهدي عبد الرحمن بن عوف، وحين بدأ تجارته خالية عن ربا حرام، ليبدأ عمله ولو بخطام ناقة، ليضاعف ماله وأجره معا!

دلت تجارب الناس أن عملا كان أصله ربا حراما إنما تنقل من عثرات إلى عثرات متباينة أخرى، إضافة إلى إثم قد ألم بصاحبه، ليحاط باثنين كليهما مر!

حين أحسن عبد الرحمن بن عوف توكله على الله تعالى، ثم أخذه بسببه، صار عنده مال أهَّله أن يتزوج منه امرأة من الأنصار بمهر نواة من ذهب!

إن مهرا كان نواة من ذهب دفعه عبد الرحمن بن عوف لامرأته، برهان على إكرام النساء، ومن إكرامهن إمهارهن على قدر الوسع، لاتقتيرا، ولا إسرافا.

إنه لا حد لمهر علوا ولا سفلا، وإنما مرد ذلك إلى الوسع، لا إلى ما كان شرطا على النساء، كان الأصل فيه على رجال الأمة، قيمة لهم وإكبارا!

حين أباح الله تعالى مهرا قنطارا، فدل ذلك على غاية إكرام الإسلام لامرأة كانت قسيما للرجال قدرا مقدورا. وقال الله تعالى ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠].

حسن رجوع بالمرأة إكراما، زينها ربها به، لا أن يشرط عليها شروط، أخلت بميزان التقوى والمروءة، وحين تُخطب ثم تُسرَّح من بعدها بغير إحسان!

المبحث الواحد والعشرون: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾

أصابت امرأة وأخطأ عمر! حين نهى الفاروق عن مغالاة في المهور قالت امرأة: أيعطينا الله وتمنعنا يا عمر؟! فقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر! هذا دين أوقف عمر عند عدله.

خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ألا لا تغالوا في صدق النساء فإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ أو سيق إليه إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال، ثم نزل فعرضت له امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين

كتاب الله عز وجل أحق أن يتبع أو قولك؟ قال: بل كتاب الله عز وجل فما ذلك ؟ قالت: نهيت الناس آنفا أن يغالوا في صدق النساء والله عز وجل يقول في كتابه { وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا } فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر مرتين أو ثلاثا ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: إني نهيتكم أن تغالوا في صدق النساء ألا فليفعل رجل في ماله ما بدا له. (١).

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾. القنطار=١٢٠٠ أوقية×٢٨جم=٣٣,٦كجم ذهب!

هذا حساب لمن يشترطون على النساء! وقدر السعة دين أيضا.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ألا لا تغالوا صدق النساء فإنه لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله عز وجل كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية، وإن الرجل ليغالي بصدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه، وحتى يقول : كلفت إليك علق القربة وكنت غلاما عربيا مولدا فلم أدر ما علق القربة، وأخرى تقولونها في مغازيكم هذه : قتل فلان شهيدا ولعله أن يكون قد أوقر عجز راحلته أو دابته ورقا وذهبا يطلب التجارة، فلا تقولوا ذلكم، ولكن قولوا كما قال رسول الله ﷺ : أو قال محمد ﷺ : من قتل في سبيل الله عز وجل فهو في الجنة . قال إسماعيل : دخل حديث بعضهم في بعض. (٢). وعن ابن إسحاق حدثني محمد بن عبد الرحمن عن خالد بن سعيد عن الشعبي عن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه

---

(١) [سنن سعيد بن منصور ،كتاب النكاح، باب ما جاء في الصداق: ٥٧٦].
(٢) [سنن سعيد بن منصور ،كتاب النكاح، باب ما جاء في الصداق: ٥٧٥].

والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك ولو كان الاكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها فلا عرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم قال: ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم؟ قال: نعم فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول " وآتيتم إحداهن قنطارا " الآية قال: فقال اللهم غفرا كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل.[١].

ويؤازره الأثر: قال عمر بن الخطاب: لا تغالوا صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله، كان أولاكم وأحقكم بها محمد ﷺ، ما أصدق امرأة من نسائه، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وإن الرجل ليثقل صدقة امرأته، حتى يكون لها عداوة في نفسه، ويقول: قد كلفت إليك علق القربة، أو عرق القربة.[٢].

ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية= ٣٣٦جم ذهب! وربما ساوت ٣٣كجم في زماننا!

إن قدرة على إصداق النساء مروءة نفس، وإكبار قيمة، وإن عدم قدرة عليه، وإنما جعل الإسلام له مخرجا أيضا، ولأن كلا على قدره وسعته، والنية حاكمة!

---

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ١ /٤٧٨. وقال: إسناده جيد قوي.
(٢) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١٥٤٤

إن نواة من ذهب كانت مهر امرأة عبد الرحمن بن عوف، وفي عهدهم ربما ساوت قدرها مضاعفات كثيرة في زماننا؛ برهانا على إكرام النساء.

وليمة الزواج: حين علم نبينا ﷺ بزواج عبد الرحمن بن عوف أمره أن يولم ولو بشاة، والوليمة: طعام العرس والإملاك، والوليمة من الولم، وهو تمام الشيء واجتماعه. [١]. فناسب أصل لفظها معناها.

جعلت الوليمة تعبيرا عن سرور، وإشادة بيوم تأسس فيه بيت مسلم جديد، بحبوحته أنس، وأيامه سعادة.

لأن الوليمة من الاجتماع، فكانت تفاؤلا بإلف زوجين ناشئين، واجتماع بينهما، وتمام أمرهما، مودة ورحمة. ولأن جمعا قد حضر، وقريبا قد شرف، أو صاحبا قد أنس.

اعتبرت الوليمة سنة مؤكدة، ويعني ذلك استحضار النية فيها، وأنها شكر لله تعالى؛ على إلف جديد، ومشاركة في تأسيس بيت حان، أيضا عماده التقوى.

لأن الوليمة تعتبر بمثابة شعيرة من شعائره تعالى، فوجب خلاؤها عما يغضبه، ولزم إفراغها مما يسخطه.

حين أمر نبينا ﷺ عبد الرحمن بن عوف أن يولم، ولو بشاة، فدل على بساطة ديننا، وأنه ليس يرهق كاهلا، وليس يؤلم ظهرا، وعلى قدر سعة من أمر.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ج ١٢ / ٦٤٣

ضرب الدفوف في الزواج: سُن ضرب دف، وكلام مليح، فرحا بتأسيس بيت جديد، تعلوه نسائم التقوى، وتخلله ظلال الرضا، لكن شرطه ألا يكون على إثم؛ يكون سبب تعكير صفوهما.

إنه ليدعى للوليمة كل صالح، يلتمس فيه خير، ولعله يدعو بصلاح وألفة، وإنه ليجب تلبيتها على كل مدعو، شرط ألا يتخللها ما يغضب الله تعالى.

بارك الله لك أولم ولو بشاه. هذا بيان سنة نبينا ﷺ، أن ندعو للعروسين، وما أوجزه دعاء! والأمر واسع.

كان الأنصار أحسن مواساة في قليل، وأحسن بذلا من كثير، لقد كفوا المؤونة، وأشركوا في المهنأ، حتى لقد خشي المهاجرون أن يذهبوا بالأجر كله!

إن أعمال الخير ممتدة، وباق أثرها، ما بقي الليل والنهار، والمسلم فعال للخير، داع إليه، مقيم عليه، ولطالما كان من عمله دعوة إلى توحيد ربه.

صحيح، كان أبو بكر منفقا، وقبل إسلامه، ولكن التوحيد كان شاغله، بعد إسلامه، جنبا إلى جنب مع إغداقه بالعطاء، وحين كان عليه قادرا.

عن أنس بن مالك: لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا يا رسول اللهِ ما رأينا قوما أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ حتى

خفنا أن يذهبوا بَالأجر كله فقال النبي ﷺ لا! ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم بَالأجر عليهم. [١].

حين أغدق الأنصار على المهاجرين، وخشوا أن يذهبوا بالأجر كله، قال نبينا ﷺ: لا! ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم. أي: به يكون لكم مثل أجرهم.

إن ثناءً واجبا، على من أعطى وتصدق، وإن دعاء مستحقا، لمن منح وبذل، ليكون لك أجر مثله، وهذا إشاعة لخير مجتمع الخير.

إن بذل الثناء لصنيع معروف، هو دأب ذوي المروءات أبدا، وإن ولأن من حسن هو إدخال سرور على مسلم. وإن التنكر لجميل بذل ليس من خلق حميد.

المبحث الثاني والعشرون: المساقاة

إحدى النظريات الاقتصادية العملية

عن أبي هريرة: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفونا المؤونة، ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا. [٢]. وهذا بذل عزيز!

عرض الأنصار مقاسمة إخوانهم النخيل؛ ولأن المهاجرين جاؤوا من مكة بلا شيء، فخشي النبي أن يدخل قلوبهم شيء، فأرادها صافية، حين عرض منحهم، وبلا مؤنة.

---

(١) سنن الترمذي: ٢٤٨٧. خلاصة حكم المحدث: صحيح حسن غريب من هذا الوجه.
(٢) صحيح البخاري: ٢٣٢٥

بلغ الأنصار مضرب مثل عز، وحين قبلوا أن يمنحوا المهاجرين، وبلا مشاركة منهم؛ ولأنهم جاؤوا بلا شيء معهم، وأراد ﷺ إنشاء مجتمع بذل، بلا مقابل.

ضرب المهاجرون مثلا عز، حين تركوا ديارهم وأموالهم بثمن! هو انخلاعهم من دار كفر، إلى دار يقيمون فيها دينهم؛ ولذا سخرت لهم الأنصار دون ثمن. قدرا مقدورا!

سيقف التاريخ مليا أمام صنيع المهاجرين، وحين تركوا ديارهم وأموالهم؛ لربهم، مثلا يحتذى، وإلى قيام الساعة، وما وجد كفر يجابه إسلاما.

يخلد التاريخ يوما من بعد يوم آخر صنيع الأنصار مثلا، أن قوما منحوا إخوانهم أنصاف متاعهم، ودون ثمن، إلا ثمنا واحدا غاليا، هو مرضاة ربهم.

وإذا كان هو فعل الأنصار وقولهم، ولما كان هذا هو إيثارهم، ولكن النبي ﷺ قد أراد أن يحفظ عليهم عقاراتهم، ولعله ومن باب أعلام نبوته،كان على وعد من ربه بالفتوحات والنصر والتمكين والغنائم والخير الوفير الكثير، ومما سيجبر به خواطر أولاء المهاجرين، وبالتالي حفظ على الأنصار أراضيهم.

ولكنه ﷺ ولربما قد أراد أن يعز إخوانه المهاجرين، فكان عليهم أن يفلحوا الأرض بجهدهم، ولهم جعل مقابل ذلك، ولما كانت الأرض وزرعها من الأنصار. ولهم جعل أيضا؛ ومن موجبه ملكيتهم للأرض وأصل الزرع.

وهذا الذي يسمونه المساقاة. والتي من مقتضاها يكون على أحد الشريكين الأرض والزرع، ويكون على الشريك الآخر العمل والفلاحة. ويقسم الثمر بينهم، وعلى ما يتفقون عليه.

وهذا عقد حسن، وبه تستقر الأحوال الاقتصادية، ويغتني كلٌّ من عوز، وحين كان المهاجرون أهل فلاحة وزراعة، وكان هذا مناسبا لهم، ولما كان الأنصار أهل عقار، وإنما ليست لهم جودة الفلاحة من كمثل إخوانهم المهاجرين، وهكذا كانت المعاوضة من الطرفين، فينمو رأس المال، ويتداول ويقضى على البطالة، وتتحرك الأسواق، وتنمو التجارة، ويتقدم المجتمع تبعا من تقدم أفراده، وحين تخلقت ربانيا أسباب فرص العمل المواتية، وقضا لمضاجع فراغ لا يتأتى منه خير. وكل ذلك إلا قدرا مقدورا.

وهذه إحدى نظريات الإسلام الاقتصادية المجيدة.

المبحث الثالث والعشرون: موت أسعد بن زرارة

كان موت أسعد بن زرارة في شوال من السنة الأولى للهجرة حدثا هاما؛ لأنه كان ذا سبق للإسلام، بل كان اول من قدم إلى المدينة مسلما! ولأنه كان أول المبايعين ليلة العقبة، وبايع العقبتين، وكان نقيب قومه بني النجار، على صغر سنه، وكواه نبينا ﷺ عند مرضه. ومات والمسجد يبنى، وكان أول من صلى الجمعة بالمدينة.

ظل أسعد بن زرارة نقيب قومه بني النجار إلى أن مات، فحل نبينا ﷺ محله؛ ولأنهم أخواله، وهذا من حسن صنيعه ﷺ، فلم يأخذها عنوة وتعديا.

وهذا فن إداري مجيد؛ ولانتظار الفرصة المواتية، وحفظا للعلائق، ولرعاية للمشاعر!

وإنما جعل نفسه نقيبا على بني النجار؛ ولأنه منهم، وإنما كان يجعل نقيب كل قوم منهم.

وهذا فن إداري عبقري؛ ولأنه يعلم عرفهم وعهدهم ولسانهم، وكما قال الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وإنما جاء الإسلام ليبطل باطلا كان زهوقا، أو ليعدل ما أمكن تعديله وليوافق به منهجه الرباني السامق الرفيع، أو ليحق حقا كان موجودا، ودلالة إبقائه ﷺ على أسعد نقيب بني النجار رغم أنهم أخواله وإلى أن مات وهذا اطلاع بحسن سيرته وخلقه.

المبحث الرابع والعشرون: بناؤه ﷺ بعائشة

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني. هذه غيرة طبعية، لا تخرجنا عن أصل أن بيتا جديدا نشأ في الاسلام.

كان دخول نبينا ﷺ بعائشة بعد الهجرة، نهارا، وبين العيدين؛ إبطالا لعادة جاهلية أن زواجا بين العيدين كان مكروها؛ وخشية المفارقة بينهما. وهكذا يكون إبطال الباطل عمليا، وبإحلال الحق محله زمانا، أو مكانا، أو كليهما معا.

شرف بيت أبي بكر الصديق بصداقة نبينا ﷺ، وكان منه زواجه ﷺ من ابنته عائشة رضي الله تعالى عنها؛ ليكون بيتا مباركا ببركة أهله ونبينا ﷺ معه.

عن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، فقلت: من الرجال؟ فقال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر بن الخطاب، فعد رجالا.[١]

وهذا تأكيد قيمة بيت كان قد أعلن الطواريء حين هجرته ﷺ. وإذ ليس ينسى هذا النبي فضل ومعروف بيت كان هذا عمله يوم الهجرة!

إن بيتا بأكمله كان قد تجهز لهجرة نبينا ﷺ، هو بيت أبي بكر، ليوقفنا على كم كانت محبة ذلك البيت له ﷺ، حتى كان منه زواجه منه مكافأة وقربى.

المبحث الخامس والعشرون: الزيادة في صلاة الحضر في السنة الأولى من الهجرة

عن عائشة أم المؤمنين، قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها، ركعتين ركعتين، في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر.[٢]

وهذا يسر عودناه ديننا، وهذا رفع حرج عهدناه فيه.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٦٦٢
(٢) صحيح البخاري: ٣٥٠

يؤخذ من جعل صلاة السفر قصرا اثنتين للرباعية أن هذا الدين ما ترك بابا ليسر إلا فتحه على مصراعيه؛ رفقا بالعباد، ورحمة بهم، وهو سبيل نتأساه.

حكى البيهقي عن الحسن البصري أن صلاة الحضر أول ما فرضت فرضت أربعا. ويعارضه حديث البخاري أنها كانت اثنتين فأقرت سفرا وزيدت حضرا.

أخذ بعضهم قوله تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١]. على عمومه، لتقصر الصلاة، سفرا قربى، أو غيره، وخصه آخرون بسفر الطاعة.

عن يعلى بن أمية، قال: قلت لعمر بن الخطاب: {ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا} [النساء: ١٠١]، فقد أمن الناس! فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته.[١]

هذا قول نبينا ﷺ، وهو ما استدل به قائلو إن حكم القصر رخصة، سواء كان سفر قربى، أو سفر طاعة، أو سفر إباحة، أو كان سفرا محظورا!

وليس يقال عن رخصة القصر في السفر مشروطة بالخوف، ولحديث يعلى بن أمية رضي الله عنه قال: (سألت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلت: فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا، وقد أمن الله الناس؟ فقال لي عمر رضي الله

---

(١) صحيح مسلم: ٦٨٦

عنه: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: ((صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته)). [١].

المبحث السادس والعشرون: البيان في لطائف الأذان

إن لكل دين شعائرَ، وإن الأذان لمن شعائر دين الله تعالى الإسلام، وكل شعائره تعالى قد جاء الحث على تعظيمها؛ كما قال تعالى ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وإن لكل شعيرة من شعائر ديننا ما قد حفلت به من حكم، وما قد انطوت عليه من لطائف، وما قد تناغمت به من أحكام، وما قد حوته من جميل الملح، وما قد تضمنته من فيض المنح.

وكل ذلكم من حكم وآداب ولطائف لتنضاف إلى رصيد هذا الدين، كيما يكون ظاهرًا على الدين كله، كما قال الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وإن شعائر دين الله تعالى الإسلام - سائرها - لتشي بعلو شأنه، وسمو منزلته، كيما يكون الإيمان دافقًا في الألباب، وكيما يكون الإخبات موجبًا لدى أُولي النهي، وعند ذوي أفئدة متصلة بربها الرحمن سبحانه تعظيمًا وتنزيهًا وتكبيرًا.

وإنها بحق لشعائر هدى وإيمان، وهي بصدق لشعائر خير وإحسان، وإنها لتوجب تأملًا لاستنهاض ما فيها من فوائد، ولاستكناه ما

---

(١) صحيح مسلم: ٦٨٦

تضمنته من فرائد، كيما تكون قائدة للنفوس إخباتًا، وكيما تكون سائقة للجوارح طاعةً ومحبة وانقيادًا.

وإنها لَقَمِنَةٌ بالدرس تأملًا، وإنها لموجبة للوقوف أمامها فحصًا وفقهًا وأدبًا وشرعًا ودليلًا، ولما كانت صلاتنا عمادًا لديننا، ولما كان من شأنها وقوف بين يدي ربنا الرحمن خشوعًا وإخباتًا وتذللًا، نيلًا لرضاه، وتحصيلًا لهداه، ومجاهدة وفوزًا وتوفيقًا، ولما كانت قبلتنا شارة إسلامنا، ولما كانت وجهتنا للصلاة بادئة بقولنا: (الله أكبر)، فإنه أيضًا ليكون ربطًا محكمًا بين ندائنا لصلاتنا، كذلكم بقولنا أول ما نقول من أذاننا: (الله أكبر)، فبدء الأذان بقولنا: (الله أكبر)، وبدء صلاتنا بقولنا: (الله أكبر) وهي علاقة جديرة بالوقوف، وهي وشيجة بينهما لا تنفك عن إعجاز، وهي رباط وثيق بينهما لا يخلو من هدايات، وهي مؤذنة لطاقات يزدان بها أحدنا تنزيهًا وتعظيمًا لربه الرحمن سبحانه، كيما يكون واقفًا بين يديه سبحانه، منطرحًا راجيًا، كأبعد ما يكون رجاء عبد، مستسلمًا كأتم ما يكون استسلام لربه، وخاشعًا كأكمل ما يكون له من خشوع لبارئه، مستمطرًا رحماته، وعفوه وهباته، ومنه كان من لطائف الأذان أنه بدأ بتكبيره تعالى (الله أكبر) دلالة على وجوب إعظامه سبحانه، وتقديم مراده على كل مراد آخر.

ومن لطائف الأذان أن (المؤذن يغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطب ويابس، وشاهد الصلاة يكتب له خمس وعشرون صلاة ويكفر عنه ما بينهما. [١]).

ومن لطائف الأذان أن الشيطان إذا سمعه أدبر؛ لكي لا يسمع الذكر الحكيم، ولا النداء الجميل، وهكذا كل مدبر، فتأمل فالأذان ذكر وذكره تعالى ليس يصلح به سوى الأطهار، ومنه كان ذا المهرب والترحال

---

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ٦٦٤٤

والإدبار، وبه وقع ذا المناص وهذا التولي والفرار؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان، وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل، حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر، حتى إذا قضى التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى. [(١)].

ومن لطائف الأذان تضمنه لمسائل العقيدة، من تكبير وتوحيد، وإثبات للرسالة، وطاعته تعالى على وَفق شرعه، والإعلام بدخول وقت الصلاة نعرفه من الأذان، وهو موجب أننا أمة الدليل، فلا عبادة إلا بنص، وهو من مندوحة الاتباع، لا من بدعة الابتداع.

ومن لطائف الأذان نداؤه للفلاح، فكأن إقامة الصلاة سبب للفلاح، بل إن إقامتها هي الفلاح وهو الفلاح كله لا بعضه ولا جزؤه، فأقم الصلاة، أقم الصلاة، كيما يحفك الفلاح من جوانبك، وكيما ينالك الفوز من نواحيك وأرجائك وأجزائك؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

وختم الأذان بالتكبير كما بدأ به؛ ليكون حال المسلم دائرًا بين التعظيم لربه، فيناله الرضا والتوفيق، فتأمل.

وذلكم الحال الدائر بين ذكر الرب تعالى، كما نستجيشه من بدء الأذان وختامه، ليذكرنا أن نكون على حال ذكر لربنا الرحمن أبدًا، كيما تحفنا رعايته أبدًا، وكيما تنالنا رحمته أيضًا أبدًا.

ومن لطائف الأذان أنه ذكر مبين؛ لتطمئن به القلوب، ولتأنس به النفوس ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) صحيح البخاري: ٦٠٨

ومن لطائف الأذان أنه ضد للمشابهة، وأنه دليل على صحة المتابعة، فإن الرسول ﷺ وصحابته الكرام رضي الله تعالى عنهم، قد عقدوا مجلسهم ليخرجوا بنداء الصلاة لا كما فعل النصارى من ناقوس، وليس كما عمل اليهود من ناقور، عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه قال: لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يعمل ليضرب به الناس في الجمع للصلاة، أطاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوسا في يده، فقلت له: يا عبد الله! أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به، فقلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ قلت: بلى، قال: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، ثم استأخر غير بعيد، قال: ثم تقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ما رأيت، فقال: إنها رؤيا حق إن شاء الله تعالى، فقم مع بلال فالق عليه ما رأيت فليؤذن به، فإنه أندى صوتا منك، فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به، فسمع بذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج يجر رداءه، ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى، فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد. [١].

فدل على استقلال هذه الأمة في شخصيتها، متبوعة لا تابعة، اتساقًا مع قول ربها الرحمن سبحانه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ١/٣٩٠. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومنه كان من لطائف الأذان أنه مبين عن عزة المسلم، فهو متبوع، وليس يكون متبوعًا إلا في الخير، وليس تابعًا، ولا يكون من شأنه أن يكون تابعًا في ضلالة، وهو استدعاء آخر لقيمة الفرد المسلم، أن يكون قدوة خير، وأن يسلك أسوة هدى.

ومن لطائف الأذان أنه ذكر مبين لله تعالى، لتزكو به النفوس ولتهدأ معه الأفئدة، فليس ناقوسًا موجبًا لضجيج، ولا ناقورًا مصدرًا لأزيز.

ومن لطائفه أن المؤذنين به أطول الناس أعناقًا يوم القيامة لحديث طلحة: سمعت معاوية بن أبي سفيان، وهو جالس على المنبر، أذن المؤذن، قال: الله أكبر الله أكبر، قال معاوية: الله أكبر الله أكبر، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال معاوية: وأنا، فقال: أشهد أن محمدا رسول الله، فقال معاوية: وأنا، فلما أن قضى التأذين، قال: يا أيها الناس، إني سمعت رسول الله ﷺ على هذا المجلس، حين أذن المؤذن، يقول ما سمعتم مني من مقالتي.[١].

ومن لطائفه فضله العظيم، وأجره الجزيل، وثوابه الجميل، إيذانًا بفوز أسماه ربنا الرحمن سبحانه ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، وإلا ما استهم عليه الناس.

---

(١) صحيح البخاري: ٩١٤

فعن أبي هريرة: لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا.[١]

وهو حديث في الباب عظيم شأنه، وهو بيان في الموضوع سامق شأوه، موجب للمسابقة في الخيرات، ومؤذن للمسارعة في المنجيات، إعمالًا لقول ربنا الرحمن سبحانه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]

ومن لطائفه تضمنه لاسم الفعل (حي) أربع مرات متتالية؛ ذلك لأنه أعمل عمله في استجاشة القلوب لإقامة الصلاة، والوقوف بين يدي ربها الرحمن راضية مرضية، وهو ما نفيده في ضرورة استدعاء مكامن الخير في النفوس البشرية بأسلوب ندي حليم يوجب الطاعة ويثمر الانقياد، ولست مفتئتًا إذا قلت: إن الأذان يدعو إلى أهم أصول الديانة وفروع الملة، فإنه كان من شأنه أن أطل إطلالته الحانية على التوحيد الذي هو أصل الأصول وفرع الفروع، ومنه نستطلع إفادة عظمى كان من مقتضاها التسليم لله تعالى ربنا الرحمن لأي أصل آخر من بعده كالصلاة، أو لأي فرع آخر من فروعه كما إماطة الأذى عن طريق الناس، فتأمل.

ومن حكم الأذان أنه مبين عن استقلال الإسلام، فهو دين يأتي بكل حسن من قول أو فعل، يكون للناس هاديًا ونصيرًا.

وفي تشريع الأذان للصلاة حكم عجيبة، وأهمها أنه يذكر بأمر توحيد الله تعالى، لا كمجرد إشارة، بل إنه يستدعي آحاد الناس فردًا تلو آخر في اليوم خمسًا وعشرين مرة، خمس عشرة مرة في الأذان، وعشرًا في

---

(١) صحيح البخاري: ٢٦٨٩

الإقامة، وهو ما يهبه زخمًا، وهو ما يمنحه دفعًا؛ لتبين به القلوب عن شرور النفوس، وبما تستدبر به أهواءها وبما يشي بتركها حظوظها.

وفي أذاننا علم بالرحمن، وفي أذاننا توحيد للملك الديان، وفي أذاننا إيمان بنبينا المصطفى العدنان، عليه أزكى الصلوات وأتم السلام.

حين قام أمر الإسلام في المدينة قامت معه الصلاة والزكاة والصيام، وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام. ودل ذلك على ضرورة دولة للدين تقيمه.

حين أخبر عبد الله بن زيد نبينا ﷺ برؤيا الأذان قال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها فإنه أندى صوتا منك.

حين أمر نبينا ﷺ أن يؤذن بلال؛ ولأنه أندى صوتا من عبد الله بن زيد، فدل ذلك على وجوب تكليف كل فيما يصلح له، وهذا من فطنة إدارة الدولة.

إن تبليغ عبد الله بن زيد قرار نبينا ﷺ أن يؤذن بلال، رغم أنه هو الذي رأى رؤيا الأذان؛ برهان على أن هذا الجيل كان سامقا لا يحب أن يرى مكانه.

وقع قرار تأذين بلال في قلب عبد الله بن زيد موقعا سلسا، سهلا، ميسورا، ولأن مسلما ليس يهمه إن كان في الساقة أو في المقدمة، فكل يؤدي دورا منوطا به.

كان نظر صحابة نبينا ﷺ إلى قرارته أنها تصب في مصلحة الأمة العليا؛ ومنه أخذوها فأجروها؛ ولأن كلا على ثغر، وجب ألا يؤتى الإسلام من قبله.

إن موافقة رؤيا الأذان لدى كل من عبد الله والفاروق دالة على أن هذه الأمة على أتقى قلب رجل واحد، وأنه كان يهمها مسائل الإسلام العليا.

زاد بلال في نداء صلاة الغداة، الصلاة خير من النوم مرتين، فأقرها نبينا ﷺ. وهذا برهان أن القائد يفتح باب الاجتهاد، ولطالما كان على عينه وحراسته.

كان قول بلال: الصلاة خير من النوم، اجتهادا منه أقره نبينا ﷺ؛ ولأن كل فرد بداخله مواهب شتى، لا تحرمها الدولة الفتية.

الأمة الفتية العصية هي تلك الأمة التي تطلق عنان الاجتهاد في مسائل الناس العليا، ولتقف على رأي، ربما غاب عن قامة فيها، ولطالما كان محدودا بالشرع.

إن غلق باب الاجتهاد معناه تكميم أفواه مبادرة لخير الأمة ورفعتها.

إن تطلب نبينا ﷺ لاستشارة أصحابه كان منهجا حميدا، وسبيلا مجيدا، وطريقا فريدا، أفرز تلميذا له قال يوما: أصابت امرأة، وأخطأ عمر!

حين أخبر الفاروق نبينا ﷺ برؤيا الأذان، قال ﷺ: قد سبقك بذلك الوحي. وهذا برهان أن السماء تقف إلى جانبه ﷺ، فلا تتركه في معامع المسائل، إلا بهدي ليكون على نور من ربه.

إن اتفاقا حدث بين رؤيا صحابيين ووحي نزل به في شأن الأذان؛ برهان على أن هذه الأمة أمة مرحومة، ولا تجتمع على ضلالة؛ ولأنها كالمطر لا يُدرَى أوله خير من آخره.

إن اهتماما كان بالأذان، نعرفه من انشغال أصحابه ﷺ به؛ دلالة أنهم رأوه في منامهم، وبرهان على أن أمتنا يهمها كبار المسائل وعظائمها، لا صغائر الأمور وسفسافها.

قالت امرأة من بني النجار: كان بيتي من أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة. وفيه فضيلة الأذان من فوق مكان عال، ولما أمكن إسماعه وانتشاره وذيوعه.

قالت امرأة من بني النجار: كان بيتي من أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة. وفيه فضيلة المداومة على فعل الخير.

كان بلال كلما أراد الأذان قال: اللهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك. وفيه فضيلة حرص المسلم على هداية الناس.

وفيه فضيلة تقديم الثناء على الله تعالى عند دعاء العبد.

وفيه الاهتمام بقريش فإنهم آل نبينا ﷺ ولهم قيمة عند العرب.

إن مداومة بلال على دعائه تعالى أن يهدي قريشا؛ برهان على أن صلة المسلم بالناس قائمة على مدى حبه الخير لهم، وإن تباعدت بهم الديار! ومنه حديث: لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. [١].

وهذا برهان على نقاء سريرة بلال، كان من موجبها رفرفة جناحيه آفاق الخير كله.

---

(١) صحيح البخاري: ١٣

كان بلال حبشيا، وسكن مكة، وهاجر إلى المدينة، واستقر بها. وهذا برهان على أن الأرض لله تعالى، وماهي إلا قيود، وما هي إلا حدود حسنت إزالتها.

كان الأذان ولا زال شعيرة من شعائر الله تعالى، ولذا أخذ هذا الحظ الوافر من البحث عن سبيل لإخراجه في أنقى صورة.

إن نظرة أولية لأذاننا، لتجده معبرا أوسع ما عبر عن عقيدة التوحيد، وتعبيرا آخر عن مدى أهمية هذه العقيدة، وحين لا تصفو إلا لله.

بدأ الاذان بتكبير أشبه بانقطاع العالم كله، إلا عن حقيقة واحدة، تسري في الوجدان كله، وحين قولنا: الله أكبر مرتين! وليكون التوحيد قائدها.

إن ربطا جميلا بين أذاننا، وكشعيرة على التوحيد، وبين الصلاة، وكونها ركنه الثاني؛ ليظل الشعور والإمداد بروح الإسلام، عالية في الوجدان أبدا.

إننا في هذا الدين تغمرنا عزة بالغة ما بلغت، وحين جرى في عروقنا جميعا أن الله تعالى أكبر، ومنه فلا شيء يزاحم تكبيرا عاهدنا ربنا عليه.

إن التكبير وكأول لفظ في الأذان موجب أنك أمام اختبار عملي يبين منه مدى إعظامك لرب كان هو الأكبر، وكان هو الأعظم دينا، ومحبة، وتنزيها.

بدأ أذاننا بتكبير، وانتهى بتوحيد؛ دلالة على ما بينهما من رباط وثيق، أحكمه منزله، بميثاق التوحيد، والعقيدة الصافية النقية فيه تعالى أبدا.

حين التأمل في كلمات الأذان كلمة كلمة، وإنه لتأخذك هالة من إخبات، لرب كان من اختياره ذلكم الأذان نداء لصلاتنا، وتعبيرا عن مدى توحيدنا معا.

إن أذاننا موح أيما إيحاء بأننا أمة مستقلة، وعن سائر الأمم؛ ولأنه تعالى أسماها الأمة الوسط، وكما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إن أذاننا وحده، وعند النظر فيه كان كافيا أن تخر الجباه سجدا لله؛ أن أعزها، وأن أفردها بهذا الأذان، وإذ ليس في الوجود كله ما يقاربه أو يدانيه.

إنه وكما ربط الأذان بين توحيده تعالى وبين الصلاة، لكنه أيضا كان رابطا بينه وبين سائر أركان الدين، وحين كان الله أكبر!

إن ربطا محكما بين توحيدنا لله تعالى وبين إيماننا بنبينا صلى الله عليه وسلم، وأنهما طرفا حبل متصل، لا تنفك عراه بعضها عن بعض أبدا.

إن الذين يقولون في نبينا ﷺ قولا نعيرهم النظر في أذاننا؛ ليحلو لهم ذكره، كما طاب لنا تكراره خمس مرات في يومنا أبدا، وبرهان حب لهذا النبي لا حد له.

إن الذين يعلنون محبتهم لنبينا ﷺ آناء الليل وأطراف النهار، إنما قد استمدوا طاقتهم في ذلك من كونه جاء ممهورا ذكره بذكر ربنا الرحمن شرفا وعلوا وذكرا حسنا.

إننا- معاشر المسلمين- إنما نحب نبينا ﷺ، وإنما قد استمددنا ذلك من تشريف خصه وأحاطه الله به، ولما جعل ذكره مقرونا بذكره، أذاننا وشهادتنا معا.

إنه ليس شرفا ندعيه، بل قائم؛ ولما قلنا إن مبلغ محبة ربنا لنبينا ﷺ بلغت أوجها، وحين قرن الذكرين معا، في واقعة لا ند لها على مدار التاريخ كله.

إنه وقد بلغت محبتنا لنبينا ﷺ على جزء من أعشار محبته تعالى له، وإنما نبع سر ذلك من اقتران ذكرهما معا؛ وليرى العالم كله مدى محبتنا له ﷺ.

إنه وحسن تعبير عن مدى محبتنا لنبينا ﷺ وحين نعقد عزمنا ألا نخالفه، وحين نبرم أمرنا إلا أن نوافقه؛ كيما لا تكون دعوى يعوزها البرهان!

إن محبة غامرة لنبينا، وتلمسناها من جمع غفير حول العالم كله، يعوزها برهان اتباعه، ويكملها دليل نترسم خطوه، خطوة خطوة، وحين ذاك كان صدقا واقعا، لا دعوى يلزمها الدليل.

إن أذاننا كان نداء حانيا للصلاة باسم الفعل حي؛ ولأنه خلا من شدة وحسم وحزم يحملها الفعل صلِّ؛ ولأنه كان حافلا؛ ولما حمل من الاسم مسماه أيضا.

جاء استعمال اسم الفعل (حي) أربع مرات في الأذان؛ ضربا من حنو، وسبيلا من رأفة، وبابا من رحمة، ولَمَّا نتعلم منه كيف نصوغ اللفظ قالبا محمودا!

جاءت كلمات الأذان مكررة، وبحيث لا تلمس من ذلكم تكرار إلا ما أشاعه في فؤادك من عظمة لمنزله، وبحيث تحملك على الطاعة بلا توان؛ رضا وتسليما!

إنه وحين كان النداء حانيا للصلاة؛ ولأنها فلاح، وبحيث كان ذلك سائقا وقائدا ومعينا، وجدت من ذات نفسك له انقيادا وتسليما؛ ولأنه ذاهب بك إلى الفلاح!

إننا حين نستشعر إعجازا، وبأن الصلاة كلها فلاح، بل هي الفلاح نفسه، لنجد أنفسنا بين رضا وتسليم؛ لإجابة داعي الفلاح، وحين قال: حي على الفلاح.

أعلمنا ربنا تعالى أن الصلاة هي الفلاح، وليست سببا له وحسب! ولنعض بها، وكيف لا وقد كانت لنا فلاحا هي بذاتها، لا بسبب خارج عنها أو معها؟!

المبحث السابع والعشرون: سرية حمزة بن عبد المطلب

كانت سرية عقدها نبينا ﷺ في رمضان من السنة الأولى من الهجرة بقيادة عمه حمزة؛ مناوشة ومناورة عسكرية ماهرة ولعقد عزم على استرداد ما اغتصبته قريش من أموال وديار المهاجرين الأمجاد، دلالة على أن هذا الدين ذو حركة دائبة.

إن النظر إلى سرية حمزة بن عبد المطلب عم نبينا ﷺ وهي إذ تتألف من ثلاثين رجلا مسلما، مقابلة بثلاث مائة من قريش، يدرك ولأول وهلة أن هذا الدين لا يعول كثيرا على عدد!

كان عدد المسلمين ثلاثين رجلا مسلما، مواجهة لثلاث مائة من قريش، في سرية قادها حمزة بن عبد المطلب أي معدل واحد إلى عشرة! وهذا هو الأصل في قوم كانت الشهادة تمثل هاجسهم الأول!

إنه ولما كانت سرية قادها حمزة بن عبد المطلب، ومن بيت النبوة؛ برهان على أن بيوت القادة هي أول من يتقدم صفوف تقديم المهج؛ حسبة لله تعالى العلي الأعلى.

إن سرية قادها حمزة عم نبينا ﷺ يشي تقدم القادة الصفوف الأولى؛ ولشحذ همم الهرم كله، ومن قمته إلى قاعدته. وبه ترفع معنويات الأمة بأسرها.

كانت سرية قادها حمزة بن عبد المطلب عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان؛ عنوانا على أن هذا الشهر مبارك؛ دلالة اختياره محلا زمنيا لهذه السرية. مجدا وعلوا ورفعة.

كان شهر رمضان محلا زمانيا لأحداث الإسلام العظام، ومنها سرية حمزة بن عبد المطلب، وقد عقدت ومنها أول غزوة سيرت، وكانت بدرا اسما على مسمى!

إن اجتباء شهر رمضان لأحداث الإسلام العليا رسالة أن هذا الشهر كريم، ولا يناسب كريما أن يقضى بين مسلسل لايرقى أو بين سهاد عميق، وما بينهما.

إن اختيار شهر رمضان لإقامة سوق الغزو والجهاد فأل حسن بهذا الشهر، وأنه تعالى ناصر جنده فيه؛ استدعاء لهمم، وشحذا لقمم، بذلا وعطاء ونفرة.

إن إقامة سوق الغزو والجهاد؛ نصرا لملة أبينا إبراهيم عليه السلام، وفي شهر رمضان، رسالة ألا يُحوّلَ إلى ميدان للتنافس، في مأكل شهيّ، أو مشرب هنيّ!

إن علو همة نتلقى درسها، ولما كانت أحداث الإسلام العظام محلها رمضان، لا موعدا مع صخب هافت، أو إغراق طعام فوق ما يقيم صلبا، كان ضرره أقرب من نفعه.

إن قضاء شهر رمضان على موائد تفطير الصائمين فتنةً، ولأن من فطر صائما فله مثل أجره؛ إقامة صلب، لا تخمة، تحمل مسكينا على ندب حاله أثناء وبعد رمضان!

وحسن وعند إقامة موائد تفطير الصائمين أن تكون مائدة إقامة الصلب وحسبها ذلك!

إن موازنة بين فقه الأولويات هي عمدة فقهنا، وهي أساس ديننا، ولو أن الفاروق كان موجودا لأشار بدرته أعلى رؤوس قوم غرهم ما يفعلون!

كان من فقه نبينا ﷺ إرسال سرية حمزة في ثلاثين رجلا من المهاجرين؛ برهانا أن هؤلاء هم الذين هاجروا، وهاهم يتقدمون الصفوف الأولى نصرا لربهم. انسجاما بين فعلين هما الهجرة وهذا الجهاد المبارك!

كان توفيقا منه تعالى لنبينا ﷺ إنفاذ مهمة سرية حمزة من المهاجرين، ولئلا يقال ها هم قد هاجروا، وقعدوا، وأرسلوا الأنصار خوفا ورعبا!

جاء اختيار المهاجرين لسرية حمزة، برهانا على أن أولاء قوم، وإن هاجروا، إلا أن الشهادة جارية في عروقهم، كما تجري فيها دماؤهم!

كان فقها سديدا منه ﷺ وقوع اختيار المهاجرين لسرية حمزة؛ وخشية أن يصيبهم دعة وفتور، جاء الإسلام أول ما جاء لإجهاض أسبابه.

كان توفيقا منه تعالى لنبينا ﷺ، ألا ترسل سرية حمزة ومن الأنصار؛ لئلا يقع في قلوبهم أن رسولهم يحابي إخوانهم المهاجرين عليهم.

كانت سرية الإسلام بقيادة حمزة، ولعلها من باب مناوشات عسكرية؛ لإفقاد العدو توازنه، حينا من بعد حين آخر، وهذا فقه عسكري نتأسّاه.

كانت سرية الإسلام الأولى بابا من أبواب حرب الاستنزاف، وهذا فقه عسكري أنكى من المواجهة، حين إحسان إدارته.

إن سرية حمزة كانت توطئة؛ لمنازلة عدو الله تعالى وعدو المؤمنين، وحين أخرجوهم من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله.

كان لابد من سرية حمزة؛ وليقف نبينا ﷺ على مدى جاهزية جنده تعالى؛ وليعلم الله الذين صدقوا. وكل كانوا صادقين.

كانت سرية حمزة عنوانا على وقوف النبي القائد ﷺ على مواطن قوة جنده فيقررها، وللوقوف على مواضع ضعفهم فيعالجها.

كانت سرية حمزة عنوانا يحتُّ به النبي ﷺ في عضد العدو مرة من بعد أخرى، حتى إذا جاء موعد النزال كان هباء منثورا، وهذا فن عسكري.

إن درسا نستلهمه، وحين كان إثخانه ﷺ في عدوه، لا منازلة فحسب، وإنما بعث سرايا، حينا من بعد آخر؛ تشتيتا لجهده، وفتا في عضده، وليخار عند أول نزال.

تمثل بعوث السرايا في الإسلام مبدأ عسكريا نستلهمه، وحين يكون الهدف هو تشتيت شمل العدو، فلا يهدأ له بال، وليكون الانقضاض مثخنا أول مرة!

حين نضع سراياه ﷺ نصب أعيننا؛ لنجد إرثا عسكريا نفيده في قضايانا الحيوية؛ فتا في عضد العدو، وتشتيتا لشمله، وحتا في قواه؛ ولينهار قبل النداء!

إنه حين اعترض ثلاثون مهاجريا ثلاثمائة من قريش بعيرهم، ولما لم يكن قتال؛ لوساطة مجدي بن عمرو، فدل على أن الأمر جد لا هزل فيه.

إن الإسلام ليس دينا جامدا، ولأن حمزة قبل وساطة مجدي بن عمرو؛ لكيلا لا تراق دماء كان حفظها دينا، وحين تكفل الحقوق، وحين لا يكون ظلم.

إن مبدأ قبول الوساطة في الحروب؛ ولتسوية المنازعات، كان قد سبق به هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، وحين كانت وساطة مجدي بن عمرو في سرية حمزة، وليعود كل سالما.

إن وساطة قام بها مجدي بن عمرو في سرية حمزة كانت رسالة لقريش، أن حقا ليس يضيع، وحين قد استولوا على أموال الناس قبل مهاجرهم.

إنه كانت لدى قريش فرصة إعادة أموال، قد استولوا عليها حين مهاجر المسلمين، وحينها كان لاقتال يوم بدر، ولربما كان صلحا أبديا، على شرط الحقوق.

إن وساطة قام بها مجدي بن عمرو يوم سرية حمزة، كانت عنوانا على أن هذا الدين سهل لا عسر، وأنه يحفظ لأهل المروءات قدرهم وجهدهم.

كانت سرية حمزة عنوان أمة تعلو بهمم الفتح المبين، ولأن ذلك هو قدرها، وأن رجالها عند قدر ما حملوا به، قدرا مقدورا أيضا.

كانت سلطة تقديرية لحمزة في سريته في قبول وساطة مجدي بن عمرو؛ ولأنه قائد الميدان، وهو أعلم بمصالح الأمة حينئذ، ولأن نبينا ﷺ لم يؤاخذه على فعله هذا.

كان حسن اختيار نبينا ﷺ لحمزة قائدا محنكا، ولما أدار سريته على وجه حسن، كان منه قبول الوساطة؛ لتعود قواته دون قتال. وبهيبة ثلاثين مواجهة ثلاث مائة!

ودلك على صحة مذهبنا هذا ما رواه الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن رسول الله ﷺ عقد في هذه السنة في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره لحمزة بن عبد المطلب لواء أبيض في ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترض لعيرات قريش وأن حمزة لقى أبا جهل في ثلاثمائة رجل فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني فافترقوا ولم يكن بينهم قتال وكان الذي يحمل لواء حمزة أبو مرثد. [١].

---

(١) تاريخ الطبري: ٢ /١٢٠

مصادر الجزء الأول مرتبة حسب ورودها في الكتاب

١- سيرة ابن إسحاق، ابن إسحاق.
٢- تاريخ الطبري، الطبري.
٣- فقه السيرة الألباني.
٤- السيرة النبوية ابن هشام الحميري.
٥- السيرة النبوية، ابن كثير.
٦- زاد المعاد، ابن القيم الجوزية.
٧- الرحيق المختوم، المباركفوري.
٨- مجموع الفتاوى، ابن تيمية.
٩- صحيح البخاري.
١٠- تفسير القرطبي، القرطبي.
١١- تفسير ابن كثير، ابن كثير.
١٢- الدر المنثور، جلال الدين السيوطي.
١٣- تفسير الثعلبي، الثعلبي.
١٤- ضعيف الترمذي، الألباني.
١٥- صحيح مسلم.
١٦- شرح معاني الآثار، الطحاوي.
١٧- لسان العرب، ابن منظور.
١٨- مسند أحمد.
١٩- عمدة القاري، العيني.
٢٠- أوجز المسالك إلى موطأ مالك، محمد زكريا الكاندهلوي.
٢١- مجمع الزوائد، الهيثمي.
٢٢- البداية والنهاية، ابن كثير.
٢٣- صحيح الترمذي، الألباني.
٢٤- صحيح ابن ماجه، الألباني.
٢٥- السلسلة الصحيحة، الألباني.
٢٦- الصحيح المسند، الوادعي.
٢٧- أخبار القضاة، محمد بن خلف بن حيان.
٢٨- المعجم الكبير، الطبراني.

٢٩- الكامل في التاريخ، ابن الأثير.
٣٠- سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي.
٣١- كتاب بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، عبد المجيد الزنداني.
٣٢- تخريج سنن الدارقطني، شعيب الأرناؤوط.
٣٣- المعجم الوسيط.
٣٤- صحيح الجامع، الألباني.
٣٥- صحيح الموارد، الألباني.
٣٦- صحيح أبي داود، الألباني.
٣٧- الاقتراح، ابن دقيق العيد.
٣٨- تخريج مشكاة المصابيح، الألباني.
٣٩- مكارم الأخلاق، ابن أبي الدنيا.
٤٠- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني.
٤١- الزواجر، الهيتمي المكي.
٤٢- سير أعلام النبلاء، الذهبي.
٤٣- نزهة النظر شرح نخبة الفكر، أبي الفضل أحمد بن علي/ابن حجر العسقلاني.
٤٤- معجم اللغة العربية المعاصرة.
٤٥- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير.
٤٦- كتاب المقاصد الحسنة، السخاوي.
٤٧- كتاب غريب الحديث للخطابي.
٤٨- معجم البلدان، الحموي.
٤٩- تاج العروس، الزبيدي.
٥٠- تجارب الأمم، أبو علي مسكويه.
٥١- الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ابن الصباغ.
٥٢- دلائل النبوة للبيهقي.
٥٣- العهد القديم.
٥٤- إمتاع الأسماع، المقريزي.
٥٥- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد.
٥٦- عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن عبد الله بن يحي ابن سيد الناس.
٥٧- المستدرك، الحاكم النيسابوري.

٥٨- سنن الترمذي.
٥٩- ضعيف الجامع، الألباني.
٦٠- كتاب دورة تدريبية في مصطلح الحديث، حسن أبو الأشبال الزهيري.
٦١- صحيح دلائل النبوة، الوادعي.
٦٢- عمدة التفسير، أحمد شاكر.
٦٣- العلل المتناهية، ابن الجوزي.
٦٤- سنن سعيد بن منصور.

الفهرس